من أسرار الإيقاع في الشعر العربي *

د. تامر سلوم يوسف سلوم
أستاذ النقد الأدبي والبلاغة بجامعة دمشق

- ١ -

إن البحث في أسرار الإيقاع ليس في حقيقته إلا بحثاً عن أسرار المعنى وطرائق تقديمه وتشكيله ، فإذا كان المعنى الشعري معنى مغلقاً بمعنى أنه نص مبهم لا نقدر أن نؤطره فإن الإيقاع دخيل في هذا المبهم المغلق المجهول . إنه مجموعة متناقضات . وحدات زمنية مفاجئة ألحان غير متوقعة تقودنا إلى المجهول ، لذلك يقتضي تذوقها أن نتخلص أولاً من المعلوم من قوانين الإيقاع ومفهوماته ، من طرقه التعبيرية الثابتة ، وأن نتذوقها بشكل مداور : بالصورة والرمز والايحاء والإشارة .

والمسألة في الايقاع هي الوصول إلى المجهول عبر تعطيل الحواس كلها ، فحين نبطل فعل الحواس نبطل ما يفصلنا عن أسرار الإيقاع أو أسرار المعنى :

* يحسن التنبيه إلى معنى الرموز الواردة في هذا البحث ، حيث رمز للمقطع القصير بـ (ب) وللمقطع الطويل بـ (-) وللمزدوجة بـ (ب -) وللارتكاز الأساسي أو القوي بـ (١١) وللارتكاز الثانوي أو الضعيف بـ (١) وللنبر اللغوي بـ (×) .

يقول مهيار الديلمي :

نشدتك يا بانة الأجرع متى رفع الحيَ من (لعلع)
وهل مرّ قلبي في التابعيـ ـن أم خار ضعفاً فلم يتبَع ؟
وسرنا جميعاً وراء الحمول ولكن رجعتُ ولم يرجِع
فأنّته لك بين القلوب إذا اشتبهت أنّة الموجع
وشكوى تدلّ على سقمه فإن أنت لم تبصري فاسمعي
وأبرح من فقده أنني أظن الأراكة عني تعي
رأى قلقي تحت أرواقه فدلّ الخيال على مضجعي
أبغداد حُلت فما أنت لي بدار مصيف ولا مربع
إلى كم يزخرَفُ لي جانباك خداعاً ولو شئت لم أخدع
وما أنا إلا وميض السراب على صفحة البلد البلقع
وما لي أقمح ملح المياه إذا كنت أشرب من أدمعي ؟!

لماذا لا تنتصر رغبة الفرد وتحطم جميع الحواجز التي تحده . هذا ما يريد أن يقوله مهيار أو يتساءل عنه فاتحاً هاوية بينه وبين القريب أو المعلوم . هكذا تنفتح الطريق التي تقود إلى الانعكاس على الذات وتلمس أوجاعها وآلامها . وفي هذا المناخ تولد دموع مهيار الجديدة الكونية التي يجب أن يعاد ابتكارها . بدموع المحبة يمكن تغيير الحياة ، وبآلامها تصبح النفوس أكثر شفافية وأكثر قدرة على أن تنفذ الواحدة إلى الأخرى .

وهكذا رفض مهيار بشدة أن يكون الربع خالياً أو موحشاً أو مقفراً . فليس فيه شيء صامت ، بل الكل ناطق أو شاك أو باك . فالحب متجل على الدوام ، أشياؤه لا تحد ولا تنحصر . له الاستمرار دائماً . لا تقيد تجليه عوامل البلى أو الرحيل . وفي هذا ما يفسر حركة قلب مهيار الذي يتقلب في أشكال لا تنتهي هي أيضاً . وفي هذا ما يفسر أيضاً رفضه بشدة القطيعة مع أحبائه الراحلين فظل قلبه معهم يتبعهم أو يسير معهم أنى اتجهوا ترتسم حدوده المتحركة وأناته الموجعة في أعماق المجهول والسفر

الدائم ، فقلب مهيار واسع يسع المجهول المطلق وهو يسع لحظة الاشكال التي يتحلى فيها السفر الدائم باتجاه المجهول أو المطلق .

والإيقاع الشعري محاولة لتحقيق ما يستحيل تحقيقه عادياً . فإذا كانت دموع مهيار لا تنقطع ، وأنات قلبه الموجعة لا تنقطع ، وتجليات الحب لا تنقطع ولا تكرر ذاتها ، الأول ليست هي نفسها الوحدات الإيقاعية (التفعيلات) التي نراها في البيت الثاني . والإيقاع الذي سنراه في الوحدات اللاحقة سيكون هو أيضاً غير ما رأيناه . ليست هناك وحدات إيقاعية ثابتة . الإيقاع تحول دائم ، وشأن المعنى في هذا شأن الإيقاع وشأن الصياغة كلها . حقاً لاشيء يتكرر مرتين . فالإيقاع والمعنى يتبدلان مع الانفاس ، وحركة القلب .

فالوحدة الإيقاعية : علن (ب -) التي يخلقها مهيار في عروض البيت الأول والثاني والخامس والسادس والسابع والثامن . وفي جميع الوحدات الأخيرة (الضرب) تثير التأمل في تمثل أحلام مهيار ومخاوفه وآماله . وهي تعبّر عن رغبة لا شعورية في إعادة الحياة إلى الربع . وليس تكرار هذه الوحدة الإيقاعية التي تأخذ صفة الإلحاح المستمر على عقل مهيار إلا تأكيداً على حضور الأحبة الدائم في دموع مهيار وأناته الموجعة .

إن ظاهر التشكلات الإيقاعية يوحي أن مهياراً ينتقل من الوحدة (ب - -) إلى الوحدة (ب -) بإسقاط المقطع الطويل (-) ، ولكن لكل ظاهر باطناً ذلك أن الوحدة الإيقاعية الجديدة التي يخلقها مهيار عالم يتداخل فيه قلبه الضعيف وأناته الموجعة وشكواه المبرحة ، وقلقه الابدي ، ودموعه التي يشربها ، وهذا السراب الخادع الذي يتراءى له .

هذه الصور متقاربة الدلالة يكمل بعضها بعضاً وتنتمي إلى نظام إيقاعي واحد . كلها تتعاون على خلق إحساس واحد . فالوحدات الإيقاعية يصنع أولها ثانيها ، وثالثها رابعها .. إلخ . تتغير صورها حقاً ولكن مبدأها لايزال باقياً وجذوتها ما تزال مشتعلة . هذه الفكرة تغير مفهوم إسقاط المقطع الطويل (-) من الوحدة (التفعيلية) الأخيرة (الضرب) فإسقاط المقطع الطويل (-) لا يهدم الإيقاع . فالزمن الموسيقي للوحدة يمكن أن يظل ثابتاً . ووظيفة الوحدة الإيقاعية (ب -) في

هذه الحال وظيفة إيجابية . فهي دعوة غامضة إلى تغيير النظر إلى الإيقاع أو دعوة إلى مبدأ استمرار الإيقاع من حيث هو نشاط وفاعلية .

أنة مهيار الموجعة ، وإحساسه بالنفي الابدي في خدمة الإيقاع لكي يستمر البكاء متجددا لا يجف . والاحساس بالفجيعة والخيبة مستمرا لايزول .

وكذلك الإيقاع لا يزول . الإيقاع زمن ذو طابع متناقض يقف مهيار أمامه عاجزاً قلقاً هارباً باكياً ، لا يشرب إلا من دموعه ، لكنه من جهة أخرى تشكيل خلاق ومن الممكن أن يتصور ما فيه من طاقة وإبداع . وقد حرص مهيار على إبراز هذه الطاقة في أشكال متنوعة ومن ثم بدا إسقاط المقطع الطويل (-) من الوحدة الإيقاعية الأخيرة جانباً جوهرياً من عملية تطور إبداعي . فهي تعبير عن استمرار القلق والبكاء والخيبة والضياع وإحالة الاحساس الدائم بها إلى رموز باقية . وما يبدو إذن من إسقاط المقطع الطويل (-) في الوحدات الزمنية التي أشرنا إليها ضروري من أجل السيطرة على تيار الاحساس المتصل وهو أدل الأشياء على أن مهياراً الشاعر يستطيع أن يتصور فكرة الايقاع كرمز تزول فيها بعض المقاطع الإيقاعية من أجل الرموز الباقية أو المرامي البعيدة . ذلك الذي تومئ إليه فكرة إسقاط المقطع الطويل (-) الوحدة الإيقاعية ، كل وحدة ، سلسلة من الإيقاعات المؤقتة ، سلسلة من لحظات النفي الابدي والقلق الابدي ، فكل وحدة تتشكل لكي تزول ولكي تنشأ من جديد . النفي والقلق يتحددان كل لحظة . وبهذا المعنى يقال عن الإيقاع . إنه متغير ودائم في آن دائمي التغير . تغيري الدوام .

في هذا الضوء أخذ مهيار يتوجه نحو (بغداد) ويحاورها عبر تجربة النفي الابدي التي يعيشها . صار الحديث حواراً مباشراً بين مهيار وبغداد يصغي إليها ويستشرفها ويتلمس سرابها الخادع في وجدانه يتحسسه ويتحد معه وينطق بلسانه :

وما أنا إلا وميض السراب على صفحة البلد البلقع

السراب الخادع معاينة . إنه الحضور لا المضي ، والآن لا الأمس ، والذات لا الجماعة ولا المؤسسة .

وفي ذلك ينبثق الإيقاع من تساؤل مهيار وبكائه وقلقه وتشرده . وليس من معرفة

ماضيـة أو من تتابع مقطعي محدد أو تشكل إيقاعي ثابت . فهذه المعرفة التي تمت ماضياً أو تأسست وفقاً لقوانين مسبقة معلومة لم تعد قادرة على أن تستجيب لهذا الحضور ، فهي عامة وما يقتضيه تساؤل مهيار وبكاؤه وتشرده يتمثل في قراءة تجربته وفي زمنيتها المتميزة . زمن الضياع الابدي والقلق الابدي ، والنفي الابدي ، والسراب الابدي .

وفي هذا الضوء نفهم الوحدة الايقاعية (ب -) التي يخلقها مهيار ، وكيف أن زمنها هو زمن هذا السراب الابدي الخادع ، وهذا النفي الابدي ، أو أن هذه الوحدة الإيقاعية لا تنفصل بحال من الاحوال عن تشرد مهيار وضياعه وقلقه ودموعه التي يشربها .

وفي وقوع النبر اللغوي دائماً على المقطع القصير (ب) من الوحدة الأخيرة (ب-) عنصر هام حقاً من هذا الاحساس الاليم الذي يخضع له مهيار أو يعاني منه . ففيه يغني صوت مهيار الشاحب الضعيف في هذه الوحدة الايقاعية ويكون وجود أحدهما هو نفسه وجود الآخر .

وبعبارة ثانية إن النبر اللغوي الذي يقترن بالمقطع القصير (ب) يتيح خلق الاحساس الاليم الذي يتشكل في لا شعورنا كل ثانية ولا ندركه . وهذا مما يوجب علينا أن نتحرر من الزمن الموسيقي القريب ومن علاقات التتابع المقطعي على السواء ، لكي نحسن أن نفهم أنفسنا . فالنبر اللغوي وظيفة للقلق الأبدي والنفي الابدي الذي يعيشه مهيار ، وهو يقتضي أن يتذوق دون الخضوع لأية قاعدة مسبقة . إنه يتيح أن نستعيد أنات قلب مهيار الموجعة ، وشكواه المبرحة ، وطاقات خياله الضائعة ، وهو ، إذن الوسيلة الأكثر فاعلية في استكشاف اللاشعور أو اكتشاف الذات .

ثم إن توافق النبر اللغوي والارتكاز الشعري في وقوعهما على مواطن تلفت الانتباه بحق

x x x x x x x x

(|| || || || || || || ||)

(خار ، ضعفا ، شكوى ، خداعا ، وميض ، السراب ، ملح ، المياه) .

توفر لمهيار الوصول إلى حقيقته الداخلية ، وكأنه حياته النفسية ، أو كأن شيئاً ما عظيماً وغامضاً يحاول بإلحاح أن يفصح بهذا التوافق عن ذاته عبر طاقاته الضائعة .

هذه الطاقة التي يوفرها الإيقاع تمكن من قراءة النصوص قراءة جديدة ، واللاشعور هو الذي يمليها . والايحاء والرمز أحد الأسس في الجمالية الإيقاعية ، ذلك أنه لقاء مع المجهول ، مع غنى العالم والكائن وهو يفتح الطريق إلى جميع المكنات بفضل لا محدوديته ولا نهائيته . هكذا يبني الإيقاع رؤيتنا العميقة للنصوص . وعلاقاتنا بالبناء الإيقاعي يفتح لنا آفاقاً أخرى على ذواتنا . هكذا يتحول الإيقاع إلى وحي .

ولا يمكن أن نغض النظر عن العلاقة بين الإيقاع وبين هذا النداء المتكرر : (نشدتك يا بانة الاجرع - أبغداد) أو بينه وبين هذا الاستفهام المتكرر : (متى رفع الحي من لعلع ؟ وهل مر قلبي في التابعين أم خار ضعفاً فلم يتبع ؟ إلى كم يزخرف لي جانباك خداعاً ؟ ومالي أقمح ملح المياه ؟) فالشاعر ينتقل من صيغة نداء إلى صيغة نداء ، ومن صيغة استفهام إلى صيغة استفهام أخرى . لأنه يواجه في إصرار الشعور بالعزلة ، وقد يختلط في نفس مهيار بحزن عميق أقرب إلى الحزن المشرق الذي يعقم فكرة البكاء ويصفي دموعه التي يشربها .

كذلك نلاحظ أن الاستفهام في هذا المقام هو حركة القلب الضعيف وأنته الموجعة ، أو هو هذا الوجد الذي برح به حتى ظن المحال فتوهم لفرط حبه أن الاراكة عنه تعي ، أو هذه الصبابة التي ألحت عليه والقلق الذي كان دليلاً للخيال على مضجعه .

وفي هذا الضوء تصبح مسألة الاستفهام والنداء مظهر التحول الذي أصاب الوحدات الإيقاعية ، ولكن رؤية هذا التحول من أخفى الاشياء وأكثرها تعقيداً . ومن أجل ذلك تصبح الصياغة منبت الإيقاع . الصياغة أو طريقة التشكيل هي النبع الثري الذي ولد الإيقاع . والإيقاع معنى بعيد لا يراه المرء .

أبعاده أو دلالاته مخبأة خلف الصياغة والوحدات الزمنية ولكن القارئ المدقق يبحث عن هذه الدلالات البعيدة المحفوفة بشيء غير قليل من التأول والغموض .

وفي هذا الإطار قد نفهم (التناقض) الذي يوجه الإيقاع ويحدد معالمه . وهو تناقض في اتساع دائم وتنحصر قوته في كونه يكشف لنا عن مكان آخر ، عن

اللامعقول ، أو عما لا يقال ، أو يجعلنا نتواصل مع ما لا يقال ، مع ما لا يوصف :

فالتناقض من قول مهيار :

هـل مرَّ قلبي فـي التابعيـ ـن أم خار ضعفاً فلم يتبَع ؟
أنتـه لـك بين القلـوب إذا اشتبهـت أنه الموجـع
إن أنـت لـم تبصـري فاسمعـي
إلى كم يزخرف لي جانباك خداعاً ولـو شئـت لم أخـدع
ومالـي أقمـح الميـاه إذا كنت أشرب من أدمعي

هذا التناقض دخول في عتمة العالم ، أو هو نوع من التيه لكنه التيه الذي يضيئه الحدس والقلب ، فمهيار يتفهم الكون ويحتضنه بحدسه ، وهو متداخل بذاته يعيشه ويحققه . يحقق الحياة الغائبة فيه .

وفي هذا الافق يتغير مفهوم الإيقاع ، ويأخذ شكل التناقض ، يتجاوز المظهر المصور بالتتابع المقطعي أو الوحدات الإيقاعية (التفعيلات) التي تنتظم في سياق معين يسمى (بحراً) لكي يشمل باطنها . صار الإيقاع بالإضافة إلى أنه كيان موسيقي - وزني مرئي أو محدود ، أبعاداً وعلاقات غير مرئية تتولد : تناقض متعدد أو مجاز متعدد .

والمسألة الأساس ، هي كيف نعرف أو ندرك العلاقة بين (التناقض) والايقاع ؟

كيف نرى هذه العلاقة ؟ أو بأية أداة نراها ؟

لا بالحاسة ، ولا بالعقل . تجربة مهيار إنما نراها بما نسميه عين القلب أو بالحدس ، أعني بنوع آخر من التجلي المعرفي يتطابق مع الباطن اللامرئي ، كأنما علينا أن نمحو الوحدات الإيقاعية الظاهرة ، وأن نهدم تتابعها المنتظم (البحر) لكي نحسن أن نثبت باطنها أو نرى ما وراءها . اللامرئي هو أن نعرف دخيلاء الوحدات الإيقاعية ودخيلاء تتابعها المنتظم .

إن ما نراه من وحدات إيقاعية أو من مكونات صوتية أو تتابعات مقطعية ، كيان لا ثبات له ، يعيش في حركة متواصلة من التناقضات في حركة متواصلة من التفتت

والغياب ، لابد إذن من أجل معرفة صحيحة أن نخترق الوحدات الإيقاعية إلى ما وراءها ، إلى نواها العميقة حيث تنفجر حركة الإيقاع وتكمن طاقته الخلاقة . وليس هذا التناقض إلا تجلياً وصوراً لهذه النوى . والشاعر يهبط أو يصعد إلى هذه التناقضات أو هذه النوى ويضع محاولته في تتابع مقطعي منتظم ، أو وحدة إيقاعية ، أو تشكل إيقاعي أو مجاز أو شكل أو صورة .

ولا تتم هذه المحاولة إلا بانفعال غامر يمحو معه مهيار ذاته حتى الفناء ، هكذا لا يقول مهيار معنى الوحدات الإيقاعية (نواتها ، لا نهائيتها) وإنما يقول تجربته . التناقض الذي يخضع له ، وانخطافه بالمعنى - بالقلق الابدي وبالتشرد الابدي - ولا نهايته . وبالسراب الخادع الذي يظل في حركة دائمة من الولادة والتجدد .

ومن هنا نفهم أن (مهياراً) لا ينطق من مسبق . سواء أكان إيقاعاً أو شيئاً أو فكرة ، فمهيار نفسه يخلق الإيقاع والأفكار عبر التحولات التي يعيشها في هذه الرحلة المضيئة في أعماق النفس الإنسانية التي تقوده على طريق ما لا ينتهي ، طريق المعنى .

- ٢ -

ونستطيع أن ننتقل إلى نموذج آخر يقول المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى	عدواً له ما من صداقته بدٌّ
بقلبي وإن لم أروَ منها ملالةٌ	وبي عن غوانيها وإن وصلت صدٌّ
خليلاي دون الناس حُزنٌ وعَبرةٌ	على فقد من أحببت ما لهما فقد
تلجَ دموعي بالجفون كأنما	جفوني لعيني كلَّ باكيةٍ خدٌّ

بتحليل الأبيات إلى تتابعها المقطعي نرى أن نموذجها النبري والارتكازي هو التالي:

١) بْ ـاا ن ب ـاا ـ ـا ـاا بْ ـا أ ب ـاا بْ ـا

ب ـاا ـ بْ ـاا ـ ـا ب ـاا بْ ب ـاا ـ ـا!

٢) ب ـاا ـ بْ ـاا ـ أ ب ـاا ـا ب ـاا بْ ـا

بْ ـاا ! ب ـاا ـ ـا بْ ـاا بْ ب ـاا ـ ـا!

٣) ب ـاا ٤ ب ـاا ـ أ ب ـاا ـا ب ـاا بْ ـا

بْ ـاا ـ أ ب ـاا ـ أ ب ـاا بْ ب ـاا ـ ـا!

٤) ب ـاا ب ب ـاا ـ ـا ب ـاا ب ب ـاا بْ ـا

ب ـاا ـ ب ـاا ـ أ ب ـاا بْ ب ـاا ـ ـا!

وقيم هذه الوحدات بحسب نموذجها الارتكازي والنبري هو :

س ب	س ب –	س ب	س ب –
٢	٣	٢	٣

(وهي قيم الطويل) .

ومع أن (ب – –) قد تحولت إلى (ب – ب) و (ب – – –) قد تحولت إلى (ب – ب –) فـإن ذلك لم يهـدم الإيقـاع لأن الكم الزمني لكل من (ب – –) و (ب – ب) هو زمنان موسيقيان . والكم الزمني لكل من (ب – – –) و (ب – ب –) هو ثلاثة أزمنة موسيقية . ومرد ذلك إلى حركية الارتكاز الشعري والنبر اللغوي اللذين يتوزعان على نهايات مد صوتية حيناً ، أو باتجاه أفقي متموج حيناً آخر، أو إلى الصوت الذي يدخل في تشكل النوى الزمنية الفاعلة .

أو البناء المقطعي الفاعل (جهر – همس – شدة – رخاوة ، لين – صفير – تكرار . . . إلخ) أو إلى عمليات التعويض التي تقوم بها أثناء الانشاد . وكل ذلك عناصر إيقاعية أساسية تسهم في إغناء البنية الإيقاعية وتؤكد بطريقة ما أن تقصير مقطع طويل هو في عمل الفنان الخلاق زيادة لا نقص .

وهناك عناصر إيقاعية خليقة أن تكون موضع اهتمام القارئ وبخاصة التناقض أو التضاد الذي يتردد بوضوح في أبيات المتنبي . ومن حق هذا التردد أن يكون له معنى ، ولو كان غامضاً . وبعبارة ثانية إن أسئلة كثيرة تشحذ الذهن في مجال الإبقاع . كيف ألحّ المتنبي على فكرة التضاد ؟ كيف كانت فكرة التضاد في الإيقاع ذات أهمية خاصة ؟ أليس دوران فكرة التضاد في الذهن أو تداعيها دليلاً على أن لها علاقة بتشكيل الإيقاع وتوجيهه . أليست هذه العلاقة مصدر الانتباه إلى ما نزعمه من تساوي الأزمان الموسيقية في الوحدات المتناظرة ؟ ومادام التضاد قفز إلى ذهن المتنبي واسترجعه في أبياته غير مرة فلا بد أن يكون له مغزى . ولابد أن يبحث هذا المغزى في ضوء التحولات الإيقاعية التي خلقها المتنبي أو اتخذها رموزاً لمعانيه . وهذه الناحية مهمة في منهج الدراسة ، فالصورة التي تعلق بذهن الشاعر يعنيه أمرها بوجه من الوجوه ، وهي تشير - بطريقة ما - إلى أهدافه أو مخاوفه .

ومن الممكن أن نقول إننا نواجه في أبيات المتنبي إيقاعاً أبعد من المؤثرات الصوتية على أهميتها . إيقاعاً يضعه المتنبي في مدار جديد ليصبح من عناصر لهجته . الإيقاع العميق والرئيس - في هذه الأبيات - هو إيقاع الحزن الصدبق الذي ترسم حدوده علاقات (التضاد أو التناقض) . فالكلمة تحرض الكلمة ، والصورة تحرض الصورة ، وبموجب علاقة (التضاد) هذه لا يعود كل منها إلا تجلياً للآخر ، يعني ذلك أن الإيقاع لغة كل شيء فيها يبدو رمزاً ، كل شيء فيها هو ذاته وشيء آخر ، فالكلمات والصور متباينة متماهية ، مؤتلفة مختلفة ، تولد وتنمو ، تذهب وتجيء ، تخمد وتلتهب .

أتناول من صور الأبيات ، مثلاً :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدواً له ما من صداقته بد

وأشير إلى تناقض العدو ، وصداقة الحر له تناقضات عديدة ، العدو تعبير عن البعد الآخر ، عن الضوء الآخر . وحين تتعمق في نفسك تكتشف أنك أمام إضافة لكنها غير مألوفة ، غرابة تضيف إلى النفس بعداً لم يكن معروفاً من قبل ، وسرعان ما تدخلها في مفترق : بين جاذبية تشدها إلى الصديق - العادة - وجاذبية تخرق العادة

وتشدك إلى الغرابة (العدو) إلى الحزن الصديق ، وكل غرابة محيرة ، وقد تكون متعبة ، غير أن الصداقة المألوفة حجر يلقي في ينبوع حياتك ، والعداوة عمق يضاف إلى هذا الينبوع .

صداقة العدو علامة على التغير ، وهي تتكون في حركة إبداع تهدم حدود الصداقة المألوفة إلى صداقة غير محددة وغير نهائية ، في العلاقة بين هذين الحدين تصبح صداقة العدو عزاء الصداقة المفقودة وحنينها . وتصبح الصداقة المألوفة مستقبل العداوة ، رعبها وموتها ، هكذا يبني المتنبي الاحتمال ويهدمه ليبنيه ويهدمه . هكذا تفرغ كل كلمة من شحنتها القديمة ، وتنسل من نسيجها القديم لتملأ بشحنة جديدة ولتخاط في نسيج جديد ، لتصبح لغة ثانية لا عهد لنا بها ، هكذا يهبط المتنبي إلى جذور اللغة يفجر طاقاتها الكامنة التي لا تنتهي في إيقاعات لا تنتهي . الكلمة غيرها في معجم العادة ، تغيرت وتغيرت علاقاتها بما قبلها وبما بعدها ، وتغيرت دلالاتها : إنها صارت لغة جديدة .

التناقض بين العداوة وصداقتها هو ما يشكل النفس الفاجع في وجدان المتنبي . هذا التناقض شهادة على الحياة لا معها ، وإذ يشكك المتنبي في أن الحياة لا تستحق تعب الإنسان من أجلها ، فإن شكه يتضمن الرغبة في تخليصها من التناقض وكيف يزول التناقض - أي هل يمكن محو الألم - ؟ كيف يمكن الاستمرار في حياة لا تختلج إلا بكل ما يناقض الحياة ؟ ربما بالنسبة لمن تشبث بظاهر العالم ، ويبقى على دروب الدنيا القريبة المباشرة . غير أن المتنبي يتغلغل في دروب بعيدة مجهولة . يعيش في قرارة العالم وعمقه ، وصداقة العدو هو صعود العمق والبعيد والمجهول لكي يصير شكلاً على الأرض . هو تجسيد الحياة الغائبة التي يصعب تحقيقها ، الحياة التي تظل حلماً بعيد المنال .

لابد إذن من الهبوط إلى القرار والعمق ، لابد من صداقة العدو . صداقة العدو هنا ضرورة وجود ، حتى لكأن حياة المتنبي وصلت إلى حد لم يعد بإمكانها أن تتجاوز العدو أو حتى لكأن حياته قد انتهت ، وبصداقة العدو تنتقل إلى الفعل من جديد ، تنتقل من النهاية إلى اللانهاية .

مثل ذلك الصورة في البيت الثاني :

بقلبي وإن لم أروَ منها ملالة   وبي عن غوانيها وإن وصلت صدّ

يقوم الصراع الداخلي بين :

- الملل من الدنيا / والظمأ إليها .
- وصل الغوالي / والصد عنها .

والمتنبي من خلال هذا التناقض أو التضاد يصور حنينه إلى الغياب إلى المجهول إلى هذا الظمأ والصد . فالظمأ من أجل الحقيقة أو الصد عنها أعمق ما يضيئها . وبه يتحقق ما كان تصوراً ويتجسد ما كان ممكناً ، ويولد الإنسان من ذاته ويدخل في تكوين العالم ، ففي نسيجه الكوني . الحياة الأليفة - التكرار تنقلب إلى ظمأ يروي وإلى صد يصل . لا يعود هناك غير الري والوصل ، غير الولادة المستمرة .

الظمأ والصد هنا مخاض الحياة . ذروة تبدأ بها حياة أجمل وأغنى ، المتنبي يكسر باب السجن (باب الحياة / الملل / التكرار) الذي يتفتت الحر ضمن جدرانه ، ويفتح له أبواب التجدد . هذا الإتجاه إلى الظمأ أو الصد هو ردة فعل ضد يباس الحياة ، وتفجير لأرض العالم المعتمة . الظمأ والصد حياة المتنبي : حرق عتمة الحياة ومزق وصل غوانيها ، وصيرهما (ظمأ) و (صداً) .

الحزن والبكاء مكان الراحة الأخير ، الصديقان الأخيران ، مأوى الحلم . الحزن ينقيه يجعله أكثر صفاء والبكاء يجعله أكثر اتساعاً وعمقاً يخلق بهما عالماً آخر ، فإذا اتخذ المتنبي الحزن والبكاء خليلين أصبح إلى الأبد حاضراً في الكون . إنهما فضاء الكشف . غير أن الحزن والبكاء لا يوصلانه إلا إلى مزيد من الحاجة إليهما ، وهذا مما يدفعه باستمرار إلى أن يجدد صداقته معهما لكي يظل حاضراً أبداً ، متهيئاً لكي يتابع سيره في طريق الكشف . لذلك يبدو الحزن والبكاء مغمورين بما لا يحدد ، وما ينقلانه ليس فيهما بل هو فيما يختبئ وراءهما ، فكأنهما ، بشكل مفارق ، يعبران عما لا يقدران أن يعبرا عنه .

لهذا لا يعرف المتنبي التوقف عند الأبعاد المعروفة وإنما يخلق باستمرار مسافات

جديدة ، مالئاً عينيه بشهوة البعد ، شهوة امتلاك الاعماق والاعالي ، يغسل بدموعه وأحزانه الصديقة ، الكثير من عفن الدروب والأشياء والكلمات ، ومن هنا يعيش المتنبي ويكتب مأخوذاً بالدمع يريد أن يكون نفسه وغيره . أن تكون جفونه خداً لعيني كل باكية ، يريد أن يكون الزمان ، والأبدية ، في آن .

هاجس الدمع هاجس تحول . والتحول يفترض الذروة والهاوية : كل ذروة جزء من الهاوية وامتداد لها . وكل هاوية جزء من الذروة وامتداد لها . والمتنبي كباحث عن هذا التحول يبقى دائماً قبله ولا يستطيع أن يبلغه . ومن هنا هذه الحسرة الخانقة ، وهذه الدموع التي لا تخلو جفونه منها ، حتى لكأن جفونه خد لكل باكية في الدنيا ، إنها حسرة خلاق ودموع نبي ، يسير إلى مستقبل يعرف أنه لن يدركه . كأنما يشير إلى شيء يملكه ، يطلع من عينيه وأعماقه ، إلا أنه يظل بعيداً . ومن هنا يحدث أن يبدو المتنبي غامضاً متناقضاً تتناقض في كلماته ومشاعره القريب والبعيد ، المرئي واللامرئي ، الفرح والحزن ، المعلوم والمجهول ، الهداية والضلال ، الطمأنينة والضياع ، الماء والنار .. حتى ليخيل للكثيرين أن قصائده كأمواج البحر يمحو بعضها بعضها الآخر .

- ٣ -

بهذا الأفق نستطيع أن نقول إن الإيقاع ليس وعاء أو ثوباً ، وليس قشرة أو ناقلاً، ليس شكلاً منتهياً وكاملاً . فالإيقاع لا صيغة نهائية له ، يولد باستمرار ، ويتحدد إلى ما لا نهاية ، يقيم علاقات جديدة بين الإنسان والأشياء ، بين الأشياء والاشياء ، بين الكلمة والكلمة ، هو إشارة ولمح لا ترجمة أو تصوير . هو رمز لا شرح . إنه البحث الذي يظل بحثاً . يقول المتنبي :

وما شرقي بالماء إلا تذكراً	لماء به أهل الحبيب نزول
يحرّمه لمع الاسنّة فوقه	فليس لظمآن إليه وصول
أما في النجوم السائرات وغيرها	لعيني على ضوء الصباح دليل ؟
ألم يرَ هذا الليل عينيك رؤيتي	فتظهر فيه رقة ونحول ؟

إذا قـرأنا هذه الأبيـات في ضـوء تشكلهـا المقطعي . وفي ضـوء توزع (النبـر اللغوي) و (الارتكاز الشعري) على هذه المقاطع :

ب ـاا ب ب ـاا ـ ـا ب ـاا ـا ب ـاا ب ـا
ب ـاا ـا ب ـاا ـا ـا ب ـاا ب ب ـاا ـا
ب ـاا ب ب ـاا ـا ـا ب ـاا ب ب ـاا ب ـا
ب ـاا ب ب ـاا ـا ـا ب ـاا ب ب ـاا ـا
ب ـاا ـا ب ـاا ـ ـا ب ـاا ب ب ـاا ب ـا
ب ـاا ـ ب ـاا ـا ـا ب ـاا ب ب ـاا ـا
ب ـاا ب ب ـاا ـ ـا ب ـاا ـا ب ـاا ب ـا
ب ـاا ب ب ـاا ـ ـا ب ـاا ب ب ـاا ـا

فإننا نلاحظ أن اجتماع الطول - طول المقاطع - والنبر في البيت ($-^{X}$) في كلمات مشحونة داخل سياقها بالاسى والحيرة (مـاء - أهل الحبيب نزول) حالة من اللاكلام تلبس (شرق المتنبي بالماء) في جميع أبعاده وتختزن جميع الإشارات . يقيم المتنبي بينه وبين هذا التشكل الإيقاعي خطوطاً وأشكالاً تتيح له أن يرى الحركة العميقة وراء شرق الماء ، ويضعنا دائماً أمام بعيد مجهول يظل دائماً مهما قرب ، بعيداً مجهولاً ، ثم أن وقوع النبر اللغوي بعد ذلك على أربعة مقاطع طويلة متتالية (وليس - لظمآن - إليـه - وصـول) (ب ـ^{X} ب / ب ـ^{X} ـ / ب ـ^{X} ـ ب / ب ـ^{X} ـ) نمو في رحـيل المتنبي نحـو المجـهـول إلى الحد الأقـصى حـيث تبطل فـاعليـة الكلام ، ويظل يتطلع باستمرار إلى هذا المجهول ، وكلما ظن أنه اقترب به من الري ازداد ظمأ . وفي هذا ما يوضح كيف أن الطريق التي توصل إلى هذا المجهول محفوفة بالعذاب مليئة بالالام . ذلك أنها طريق طويلة ، وكلما خيل إليه أنه وصل يتبين له أنه ، على العكس ، لايزال بعيداً مما يزيد في الظمأ وشدة العطش إلى الوصول ، لكن دون توقف ودون يأس .

وتوافق (النبر اللغوي) و (الارتكاز الشعري) عنصر أساس في توليد المعنى .
ففي هذا التوافق الذي نراه في بعض التشكلات الايقاعية في البيت الثالث :

(النجوم - السائرات - لعيني - الصباح - دليل)

.... ب ـاًا ـا ب ـاًا ب ....

ب ـاًا ـ .... ب ـاًا ب ب ـاًا ـا

جانب شعوري لا نستطيع أن نهمله وإن كان غامضاً . هو أن المتنبي مسكون بالابعد والاغنى ، بالمجهول الذي لا يدرك تماماً ، والذي كلما انكشف منه شيء بدا كأنه يدفعنا إلى مزيد من الكشف . وكأنه يريد من هذا التشكل الإيقاعي أن يذهب إلى الاقاصي ، ومن أجل ذلك يخلق صوراً تحيا في الحلم وعالم اللاوعي ، وتتخطى العالم المألوف إلى ما وراءه حتى لكأن النجوم السائرات وغيرها ، لكأن الكون نوع من التجربة ، كأنه رغبة ذاتية .

وأصوات (المد واللين) عنصر هام في التشكيل الايقاعي . وهذا التشكل يتحدد بأشياء كثيرة منها النغمة المميزة لكل صوت من هذه الأصوات ، وغنى الصوت بالنغمات الثانوية والاحساس الحركي المصاحب للنطق بالصوت ، وكثيراً ما يكون هذا التشكل غامضاً ، وهذا هو عنوان أهميته .

الذي يمكن أن تمنحه هذه المكونات الصوتية وثيق الصلة بنشاط اللغة والمعنى ، وكل اتجاه يرمي إلى إغفال هذا المنحى ينبغي ألا يعد بسهولة جزءاً من حركة المعنى ونشاط الشعر ، ذلك أن المكون الصوتي لا ينفصل بحال عن الإمكانات المتعددة والتقاطعات المستمرة التي ينطوي عليها السياق . وبعبارة ثانية : إن أصوات المد واللين لا يمكن أن تدرك منفصلة عن حدة المعنى وقوته ونشاط السياق وكثافته وتعقيده . فأصوات المد في هذه الأبيات تعدل من البنية الإيقاعية الأخيرة من كل بيت (ب ـ ـ ـــ) لتخلق وحدة إيقاعية جديدة (ب ـ ـ) لا تنفصل عن حزن المتنبي وهمومه البعيدة وآماله النائية .

وفي تردد هذه الوحدة الإيقاعية (ب -اً ا-) كذلك جانب شعوري لا نستطيع أن

نتجاهله هو أن المتنبي كان يحاول أن يرتد إلى أعماقه ، وأن يستشعر على الدوام القرب من هذا المجهول البعيد الذي يتطلع إليه باستمرار ويشير إلى تكرر محاولة الاتصال به ، ويومئ - من وجه ما - إلى كل ما أهم المتنبي وأقلقه وأحزنه ، وكأن هذا التكرار يصور قلق الشاعر المفرط ، كما يصور أيضاً دعوته الملحة لهذا القلق الصديق بالبقاء فلا يزول .

ثم أن التحليل الجمالي (للادغام) ذو مطالب أخرى يجب ألا تهمل . والذي يدرس الإيقاع ، ويجعل التحليل الجمالي همه يجد نفسه مضطراً إلى العناية بأمر الادغام ذلك أن التعمق في قراءته وفهمه يعطي له دلالات ثرية تجعل وجوده هاماً ومفيداً في فهم الايقاع وفي توضيح أمور الشعر الصعبة . فالادغام من قول المتنبي (تذكراً ، يحرمه ، الاسنة) غامض صعب ، ولا يمكن أن يبحث بمعزل عن التشكل الايقاعي الذي يخلقه ، وحينما نقرأ (تذكراً - يحرمه - الاسنة) في سياقها - وبغض النظر عن الدلالات الظاهرة المحددة نجد أن الادغام تعبير غني يدخل في سياقات متعددة بعيدة ، وأن التوتر الصوتي الذي يشيعه يدخل في علاقات مختلفة ، ولكنها في وجدان المتنبي متقاربة متداخلة توحي لذلك بغموض الادغام وقوته . ومن الضروري أن تلاحظ ما بين هذا الادغام ومحاولات المتنبي الاتصال بالمجهول عبر العذاب من تفاعل ، فالادغام هنا نوع من التنقيب والحفر في أعماق الذات . إنه امتداد لكيان المتنبي وكشف عن عالمه الخفي ، وعن جنونه في محاولات اتصاله بهذا البعيد الغني المجهول ، عن ضياعه وتيهه ، إنه نوع من السير في أرض غامضة نحو أخرى مجهولة ، إن الإيقاع ليس مجرد الوزن بالمعنى الخليلي أو غيره من الأوزان .

الإيقاع بالمعنى العميق لغة ثانية لا تفهمها الاذن وحدها وإنما يفهمها قبل الاذن والحواس ، الوعي الحاضر والغائب . لهذه اللغة علاقة ثنائية بالاجواء الشعرية تستحضر الاجواء والاجواء تبعثها . هذا يعني ، بالتالي ، أن الإيقاع ليس مجرد تكرار لأصوات وأوزان تكراراً يتناوب تناوباً معيناً :

فعولن مفاعلين فعولن مفاعلن أو مستفعلن فاعلن
مستفعلن فاعلن أو مستفعلن مستفعلن ... إلخ

وليس عدداً من المقاطع ، اثني عشرية مزدوجة أو خماسية مفردة ، وليس قوافي تتكرر بعد مسافة صوتية معينة لتشكل قراراً . هذه كلها عناصر إيقاعية ولكنها جزء من كل واسع ملون متنوع . فضلاً عن أنها بشكلها المنظم المعروف صارت لغة مستنفدة لا تقول جديداً .

الإيقاع لغة ، بل هو سابق على اللغة المصطلح على تسميتها كذلك ، إنه ما قبل الاصطلاحات ، كان الإنسان القديم يحدث أصواتاً متصاعدة ليعبر عن اقتراب خطر أو كان صوت الساحر مثلاً يتعالى ويتسارع ليعلن عن ظهور ، روح عنيفة أو شريرة ، ويهدأ ويتموج ليعلن ذهابها أو هدوء غضبها ، رقص الحرب إيقاع خاص ، لغة معبرة . والإيقاع لا يقتصر على الصوت ، إنه النظام الذي يتوالى أو يتناوب بموجبه مؤشر ما (صوتي أو شكلي) أو جو ما (حسي ، فكري ، سحري ، روحي) ، وهو كذلك صيغة للعلاقات (التناغم ، التعارض ، التوازي ، التداخل) فهو إذن نظام أمواج صوتية ومعنوية وشكلية) .

– ٤ –

يقول أبو فراس الحمداني :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة	أيا جارتا هل تشعرين بحالي؟
معاذ الهوى ما ذقتِ طارقة النوى	ولا خطرت منك الهموم ببال
أتحمل محزون الفؤاد قوادم	على غصن نائي المسافة عال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا	تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تري روحاً لديَّ ضعيفة	تردَّد في جسمٍ ، يعذب بال
أيضحك مأسور وتبكي طليقة	ويسكت محزون ويندب سال
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة	ولكن دمعي في الحوادث غال

يكمن معيار قوة الإيقاع في هذه القصيدة وأصالته في اللامتوقع ، في تقطعه ،

في مفاجأة انبثاقه ، في الشرارة الانفعالية التي يحدثها ، وبسرعة زوالها ، ذلك أن الإيقاع الأكثر حيوية هو الاسرع زوالاً .

يصل أبو فراس في مناجاته الحمامة إلى الحد الأقصى - إلى الوحدة مع المجهول فتزول المفهومات الجامدة وينتهي كلامها ، ويصير قلبه قابلاً لكل صورة . وكأنه يعثر في هذه المناجاة على الأبدية ، فهو لم ينظر إلى الحمامة بوصفها جارة - كما يوهم ظاهر النص - أو ملجأ ، بل نظر إليها بوصفها حافزاً يدفعه إلى تحكيم قيوده التي تأسره وتجاوزها بطاقته المستعادة كلها .

هناك بالنسبة إلى أبي فراس تداخل وثيق بين مناجاته الحمامة وبكاء شبابه الضائع تتحقق بوساطته تطلعات أبي فراس العميقة ، ومن ثم نراه يبطل الشعور بأن هذه الحمامة غريبة أو معادية ، ويحدث قطيعة مع الواقع وأشيائه القائمة من أجل أن يحسن الغوص في داخله ، ويحسن استقصاء ما يضمره .

وتجربة أبي فراس ، بوصفها كذلك ، تجربة رموز وإشارات وتلويحات التشكلات الإيقاعية أو وحداتها الزمنية تقول أكثر مما يقول ظاهرها . وتتقاطع فيها أبعاد ودلالات يجسدها إيقاع يفرض التواصل معها ذوقياً أو حدسياً . فالإيقاع هنا لا يحمل أسرار المتخيل وحده ، وإنما يحمل كذلك أسرار الذات .

الخاصية الأساس في الإيقاع الشعري هنا هي خروجه عن الدلالات الموجهة التي أضفتها على مكونات الإيقاع قوانين مسبقة تقدمت الإيقاع . هكذا يكتب أبو فراس الغامض وما لم يكشف عنه من قبل . يخرج الصور الإيقاعية من ماضيها ومن طرق تشكيلها يدخلها في صور أخرى مضيفاً عليها إحساساً جديداً . الإيقاع هنا تغيير . إنه تجدد الوحدات الإيقاعية وتتابعاتها المقطعية من حيث أنها تجدد صورها وعلاقاتها ، ومن حيث أنها تنشئ علاقات جديدة بين الوحدة والوحدة وبين الوحدات والأشياء .

حدد مواطن النبر اللغوي والارتكاز الشعري في هذه الابيات ، فنحس أن توافق النبر اللغوي مع الارتكاز الشعري أو تنافرهما يخلق إيقاعاً لم يتعين ولم يتحدد . ليست له هوية جاهزة . إيقاعاً ستبدو هويته أنها على العكس في مجئ دائم .

١) ب ـاا ب بـ ـاا ـا ب ـاا ـا ب ـاا بـ ـا
بـ ـاا ـا بـ ـاا ـا ب ـاا ب ب ـاا ـا

٢) ب ـاا ـا بـ ـاا ـا ب ـاا بـ ب ـاا بـ ـا
بـ ـاا بـ ب ـاا ـا ب ـاا ب ب ـاا ـا

٣) ب ـاا بـ ب ـاا ـا ب ـاا ب ب ـاا بـ ـا
بـ ـاا بـ ب ـاا ـا ب ـاا بـ ب ـاا ـا

٤) بـ ـاا ـا بـ ـاا ـا بـ ـاا ب ـاا بـ ـا
ب ـاا ـا ب ـاا ـا ب ـاا ب ب ـاا ـا

٥) ب ـاا ـا بـ ـاا ـا ب ـاا ب ب ـاا بـ ـا
ب ـاا بـ ب ـاا ـا ب ـاا بـ ب ـاا ـا

٦) ب ـاا بـ ب ـاا ـا ب ـاا ـا ب ـاا بـ ـا
ب ـاا بـ ب ـاا ـا ب ـاا بـ ب ـاا ـا

ففي البيت الأول يتفق النبر اللغوي مع الارتكاز الشعري في أربعة مواطن ويتنافران في خمسة مواطن يقترن فيها النبر اللغوي بالمقطع القصير . وفي البيت الثاني يتفق النبر اللغوي مع الارتكاز الشعري في أربعة مواطن ويتنافران في ستة مواطن . وفي البيت الثالث يتفق النبر اللغوي مع الارتكاز الشعري في موطنين ويتنافران في سبعة مواطن . وفي البيت الرابع يتفق النبر اللغوي مع الارتكاز الشعري في أربعة مواطن ويتنافران في خمسة مواطن . وفي البيت الخامس يتفقان في ثلاثة مواطن ويتنافران في ستة مواطن . وفي البيت السادس يتفقان في موطنين ويتنافران في ستة مواطن . وفي البيت السابع يتفقان في ستة مواطن ويتنافران في أربعة مواطن .

والسؤال هنا . ماذا يعني هذا التوافق وهذا التنافر ؟ وما قيمتهما ؟ ألا تلاحظ أن التنافر يبلغ مداه الأقصى في الأبيات (الثالث والخامس والسادس) :

- أتحمل محزون الفؤاد قوادم — على غصن نائي المسافة عال
- تعالي تري روحاً لدي ضعيفة — تردّد في جسم ، يعذب ، بال
- أيضحك مأسور وتبكي طليقة — ويسكت محزون ويندب سال

وهي الأبيات التي يبلغ فيها أبو فراس ذروة أحزانه وآلامه ، ويصل فيها بكاؤه شبابه الضائع مداه الأقصى أيضاً ، حتى لكأن هذه الأبيات غربة داخل النص الشعري . وهي بوصفها غربة تمارس نظاماً آخر للرؤية والإيقاع . هكذا يتوجه إلينا الإيقاع طالعاً من مجهول يستلزم قراءته بعين القلب لا في أفق المعلوم ، بل في أفق المجهول .

إن هذا التنافر يتيح التواصل مع الاحزان الدفينة التي لم يسمها أبو فراس – مع الغيب . واستقصاء هذا الغيب هو تحرك أبي فراس الدائم في المسافة التي لا ينتهي غموضها . أي التي لا تنتهي أحزانها .

وتوافق النبر اللغوي مع الارتكاز الشعري يشير بطريقة ما إلى هذه الأحزان التي لا تنتهي فهذا التوافق الذي يقترن غالباً بالمقطع الطويل الممدود يؤسس العلاقات مع المجهول أو مع ما نسميه بالباطن الخفي . فأصوات المد تمنح أبا فراس فرصة أطول يستطيع معها أن يتأمل بعمق أحزانه وآلامه التي لا تنتهي بحيث يصبح شبيهاً بكيان أثيري – مادة انخطاف وإشراق – لا حاجز بينه وبين المجهول أو « الحياة الحقيقية الغائبة » . ويزداد إدراكنا لمعنى أصوات المدحين نتأمل الوحدة الإيقاعية الأخيرة (الضرب) حين تتحول (ب ---) إلى (ب --) ولا يهمنا هنا أن نقول إن كمهما الزمني واحد بفضل صول المقطع الممدود واقترانه بالنبر والارتكاز معاً (ب-ا ا $-^{X}$ ^{L}) وإنما الأهم هو أن هذه الوحدة المتشكلة (ب-ا ا $-^{X}$ ^{L}) تردنا إلى عملية الخلق الإيقاعي التي خلقتها تجربة أبي فراس الحمداني بمعزل عن كل ظاهر أو معلوم أو مسبق في مغامرة السؤال والبحث عن المجهول مغامرة البحث عن غائب يعرف أبو فراس أنه يظل غائباً وربما نجد في القافية التي تشكل أصوات المد فيها عنصراً أساساً ما يفسر اهتمام أبي فراس بالبحث عن المكونات الصوتية التي تتيح له التواصل مع المجهول والسر والغيب . فهو يناجي الحمامة ويبكي في حالة من الحصار والاسر ، مأخوذاً بهذه المناجاة ينسج بدءاً منها أملاً بما يفتح له أفقاً يهدم الحصار الذي يطوقه ، ويكسر القيود

التي يرسف بها . ومن هنا تبدو القافية المتكررة (-| | x- L) التي تلح على عقل أبي فراس وعلى وجدانه - والتي تشكل أصوات المد فيها عنصراً أساساً - إضاءة فريدة لأحزان أبي فراس التي لا تنتهي ، ولأحاسيسه العميقة بالناي والبعد والانفصال التي لا تنتهي أيضاً .

والصياغة ، التي توجه الإيقاع ، يرفعها أبو فراس إلى مستوى الاسطورة .

فالنداء المتكرر (أيا جارتا هل تشعرين بحالي ، أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا) .

والاستفهام المتكرر (هل تشعرين بحالي - أتحمل محزون الفؤاد قوادم - أيضحك مأسور وتبكي طليقة - ويسكت محزون - ويندب سال -) .

والنفي المتكرر (معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى - ولا خطرت منك الهموم ببال - ما أنصف الدهر بيننا) .

والأمر المتكرر (تعالي أقاسمك الهموم تعالي . تعالي تري روحاً لدي ضعيفة) .

هذه الكتابة كلها تدعونا لكي نفهمها بحركة الاحشاء ونبضات القلب . كما لو أن علينا أن نتماهى معها كما نتماهى مع طفولتنا ولا شعورنا . وهل تستطيع وأنت تقرأ هذه الكتابة أن تحبس دموعك أو تتحكم في نبضات قلبك ، إنها تكشف عن أعماق الذات وأسرار الوجود . وهي كتابة تمتلئ - كما تلاحظ - بالتغيرات المفاجئة والتوترات المتضادة والإيقاعات المتحولة . وكأن أبا فراس يكتب في الحلم . ولهذا يبدو قلقاً وعذاباً وتساؤلاً . ويبدو توقاً إلى الحرية لحظة يبدو قابضاً على قيوده متمسكاً بها كمن لا يريد أن يحطم قيوده أبداً . وتبدو الصياغة أو الكلمات كأنها في عالم طفولة موعودة تحاور نفسها ونشعر فيما نقرؤها أن المسافة أو الفروق بين الواقع والغيب تلغي أو تمحي أو تزول حتى لكأن أبا فراس يقول لنا عن طريق هذه الصياغة إن الحقيقة شوق . ولا وجود لها إلا في هذا الغامض البعيد . أعني في الشعر . ويتيح لنا هذا النداء القريب (أيا جارتا) الذي هو همس أو أدنى إلى الهمس ، ومجئ الاستفهام والنفي والأمر بعده ، أن نتصور العلاقة الأكثر جمالاً بين أبي فراس والحمامة ، أو الآخر ، ذلك أن التساؤل والنفي والأمر بعد النداء نمو في هذا النداء الذي لا يخلو من الهم والحزن والضعف والشحوب ، والاحساس بالاسر والبعد والنأي . وبعبارة ثانية ، نمو في هذه المواقف الأكثر قدرة على كشف الذات لذاتها وعلى أن تكشف لها بعدها الأخرى .

وأبو فراس في حاجة إلى هذا البعد الآخر لا لكي يتآخى معه ويتماثل ويتماهى وحسب ، وإنما لكي ينفرد أيضاً بأحاسيسه وأحزانه وهمومه ، البعد الآخر - الحمامة - هو الذي يوضح له ذاته ويؤالفه معها :

وهذا النداء والاستفهام والأمر الذي لا يخلو من الضعف هو الذي يتيح لأبي فراس هذه اللقاءات ويعيد خلق الحمامة باستمرار في وحدة إنسانية كونية . لكنه لا يقع إلا على الخيبة ولا ينال من سعيه غير الخيبة وغير فشله الخاص . فالهاوية التي يبدو وراءها المجهول - اللامتناهي لن تردم . ومن هنا يجيء قوله :

(أيضحك مأسور وتبكي طليقة
ويسكت محزون ويندب سال)

بأن الآلام هي المبدأ الوحيد للحقيقة . لكن هل عند الإنسان برهان آخر أعمق وأجمل ؟ .

يقول الشريف الرضي :

يا ظبية البان ترعى في خمائله
ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه
وليس يرويك إلا مدمعي الباكي
هبت لنا من رياح الغور رائحة
بعد الرقاد عرفناها بريّاك
ثم انثنينا إذا ما هزنا طربٌ
على الرِّحال تعللنا بذكراك
وعدٌ لعينيك عندي ما وفيت به
يا قرب ما كذبت عيني عيناك
أنت النعيم لقلبي والعذاب له
فما أمرك في قلبي وأحلاك

عندي رسائل شوقٍ لست أذكرها

لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

من الصعب أن تحمل هذه الأبيات على ترجمة أو تفسير أو توضيح . فرؤياها الواسعة تضيق معها العبارة وصورها العفوية المشرقة القائمة على التخيل والتوهم حجاب يحول دون الاقتراب منها أو التحديق فيها . فلكل اسم فيها أسماء ، ولكل دلالة دلالات . والوصف فيها طبيعة ثانية أو تركيب آخر للطبيعة . يتضمن طاقة إيحائية هائلة بحيث تبدو الأشياء حية ، وتصير كلمات تقرأ وفعلاً يجري :

والإيقاع في هذه الابيات شفاف يقوم على البحث عن المطلق والتماهي معه ، فالشريف الرضي يأخذ بحر البسيط ، لكن (-- ب -/ - ب -) التي يتشكل منها هذا البحر تتخذ صوراً جديدة . (-- ب -) تتحول إلى (ب - ب -) . و (- ب -) تتحول إلى (ب ب -) وفي الضرب تتحول (- ب -) إلى (--) . ويؤكد هذا التحول أهمية هذه الوحدات ودلالاتها الخاصة في الابيات . كما أنه يعطي الأبيات تنوعاً في الإيقاع خارج الإيقاع الثابت أو الأساس .

والإيقاع في بعده الجمالي يضعنا في أفق ما لا ينتهي يدخل في لا نهاية الكلام أو التحدث مع الظبية ، ولا نهاية البكاء ، ولا نهاية العذاب ، ولا نهاية الشوق والانتظار الإيقاعي ينحني ، يتماوج ، يتشابك ، يلبس الشوق والقلق في جميع أبعاده ويختزن جميع الإشارات كأنه ستار علينا أن نخترقه لنرى حقاً ما وراءه أو هو باب يقود الناظر إلى ما وراءه . الغيب أو المجرد .

هناك السكتة الإيقاعية التي نشعر بها في منتصف كل شطر . أي بعد (- ب -) . وتشكل بتكرارها المنظم اللازمة الثابتة للقصيدة فتضبط إيقاعها وتعطيه مدلوله . وهي في قدرتها الإيقاعية تعوض عن الزمن الموسيقي ، فتمتد إلى الوحدة الأخيرة (الضرب) التي سقطت منها المزدوجة (ب -) .

وكأن السكتات الموسيقية قواف داخلية يتكرر فيها كل شيء ويبدأ بشكل لامتناه . الظبية التي يتحدث إليها الشريف الرضي أو يخاطبها هي الظبية نفسها التي ترعى في قلبه ويسقيها من مدامعه الباكية . وهي الظبية نفسها التي تعبق رياح

الغور برياها ، والبعد الابتهالي (التعلل بذكراها) في رحلة الشاعر . والتعلل ترنيم وإيقاع يتكرر إلى ما لا نهاية .

إيقاع الظبية هذا سوف يتكرر في كل بيت عندما تتم المكاشفة بين عينيه وعينيها ، أو عندما يستشف أبعادها ودلالاتها في قوله :

أنت النعيم لقلبي والعذاب له   فما أمرك في قلبي وأحلاك

وهو أكثر الإيقاعات إيلاماً واستعصاء على الفهم ومقاربة من المطلق ومعرفته . حتى إنه ليتعذر الدخول إلى عالم الشريف الرضي هنا . عن طريق عبارته ، فالإشارة لا العبارة هي المدخل الرئيسي .

يعني ذلك أن سر الإيقاع هنا يتمثل في أن كل شيء في القصيدة يبدو رمزاً . كل شيء فيها هو ذاته وشيء آخر ؟ الحبيبة مثلاً هي نفسها ، وهي الظبية وهي النعيم والشقاء ... إنها صورة الكون وتجلياته . إنها متماهية متباينة ، مؤتلفة مختلفة ، يتجلى فيها ما لا يقال وما لا يوصف ، وما تتعذر الاحاطة به .

يقودنا الكلام على الإيقاع . إلى الصورة ، وتحيلنا الصورة في هذه الأبيات إلى الدلالة العميقة في تجربة الشريف الرضي . فصورة (القلب مرعاك) تكشف عن شوق الشريف الرضي إلى البعيد الذي يظل بعيداً والمجهول الذي يظل مجهولاً . غير أن المقاربة بين القلب والمرعى في هذه الصورة لا تعني زيادة في جلاء المحبوب (الظبية) . ولا تعني نقله من حالة غياب إلى حالة حضور ، بل تعني تخفيفاً من شدة ظهوره لتمكن رؤيته . أو لنقل ، بعبارة ثانية ، إن صورة (القلب مرعاك) هي تقريب البعيد الذي يبقى (الظبية) أو المحبوب بعيداً . فليس القرب أن يكون قلب الشاعر مرعى لمحبوبته ، بل هو كذلك في البعد . وليس القلب إذن إلا عتبة لما هو أقصى منه . الغيب ... ففي ذروة احتضان الظبية (المحبوب) بحركة القلب وأناته الموجعة ، يجد الشريف الرضي أن ظمأه إلى احتضان الظبية (المحبوب) قد اشتد . قلب الشريف الرضي حركة من اللامتناهيات واحتواؤه للمحبوب يكشف لنا عن البعد والظمأ أكثر مما يكشف لنا عن القرب والارتواء .

المرعى هو ما يتجاوز القلب ، لكنه في الوقت نفسه ، هو ما يحتضنه ، ويحيط به ، ويحركه ، إنه الأفق الذي لا يتحقق وجوده إلا في السير نحوه . وفيما يسير يقترب المحبوب (الظبية) لكنه يقترب لكي يبدو أكثر بعداً .

لا يوقظ القلب ويحركه ويدفعه إلى تجاوز حدوده إلا شبيهه . والشبه الذي يجمع بين القلب والمرعي إنما هو المجهول الذي يظل مجهولاً ، والبعد الذي يثير شوقنا ويفلت دائماً من إدراكنا . فالوحدة لا تتم بين القلب والمرعى ، بين الشبه والشبيه ، وإنما تتم بين القلب وما يتجاوزه ، بين المحدود وغير المحدود ، بين الواضح والخفي الذي يبقى خفياً . لا يتحد القلب إلا بالمجهول الذي يبقى مجهولاً .

أن تكتشف المجهول أو ما لا يحد هو أن تكشف في المرعى ما يشبه القلب . الدهش والحيرة والتغير واللامحدود . وكأن القلب لا يحقق أهدافه وأمنياته إلا عبر ضياعه وفنائه ، وكأن المحبوب (الظبية) لا يقيم إلا في المكان الذي يهجره .

في هذا الضوء تتجه الصورة المجازية في البيت الثاني (وليس يرويك إلا مدمعي الباكي) نحو أعماق أكثر اتساعاً فهي تتيح لنا ، لا أن نكشف ما لا نعرفه عن دموع الشريف الرضي وحسب ، وإنما أن نعيد تكوين ما نعرفه عن هذه الدموع ، بحيث نربطها بحركة اللامعروف وبما لا نهاية له . وفي هذا المستوى تكون الصورة المجازية معرفة . لذلك لابد من تجاوز الدموع القريبة الظاهرة وهدمها . يجب أن نخلق فيها قدرة على الارتواء تتطابق مع أفق ارتواء الشاعر وتخطف المحبوب (الظبية) وتنقله إلى اللامنتهي . هذه الدموع الجديدة هي دموع المجاز . والشريف الرضي ، بهذه الدموع ، يتيح لما هو قائم في مكان آخر ، في الغيب أو الباطن ، فيضع اللامنتهي في المنتهي . الدموع المجهولة في الدموع المعلومة الظاهرة . والدموع البعيدة في الدموع القريبة .

وهذه الدموع المجهولة ليست نقطة تبلغها الظبية (المحبوب) وينتهي عندها ظمؤها أو تزول شدة عطشها ، إنها على العكس دموع حارة قلقة غامضة كلما كشفنا منها شيئاً ازدادت الأشياء التي تتطلب الكشف ، فلا يمكن الارتواء بشكل نهائي .

يقودنا هذا كذلك إلى أن الصورة المجازية من قول الشريف الرضي : (يا قرب ما كذبت عيني عيناك) ليست جزءاً معزولاً في جملة أو تعبير ما . إنها أحداث

وأماكن ، وأفعال ورغبات . إنها تصلنا بالرمز والأسطورة . ذلك أنها ناشئة من المكاشفة والتجلي والمشاهدة بين عيني الشاعر وعيني محبوبته ، وهي لذلك مشحونة بالدهش والحلم والحيرة والبعد عن النفس وعن الوجود في آن ، فعينا المحبوبة تزيد الشريف الرضي - الرائي - ضياعاً وخيبة . وكلما تأملهما ازداد ضياعاً ودهشاً وحيرة .

ربما كان هذا مما دفع الشريف الرضي إلى ممارسة الاقاصي - إلى العمل على التخلي عن هويته ليتحول إلى الحبيبة وينصهر في انيتها . كل نبضة فيها تحمل نعيم الحب وعذابه ، حلاوته ومرارته ، وبكل جزيء في جسمه يتكلم الحبيب . هكذا يصبح الشريف الرضي كيان انخطاف وإشراق . وتشف المادة وتزول الحواجز بين الشريف الرضي (الرائي ، والمجهول . أو الحياة الحقيقية الغائبة) .

وعبر العلاقة مع هذا المجهول اللامرئي تبدو رسائل الشوق التي يخفيها الشريف الرضي أو لا يبوح بها ، الذات والآخر ، مجازاً وجدلاً مجازياً . ولا تعود ذات الشريف الرضي - هي التي تتكلم - بل الذات الكبرى الكونية الكامنة فيها . وإذن لا ذاتية في هذه اللحظة الإبداعية الكبرى بل الذات هي نفسها رسائل الشوق أو هي الموضوع من حيث إنها الآخر والكون أو من حيث إن « العالم الأكبر ينطوي فيها » .

مصادر البحث ومراجعه

- أبو ديب (كمال) : في البنية الإيقاعية للشعر العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨١ .
- أنيس (إبراهيم) : الأصوات اللغوية ، ط ٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦١ .
- سلوم (تامر) : نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ، دار الحوار ، سوريا ، اللاذقية ، ١٩٨٣.
- عياد (شكري) : موسيقى الشعر العربي ، مشروع دراسة علمية ، دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- الكاتب (محمد طارق) : موازين الشعر العربي باستعمال الأرقام الثنائية ، مطبعة مصلحة الموانئ العراقية ، البصرة ، ١٩٧١ .
- مندور (محمد) :
  - الشعر العربي ، غناؤه ، إنشاده ، وزنه ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٤٣ .
  - في الميزان الجديد ، ط ٣ ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة (د.ت) .
- النويهي (محمد) : قضية الشعر الجديد ، ط٢ ، مكتبة الخانجي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧١ .

الترادف في اللهجة البحرينية
دراسة دلالية وصفية

د. محمد علي المدني
كلية الآداب - جامعة البحرين

منهج البحث :

يقوم هذا البحث على المنهج الوصفي العام ، وذلك بدراسة ثمانين لفظا من المترادفات ، في اللهجة البحرينية ، جمعت بطريقة شبه عشوائية ، وجردت من حصيلة الباحث الخاصة ، بالتذكر العشوائي ، ومن التسجيلات الصوتية لطائفة من الناطقين باللهجة .

واعتمد في تحليل معاني الألفاظ ومعرفة الفروق الدلالية الدقيقة في استعمالاتها المختلفة على فهم الباحث - بوصفه أحد الناطقين باللهجة - وعلى المقابلات الشخصية لبعض أهل اللهجة .

وقد لوحظ في المقابلات الشخصية أن كثيراً من الناطقين باللهجة لا يميزون الفروق الدقيقة بين المترادفات ، وتم التحقيق عن هذا بتوجيه الأسئلة إليهم بأسلوب مباشر أحياناً ، وبأسلوب غير مباشر أحياناً . والسؤال غير المباشر هو : ما معنى لفظ كذا ؟ ثم تترك الفرصة للمسؤول عنه يجيب . وبعد ذلك يكرر السؤال عن مرادفات اللفظ . والسؤال المباشر هو : ما الفرق بين كذا وكذا وكذا ؟ وتعرض عليه الألفاظ المترادفة . فمثلاً يسأل أحدهم : ما معنى (بخيل) ؟ فيقول : الحريص على المال ، لا ينفقه . ثم يسأل عن معنى (حَريص) ، فيقول : هو البخيل . ثم يسأل عن معنى (لِحَّة) ،

فيقول : بخيل ثم عن معنى (زطى) و (مْكَفّغ) و (بُرْص) ، فيقول : كِلْهْ واحدْ ، كِلْهْ واحد ، أي كلها بمعنى واحد .

ويسأل بعضهم عن الفروق بين مثل هذه الألفاظ ، فيعبر عنها بدقة وتمييز واضح بينها ، وقد يشعره حسه اللغوي بعدم وجود فروق في بعضها ، فيقول بالترادف التام . وفريق آخر يعبر عن دلالة كل لفظ من المترادفات بتعبير مختلف عن الآخر ، والمعنى واحد ! فهو كأنه يشعر بأن ثمة فروقا بينها ، ولكن يعجز عن بيانها . وفريق ثالث يشعر أنه لا فروق بينها حقا ، ولكنه يتمحل في التماس بعض الفروق ، لكي يرضي السائل . ومن هنا تبين أن السؤال بالأسلوبين - المباشر وغير المباشر - لا يخلو من بعض السلبيات ، ففي الأسلوب غير المباشر قد لا يفطن المجيب - بحسه اللغوي - إلى وجود فروق بين المترادفات ، ولعل في هذا تأييداً لمذهب القائلين بالترادف ، وقد أكدت المقابلات الشخصية ، والتسجيلات الصوتية هذه الحقيقة ، فظهر أن الكثير من أهل اللهجة لا يدركون الفروق . وفي الأسلوب المباشر قد يدفع المجيب دفعا إلى البحث عن الفروق ، وقد وقع هذا بالفعل عند كثيرين ، والأعجب من ذلك أن الفروق كثيراً ما كانت متفاوتة - بعض - الشيء بين الذين تمت مقابلتهم ، ولذلك اعتمد - في بيان الفروق - اختيار الإجابات الأكثر توافقاً ، وقد يعتمد اختيار أكثر من وجه للمعنى ، لتعدد القائلين بتعدد وجوه المعنى ، واتفاق بعضهم على وجه ، وبعضهم على وجه آخر ؛ ومن هنا فقد تناولت الدراسة نوعين من الترادف هما : الترادف التام أو الكلي ، والترادف غير التام أو الجزئي ، وذلك بسبب تفاوت أهل اللهجة في درجة التمكن من معرفة الفروق الدقيقة بين المترادفات ، حيث يستخدم بعضهم مترادفات غير تامة بدل ألفاظ يظن أن بينها اشتراكا تاما في المعنى ، غافلاً عن الفروق الدقيقة .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر يظهر أن الذهاب إلى وجود نوعين من الترادف : تام وغير تام ، يفصل الخلاف في حقيقة هذه الظاهرة بين القائلين بها وبين منكري وجودها .

وعلى هذا الأساس التوفيقي بنيت هذه الدراسة القائمة على :

- بيان معاني الألفاظ التي تناولها البحث .

- ذكر نوع الترادف فيها .
- تفسير وقوعه .
- الوقوف على الفروق الدلالية بين المترادفات ، في حالة الترادف غير التام .
- تتبع أصول المترادفات ، والتعرف على مدى قربها وبعدها عن الفصحى .
- الرجوع إلى لهجة « السنة » في صوتيات الألفاظ من غير الدخول في خصائصها اللغوية . وأما لهجة « البحارنة » فقد نالت حظها موفوراً في رسالة دكتوراه[1] .
- اعتماد الرموز التالية لأصوات الحروف الإضافية :

چ تنطق CH كما في لفظ Child

گ مثل القاف الصعيدية ، وكما في لفظ good

وضع السكون على أول حرف من اللفظ يعني أن اللفظ ينطق بهمزة وصل خفيفة ، نحو (سْطَرَهْ) و (لْفَحَهْ) وغيرهما .

ظاهرة الترادف في اللغة :

الترادف ظاهرة لغوية ثابتة ، وحقيقة دلالية شائعة ، في شتى اللغات واللهجات ، وإن أنكرها بعض المنكرين .

ولابد من الوقوف على المقصود من الترادف ، قبل دراسة الظاهرة في اللهجة البحرينية .

وقد فصلت المعاجم اللغوية في دلالة المعاني المفهومة من باب (ردف) ، وخلاصتها أنه يقال : (ردف الرجل وأردفه) أي ركب خلفه . و (ارتدفه) خلفه على الدابة . و (رديفك) : الذي يرادفك ، والجمع رُدَفاء ورُدافَى .

فالردف على هذا هو اتباع شيء شيئاً ، وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو (الترادف)[2] .

والترادف في اصطلاح علم اللغة - عند القائلين به على إطلاقه - هو دلالة لفظين أو أكثر ، على معنى واحد ، نحو أسد وليث وضرغام ، للسبع المعروف ، ونحو بُر وقمح وحنطة للحَبّ المعروف .

وقد أثار هذا التعريف مشكلة كبيرة بين القائلين بالترادف وبين منكريه ، قديماً وحديثاً ، وذلك أنه لا يمكن التعبير - عندهم - عن المعنى الواحد بألفاظ متعددة ، وأن الكلمات التي ترادفت على المعنى الواحد ، بينها فروق دقيقة ، لا تخفي على عالم اللغة ، وإن تنوسيت عند أهلها مع مرور الزمن . ومن هذا المنطلق ، ظهر - في دراسة ظاهرة الترادف عند اللغويين العرب - ما عرف بالفروق اللغوية ، التي عني بالتأليف فيها طائفة منهم : أبو زيد الكلابي [٣] ، وقطرب [٤] ، وأبو زيد الأنصاري [٥] وأبو حاتم السجستاني [٦] ، وأبو بكر بن جعد [٧] ، والقاسم بن محمد العجلاني [٨] ، والزجاج [٩] ، والبكري [١٠] ، وغيرهم .

وقد كان علماء الفروق من منكري الترادف ، ولكنهم خدموا ظاهرة الترادف خدمة بالغة ! وذلك بفضل جهودهم في جمع الألفاظ التي عدت مترادفات عند غيرهم ، ولكنها عندهم مشتركة في قدر من المعنى ، أي أن بينها ترادفاً جزئياً .

ولابد في هذه الدراسة أن نفرق بين نوعين من الترادف ، يمكن أن نعبر عنهما بالترادف التام ، أو الكلي ، والترادف غير التام ، أو الجزئي . وكثير من القائلين بالترادف يقبلون ، النوعين وأما القائلون بالفروق فإنهم يعنون بالترادف غير التام ، وإن لم يسموه ترادفا ، وكتبهم شاهدة على هذا ، فهي موضوعة أصلاً لجمع الألفاظ التي تظهر أنها مشتركة في المعنى ، ولكن بينها فروقاً دقيقة ، وهدفهم هو إظهار هذه الفروق . والحقيقة أن وجود هذه الفروق هو الفاصل بين نوعي الترادف . والقول بإنكار الترادف التام هو الأظهر - في نظرية الترادف في علم اللغة الحديث - عند العلماء العرب والغربيين على السواء .

يقول أحمد مختار عمر : إذا أردنا بالترادف التطابق التام الذي يسمح بالتبادل بين اللفظين ، في جميع السياقات ، دون أن يوجد فرق بين اللفظين ، في جميع أشكال المعنى (الأساسي ، والإضافي ، والأسلوبي ، والنفسي ، والإيحائي) ، ونظرنا إلى اللفظين في داخل اللغة الواحدة ، وفي مستوى لغوي واحد ، وخلال فترة زمنية واحدة، وبين أبناء الجماعة اللغوية الواحدة - فالترادف غير موجود على الإطلاق » [١١] .

ويري ألمان (Ullmann) أنه من البديهيات في علم اللغة المعاصر ، أن الترادف الكامل لا وجود له . وينقل عن بلومفيلد (Bloomfield) قوله : إن كل صيغة لغوية

لها دلالة محددة ثابتة . ولما كانت الصيغ مختلفة صوتيا (فونوميا) ، فإننا نفترض أن معانيها مختلفة ، ونحسب تبعاً لذلك أنه لا يوجد ترادف حقيقي بينها [١٢] .

وأما بالمر (Palmer) فقد قرر أنه لا يوجد ترادف حقيقي بين الألفاظ ، وأنكر وجود لفظين متفقين في الدلالة تمام الاتفاق [١٣] .

ويذهب هيرفي (Hervey) إلى تعميم واسع يقرره على جميع اللغات ، حين يرى أنه لا توجد لغة بها كلمات ترادف كلمات أخرى تمام المرادفة [١٤] .

فكل هؤلاء ينكرون الترادف التام ، على اختلاف بينهم في المصطلح ، فهو عند أحمد مختار : « التطابق التام » ، وعند ألمان « الترادف الكامل » ، ويسميه بالمر « الترادف الحقيقي » .

وقد سبق القدماء من اللغويين العرب هؤلاء جميعاً في رفض الترادف التام ، فهذا ابن فارس يتبنى مذهب شيخه ثعلب في أن اللغة « ليس منها اسم ولا صفة إلا ومعناه غير معنى الآخر . . وكذلك الأفعال ، نحو مضى وذهب وانطلق ، وقعد وجلس ، ورقد ونام وهجع . . ففي قعد معنى ليس في جلس ، وكذلك القول فيما سواه » [١٥] .

وهذا السيوطي ينقل عن العلامة عز الدين بن جماعة قوله الفصل في الخلاف في كثرة المترادفات أن : « من جعلها مترادفة ينظر إلى اتحاد دلالتها على الذات ، ومن يمنع ينظر إلى اختصاص بعضها بمزيد معنى ، فهي تشبه المترادفة في الذات والمتباينة في الصفات » [١٦] . وهذا الذي ذكره ابن جماعة عن مذهب المانعين ، فيه محاولة لتفسير الترادف ، وتفسيره هذا - وإن كان صحيحا - فإنه تفسير واحد ، من بين عدة تفاسير أخرى لوقوع الترادف في اللغة .

وأما الجرجاني فقد أورد للترادف تعريفاً عاماً من غير قيود فقال : هو « عبارة عن الاتحاد في المفهوم » ، ثم قيده بقوله « وقيل : هو توالي الألفاظ المفردة ، الدالة على شيء واحد ، باعتبار واحد . ويطلق على معنيين : أحدهما : الاتحاد في الماصدق ، والثاني : الاتحاد في المفهوم . ومن نظر إلى الأول فرق بينهما ، ومن نظر إلى الثاني لم يفرق بينهما » [١٧] .

وقد عنى المحدثون من علماء اللغة بمثل هذه القيود وغيرها ، فاشترطوا لتحقيق الترادف التام شروطاً أهمها :

أولاً : الاتحاد التام في المعنى بين المترادفات[١٨] :

فإن وجد أدنى اختلاف دلالي بينها ، عد الترادف جزئياً ، وذلك لوقوع اشتراك في الدلالة بين هذه الألفاظ ، وغالبا ما يكون هذا الاشتراك في قدر كبير من المعنى ، والاختلاف يسير .

وكثيراً ما يختل الاتحاد التام في المعنى بسبب تحول الصفات إلى أسماء[١٩] - حيث تستخدم صفة الشيء للدلالة عليه - أو بسبب المجازات[٢٠] ، التي نسى أصلها المجازي ، فحلت محل المعاني الحقيقية ، أو بسبب عدم مراعاة السياق الذي يغير دلالة الألفاظ المفهومة من ظلال المعاني الضمنية أو النفسية التي توحي بها السياقات المختلفة[٢١] .

وقد شغل جون لا يونز كثيراً بهذا الجانب النفسي ، وعقد له مبحثاً خاصاً - في معالجته ظاهرة الترادف في اللغة - فرق فيه بين ما سماه « الترادف الإدراكي » وبين « الترادف الوجداني »[٢٢] (Cognitively Synonymous and Emotively Synonymous) .

ثانياً : الاتحاد في البيئة اللغوية[٢٣] :

وقد نص عليه ابن جني بقوله : « وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد ، كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات ، اجتمعت لإنسان واحد ، من هنا ومن هنا »[٢٤] .
ولا يتحقق الترادف التام بين الألفاظ ما لم تنتم إلى لغة واحدة ، بل إلى لهجة واحدة . وقد كثر الترادف في العربية بسبب التداخل بين اللهجات العربية ، وأخذ بعضها من بعض ، وبسبب أخذ العربية من لغات أجنبية ، ولا يتم الترادف في مثل هذه الحالات لاختلاف الأصول اللهجية أو اللغوية بين الألفاظ .

ثالثاً : الاتحاد في العصر[٢٥] :

اللغة بوصفها كائناً حياً تستحدث فيها ألفاظ وتموت أخرى ، وتشتهر ألفاظ منها في زمن ، وتصبح مغمورة بعد حين ، ولا يتم الترادف بين ألفاظ لا يجمع المعرفة بها زمن واحد .

رابعاً : ألا يكون الترادف بسبب تطور صوتي[٢٦] :

على نحو ما يلاحظ في حالات القلب والإبدال وغيرهما من الظواهر التي تقع بسبب التطور الصوتي .

هذا وقد ساد في تاريخ العربية - عند كثير من العلماء والدارسين - القول بإبطال الترادف ، بسبب إغفال أحد الشروط السابقة .

والحقيقة أنه لا يمكن إغفال الترادف ، بسبب غياب أحد الشروط السابقة ، ولكن لابد من التفرقة بين الترادف التام ، والترادف غير التام ، فالأول ما تحقق فيه جميع الشروط ، السابقة ، والثاني : ما تخلف فيه بعضها ، مع بقاء قدر كبير من الاشتراك في المعنى بينها .

مترادفات في لهجة البحرين :

أما وقد اتضح المقصود بالترادف ، وشروط تحقيقه تاما ، فإننا نشرع في دراسته في لهجة البحرين ، من خلال طائفة مختارة من الألفاظ المترادفة ، باعتبارها مستعملة عند أهل اللهجة كذلك ، من غير أن يلاحظ كثير منهم الفروق الدقيقة بين هذه المترادفات . ولذلك كان لابد من تفسيرها ، والوقوف على الفروق بينها في الدلالة وفي الاستعمال . وفيما يلي عرض لهذه الألفاظ :

١- سْحَبَهْ ٢- يَرّهْ ٣-سْمِتَهْ ٤- مَطّهْ ٥- تَلّهْ :

كلها تدل على الجذب ونحوه ، وكلها فصيحة على اختلاف في أصل الاستعمال ، فالسحب معروف ، و (يَرّهْ) أصلها جرّه أبدلت الجيم ياء كما هو معروف في اللهجة البحرينية . و (السمت) يغلب عليه في الاستعمال للحبل ونحوه . و (المطّ) لسحب الأشياء المرنة . وأصل استعماله في اللهجة جاء من قول العرب : (مطّ الدلو) ، أي جذبه[٢٧] . و (التل) يقع في اللهجة على السحب الشديد ، ويختص بالعقلاء ، وأصله : تل يتل أي صرعه على التل[٢٨] . وتبدو في المعاجم صلة مادة (تلّ) بالشدة واضحة في استعمالات كثيرة ، وفي ذلك إشارة إلى أن معنى الشدة استعمل

مرادفا للسحب . والترادف بين (تلَهْ) و (سَحِبَهْ) غير تام ، وذلك لعدم وجود الاتفاق التام في الدلالة بين اللفظين ، لأن (تلَهْ) قد تدل على السحب السريع الشديد .

هذا والتـرادف تام بين (يَرّهْ) و (سَحَبـهْ) ، إذ لا توجـد بينهـمـا فـروق في الاستعمال.

١- ذلِفْ ٢- ولّى (بالإمالة) ٣- دَبّرْ ٤- راحْ :

كلها أفـعـال مـاضـيـة تفـيـد الذهاب والمغـادرة ويفـيـد كل من (ذلف) و (دبر) الذهاب بخطى سريعة ، وغالباً ما يكون مصحوباً بالخيبة . ويلاحظ في كل من الأول والثـاني ظلال نفسية ، إذ يصدران من متكلم مستاء للتعبير عن خلاصه من شخص غير مرغوب فيه ، ولكن (ذلف) أشد من (ولى) ، ولذلك لا يقع التـرادف بينهـمـا على التمـام ؛ لهذا الاختـلاف الدقيق في الإيحـاء النفسي . ويختـفي هذا الإيحاء في معنى كل من (دبّر) و (راح) ، إذ لا استـيـاء ، هذا مع دلالة (دبر) غـالبـاً على الذهاب السريع . وكلها عـربيـة فصيحة ، فـ (ذلِف) أصلة دلَف ، قلبت الذال المعجمة دالا مـهـملة ، بسـبب التطور الصـوتي ، وقد نقل الزبيـدي أنه يقال : دلف الشـيخ ، إذا مـشى وقـارب الخطو[٢٩] . ويقـال : ولّى الشيء وتولّى إذا أدبر[٣٠] . ويلاحـظ أن (دبّر) بالتضعيف لم يرد في الفصحى للدلالة على الذهاب ، ولكن قد جاء (دبر) مخففا ، و (أدبر) بالهمزة ، ومعناه ولّى[٣١] يقال : دَبَرَ النهار وأدبَر[٣٢] .

و (راح) أصلهـا من رحت القـومَ ورحت إليـهـم وعندهم روحـا ، ورواحـا : ذهبت إليهم[٣٣] . وفي اللهجة تأتي (راح) لازمـة ، أو مـتـعـدية بنفسـهـا ، يقـال : رحت البـيت ، أو مـتـعـدية باللام فيـقـال : (رِحْتْ لِهُمْ) ، وبهـذا يكون التـرادف بين (دَبّرْ ، وراح) تاما ، إلا إذا أفاد (دبر) معنى الذهاب السريع ، فيقع الترادف عندئذ غير تام، بسبب عدم التطابق الكلي في المعنى بينهما .

١- ثَبُرْ ٢- كَراح :

وكـلاهمـا يفـيـد مـعنى الجزر الذي هو ضد المد ، في صفـة البـحـر . والأول أكـثـر

شيوعاً . والثاني فيه نوع من التخصيص ، فلا يقال (كَراح) إلا إذا ظهرت الأرض ، بعد انحسار ماء البحر ، وعلى هذا فـ (الكَراح) هو ما بعد الثبر ، وكأنه صفة من صفات الثبر . وهذا يعني أن الترادف بينهما غير تام ، بسبب تحول الصفة إلى اسم ، وفي الفصيح : القراح من الأرض : أي البارز الظاهر ، الذي لا ماء به ولا شجر[٣٤] . وأما (ثُبُر) فمن قولهم : ثبر البحر إذا جزر[٣٥] ، فهو جار في اللهجة على معناه الصحيح .

١- رِگ ٢- گحَّة :

الأول يطلق على الموضع الضحل ماؤه في البحر . وأصله قريب من هذا المعنى ، فقد نقل الأزهري عن الليث قوله : « والرقة كل أرض إلى جانب واد ينبسط عليها الماء أيام المد ، ثم ينحسر عنها الماء »[٣٦] . وأما الثاني فهو أرض صخرية مستوية (في البحر) ، يقال : (طَلَعَت الكَحَّة) ، إذا انحسر عنها الماء . ولعله مأخوذ من القُحّ وهو أصل الشيء وخالصه[٣٧] . فكأن (الكَحّة) أصل لقاع البحر . والاشتراك في المعنى بين اللفظين واضح ، ولكن ليس بينهما ترادف تام ، فكلاهما من صفات الأرض البحرية .

١- تِضَحَّكْ ٢- تِكَعْكَعْ ٣- تِكَرْكَرْ ٤- تِفَدَّعْ :

كلها بمعنى ضحك مع تفاوت في درجات الضحك ، ويمكن أن يتدرج على النحو التالي : (تضحك) فلان ، ثم (تِكَعْكَعْ) ، إذا أصدر صوتا في ضحكه ، وحكاية صوت الضحك واضحة في حروف المادة ، ومادة كعّ وكعكع موجودة بالمعاجم العربية ، ولكن معانيها بعيدة عن الضحك . وإذا زاد الضحك المصحوب بالصوت يقال : (تِكَرْكَر) ، وفي مادته أيضاً وضوح حكاية صوت الضحك . ونقل ابن الأعرابي أن (كَرْكَرَ) معناه اشتد ضحكه[٣٨] ، ويقال : فلان (تِفَدَّعْ) إذا بالغ في الضحك إلى درجة الاستلقاء على القفا . وأصل مادة (فدع) يشير إلى معاني الميل والاعوجاج[٣٩] ، لأن الذي يستلقي يميل بجسمه إلى الوراء .

ويتضح من هذه المعاني أن الترادف غير تام بين هذه الأفعال ، لاختلاف مراتب الحدث فيها .

١- نُول ٢- كَرْوَة :

كلاهما بمعنى الأجرة ، ويختص الأول بأجرة الركوب (في سفينة أو سيارة مثلاً) ، بينما يغلب على الثاني أن يكون أجرة للعامل . وكلاهما عربي فصيح فالأول مصدر نال ، يقال : نُلت له بشيء - بالضم - ونِلت به نولا ونوالا ، أي أعطيته ، وشاهد هذا الأصل الفصيح الحديث : « فحملوهما بغير نول » - يعني موسى والخضر عليهما السلام[٤٠] . و (الكروة) مأخوذ من قولهم : أعط الكَرِيّ - يعني المكاري - كروته - بالكسر - أي كراءه[٤١] .

ولا يتحقق الترادف التام بين اللفظين لاختلافهما في مورد الاستعمال ، وإن كان معناهما العام واحدا ، وهو الأجرة .

١- فلْوس ٢- بِيزات ٣- قَوازِي :

(الفلوس) عربية معروفة ، جمع فلس و (البِيْزات) جمع (بِيزِه) ، هي عملة هندية كانت سائدة في البحرين قبل العملة العربية . وقد جمعت (بيزه) على (بيزات) جمع مؤنث سالما ، من باب تعريب اللفظ .

وأما (قوازي) فدلالته أوسع ، إذ يطلق على المال وعلى كل متاع ثمين ، لأنه جزء من المال فهو من باب إطلاق الجزء على الكل ، وهو قديم يكاد يكون منقرضا في الاستعمال اليوم ، واللفظ عربي بحروفه ، ولكنني لم أقع على أصل واضح له ، إلا أن يكون من قَوَّز النبت تقويزا ، أي كثر[٤٢] .

ولازال الناس - في البحرين - يقولون (فلوس) و (بيزات) ، في استعمال مترادف في المعنى ترادفا تاما . على أن مثل هذا الترادف لا يعد تاما عند علماء اللغة المحدثين ، وذلك لفقدان شرط الاتحاد في البيئة اللغوية فـ (البيزات) دخيل معرب ،

وأصله هندي ، وعلى هذا يكون الترادف بين (الفلوس) و (البيزات) ترادفا غير تام .

ولا يتم الترادف بين لفظي (فلوس) وقوازي لسببين : أولهما غياب شرط الاتحاد في العصر ، وثانيهما : اختلاف مورد الاستعمال بينهما .

١- مَرْكُوم ٢- مَسْدود

دلالتهما واحدة ، ولكن الأول يفيد الانسداد لا إراديا أي من غير تدخل الإنسان يقال : « (انْركَمَت) إذْنِي » ولا يقال : « انْرِكَمْ الطَرِيج » (الطريق) . و (المرْكُوم) يغلب عليه في الاستعمال للاشياء الصغيرة ، ويشير معناه إلى إحكام السد .

وقد جاء في بعض المعاجم العربية : الرقم بمعنى الختم[٤٣] ، وهو يوافق الاستعمال في اللهجة : لأن المرقوم معناه المختوم ، قال الزجاج : « معنى ختم وطبع واحد في اللغة، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن لا يدخله شيء »[٤٤] . والترادف بين اللفظين غير تام لعدم التطابق التام في الدلالة بينهما .

١- شَرَد ٢- انْحَاشْ :

كلاهما بمعنى هرب ، والثاني قليل الاستعمال في البحرين ، وهو مستعار من اللهجة الكويتية . وفي الفصيح : انْحاش عنه بمعنى نفر ، وهو قريب من الهروب ويقال : تَحوشَ القوم عني أي تَنَحَّوا[٤٥] .

والترادف بين اللفظين غير تام ، لاختلاف البيئة اللغوية بينهما .

١- دَش ٢- دخَل ٣ - دَرْعَم

كلها بمعنى الدخول ، ويستعمل الأول والثاني في سياق واحد ، وكلاهما فصيح معروف ، ولكن (دَشَ) في أصله الفصيح يأتي بمعنى سار ، قال الفيروز أبادي : ذَش الرجل (بالذال المعجمة) لغة في دَش[٤٦] ، بالدال المهملة . ونقل الصغاني عن ابن الأعرابي : دَش وذش ، إذا سار[٤٧] .

والصلة الدلالية بين سار ودخل واضحة ، فالدخول لابد له من سير . والترادف بينهما تام ، إذا أغفلنا أصل المعنى اللغوي الفصيح ، وأخذنا باستخدام اللفظين في اللهجة . ويترادفان مع (درعم) بصفة جزئية لأن (درعم) فيها زيادة بيان ، إذ تستخدم للدخول بغير استئذان ، يعني بطريقة غير مهذبة . ويكون الترادف بينها وبين (دش) و (دخل) غير تام . وأصل (درعم) مقلوب من (دعرم) (والدعرم) : الرديء البذيء والقصير الدميم ، والدعرمة : قصر الخطو وهو في ذلك عجل ، والدعرمة : لؤم وخب(٤٨) ، وكل هذه المعاني تدل على القبح . وكذلك (التدرعم) صفة قبيحة عند أهل اللهجة .

١- مَلاس ٢- سْطَام

وهما ملعقة كبيرة ، يحرك بها الأرز ونحوه . ولم يرد في مادة (ملس) في المعاجم العربية ما يقارب هذا المعنى . وأما (سْطَام) فقد وردت بكسر السين (سِطام) ، وبهمزة وصل (اسْطام) - كما تنطق في اللهجة اليوم - ومعناها قريب من اللفظ وهو حديدة تحرك بها النار ، أو تحرث بها النار(٤٩) وهما مترادفان على التمام .

١- ظَيّهْ ٢- حَشْرَهْ ٣- يَمْعِهْ ٤- ضبّهْ :

وهي أسماء شائعة في معنى التجمع ، وبينها فروق دقيقة ، فـ (الظيّة) : الحشد العظيم الذي يستدل عليه بسماع أنفاس من الناس فيه وصوت حركتهم وجلبتهم ، وهو مسموع غير مرئي ، ولذا يقال « ما تِسْمعْ ظيه » . وهي فصيحة وأصل الظاء فيها ضاد قال الأصمعي : « الضوة : الصوت والجلبة . . . والضوضاة : أصوات الناس وجلبتهم . يقال : ضوضوا بلا همز ، وضوضيت ، أبدلوا من الواو ياء »(٥٠) . وكذلك وقع هذا الإبدال في اللهجة ، فيقال : (ظيّه) .

ويتضح من هذا أن صفة صوت الناس - وهم مجتمعون - استخدمت لترادف معنى التجمع ، وبهذا يبطل الترادف التام بين (ظيه) وبين بقية الألفاظ المذكورة .

و (حشرهْ) : تفيد تجمهر الناس المصحوبة بجلبة . والحشر في اللغة معروف ،

يقال حشرت القوم أحشرهم حشرا ، إذا جمعتهم ثم سقتهم [٥١] ، ومنه قوله تعالى : { وحشر لسليمان جنوده ... } الآية . و (يمعه) تدل على تجمهر مجموعة من الناس، ولا تدل على كثرة واضحة ، كالتجمع على حوادث المرور مثلا . وأصل الياء فيه جيم . والجمع في اللغة هو جماعة الناس [٥٢] .

والفاصل بين (حشرهْ) و (يمعه) هو الجلبة في الأول ، مما يفيد أن الترادف غير تام بينهما .

ويشترك (ضبه) مع (يمعه) تماما في المعنى والاستعمال ، وأصله من ضب القوم أي نهضوا في الأمر جميعا [٥٣] .

١- مَخَمّه ٢- طَرْف ٣- عِسُو :

كلها أدوات للكنس . و (المخمه) أعم من كل من (طرف) و (عسو) ، وأصله مخمة بكسر الميم وهي المكنسة . يقال خم البيت والبئر : كنسهما . والخمامة بالضم الكناسة [٥٤] . وشاع في اللهجة (الخمام) بدون تاء وهو القمامة .

ويصنع (الطرف) خاصة من خوص النخيل ، و (العسو) من يابس عرجونها . وأصله من عسى البنات - كرضى أي يبس واشتد - لغة في عسا يعسو [٥٥] .

وبهذا يكون الترادف بين الألفاظ الثلاثة غير تام لاختلاف أصل الدلالة ، بسبب اختلاف مادة صناعة كل من (المخمة) و (الطرف) و (العسو) .

١- داعُوس ٢- زرنُوگْ :

كلاهما عبارة عن ممر ضيق بين البيوت ، ويجمع الأول على (دواعيس) ، والثاني على (زَرانيگْ) ، والترادف فيهما تام في اللهجة . والأول من قول العرب : طريق دَعْس ومِدْعَاس ومَدْعُوس : دعسته القوائم ووطئته ، وكثرت فيه الآثار [٥٦] .

والزَرْنُوق في الفصيح : الهر الصغير والجمع زرانيق [٥٧] .

١- مِحْدَرانهْ ٢- حِرْدِبانه ٣- مِرْدَحانه :

كلها بمعنى المنحدر ، واشتهر الأول والثاني ، وسمعت الثالث من بعضهم ، وأنكره بعض أهل اللهجة .

ولم ترد الصيغ الثلاث في باب (حدر) في المعاجم العربية ، ولا في (حرد) ولا في (ردح) ، فأما (محدرانه) فأصله (مَفْعل) زيدت ألف ونون وهاء ، فهو على هذا اسم لمكان الانحدار وأما (حردبانه) فلعله جاء من الحَرْدَبَة وهو خفة ونزق[٥٨] ، سميت كذلك لخفة الانحدار عليها ، ويكون الترادف على هذا تاما بين (محدرانه) و (حردبانه) .

وإذا صح لفظ (مردحانه) فهو مقلوب (محدرانه) ، ولا ترادف بينهما على التمام ، لأن صياغة الثاني جاءت من الأول بسبب تطور صوتي .

١- بَارِض ٢- مُكَاگهْ ٣- خُلْگْ ٤- طَاگهْ :

كلها مترادفات تامة الترادف ، تدل على قلة الصبر ، والشعور بضعف القدرة على الاحتمال ، يقال : (مالي بارض) و (مُكاگه) و (خُلْگْ) و (طاگهْ) . وأصولها كلها فصيحة فـ (البارض) من بَرَض يَبْرِض ويَبْرُض برْضاً وبروضاً : قلّ . قال ابن فارس : « الباء والراء والضاد : أصل واحد ، وهو يدل على قلة الشيء »[٥٩] . والقلة التي تنصرف إلى هذا المعنى في اللهجة هي في الصبر والتحمل ، وإن لم يرد لفظ (بارض) بهذا المعنى الصريح في المعاجم العربية .

ولعل (مُكاگهْ) جاءت من المقق وهو الطول[٦٠] ، وهي مخصوصة في اللهجة بطول البال .

و (خُلْگْ) : جاءت بمعنى السجية ، وهي الخُلُق - بضم اللام - والخُلْق بسكونها[٦١] . ويقال : فلان لا خلاق له ، أي لا نصيب له في الخير[٦٢] .

و (طاگه) من الإطاقة ، وهي القدرة على الشيء ، وقد طاقه طوقا ، وأطاقه ،

وأطاق عليه ، والاسم الطاقة[٦٣] ، والمعنى هنا القدرة على الصبر .

١- بَخيل ٢- حَريص ٣- لِجّهْ ٤- زطّي ٥- مْكَفّخ ٦- بُرْصْ :

كلها بمعنى البخل المعروف ، وهو ضد الكرم ، ولكن على تفاوت في درجاته ، فالبخيل معروف ويرادفه (الحريص) تماماً في اللهجة . والحرص في الفصيح من الكلام العربي : الجشع ، وشدة الإرادة ، والشره إلى المطلوب ، وقد حرص كضرب وسمع فهو حريص من حُرَاص وحُرَصاء[٦٤] ، ومن هذا يتبين أن البخيل سمى في اللهجة حريصا لشدة شرهه إلى المال .

وأما (لِجّهْ) فقد حدثني بعض التجار - الذين كانت لهم صلات تجارية واسعة بالهند فيما مضى - أنها هندية ، وأصلها (لجّى) ، بمعنى بخيل ، فحرف إلى (لجّة) ، وبهذا يبطل الترادف التام بينها وبين بقية الألفاظ المذكورة ، لاختلال شرط اتحاد البيئة اللغوية ، هذا إن لم يكن من قولهم : رجل لكّىّ : ومعناه مكتنز اللحم[٦٥] ، فتطورت الدلالة من اكتناز اللحم إلى اكتناز المال ، والشح في إنفاقه .

ومثلها لفظ (زطّى) - بكسرة خفيفة مع تفخيم الزاي - فقد نقل الفيروز أبادي أن (الزّطّ) جيل من الهند ، معرب (جَت) بالفتح ، والقياس يقتضي فتح معربه أيضا ، الواحد زّطى[٦٦] . ولعل في نطقها مفخة الزاي - في اللهجة - ما يؤيد القول بأنها معرب (جت) ، لأن الزاي إذا فخمت قرب نطقها من الجيم .

وبالنظر إلى هذا الأصل يبطل الترادف التام ، ويبطله الاستعمال أيضاً ، وذلك أن اللفظ فيه دلالة على شدة البخل ، فيكون الترادف غير تام بينه وبين بقية ألفاظ الباب .

ولفظ (مْكَفّخ) مشترك في معناه مع بقية الألفاظ ، ولكنه مستخدم عند النساء أكثر من الرجال ، وإذا تجاهلنا الفروق اللهجية بين الرجال والنساء في اللهجة الواحدة ، فيكون الترادف تاما بينه وبين (بخيل) و (حريص) .

وأصل (الكفخ) : الضرب ، يقال كفخه كفخا إذا ضربه . وقفخ الشيء قفخا

وقفاخا : ضربه ، ولا يكون القفخ إلا على شيء صلب ، أو على شيء أجوف ، أو على الرأس[٦٧] ، وكذلك معناه في اللهجة . فكأن (المكفخ) مضروب على يديه ، لأن ضرب على يده معناه أمسك وكفه عن الشيء[٦٨] ، والمعنى المقصود هنا هو الإمساك عن الأنفاق والكف عنه وذلك هو معنى البخل تماما .

وأما (بُرْص) فهو مرادف تام لكل من (بخيل) و (حريص) ، ولعل أصله من قولهم في المجاز : أرض برصاء وهي العارية من النبات[٦٩] . ونقل ابن منظور عن ابن شميل أن البرصة مفرد براص ، وهي أمكنة من الرمل بيض ولا تنبت شيئا[٧٠] ، والصلة بين هذا المعنى وبين البخل واضحة وهي عدم العطاء .

١- بِلَعْ ٢- زرَط :

البلع فصيح معروف وهو تناول الشيء عن طريق الفم . ومثله الزرط يقال زرط اللقمة : ابتلعها[٧١] . وهو كذلك في اللهجة البحرينية ، ولكنه يفيد البلع السريع بخاصة للقمة المتماسكة . وبهذا يكون الترادف بينهما غير تام ، لإفادة الثاني مزيد إيحاء في المعنى .

١- يِخَازِر ٢- يِتِبَخّص ٣- يِتِفَهّر ٤- يِتِمَكّل ٥- يِگِز :

جميعها يفيد التحديق بالنظر والتعمق فيه . والترادف تام بين كل من الأول والثاني والثالث والرابع . وشذ عنها الخامس في تمام الترادف ، لاختلال شرط الاتحاد في البيئة اللغوية ، فهو معار من اللغة الفارسية ، وأصلها (گز) وهو وحدة قياس طول تساوي ذراعا ، وقد اشتق منه الفعل (يِگِز) في اللهجة البحرينية ، فيقال : (فلان يگِز فلان) بمعنى أنه يحدق فيه بالنظر من أعلاه إلى أسفله ، وكأنه يقيس طوله وشكله ، ويقال : (فلان يگز الخَلَگ) ، أي يذرع القماش . هذا وقد نقل ابن منظور أن الكزة : أصغر القياس[٧٢] .

وأصل (يِخَازر) من قول العرب تخازر الرجل : إذا ضيق جفنه ليحدد النظر ، وقيل : إذا نظر بمؤخر عينه . والخزر - بالتحريك - هو كسر العين بصرها خلقة ،

وقيل : هو ضيق العين وصغرها ، وقيل هو النظر الذي كأنه في أحد الشقين وقيل غير ذلك[٧٣] .

وأما التبخص : فهو التحديق بالنظر ، وشخوص البصر[٧٤] . والبخص : مصدر بخص عينه يبخصها بخصا : أغارها[٧٥] .

و (تفهر) مادته عربية ، ولكن ليس في معانيه ما يدل على النظر ، أو شيء من صفاته ، إلا أن يكون مأخوذا من قولهم : تفهر في المال بمعنى اتسع[٧٦] ، ثم تطورت دلالته إلى اتساع النظر . وربما كان مأخوذا من معنى مفاهر الإنسان ، وهي لحم صدره وأفْهر : إذا اجتمع لحمه وتكتل ، فكان مُعَجراً وهو أقبح السمن[٧٧] ، والعلاقة بين هذا المعنى وبين (تفهر) هي أن (المتفهر) يجمع لحم جفنيه ليحدد النظر .

و (يتمَكّلْ) : عربي فصيح ، أصله من مقلة العين ، وسميت مقلة لأنها ترمي بالنظر والمَقْلُ : النظر ، ومَقَلَه بعينه يَمْقُله مَقْلا : نظر إليه ، ويقال : ما مَقَلَتْه عيني منذ اليوم[٧٨] .

١- خَافْ ٢- تِبَرْعَصْ ٣- تِصَرْوَع ٤- تِخلْبَصْ ٥- تِخَرّعْ :

المشترك الدلالي العام بين هذه الألفاظ هو الخوف ، ولفظ (خاف) أم الباب ، وهو أعمها .

و (تِبَرْعَصْ) : خاف خوفا شديدا واضطرب ، بحيث يكون رد فعل ظاهرا على صاحبه ، وفي أصل اللغة : التّبَرْعُصُ والتّبَعْرُصُ : الاضطراب[٧٩] .

ويفيد (تِصَرْوع) معنى الخوف بسبب شيء مفاجئ ، قد يكون من صوت عال مزعج مثلا . ولعل الأصل من صرعه بمعنى غلبه ، وذلك أن الخوف يصرع الخائف .

ويدل (تِخلْبَصْ) على الخوف المفاجئ مع الاضطراب ، ومثله (تخرّعْ) ، وجاء (تخليص) من خَلْبَصَ : أي هرب[٨٠] ، والهرب رد فعل للخوف ، وأصل (تِخرّع) من الخرْع ، وهو الدهش[٨١] ، وبين الدهش والمفاجأة صلة واضحة .

ومن هذا كله يتبين أن الترادف تام بين كل من (تخليص) و (تخرع) ، وغير تام بين بقية الألفاظ الخمسة ، لإفادة بعضها معاني إضافية : فلفظ (خاف) عام في دلالته على الخوف من غير تخصيص ، و (تبرعص) فيه شدة الخوف مع الاضطراب ، وظهور رد الفعل . وفي كل من (تصروع) و (تخلبص) و (تخرع) معنى الخوف من شيء مفاجئ ، إلا أن (تصروع) قد يستخدم للدلالة على الخوف من صوت عال مفاجئ غالبا .

١- ظُرُبَهْ ٢- طَگَهْ ٣- لَخّهْ ٤- صَخَهْ ٥- لْفَحَه
٦- لْچَخَهْ ٧- لَتَهْ ٨- لْشطَهْ ٩- بْزَخَهْ ١٠- بْسطهْ
١١- صُنْگُهْ ١٢- صْفعَهْ ١٣- كُفْخَهْ ١٤-لْطمَهْ ١٥- سْطَرَهْ

الضرب فصيح معروف ، وهو المعنى العام المشترك في هذه الألفاظ ، وتنطق ضادها في اللهجة ظاء .

ويرادفه تماما (صَكّهْ) ، وأصله دَقّه الذي يعني ضربه فَهَشمه فاندق[٨٢] ، فأبدل من الدال طاء في اللهجة ، ومما يؤكد هذا أن بعضهم يقول : (دگّهْ) ، فيظهر الدال على أصلها . ويستخدم هذا المعنى الأصلي في اللهجة كذلك للدلالة على ضرب الشيء وهشمه ليندق ، كما في قولهم : (دگِ الحَبّ) . وأما طَگّهْ) بمعنى ضربه فهو كثير الاستعمال .

واللفظان (ظُرُبَهْ) و (طَگه) يرادفان بقية ألفاظ الباب ترادفا جزئيا ، لإفادة الألفاظ الأخرى بعض المعاني الإضافية ، ومعظم هذه المعاني صفات للضرب .

و (لَخّهْ) يعني ضربه ضربة سريعة مؤلمة ، يقال : (لخَهْ بْكَفّ) ، وغالبا ما يكون (اللخّ) على الرأس . وفي الفصحى : لخ فلانا : لطمه[٨٣] .

ويرادفه تماما (طَگّهْ) ، إلا إذا جاء بعدها ما يفيد معنى آخر ، كقولهم : (صخَهْ

بْحَصَاه) أي رماه بها . وأصل الصخّ : الضرب بشيء صلب على مصمت ، وصوت الصخرة[٨٤] .

و (لَفَحهْ) أيضا : ضربه ضربة سريعة مؤلمة ، ويكون (اللفح) غالباً بآلة ضرب ، نحو قولهم : (لَفَحَهْ بْلُوح) أو (لَفَحَهْ بنْعَال) وقد يقال : (لَفَحَهْ بْكَفّ) ، وبهذا يكون الترادف غير تام بينه وبين ما سبق ، وأصل المعني مأخوذ من قول العرب في اللغة الفصيحة : لفحه بالسيف - كمنعه - أي ضربه ، وقد يكون مأخوذا من قولهم : لفخه - بالخاء المعجمة - على رأسه ، وفي رأسه : إذا ضربه بالعصا ، خصه به بعضهم ، أو لطمه . واللفخ : ضرب جميع الرأس ، وقيل : هو كالكفخ[٨٥] .

و (لْجَخَه) : ضربه ضربة خفيفة ، وقد تكون باليد أو بآلة . ولم أجد له أصلا فصيحا وهو يرادف السابقات مرادفة غير تامة .

و (لَتَهْ) : ضربه ضربة سريعة مؤلمة ، تقع على أي موضع من الجسم غير الرأس ، ويكون الضرب بآلة مرنة كعصا الخيزران أو الحبل أو « العقال » أو غيرها . ويرادف السابقات على غير التمام .

وأصل اللتّ : الدق ، قال الشاعر :

حَطْما على الأنْفِ وَوَسْما عَلَبًا   وبالعصا لتّا وَخنقا سَأبا[٨٦]

ويرادفه تماما (لْشِطَهْ) الذي قد يكون في أصله مقلوب لطش ، ثم قلب السين شيئا ، واللطس هو الضرب للشئ بالشئ العريض ، يقال لَطَسه يَلْطُسُه لَطْسا . وقال ابن الأعرابي : اللطس : اللطم[٨٧] .

و (بْزَخَهْ) : ضربه ضربة خفيفة ، غالبا ما تكون على الظهر والكتف ، و (البزخة) يسمع لها صوت ، وتكون باليد ، وقد يقال (بْزَخَه بْلُوح) وما شابه ، ويرادف الألفاظ السابقة مرادفة غير تامة ، لاختصاص الضرب فيه بموضع معين من الجسم .

وأصله الفصيح هو البَزَخ - محركة - وهو تقاعس الظهر عن البطن ، وقيل : هو

أن يدخل البطن وتخرج الثنة وما يليها . وبَزَخَه بَزْخا : ضربه ، وبَزَخ ظهره بالعصا يَبْزَخه بَزْخا : ضربه [٨٨] .

و (بَسطَهْ) - (باشمام السين بين الضم والكسر) - ضربه بكف مفتوحة ، وواضح أن أصله جاء من بَسْط الكف للضرب . ويرادف ألفاظ الباب على وجه غير تام ؛ لاختصاص الضرب فيه بالكف المبسوطة .

و (صَفُكَهْ) : ضربه على رأسه باليد أو بشئ . ويرادف الباقيات في بابه مرادفة غير تامة ؛ لتعين موضع الضرب فيه على الرأس . وأصل الصفق هو الضرب يسمع له صوت . وصفْقا العنق : جانباه . وصفق على يده صفقا وصفقة : ضرب يده على يده . وصفق فلانا بالسيف : ضربه [٨٩] . والأقرب من ذلك كله - إلى معنى اللفظ في اللهجة - قول العرب : صفقت وجهه : إذا لطمته [٩٠] .

و (صَفَعَهْ) : لطمه ، ويشترك في معناه مع الألفاظ السابقة على وجه غير تام ، وكنت أحسب أن معنى الصفع في الفصحى ، مرادف تماما لما هو مستخدم اليوم في اللهجة البحرينية ، حتى إذا ما رجعت إلى بعض المعاجم ، وجدت أن صَفَعَه يصْفَعُه صَفْعا معناه ضرب بجمع كفه قفاه ، وقيل : هو أن يبسط الرجل كفه فيضرب بها قفا الإنسان أو بدنه [٩١] . وهو بهذا المعنى الأخير أقرب إلى (البزخ) - المتقدم آنفاً - في اللهجة البحرينية .

و (لطَمَهْ) : يجري على المعنى الفصيح ، وهو بهذا المعنى مرادف تام لـ (صَفَعَهْ) وقد يختص (اللطم) بالضرب على الفم ، فيقال : لطمه على (بُوزِهْ) أي فمه ، فيكون الترادف بهذا المعنى غير تام بينه وبين (صفعه) .

واللطم معروف في اللغة الفصحى ، من لَطَمْتُه لطْما ، وهو الضرب على الوجه - وقيل على الخد - ببسط الكف . وخد مُلَطَّم : لطم كثيرا [٩٢] .

و (سْطَرَهْ) يرادف (لَطَمَه) على التمام ، وأصله في اللهجة : ضربه بكف مبسوطة على (صاطره) - يعني خده - بالصاد المهملة ، المبدلة من السين أصلا . وسطره يعني صرعه [٩٣] . قال الزجاج : كل سين بعدها طاء يجوز أن تقلب صادا يقال : سطر وصطر [٩٤] ولم أجد في كتب اللغة والمعاجم العربية لفظ ساطر أو (صاطر) بمعنى خد وقد يكون اندثر من الفصحى بهذا المعنى .

و (كَفَخَهْ) : ضربه على رأسه ، ويكون (الكفخ) باليد غالبا ، ويختص بالرأس، ولذا فالترادف فيه مع بقية ألفاظ الباب غير تام . ولكن إذا صح أن الكفخ يكون باليد أو بشيء ، فيكون مرادفا تاما (للصفك) المتقدم . وأما أصله فهو فصيح ، سبق الوقوف عليه في الكلام على كل من (مْكَفّخ) و (لْفَحَهْ) .

ونجتزئ بهذا القدر من المترادفات في اللهجة البحرينية ، لنخرج ببعض النتائج الهامة فيما يلي :

نتائج الدراسة :

أولاً : الترادف في اللغات واللهجات ظاهرة ثابتة لا مجال لإنكارها .

ثانياً : نشأت نظرية الفروق اللغوية في اللغة العربية توفيقا بين القائلين بالترادف المطلق ، وبين منكري وقوعه في العربية . ومنها استوحيت فكرة تقسيم المترادفات إلى تام وغير تام .

ثالثا : تبنى كثير من علماء اللغة الغربيين هذه النظرية ، فأنكروا الترادف التام بينما قسم آخرون منهم الترادف في اللغة إلى تام وغير تام ، أو حقيقي وغير حقيقي ، أو إدراكي ووجداني ، أو غير ذلك من التقسيمات التي تدل على القول بالفروق . وقد سبقهم في ذلك كله طائفة من اللغويين العرب القدماء المشتغلين بفقه اللغة العربية .

رابعاً : تكشف الدراسة عن عدم إدراك الفروق الدقيقة بين المترادفات في اللهجة البحرينية لدى كثيرين من الناطقين بها ، وكأنهم بذلك يقولون بالترادف المطلق ، بينما يتمحل فريق آخر في التماس بعض الفروق ، وفريق ثالث يدرك الفروق ويجليها بوضوح .

خامساً : الجدولان التاليان يشتملان على مؤشرات إحصائية مبنية على المترادفات التي تناولتها الدراسة :

جدول (١)

	العدد	النسبة المئوية	الملاحظات
المترادفات الواردة في الدراسة	٨٠	-	
الألفاظ العربية الأصل	٧٦	٩٥٪	
الألفاظ الداخلية	٤	٥٪	لم يحتسب لفظ واحد للشك في أصله
الترادف التام	٢٦	٣٢ر٥٪	
الترادف غير التام	٤٦	٥٧ر٥٪	
الترادف تام بمعنى من معاني اللفظ وغير تام بمعنى آخر	٨	١٠٪	

جدول (٢)

تفسير وقوع الترادف غير التام	العدد	النسبة المئوية	الملاحظات
المترادفات غير التامة	٤٦		
عدم الاتحاد التام في الدلالة	٤٠	٨٦ر٩٥٪	
عدم الاتحاد في البيئة اللغوية	٤	٦ر٩٥ ٪	لم يحتسب لفظ واحد للشك في أصله
عدم الاتحاد في العصر	١	٢ر١٧٪	
التطور الصوتي	١	٢ر١٧ ٪	

ويلاحظ على الجدولين ما يأتي :

١- نسبة الألفاظ الدخيلة في المترادفات التي تناولتها الدراسة هي ٥٪ ، وهذه النسبة ، لا تمثل النسبة الحقيقية للدخيل على اللهجة البحرينية عامة فهي أكثر من ذلك بكثير كما تشير إليه بعض الدراسات(٩٥) .

٢- معظم المترادفات غير تامة . ونسبتها المئوية (٧٥ر٥) تشير إلى فارق كمي كبير بينها وبين المترادفات التامة وهي (٣٢ر٥) . وبالرغم من هذا الفارق الكبير ، فإن نسبة الترادف التام ما تزال كبيرة ، بالنظر إلى مذهب أكثر علماء اللغة المحدثين الذين ينكرون الترادف التام .

والحق أن مثل هذا الترادف التام لاشك في وقوعه في اللهجة البحرينية وسواء كان في أصله غير تام - ثم استعمل تاما ونسى أصله ، أم لم يكن كذلك - فالحقيقة التي تجرى عليها اللهجة اليوم هي أنه واقع على التمام عند أهلها .

٣- تعدد المعاني في اللفظ الواحد شائع في اللغة ، وتشير الإحصائية السابقة إلى أنه يقع الترادف بين لفظ وآخر في معنى واحد فقط من المعاني المختلفة للفظ الآخر ، وذلك بنسبة ١٠٪ وهي نسبة ليست قليلة ، وبالرجوع إلى الألفاظ الثمانية التي تمثل هذه النسبة ، يتبين أنها مترادفات غير تامة ، وذلك في الحقيقة زيادة تضاف إلى المترادفات غير التامة لتصبح نسبتها ٦٧٫٥٪ (٥٧٫٥ + ١٠ = ٦٧٫٥) ، وهذه النسبة معقولة ، لتبني القول بغلبة نظرية الفروق في اللهجة البحرينية ، بحسبانها حالة دراسية يمكن تعميمها إلى حد كبير في اللغة العربية ولهجاتها .

وسواء صح هذا التعميم بهذه الصورة ، أم لم يصح ، فإن الإحصائية السابقة تؤكد وقوع الترادف التام في اللهجة البحرينية بنسبة جيدة - في الألفاظ التي بنيت عليها هذه الدراسة - وهي ٣٢٫٥٪ .

٤- وإذا نظرنا إلى تفسير وقوع الترادف غير التام - كما هو موضح في الجدول (٢) وفقاً لشروط علماء اللغة ، فإننا نخرج بوضوح أن الغالبية العظمى من المترادفات غير التامة وقعت بسبب عدم الاتحاد التام في الدلالة ، وذلك بنسبة تشارف ٨٧٪ ، وهذا يؤكد ما ذهب إليه بعض اللغويين من أن معظم المترادفات وقعت بسبب إغفال الفروق في جميع أشكال المعنى : الأساس والإضافي والأسلوبي والنفسي والإيحائي ، وغيرها مما تم الكشف عنه في مواضعه .

وأما نسبة الترادف غير التام بسبب إغفال عامل الاتحاد في البيئة اللغوية ، فهي تشارف ٧٪ ، وهي نسبة قليلة . وأقل منها في النسبة المئوية ما كان الترادف فيه غير تام بسبب فقدان عامل الاتحاد في العصر ، حيث جاءت نسبته حوالي ٢٪ ، ومثلها تماماً نسبة ما وقع بسبب التطور الصوتي .

الهوامش

(١) انظر في ذلك :

Al-Tagir,M.A, Language and Linguistic Origins in Bahrain, The Baharnah Dialect of Arabic, Kegan Paul International, London, 1982.

(٢) انظر باب (ردف) في لسان العرب ، لابن منظور ، تح. عبد الله علي الكبير وآخرين ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٨٦م ، والصحاح في اللغة ، للجوهري ، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٧٩ ، والقاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، تح . مكتب تحقيق التراث ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٧م .

(٣) الفهرست ، لابن النديم ، تح . رضا تجدد ، مكتبة الأسدي طهران ، ١٣٩١هـ ، ص ٥٠ .

(٤) نفسه ص ٥٨ .

(٥) نفسه ص ٦٠ .

(٦) نفسه ص ٦٤ .

(٧) نفسه ص ٩٠ .

(٨) نفسه ص ٩٢ .

(٩) نفسه ص ٦٦ .

(١٠) نفسه ص ٩٤ .

(١١) علم الدلالة ، لأحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٣م ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(١٢) Ullmann, S., Semantics, an Introduction to the Science of Meaning, Basil Blackwell, Oxford, 1972, P.141.

(١٣) Palmer, F., Semantics a New Outline, Cambridge University Press, Cambridge, 1970, P.60.

(١٤) Hervey, S., Aximatic Semantics, Scottish Academic Press, Edinburgh, 1979, P.94.

(١٥) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، لأبي الحسين أحمد بن فارس ، تح· مصطفى الشويمي ، مؤسسة أ· بدران للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٩٦ ·

(١٦) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، لجلال الدين السيوطي ، تح· محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ج١/٤٠٥ ·

(١٧) التعريفات ، لعلي بن محمد الجرجاني ، تح· إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت، ١٩٨٥م ، ص ٧٧ – ٧٨ ·

(١٨) في اللهجات العربية ، إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٢م ، ص ١٧٨ ·

(١٩) نفسه ص ١٨٢ ·

(٢٠) نفسه ص ١٨٣ ·

(٢١) Palmer, F.,Semantics a New Outline, PP.61-62.

(٢٢) Lyons, J., Introduction to Theoretical Linguistics, The University Press, Cambridge, 1969, pp.448-450.

(٢٣) في اللهجات العربية ص ١٧٨ ·

(٢٤) الخصائص ، لابن جني ، تح· محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت ، ج١/٣٧٤ ·

(٢٥) في اللهجات العربية ، ص ١٧٩ ·

(٢٦) نفسه ·

(٢٧) انظر القاموس المحيط : (مطط) ·

(٢٨) انظر تاج العروس ، لمحمد مرتضى الزبيدي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٦م ، مادة (تلل)·

(٢٩) نفسه : (دلف) ·

(٣٠) لسان العرب : (ولى) ·

(٣١) القاموس المحيط : (دبر) ·

(٣٢) معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، تح· عبد السلام هارون ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٦٦هـ ، مادة (دبر) ٢/٣٢٤ ·

(٣٣) نفسه : (روح) ·

(٣٤) تاج العروس : (قرح) .

(٣٥) جمهرة اللغة ، لأبي بكر بن دريد ، مكتبة المثنى ، بغداد ، د.ت مادة (بثر) ١/ ٢٠٠ .

(٣٦) تهذيب اللغة ، لأبي منصور الأزهري ، تحقيق مجموعة من الأساتذة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، مادة : (رقق) ٨/ ٢٨٤ .

(٣٧) نفسه : (ق ح ح) ٣/ ٣٨٤ .

(٣٨) تاج العروس (كرر) .

(٣٩) نفسه : (فدع) .

(٤٠) نفسه : (نول) .

(٤١) الصحاح : (كرى) .

(٤٢) القاموس المحيط : (قوز) .

(٤٣) تاج العروس : (رقم) .

(٤٤) نفسه : (ختم) .

(٤٥) الصحاح : (حوش) .

(٤٦) القاموس المحيط : (د ش ش) .

(٤٧) التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية ، تأليف الحسن بن محمد الصغاني، تح . محمد أبي الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، مادة : (د ش ش) .

(٤٨) لسان العرب : (درعم) و (دعرم) .

(٤٩) تهذيب اللغة : (سطم) ١٢/ ٣٥٠ .

(٥٠) الصحاح : (ضوا) .

(٥١) جمهرة اللغة : (حرش) ٢/ ١٣٣ .

(٥٢) القاموس المحيط : (جمع) .

(٥٣) نفسه : (ضبب) .

(٥٤) المحكم والمحيط الاعظم ، لعلي بن إسماعيل بن سيده ، تح . عبد الستار فراج وآخرين ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، مادة : (خمم) ٤/ ٣٨٢ .

(٥٥) تاج العروس : (عسا) .

(٥٦) لسان العرب : (دعس) .

(٥٧) نفسه : (زرنق) .

(٥٨) القاموس المحيط : (حردب) .

(٥٩) معجم مقاييس اللغة : (برض) ١/ ٢٢٠ .

(٦٠) لسان العرب (مقق) .

(٦١) نفسه : (خلق) .

(٦٢) جمهرة اللغة : (خقل) ٢/ ٢٤٠ .

(٦٣) لسان العرب : (صوق) .

(٦٤) المحكم والمحيط الأعظم : (حرص) ، والقاموس المحيط : (حرص) .

(٦٥) لسان العرب : (ل ك ك) .

(٦٦) القاموس المحيط : (ز ط ط) .

(٦٧) لسان العرب : (كفخ) و (قفخ) .

(٦٨) نفسه : (ضرب) .

(٦٩) أساس البلاغة ، للزمخشري ، دار صادر ، بيروت ، د.ت. مادة : (برص) .

(٧٠) لسان العرب : (برص) .

(٧١) القاموس المحيط : (زرط) .

(٧٢) لسان العرب : (كزز) .

(٧٣) نفسه : (خزر) .

(٧٤) نفسه : (بخص) .

(٧٥) القاموس المحيط : (بخص) .

(٧٦) جمهرة اللغة : (رفه) ٢/ ٤٠٢ .

(٧٧) لسان العرب : (فهر) .

(٧٨) المحكم : (مقل) ٦/ ٢٧١ .

(٧٩) القاموس المحيط : (برعص) و (بعرص) .

(٨٠) نفسه : (خلبص) .

(٨١) نفسه : (خرع) .

(٨٢) نفسه : (د ق ق) .

(٨٣) تاج العروس : (لخخ) .

(٨٤) القاموس المحيط : (صخ) .

(٨٥) تاج العروس : (لفح) و (لفخ) ، وانظر ما تقدم في الكلام على لفظ (مكفخ) هامش (٦٦) .

(٨٦) نفسه : (ل ت ت) .

(٨٧) لسان العرب : (لطس) .

(٨٨) تاج العروس : (بزخ) .

(٨٩) القاموس المحيط : (صفق) .

(٩٠) جمهرة اللغة : (صفق) ٨١/٣ .

(٩١) لسان العرب : (صفع) .

(٩٢) أساس البلاغة : (لطم) . وانظر السابق : (لطم) .

(٩٣) تاج العروس : (سطر) .

(٩٤) نفسه .

(٩٥) انظر خطر الغزو اللغوي على المواطن البحريني ، د. حسين قورة ، بحث مطبوع على الآلة الكاتبة ضمن سلسلة البحوث التربوية ، جامعة البحرين ، كلية التربية ، ١٩٨٩ ، ص ٨٣ - ٨٧ .

مصادر البحث

- أساس البلاغة ، للزمخشري ، دار صادر ، بيروت ، د . ت .
- التعريفات ، لعلي بن محمد الجرجاني ، تح . إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٥م .
- التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية ، تأليف الحسن بن محمد الصغاني ، تح. محمد أبي الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٣م.
- تهذيب اللغة ، لأبي منصور الأزهري ، تحقيق مجموعة من الأساتذة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة .
- جمهرة اللغة ، لأبي بكر بن دريد ، مكتبة المثنى ، بغداد ، د.ت.
- خطر الغزو اللغوي على المواطن البحريني ، د . حسين قورة ، بحث مطبوع على الآلة الكاتبة ضمن سلسلة البحوث التربوية ، جامعة البحرين ، كلية التربية ، ١٩٨٩م .
- الخصائص ، لابن جني ، تح. محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت .
- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، لأبي الحسين أحمد بن فارس ، تح . مصطفى الشويمي ، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٣ .
- الصحاح في اللغة ، للجوهري ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- علم الدلالة ، لأحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٣م .
- الفهرست ، لابن النديم ، تح . رضا تجدد ، مكتبة الأسدي طهران ، ١٣٩١هـ .
- في اللهجات العربية ، إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٢.
- القاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، تح. مكتب تحقيق التراث ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ١٩٨٧م .
- لسان العرب ، لابن منظور ، تح. عبد الله علي الكبير وآخرين ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٨٦م .
- المحكم والمحيط الأعظم ، لعلي بن إسماعيل بن سيده ، تح. عبد الستار فراج وآخرين ،

مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٨م ٠

- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، لجلال الدين السيوطي ، تح٠ محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٨٦ ٠
- معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، تح٠ عبد السلام هارون ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٦٦هـ ٠

- Hervey, S., Aximatic Semantics, Scottish Academic Press, Edinburgh, 1979, p.94.
- Lyons, J., Introduction to Theoretical Linguistics, The University Press, Cambridge, 1969,
- Palmer, F., Semantics a New Outline, Cambridge University Press, Cambridge, 1979.
- Al-Tagir, M.A, Language and Linguistic Origins in Bahrain, The Baharnah Dialect of Arabic, Kegan Paulinternational, London, 1982.
- Ullmann, S., Semantics, an Introduction to the Science of Meaning, Basil Blackwell, Oxford,.

ابن خفاجة الأندلسي والنقد الأدبي

أ.د. منجد مصطفى بهجت

قسم اللغة العربية

الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

تمهيد :

لا يحتاج شاعر مثل ابن خفاجة إلى أن يعرّف به ، وبجلال قدره في ميدان الشعر ، فهو يوشك أن يكون عنواناً كبيراً للشعر الأندلسي ، في أبرز ملامحه وأجلى مظاهره ، وكان شعره متداولاً وذائعاً على امتداد العصور الأدبية ، حتى يومنا هذا[1] ، « كان رأس مدرسة في الشعر لها انصارها المعجبون بها وخصومها الناعون عليها »[2] ، وشاعريته هي التي جعلت ابن قزمان (ت ٥٥٥ هـ) يعزف عن الشعر الفصيح ويتحول عنه إلى الزّجل بعد أن رأى نفسه تقصر عن شعر ابن خفاجة وغيره[3] . وقد قيض لدراسة اشعاره وتحقيقها عدد من الباحثين[4] .

وأبو اسحاق إبراهيم بن أبي الفتح ، المتوفى سنة ٥٣٣ هـ عاش عصري ملوك الطوائف والمرابطين ، ويعد أولهما أزهى عصور الأندلس الأدبية تألقا ، والثاني كان امتداداً لسابقه في الحياة الأدبية والثقافية ، عرف بأنه من ذوي المواهب المزدوجة ، حيث استطاع أن يبدع في مضماري الشعر والنثر ولم تعن الدراسات بالوقوف عند نصوصه النثرية التي بلغت ثلاثة وأربعين نصا ، من الرسائل ذات المكانة والبراعة ، على ما قيل من أن جانبيهما متنافر ، وفي الأندلس نبغ شعراء كتاب ، أو كتّاب شعراء ، ولعل ابرزهم ابن شهيد وابن زيدون وابن برد الأصغر وابن الأبار وابن الخطيب .

لم يكن نصيب النقد الأدبي أقل شأنا من الأدب ، في عصر ابن خفاجة ، فقد عرفت الأندلس ثلاثة من كبار نقادها هم ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) ، والفتح بن خاقان (ت ٥٢٩ هـ) وابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ)[5] ، والكلاعي (ت

٥٥٠هـ) ، وإذا كان ابن بسام صاحب موقف نقدي شامل ، كما يرى الدكتور إحسان عباس ، فإن ابن خفاجة عنده ، أوضح الشعراء مذهبا في النقد[٦] .

لقد حظيت شاعريته بعناية الباحثين فأفردت فيه دراسات ورسائل جامعية[٧] ، وبحوث ضمن دراسات الأدب الأندلسي عامة حيث كان مقروناً بأبرز شعراء الأندلس بأمثال ابن زيدون والمعتمد بن عباد وابن الخطيب .

تعني هذه الدراسة بالوقوف عند جانب لم تتلبث لديه الدراسات الحديثة[٨] ذلكم هو القيم النقدية التي اعرب عنها الشاعر في ديوانه ، وتتجلى هذه القيم في مواطن مختلفة ، أهمها خطبة الديوان التي كشف الشاعر فيها عن منهجه في الشعر ، ومعاييره في المفاضلة بين الاشعار ، وقيماء نقدية أخرى ستتضح عما قريب ، وفيها يرسم الخطوط العريضة لحياته الفنية ، منذ بدأ يعالج الشعر حتى شرع في جمع ديوانه[٩] ، وعلى الرغم من قلة هذه الصفحات فإن قيمتها النقدية لا تقل عن قيمة الآراء التي قدمها عدد من نقاد الأندلسي ، وقد رأى أحد الباحثين انها تمثل تجربته الأدبية الشخصية[١٠] ، لكننا نرى أنها تتسع لتجربته وتجارب الآخرين .

لم يكن ابن خفاجة بدعا بين شعراء العربية - منذ أقدم عصورها - الذين مارسوا النقد وخاضوا مشكلاته ، فقد عرفه الشعر العربي قبل الإسلام وكان لشعرائه دور بارز في مجال النقد وامتد ذلك في عصور الأدب الأخرى « وقيل مرة للبحتري : أمسلم أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : أبو نواس لأنه يتصرف في كل طريق ، ومسلم يلزم طريقاً واحداً لا يتعداه ، فقيل له إن أحمد بن يحيى ثعلبا لا يوافقك على هذا . فقال : ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه لأنه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقة »[١١] « فقد كان هؤلاء الشعراء النقاد أقدر من غيرهم على فهم القيمة الحقيقية للشعر »[١٢] .

ويمكننا أن نعكس الصورة كذلك ، حين نؤكد أهمية النقد للشاعر بعد أن رأينا أهمية أن يكون الناقد شاعرا ، ولذلك أطلقوا تسمية (الخنذيذ) على الشاعر « الذي يجمع إلى جودة الشعر رواية الجيد من شعر غيره » . « وسئل رؤبة عن الفحل من الشعراء فقال : هو الراوية يريد أنه إذا روى استفحل » ولذا كان أهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب « فإنه قد يميز الشعر من لا يقوله كالبزاز يميز من الثياب ما لم ينسجه »[١٣] . وعرفت الأندلس عدداً من الشعراء النقاد أمثال ابن

شهيد وابن حزم وحازم القرطاجني (ت ٦٤٨هـ) وابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) .

ويتفق النقد الغربي كذلك على أهمية دور الشاعر في ممارسة النقد ، فقد قال أرسطو « أنك لا تستطيع أن تكون حاكما عاد لا على شيء لا تستطيع أنت نفسك أن تقوم به . وكتب بن جونسون « الحكم على الشعراء ليس إلا ملكة الشعراء »[١٤] .

وتلي مقدمة الشاعر لديوانه ، مقدماته لقصائده التي نظمت نثراً أدبياً رائعاً كما انطوت على بعض الملامح النقدية ، ويمكن أن تكون أشعار الشاعر مصدراً ثالثاً للمادة النقدية عنده فيما صحّت تسميته بالنقد المنظوم ، وسنستعرض القضايا النقدية عند الشاعر حسب ورودها في خطبة الديوان أو مقدمته[١٥] .

- ١ -

مكونات الشاعر وثقافته :

وأول قضية نقدية تناولها في خطبة الديوان بعد ديباجة التحميد والصلاة والتسليم على الرسول عليه الصلاة والسلام تتعلق بمكونات الشاعر وثقافته ، فقد الهم قول الشعر في سن مبكرة « والشباب يرف غضارةً ويخف بي غَرارةً »[١٦] ، وعملية الإبداع لا تقترن بسن معينة للإنسان ، ولكن توزيعها يكون مركزاً في سن مبكرة نسبياً ، كما تشير إلى ذلك الدراسات الحديثة[١٧] .

ويصارحنا بأسماء الشعراء الذين تصفح أشعارهم وحذا حذوهم وأخذ مأخذهم ، الرضي ومهيار الديلمي وعبد المحسن الصوري ، فتملكه من محاسن أشعارهم الرائعة ، وألفاظهم الشائقة ما ينسجم مع برد الشباب فمال إليهم ميلا شديداً وصار يروم التشبه بهم ، فهل عنى حقاً ما يقول ؟ وإلى أي مدى استحوذ هذا الاعجاب على الشاعر ؟ لقد تمكن هؤلاء الثلاثة من الشاعر تمكنا كبيراً بعد أن نالوا نصيبا من اعجابه ونجد في الديوان اشارات واضحة إلى ذلك فتابع الصوري متشبها به ، محتذيا طريقته في تسع مقطعات وقصائد[١٨] ، وأشار إلى متابعته الشريف الرضي في قطعة واحدة[١٩] ، ومهيار الديلمي في قصيدتين[٢٠] . كذلك صرح في موضوع تال باحتذائه المتنبي[٢١]

في لف الغزل بالحماسة في أربع مقطعات وراق له في موضع آخر النظر إلى بيت المتنبي فاحتذاه معارضا[٢٢] ، ونلاحظه يسلك مسلك ابن الرومي في موضوع ذم الورد[٢٣] ، في مقطعة من بيتين ، وهو في ذلك مواكب لأثر أبيات ابن الرومي التي تركت صدى بعيداً لدى شعراء الأندلس ، وعكس هذا الصدى الحميري ، في كتابه البديع[٢٤] ويصرح في أشعاره بأنه يتخذ كبار الشعراء ، ومشهور الأدباء مثلا أعلى له فيقول[٢٥] في مقام الثناء على شعر القاضي ابن اسحاق بن ميمون :

بما حزته من شريف النظـام	وارهفته من حواشي الكلام
فعج « تتصفح » بديع البديع	وتلمح سلامة شعر السلامي

مشيراً إلى بديع الزمان الهمداني (ت ٣٩٨هـ) صاحب المقامات ، ومحمد بن عبد الله السلامي (ت٣٩٣هـ)[٢٦] .

وفي موضع آخر يخاطب أحد أصدقائه في رويّة ملتزماً ما لا يلزم مستهلا أبياته بقوله :

بَرَعت فرعَتَ فمن ذا حَبيبٌ	له الويل أم من أبو الطيّب ؟

وبغداد موطن كبار الشعراء ، ولذلك فكأن قصيدته صادرة عنها لا عن شقر موطنه[٢٧] :

نشأت وشُقْرٌ دارها وكأنما	وردتك زائرةً من الزوراء

ويرى الدكتور إحسان عباس أن ابن خفاجة انفرد في تأثره بالصوري في بناء القصيدة على الجناس الناقص ، وإنه أول شاعر أندلسي يقتفي خطوات الرضي والديلمي في الاشارات إلى الأماكن النجدية والحجازية وأول من أدرك منهم طريقة المتنبي في لف الغزل بالحماسة[٢٨] .

ولم تقتصر ثقافة الشاعر الشعرية على هولاء النفر الثلاثة ، إذ نجد في ثنايا الديوان والرسائل مضمنات لأشعار عدد من شعراء العرب ، أمثال قيس بن الخطيم ، ويزيد بن الطّثرية ، ومجنون ليلى ، وابن الدمينة ، وأبي تمام ، وأبي نواس ، والفرزدق وآخرين[٢٩] ، وله معارضات لعدد من الشعراء منهم ابن صارة الأندلسي ، وابن الصائغ ، وابن رشيق[٣٠] .

ومما يستدل على ثقافة الشاعر الناقد عنايته بصياغة أشعاره وتهذيبه لها في آخر حياته ونظمه مجموعة من المقطعات على لزوم ما لا يلزم ، في ثمانية عشر نصاً فيما أحصيناه في الديوان .

- ٢ -

مفهوم الشعر ومكانة الشاعر :

يأتي حد الشعر عند ابن خفاجة ، غير مختلف في كثير عن حده عند قدامة بن جعفر (ت٣٧٧هـ) يقول : « والشعر يأتلف من معنى ولفظ وعروض وحروف روى » وهي الاركان الأربعة التي أشار إليها النقاد ، مع اختلاف في الألفاظ فقط ، ويعقب ابن خفاجة أن تعذر جزء من هذه الأجزاء أو أكثر يخرج الكلام من النظم إلى النثر .. « حتى ينتظم بحسب المأمول ، أو ينشأ ناقص ماء الحسن والقبول »(٣١) ، وهو إذ يقرر حقيقة تعاشق هذه العناصر الأربعة وتماسكها لصياغة الشعر ، يعلله بطريقة غير مباشرة بسبب تنوع الأسلوب لديه في الديوان بين شعر ونثر ، إذ لم يكن النثر عنده أقل شأنا ومكانة من الشعر .. ورسائله في جودتها من ناحية وكثرتها ، تنبئ عن جمعه بين الملكتين اللتين تحدث النقاد عن تعذر اجتماعهما لدى الأديب الواحد(٣٢) ، فكان إذا خانته ملكة الشعر تحول عنها إلى النثر .. دون أن يتكلف قول الشعر ويهدر قيمته .

وكان ابن خفاجة برع في مزجه بين الشعر والنثر . فتارة يتأخر وأخرى يتقدم ، ويتصل المزج لديه على نحو ما نجد أنه يبدأ الكلام نثراً وينتقل إلى الشعر ويعود ثانية إلى النثر ثم يعود إلى الشعر ، وبعدها إلى النثر وهكذا حتى يكون قد قدم أربع مقطعات شعرية وخمس قطع نثرية في الموضوع ذاته(٣٣) .

والشاعر في هذا فنانٌ ينتقل بين فنين رئيسيين من فنون الكلام « تعلقاً بدر من النثر يساق خلال النظم .. ولعل ذلك أبسط للنفس وأنشط ، وأذهب مع الأنس وأهذب »(٣٤) . لاسيما أنه يستخدم هذا الأسلوب في رسائله إلى أصدقائه ، وإذا كان الجاحظ سيد هذه الطريقة في التأليف والتصنيف ، فإن هذه المزاوجة لم تتحقق عند

الاندلسيين كما تحققت عند ابن خفاجة لأن أرباب النثر والنظم في الأندلس أمثال ابن زيدون ، وابن دراج ، وابن اللبانة ، وابن برد الأصغر وغيرهم مارسوا الضربين منفصلين ، ولم يجمعوا بينهما في مقام واحد إلا قليلا . ولا نشك أن للبعد الجمالي والذوقي أثرهما في هذه الطريقة ، وهي التي جعلته يبقى قصائد الديوان غير مرتبة على القوافي ، ووعد بذلك إلا أنه لم يحققه على الرغم من أنه عاش بعد تنقيحه الديوان حوالي ثمانية عشر عاماً[٣٥] ، وفي تقديري أن الأمر لم يتحقق له لاختلاف المنهجين ، ولأنه اقتنع بأهمية عدم فصل الشعر عن النثر ، فبقى الديوان على ما هو عليه ونظر ابن خفاجة للعمل الإبداعي من زاوية أخرى تتعلق بدرجة الشعر جودة أو رداءة ، ويقرر حقيقة مصيبة في التفاوت الموجود بين شعر الشاعر الواحد « والشعر وإن اهبتل به ليس يخلو جيده من سقط ، وانقسام إلى طرفين ووسط »[٣٦] ويعلل لذلك أن الشاعر في مطلع حياته وتدفق ملكته غيره حين تتقدم به التجربة « فان الاذهان بآخرةٍ تكل »[٣٧] . وقد فهم الدكتور إحسان عباس من العبارة . أن كلال الشاعر يظهر في خاتمة القصيدة[٣٨] .

ويرى الدكتور مصطفى عليان[٣٩] أن تفاوت المستوى الفني في شعر الشاعر ناجم عن تنقيحه وتهذيبه لشعره ، ولكنه في حقيقة ما يقرره ابن خفاجة لا علاقة له بالتنقيح .. بل ربما أدى ذلك إلى تعدد روايات أشعاره بسبب انتشار تلك الأشعار قبل أن يأتي عليها نظر ابن خفاجة ..

ويشير ابن خفاجة إلى مذهبه في الشعر - من حيث الموضوع - وأنه لم ينتجع به كما لا يستنيل ، وإنما يصطنع ويستميل ، اكتفاء بما في يدي من عطايا منان ، وعوارف جواد وهاب[٤٠] « فاغناه عن تبذل وانتجاع »[٤١] وعلى الرغم من أن الديوان يتضمن عدداً من القصائد في مدح عدد من ملوك المرابطين ، فإن الشاعر كان عفيفا مترفعا عن التكسب بشعره يقول ابن خفاجة : « ولكن بين جنبي قلباً همته ما همته ، فهو يرى الصبر أيمن رفيق يصحبه ، والقناعة اكرم ذيل يسحبه ، وعلام يبتذل الوجه مصون مائه ، ويلقى عنه قناع حيائه وإنما الدنيا - رئيس الطمع - سحابة صيف عن قريب تقشع »[٤٢] ، على الرغم من أن إبراهيم بن يوسف بن تاشفين « رفع فأسنى واصطنع فأدنى » إلا أن الواضح الجلي أن وفادة ابن خفاجة عليه ، كانت منوطة باعجابه بأمراء المرابطين ودورهم العظيم المعروف لدى دارس التاريخ الأندلسي ، حيث استطاعوا

أن يعيدوا الأمن إلى ربوع بلنسية مدينة الشاعر بعد أن سقطت سنة ٤٨٧هـ ، وانتهبت ثم احرقت فيما بعد ، قبل أن تغادرها جيوش الأسبان سنة ٤٩٥هـ ويؤرخ ابن خفاجة لليد البيضاء التي اسدتها الجيوش المرابطية عليه ، بقصيدته اللامية ولا تتجاوز مدائحه لأمراء المرابطين ثمانيا (بنسبة ٢٪ من مجموع شعره) .

وفي تقسيم ثالث للشعر يتمثله بشعره ، يأتي على ضرب مرتجل بديهي وآخر منقح حولي ، وفكرة تنقيح الشعراء لأشعارهم قديمة في الشعر العربي[٤٣] . وما يقرره ابن خفاجة يتعلق بأشعاره ، إذ حظيت بعنايته مرتين مرة حين نظمها ، وثانية حين ارتقت بالشاعر السن عبّر عن ذلك بقوله « متقدما كان سابقا ، أو تالياً لاحقا »[٤٤] .

وتوخى أن يجعله في مجلد بعد أن باد كثير منه لدثور رقاع مسوداته وإخلاق حواشي تعليقاته .

وكانت عملية التنقيح والتثقيف شاملة . لأن الشعر عنده « صناعة »[٤٥] وبذلك تحقق في ديوانه الانتخاب والانتقاء على الرغم من أن هذا الأمر لا يتضح - بشكل واضح - إلا في الدواوين (الغيرية) وبها يتحقق الاتجاه المنهجي في النقد ، حيث يستقل الناقد في انتخابه[٤٦] ، ويأخذ هذا التنقيح منهجا واضحاً لدى الشاعر بأبعاد ثلاثة ، اثبات بعضه على ما هو عليه ، حذف قسم آخر ، إصلاح قسم ثالث « منه ما تعهدته فقيدته ، ومنه ما لحظته فلفظته ، ومنه ما تصفحته فأصلحته »[٤٧] وإن هذا الإصلاح لم يكن عابراً سطحياً بل كان جوهريا أتى على حذف أبيات ، وتغيير في الصيغة في بعض آخر[٤٨] ويصرّح بان هذه الإصلاحات والتغييرات انتظمت الديوان ، وبعضها يتعلق بالمضمون على نحو ما سيتبين لنا حين نقف عند فكرة التخييل لدى الشاعر ، من ذلك قوله : « ومما قاله في الشبيبة ثم غيره مع الكهولة »[٤٩] .

ومما يؤكد مذهبه الحولي هذا ، أنه عني بضرب آخر يحتاج إلى العناية والأناة هو شعر اللزوميات في عدد من قصائد الديوان[٥٠] كذلك احتفاله بمعارضات عدد من الشعراء[٥١] .

ولا نشك أن نظرة الشاعر تختلف عن رأي من رأى في أن مرتبة الشعر أدنى من النثر وأنه يذهب المروءة والمكانة على نحو (ما يقول عصري الشاعر ابن بسام في الذخيرة « لم أرضه مركباً ولا اتخذته مكسباً ، ولا ألفته مثوى ولا متقلبا ، إنما زرته لما ما ، ولمحته تهمما لا اهتماما ، رغبة بعز نفسي عن ذله ، . . ومالي وله . . وإنما

أكثره خدعة محتال ، وخلعة مختال . . جده تمويه وتخييل ، وهزله تدلية وتضليل ، وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم . . » ونسي ابن بسام أن حكمه هذا ينسحب على الكتاب الذي بذل شطراً من حياته في تأليفه إلا إذا كان عمله خاصا بالقليل المتبقي من جليل المنثور والمنظوم ، بعكس ابن خفاجة الذي اعتقد أن الشعر « من خلال الجلية . وحيلة النبلاء العلية »[٥٢] وغاية النظم عنده ، أنه مخدوم لديه خلاعة (أي هواية) ، وقد كلف بالعناية به صناعة »[٥٣] .

- ٣ -

دواعي الشعر وتاراته :

تناول ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) دواعي قول الشعر وأوقاته وتاراته في مقدمته النفيسة لكتابه - الشعر والشعراء فقال : « وللشعر دواع منها ، الطبع ، والشوق ، والشرب ، والطرب والغضب »[٥٤] وذكر أن للشعراء وسائل مختلفة يستدعون بها الشعر . . ثم قال : « وللشعر أوقات يسرع فيها أتيه ويسمح فيها أبيه ، منها أول الليل قبل تغشي الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغذاء ، ومنها يوم شرب الدواء ، ومنها الخلوة في الحبس والمسيرة ، ولهذه العلل تختلف اشعار الشاعر ووسائل الكاتب »[٥٥] .

ويرى الدكتور عبد الجبار المطلبي أن أكثر الشعراء لا يرون الشعر إلا في موضوعاته الملهمة ، فإن فنيت فني الشعر ، وجفت ينابيعه وما يأتي الشاعر بشعر إلا أن تكون أمور ملهمة ، وأعمال ناطقة يترجم عنها الشاعر ما يريد من قوافيه وأناشيده[٥٦] ، وأورد أمثلة كثيرة عن الشعراء وهم يفصحون عن لحظات الالهام ودوافع القول[٥٧] .

أما عن تاراته فيقول ابن قتيبة « وللشعر تارات يبعد فيها قريبه ويستصعب فيها ريضه ، وكذلك الكلام المنثور . . ولا يعرف لذلك سبب إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم »[٥٨] فما الأوقات التي رآها ابن

خفاجة مناسبة للنظم فاسلس القياد لشعره .. واتقدت بها قريحته ؟

لقد عشق ابن خفاجة الأدب في غضارة شبابه ، وقرأ عيون الشعر العربي لفحول الشعراء على نحو ما اشرنا في حديثنا عن مكونات الشاعر وثقافته وأقبل على الشعر بكليته يروّقه ويرويه ولم تلبث به هذه الحال طويلا إذ حصل ما كدر خاطره ، واخمد قريحته الشعرية ، باضطراب أحوال بلنسية خاصة والأندلس عامة ، فقد سقطت كبرى مدن الأندلس طليطلة سنة ٤٧٨هـ وسقطت بلنسية بعد محاصرتها عشرين شهراً سنة ٤٨٧هـ ، وإذا كانت ولادة ابن خفاجة سنة ٤٥٠هـ فيكون ما قاله من عزوفه عن نظم الشعر ، وهو في السابعة والثلاثين « ولما انصدع ليل الشباب عن فجره ، ورغب المشيب بنا عن هجره ، نزلت مركبا وتبدلت به مذهبا ، فأضربت عنه برهة من الزمان طويلة ، اضراب راغب عنه زاهد فيه[٥٩] .

فكم استمر اجباله عن قول الشعر ؟ لم يحدد ذلك وكلمة « برهة » في المعجم تعني الزمان الطويل[٦٠] ، وهل رجاحة عقله وكبر سنه سبب حقيقي في إضرابه عن قول الشعر ؟ الراجع أن الأوضاع التي حلت بمدينته (بلنسية) هي التي نغصت عليه وجعلته يذهل عن قول الشعر ، إذ لا نجد له أشعاراً في رثاء مدينته بعد أن استباحها الأسبان سوى أربعة أبيات قالها بعد حرقها سنة ٤٩٥هـ ونكبة عنيفة مثل هذه النكبة يحتمل أن تجعل الشاعر يعزف ويضرب عن قول الشعر[٦١] ، في حالة الدهشة والذهول .

وغير معقول أن كبر السن هو السبب الحقيقي .. لأننا نجده بعد نحو عشر سنوات يعود ثانية إلى قرض الشعر ، كما يعود إلى تنقيح الديوان وجمعه على نحو ما أسلفنا القول فيه ، ونرجح أن تكون سنة ٤٩٥هـ التي استعاد فيها المرابطون بلنسية من الأسبان بقيادة أبي محمد عبد الله بن مزدلي ، ولكن حمدان حجاجي يرى أن ذلك كان سنة ٥٠٠هـ حيث ولى على الأندلس علي بن يوسف بن تاشفين بعد وفاة أبيه[٦٢] ، وقد عبر عن ذلك فقال : « ولما دخل جزيرة أندلس ، الأمير الاجل أبو اسحاق إبراهيم ، ابن أمير المسلمين ، تعين أن افد عليه مهنياً بالولاية مسلما ، واغشى بساطه الرفيع موفيا .. فعطفت هنالك على نظم القوافي عناني ، وسننتها عند ذلك حُللا على معاطف سلطاني .. »[٦٣] وكانت ولايته على مرسيه سنة ٥٠٨هـ .

وقد مس النقاد الأندلسيون في تعليقاتهم النقدية معطيات مهمة .. شملت

المؤثرات العامة فيه ، وعلاقة التجربة بالذات المبدعة ، وأبانوا عن العوامل التي ينبغي أن يراعيها في خلق التأثير الضروري لعمله[٦٤] . فابن بسام يدرك أن الانفعال وحدته ، إنما يتجلى ويزداد كلما اشتدت الصلة بين النفس ، ومصدر الانفعال وذلك في تحليله لقطاع من شعر ابن عمار أيام محنته[٦٥] .

ولو نظرنا في جملة ما نظمه ابن خفاجة من حيث ابعاد تجاربه الشعرية فإن تعليقاته عليها في مقدمات قصائده ، نجد فيها استجلاء واضحا للعوامل المؤثرة في اشعاره ، فقد تقدم بنا عزوفة من المديح التكسبي وأن ما نظمه من مديح كان مقترنا باعجاب واجلال لممدوحيه من أمراء الأندلس ، أما الوزراء الذين مدحهم فقد اعرب عن صلاته الحميمة بهم ، ووضح اجواء تلك المخاطبات وظروفها ، فهم اترابه ولداته ، منهم ابن أبي الخصال ، وأبو الحسن بن إبراهيم ، وأبو أمية إبراهيم بن عصام[٦٦] .

ونقف عند إضاءة للشاعر بطبيعة العلاقة بينه وبين الأمير أبي بكر بن الحاج في قوله : « واخلق بها من دعوة هتكت حجاب الظلماء ، وقرعت باب السماء ، إن تثبت هنالك مع المجرة سطرا ، وتكتب في ديوان القبول صدرا ، فإنها عن قلب كرم في مشايعتك سيرة ، وخلص من جهتك عقيدة وسريرة ، حتى لست ادري اضمير أم ماء نمير ، وهل من محيد عن هوى أروع وحيد ... إلخ[٦٧] .

وحين توفي أبو محمد عبد الله بن ربيعة كتب أول القصيدة « وكان قد جمعت بينهما ازمة الشباب ومحضر الكتاب ، وقراءة الحساب والآداب ، فكانا من الانتظام والالتحام ، بحيث لا يريان ينفصلان حتى اخترمته الوفاة[٦٨] ، وينص على ابعاد تجربته الشعورية حيث يردف قصيدته الهمزية في رثاء قاضي القضاة أبي أمية إبراهيم ابن عصام بما يكشف عن مدى صدق شعوره ومطابقته لوجدانه[٦٩] .

ولو انتقلنا إلى غرض آخر أصيل لدى الشاعر هو وصف الطبيعة ، يمثل مدى تمازج الموضوع بتكوين الشاعر ، وقد اثبت لنا ذلك في مواطن متعددة من الديوان فصل في بعضها واكتفى في بعض بالإشارة السريعة ، يحدثنا عن نفسه فيقول : « اكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة ، ونعت شجرة ، وجرية ماء ، ورنة طائر ، ما هو إلا لأنه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها . وجبلة ، وأما لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره ، وحسبك من ماء سائح ، وطير صادح ، وبطاح عريضة ، وأرض اريضة فلم يعدم هنالك ، من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه ، ويحرك إلى

القول نفسه ، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر ، فصار قوله فيه عن كَلَف لا تكلّف ، مع اقتناع ، قام مقام اتساع . . (٧٠) .

والنص ذو دلالة لا تحتاج إلى مزيد تعليق ، ولا بأس أن نشير إلى قضية مكملة لمقام الطبيعة من نفسه أن الشاعر لم ينظر إلى الطبيعة نظرة عابرة ، ولم يستوقفه منها الجمال السطحي المتعلق باللون أو الصوت ، وإنما وجدناه في أكثر من موضع يتأمل في الطبيعة ، ويسبر أغوارها طالبا العبرة والاعتبار ، وهو ما يفسر نزعة صوفية انفرد بتسجيلها الضبي في ترجمته (٧١) ، وفي مواضع أخرى ، حين تحدث عن صفة طائر يقول « وتارة يرمي نحو السماء بطرفه كأنما له هنالك اعتبار » (٧٢) وحين نظم رائعته في وصف الجبل التي يجمع النقاد على أنها أفضل قصائده ، قدم لها بقوله « وقال في الاعتبار » (٧٣) .

وأما حين نظم قصيدته في مناجاة القمر ، فقد فصل أبعاد التجربة في مقدمتها ، وانتهى فيها إلى قوله « يعتبر » (٧٤) .

ويقول في إحدى رسائله إلى أبي اسحاق بن صواب « وإني كنت منذ ليال قد أرقت فتلددته انظر في اعقاب ما مضى من عمري فانقضى » (٧٥) ، وحين تدبر حالته في كبر سنه قال : « وحق لمن شاهد تضعضع أركانه . . . وإدبار عمره وزمانه ، أن يطرق هنالك فكرة ، ويملأ جفنيه عَبرة » (٧٦) .

— ٤ —

الصدق والكذب وعلاقته بالتخييل :

مزج ابن خفاجة في ديوانه بين جده وهزله ، والهزل يطلق على موضوعات الشعر التي تخرج عن حدود القيم الخلقية ، وتتجاوز الحشمة والوقار ، وقد اقتضاه ذلك أن يخوض في خطبة الديوان في قضية عرض لها نقاد العرب في دراساتهم وتلك هي قضية الصدق والكذب ، وقد أوضح أنه تعرض لنقد أقوام لم يحدد لنا طبقتهم ، كما لم يذكر اسماءهم ، أو يشر إلى بعضهم ، ولكننا نذهب إلى ما ذهب إليه الدكتور مصطفى

عليان إلى أنهم من الفقهاء ، وأن موقفهم يمثل خصومة بين الأدباء والفقهاء ، وقد استعمل ابن خفاجة السلاح نفسه الذي شهره هؤلاء المنتقدون ، فقد كان نقدهم قائما على أساس إنكارهم عليه عددا من القصائد تمثل مرحلة الشباب ، جنح فيها الشاعر إلى ضرب من المجون ، فقال منتقصا منهم بأسلوب ينطوي على انفعال « ولم احتفل بنقد أقوام في مساليخ أنعام يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » ولا يعلمون مع ذلك أنه يستجاز في صناعة الشعر لا في صناعة النثر أن يقول القائل : أني فعلت وأني صنعت ، من غير أن يكون وراء ذلك حقيقة ، فان الشعر مأخذ وطريقة ، وإذا كان القصد فيه التخييل ، فليس القصد فيه الصدق ولا يعاب فيه الكذب »[(٧٨)] .

وواضح أنه يتهم المنتقدين بتهمة خلقية هي أشد من التهمة التي وجهوها إليه ، ثم يزعم أنهم لا شأن لهم بالشعر لأنهم ليسوا من أهله « إنما يتكلم فيه أهله ، ومن شأنه عقده وحله »[(٧٩)] لأنهم خلطوا في انتقادهم إياه ، بين حقيقة الشعر والقيم الخلقية ويتمثل في هذه القضية جملة أمور منها :

الارتباط المتكامل بين ذات الأديب ومجتمعه في غاية الأدب ووظيفته ، وهذا الارتباط عرف ، كما يرى الدكتور منصور عبد الرحمن ، في نقد صدر الإسلام ، وقد انبعثت على صورته في الأندلس في القرن الخامس الهجري[(٨٠)] .

كما يثير النص قضية نقدية شغلت النقاد قديما وحديثا حيث تناولوا قول حسان بن ثابت[(٨١)] :

وإن أصدق شعر أنت قائله   بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وتروي مقولة لعمر بن عبد العزيز قالها للاحوص « قل ، ولا تقل إلا حقا » ولذلك يرى الأحوص في أبيات أن الشعر كلام يؤلفه منطق حق أو باطل ، وأنه وإن كان مصيبا صادقاً فعيبه كونه يبني بناء المنزل أي أنه من ابتداع الشاعر ولم يكن موجودا من قبل[(٨٢)] كما فسر ذلك الدكتور المطلبي من أبياته .

ولسنا بصدد تصنيف النقاد وفق الميزان الديني أو الخلقي الذي التزمه الشعراء في شعرهم إذ أن عددا منهم فصل بين الدين والشعر ، وقرروا أن اعذب الشعر أكذبه وقول البحتري : « في الشعر يغني عن صدق كذبه »[(٨٣)] وأن الدين بمعزل عن الشعر ، ومقولة ابن خفاجة تنطوي على هذا الرأي ، ومثله رأى لابن حزم الأندلسي ذكره في طوق الحمامة ، وقد قدم آراءه النقدية المتقدمة من زاوية دينية حين حدد موضوعات

الشعر ، كما حدد مجالاته ، إلا أنه أخفق في التوفيق بين النظرية والتطبيق ، يقول ابن حزم بعد أبيات يذكر فيها الخمرة « معاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعا ، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقا ، وكساد الهمة لنا صفة ، ولكن حسبنا قوله تعالى : ومن أصدق من الله قيلا في الشعراء : { ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون } فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ[٨٤] ، عقب بهذا الكلام بعد أبيات(٨٥) استهلها بذكر الخمرة على طريقة أبي نواس . « والصدق من أكثر المصطلحات وضوحاً في كتاب ابن طباطبا ، لايدانيه في وضوحه وتكراره مصطلح آخر »[٨٥] .

وظاهرة الخصومة بينه وبين منتقديه من أبناء عصره انها تتركز في اشعاره المقولة في الغزل . . لكنها سلكت سبيلا أخرى ، إذ أنه لا يجد بأسا فيمن ينتقد وبوجه صحيح يعقل ، بل ينكر على من ينتقد لخبث سريرة ، وضعف بصيرة ، وخطوة في الادراك قصيرة[٨٦] ويقذفهم بتهم أخرى بين سوء طوية واعتقاد ، وتأخر في باب الانتقاد ، وأنه مزجي البضاعة في صناعة الشعر ، متكلف مسف أحس من نفسه بسفول الفهم وسفول القدم[٨٧] .

ويحرص ابن خفاجة على عدم التصريح بهؤلاء المنتقدين ، وربما ليخمل ذكرهم ، أو ليضرب الصفح عنهم ، متحليا بالخلق الرفيع ، كي لا يقع تحت طائلة الغيبة التي نهى عنها القرآن الكريم ، لكنه لا يلبث أن يظهر إعجابه بالوزير الكاتب أبي بكر بن عبد العزيز المرخي ، الذي أحسن نصفته ، وأكرم صفته ولم يتتبع لديه العثرات .

وبقي ابن خفاجة على حذر وتوجس من منتقديه حين يصور الشعر خلقا منافيا للقيم الدينية - غير مصر على ما فعل . « وإن كان مقولا بطريقة الفكاهة ، والنادرة والدعابة ، والشباب يومئذ بريعانه وسورة سلطانه »[٨٨] ويقول قبل أبيات أخرى « وانا استغفر الله منه وان لم يك إلا قولا »[٨٩] ولكن مثل هذا الكذب الفني ، لا ينطوي على فساد في نظم الشاعر ، حيث هو كاذب فيما ينظم على نحو ما يصرح بذلك ؟ ومن هذه الزاوية يدخل الموضوع مدخلا جديدا في قضية نقدية أخرى هي التخييل .

وأما التخييل فهو مصطلح كثير الدوران على السنة نقاد العرب ، جاء ثمرة للتأثر بالنقاد الفلاسفة حيث ورد عند الفارابي (ت ٣٣٩هـ) ، وابن سينا (ت ٤٢٨هـ) ، وعبد القاهر (ت ٤٧١هـ)[٩٠] ، وقد جلى أبعاده ، وكشف عن قيمته وتفاوت

الشعراء فيه ، حازم القرطاجني حيث جعل التخييل خاصة من خصائص الشعر يقابله الاقناع في صناعة الخطابة « واعتماد الصناعة الشعرية على تخييل الأشياء التي يعبر عنها .. » ولا يجد في التخييل بأساً لأن مقدماته تكون صادقة وتكون كاذبة وليس يعد شعراً من حيث هو صدق ولا من حيث هو كذب بل من حيث هو كلام مخيل(٩١) .

وعن مدى تمكن الخواطر من قوة على التشبه فيما لا يجرى على السجية بما جرى على السجية من ذلك ، فلا يماز المطبوع فيها من التطبع فإذا اتفق مع هذا حسن النظم تناصر الحسن في النظام والمنحى(٩٢) .

ويضرب مثلاً على تمكن طائفة من الشعراء من هذه الصفة ، لتوفير تلك القوة فيهم على كل حال ، الشريف ومهيار وابن خفاجة(٩٣) .

– ٥ –

الجزالة والرقة والمحافظة والتجديد :

وكان السهم الثاني الذي سدده نقاد عصره إليه متمثلاً في أنهم لم يستسيغوا « إلا أن يتجزل مدح أو تغزل ، وجد أو هزل ... »(٩٤) . ويظهر ابن خفاجة برمه وضيقه بهذا النهج ، وشأنه ونزعته التجديد الذي سبقه إليه أساتذته من المشارقة أمثال الصوري والرضي ومهيار ، ومما نعى عليه وأنكر ، موقفه من الديار من ذكر « التلدد والتبلد »(٩٥) وهو خروج على أنماط الشعر التقليدية ، وكذلك مقدماته الروضية(٩٦) ، ومنهج المتنبي الذي يقوم على أساس لف الغزل بالحماسة(٩٧) .

والشاعر في هذا يعكس ، كما يرى إحسان عباس ، الصراع القائم بين طريقة العرب التي تقوم على الجزالة ، وطريقة المحدثين التي أصبحت محاكاة لشعر عبد المحسن والشريف ومهيار(٩٨) .

ودعوة ابن خفاجة مبنية على أساس أن لكل موضوع لغته الخاصة ، وهو لا يضرب عن الجزالة بل يجد أنها لا تنسجم مع الغزل وان الرقة أولى في اللغة في مقامها .

- ٦ -

ملاحظ نقدية أخرى :

ولا يخلو ديوان ابن خفاجة من ملاحظ نقدية أخرى نرى مناسباً الإشارة إليها ..
فقد علل لسبب مجيء الرثاء بعد الغزل ثم مجيء المديح بعد الرثاء وذلك عقب قصيدة يائية يرثي فيها جملة من الأخوان ويمدح أبا العلاء بن زهر بقوله : « وأنه لما كان بين المادح والممدوح اشتراك في معنى الرثاء ، ولاجتماعهما في خلة بعض تلك الجلة افتتح الشعر بالرثاء على جهة المساهمة والتعزية ، ثم اردف بالمدح على نحو من التأنيس والتسلية(٩٩) .

كما علل ذكر اسماء الأماكن من صفة نجد أوقاع ، فإنما جاء بها على أنها خيالات تنصب ، ومثالات تضرب تدل على ما يجري مجراها .. يكفي بها دلالة عليها عبارة . ويستحسن ايماءة إليها وإشارة(١٠٠) ، يعني أنه اتخذها رمزا لا حقيقة ، للايماء إلى منازل يهواها ، واشخاص يوليهم ثقته وحبه(١٠١) ، ونجد دقة لديه في الضبط اللغوي في آخر قصيدة همزية نظمها وختمها بقوله :

فرغبت عن نور الصباح لزورةٍ   اغري لها ببنفسج الظلماءِ

بعدها عقب بقوله : « نور الصباح في البيت من القطعة المهموزة ، ثبت فيها مفتوح النون ، وسيغير فينشد لا محالة مضموم النون فينقص رونق البيت(١٠٢) .

وآخر ما نتوقف عنده حكمان نقديان اصدرهما في شاعرين ، احدهما مشرقي كبير هو المتنبي ، والآخر مغربي ناقد هو ابن رشيق القيرواني ، يدلان على ترجح قيمة اللفظ لدى الشاعر على المعنى ، فضلاً عن نزعة النقد الموازن فيها .

أما كلامه في الأول(١٠٣) فجاء عقب قصيدة ميمية صرح بأنه نظر في بيتها :

فلويت اعناق المطي معرجاً   ونزلت اعتنق الأراك مسلما

إلى قول أبي الطيب المتنبي الذي يقول فيه :

نزلنا عن الاكوار نمشي كرامةً   لمن بانَ عنه أن نلم به ركبا

وقال : « وفي بيت المتنبي لفظة تغض من شرفه وهي لفظة (من) وهي هنا مستجفاة لا مستحلاة ، ولو أنه قال :

نزلنا عن الاكوار نمشي كرامةً لأهلية أن نغشى رسومهم ركبا

لجاء البيت اتم جلالة وجزالة ، ولكن أبا الطيب إنما كان يهتبل بالمعاني ولا يبالي بالألفاظ ، ولما كان بصدد اثبات براعته في الافادة من بيت المتنبي ، وازن بين لفظة المتنبي (بان) وبديلتها في بيته (رسومهم) فاللفظتان متساويتان هنا في الدلالة على أقواء المنزل .

ويعزو ابن خفاجة موقف بعض المنكرين عليه هذا الاجتهاد إلى أمرين ، أحدهما : نفسي عارض ، يمكن تجاوزه : « لاعتياده انشاء البيت حسب ما وقع ، حتى ألفته نفسه وطبعه ، واستساغه لسانه وسمعه »[١٠٤] والآخر : فطري ثابت لا حيلة فيه ، ولا مناص منه : « لجساوة في حسه وغباوة في نفسه »[١٠٥] .

ويعزز رأيه بدليل تفاوت الأساليب فيما بينها ، فإن قولك : « لقيت من ضرب زيداء » ينزل عن قولك : « لقيت ضارب زيدٍ » كل ذلك ينزل في النفس من مرتبة الجلالة ، لا عن المعنى .

ولا شك أن في كلام ابن خفاجة في الموازنة بين الجمل الثلاث ، ضرب من الاجتهاد في النظر بأساليب العرب ، وترجيحه لأسلوب دون غيره ، جاء على أساس ذوقي طبعي، وفي الأمثلة مراعاة لمقتضى الحال ، وقد يكون ثمة خروج على مقتضى الظاهر، دون أن يكون هدفه مماحكة المتنبي ، واثبات مرتبة رفيعة لنفسه ، حيث يختم كلامه بالقول معتذراً : « ربما حمل علينا حامل فقال : إن هذا رجل يتعاطي رتبة في الشعر فوق رتبة المتنبي ، وليس الأمر كذلك ، لأنه لم يعترضه في جملة شعره ، إنما اعترضه في لفظة ، وهذا ليس بمستنكر ولا بمستكبر » وتعقيبه يوحي بمكانة المتنبي وجلالة قدره في نفس ابن خفاجة ونقاد عصره . .

وأما نقد أبيات ابن رشيق[١٠٦] ، فقد ساق لنا أنه التقى أبا عمران بن أبي تليد ، فأنشد أثناء مؤانسته إياه أبيات ابن رشيق :

يا من يمرّ ولا تَمرّ به القلوب من الحرقْ
بعمامةٍ من خدّه أو صَدّه منها استرقْ
فكأنه وكأنها قَمَرٌ تعمم بالشّفَقْ
فإذا بدا وإذا مشى وإذا رنا وإذا نطقْ
شَغَل الجوانح والجوا رح والخواطر والحَدَقْ

فأظهر اعجابه بحسن سياقه الاعداد .. لكن ابن خفاجة انكر على صاحبه ذلك الاعجاب فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير ، والبيت الذي قبله ، فينزل بازاء كل واحد منهما ما يلائمهما ثم نسج على ذلك المنوال متلافياً الخطأ عند الشاعر في أربعة أبيات فاستحسنها ابن أبي تليد .

- ٧ -

النقد المنظوم :

ستكون وقفتنا الأخيرة في استجلاء الوجه النقدي لشاعر الطبيعة ابن خفاجة عند ضرب يصح أن يطلق عليه اسم « النقد المنظوم » في الإلماحات النقدية التي ضمنها اشعاره ، وما كان يلمع إليه بين حين وآخر إلى خصائص شعره الجيدة ، وسمات البراعة فيها ، وقد اطلق احد الباحثين ، على ضرب مماثل تسمية « نقد الشعر بالشعر »[١٠٧] وقد فرغنا من بعضها حين الحديث عند مكونات الشاعر وثقافته ، وذلك لما ذكر المثل الأعلى من شعراء العرب .

لم يخصص أبن خفاجة قصيدة طويلة أو قصيرة في الموقف أو المذهب النقدي الذي يرجحه في الشعر كما لم يخلف منظومة في هذا الاتجاه كما فعل (هوراس) الروماني أو غيره من شعراء العرب وهو في ذلك يشبه إلى حد كبير ابن الرومي (ت٢٨٣هـ) ، وكان معجبا به ، وقد ضمن اشعاره بعض آرائه في شعراء عصره ، وقدم معاييره في هذا المجال ، وإذا كان أكثر شعر ابن الرومي المنظوم تعريفا بشعره وشاعريته لدى ممدوحيه ، ودفاعا عنهما في وجه خصومه ، ومنتقديه[١٠٨] ، فإن ما جاء في شعر ابن خفاجة كان في خطاب ممدوحيه واصدقائه .

من القضايا التي عرض لها النقد القديم ، سيرورة الشعر ، وانتشاره في الآفاق ، وذكروا في ذلك أسباباً كثيرة ، منها جودة الشعر وبراعته ، ورقة الشعر ولطافته[١٠٩] ونجد إشارة إلى هذين الأمرين في قول ابن خفاجة[١١٠] :

فطار بذكري ما شئت ... كلام إذا ما طرى أطربا
كلامٌ يجد بلب الفتى ... ذهابا إذا شاء أن يلعبا

تحّملَ ما شاء من رقــه — فحيني عن المشرق المغربا

وفي موضع آخر يقول[١١١] :

وإليكها غراء لولا حسنها — لم تفتق الأبصار والاسماع

عبقت بها في كل كف زهرةٌ — فتقت لها من حسنها أقماع

ومن أسباب سيرورة الشعر كذلك ، الحكمة والمثل[١١٢] ، حين تشتمل عليهما الابيات فتكسبها القيمة وتصبح كالحجارة الكريمة ، فهي عقيان وياقوت ومرجان ، ويعلل سبب ذيوعها[١١٣] :

بأمثالها من حكمة في بلاغةٍ — تحلل أظغان وترحل أظعان

ويعرض في أشعاره إلى قضية الطبع والصنعة ، ويؤكد أن فيها ما يستحسن من الصفتين فيقول[١١٤] :

تدفق ماء الطبع فيه تدفقاً — فجاء كما يصفو على النار عقيان

وتأخذ عنه صنعة السحر بابل — وتلوي إليه أخدع الصب بغدان

ويقول كذلك[١١٥] :

تحمل ما شاء من رقة — فحيى عن المشرق المغربا

وكاد بما فيه من بلة — يسوم الصحيفة أن تعشبا

ويصف الطبع الذي يعد عنصرا مهما من عناصر الشاعرية ، بل يتصدرها ، بأنه سلسل دفاق ، وأنه « من افرند له رقراق »[١١٦] ، والافرند ، السيف وجوهره ووشيه ، ويكتب قصيدة إلى صديق له يجعلها « تسيل ماء في الحسام صقيلاً ويجعل كل بيت متدفقاً بالطبع »[١١٧] :

من كلّ بيت لو تدفق طبعه — ماءً لغصّ به الفضاء مسيلا

ويعرض لعملية الإبداع فيشير إلى أنها تتولد عن خاطر متوقد فيقول[١١٨] :

متولد عن خاطرٍ متوقدٍ — لهبا وطبع سلسلٍ دفّاقِ

ويطلق على هذا الضرب في النقد الحديث « الإبداع اليقظ الشعور »(١١٩) .

وقد تقدم الحديث عن موضوع الصدق والكذب في تجربة ابن خفاجة وعلاقتهما بالتخييل ، وما صرح به في مقدمة ديوانه ولكننا في هذا المقام نقف على أبيات تدل دلالة صريحة على مدى تفاعله بالتجربة الفنية ، ودور العاطفة في هذا المجال(١٢٠) .

واليكها فاهنأ بها من مدحةٍ أهديتها نوراً إليك منورا

وسواي يكذِبُ في سواها مدحةً فارغب لسمعك عن حديث يفترق

والقصيدة الصادقة بعضٌ من صاحبها ، لأنها ثمرة تجربة زاخرة بالعاطفة(١٢١) :

وقد نديت حتى لم أدر أرقعةً أنمق أم دمعاً أرقرق جاريا

بل إنه يستمد لها نوراً من بصره(١٢٢) :

ما خط من غرر الحسان وضاءة حتى استمد لها من الأحداقِ

كذلك تقدم رأي ابن خفاجة في الجزالة والرقة ، ما ساد من آراء النقاد في عصره ، وهما مرتبطان باللفظ والمعنى ، وفي اشعاره إشارة أخرى إلى أنهما يتساويان تارة ، ويترجح اللفظ منهما تارة أخرى ، فيقول(١٢٣) :

فلله قولي ما أهذبا ولله لفظي ما أعذبا

وفيه تعميم ثم تخصيص ، فيقول من أخرى(١٢٤) :

مغري بأغراضٍ تهول براعةً ورفيف الفاظ تشوق رقاق

ويمزج بين اللفظ والمعنى حين يستخدم كلمتين جامعتين هما النظام والكلام(١٢٥) :

بما حزته من شريف النظام وأرهفته من حواشي الكلام

والمعنى الحر واللفظ الرائق هما مناط الإبداع يقول(١٢٦) :

مبتدع حسناً فمن معنى له حرٍ ولفظ به رواق

وابن خفاجة في مساواته بين اللفظ والمعنى يشبه إلى حد كبير ناقدا أندلسياً

عاصره هو ابن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) الذي قرن بينهما في مواضع كثيرة من ذخيرته[١٢٧] .

وقد مضى معنا احتبال الشاعر باللفظ ، وعنايته به حين وقف ناقداً أبيات المتنبي ، وابن رشيق ، واقترح سبيلا لتقويم شعرهما ، وفي الشعر المنظوم ما يؤكد هذه الوجهة يقول[١٢٨] :

أفرغت من كأسي على اكبادهم　　　قطراً له اسماعهم اقماع

وينسب لفظة « الحرية » إلى الكلام جملة فيقول[١٢٩] :

وإليك من حرّ الكلام عقيلةً　　　قصرت خطاها خجلة العذراءِ

ويمكن أن يفهم من حر الكلام ، ذلك البعيد عن الابتذال والسوقية ، ويعزز هذا الوصف التالي بانها عقيلة ، أي أنها كالسيدة المخدرة ، ذات المكانة الرفيعة .

وحول خصائص الأسلوب ، وأهمية البديع فيه ، كان رائده الهمذاني حيث يقول[١٣٠] :

فعج تتصفح بديع البديع　　　وتلمح سلامة شعر السلامي

ومن المراسم التي كان يترسمها في شعره « السجع » وهو من ضروب البديع[١٣١] فيقول :

هززتُ لها عطفَ القضيب وربما　　　سجعت أبث الشكر سجعَ الحمائم

ويطلق اللفظة مجازاً ليريد بها الشعر[١٣٢] .

وسبقت الإشارة التي تأثره بالصوري في الجناس الناقص ، خلال الحديث عن مكوناته وثقافته ، وعنايته بالبديع تنسجم مع عناية الاندلسيين عموما به ، منهم مواطنه وعصريه ابن بسام الشنتريني فقد رأى أن أنواع البديع ذي المحاسن قيم الاشعار وقوامها ، وبه يعد تفاضلها وتباينها[١٣٣] .

وبعد فقد غذونا السير مع شاعر الطبيعة في مربع النقد ومصطافه ، واستجلينا أبرز المعالم النقدية التي امتاز بها واتسم ، واستمددنا هذه التوسمات ، والمؤشرات من ثلاثة مصادر هي : خطبة الديوان ، والنصوص النثرية التي جاءت فيه ، وأشعاره التي اختصها بهذا الأمر ، وقد اتسق الحديث في تمهيد وسبع فقرات ، عرض التمهيد لاسباب

اختيار الموضوع ، ومنهج الدراسة ، واعتمدت الفقرات الست من البحث على المصدرين الأولين ، في مادتهما النقدية ، وكانت : مكونات الشاعر وثقافته ، ومفهوم الشعر ومكانة الشاعر ، ودواعي الشعر وتاراته ، والصدق والكذب وعلاقتهما بالتخييل ، والجزالة والرقة والمحافظة والتجديد ، ثم ملاحظ نقدية تتعلق بشكل القصيدة وبنائها ، وملحظ لغوي ، وحكم على شاعرين .

أما الفقرة السابعة فاعتمدت على المصدر الثالث ، وتناولت النقد المنظوم عند الشاعر . توقفنا عند معظم الأبيات الشعرية التي جاءت فيها ملامح نقدية بالدراسة والاستنباط .

فعسى أن نكون قد وفينا الشاعر حقه في الكشف عن الجانب النقدي لديه ، واماطة اللثام عن زاوية لم توف حقها من الدراسة والبحث .

ومن الله التوفيق ، وهو يهدي إلى سواء السبيل ..

الهوامش

(١) احصى محقق الديوان التلاميذ والمريدين الذين أخذوا عنه الديوان تقييداً بعد أن جمعه هو ، فبلغوا عشرين ، من (انحاء الاندلس المختلفة) .

(٢) مقدمة محقق الديوان ص ٥ .

(٣) المغرب ١/١٠٠ .

(٤) قام بتحقيق الديوان تحقيقا علميا نفيساً ، الدكتور سيد مصطفى غازي ، معتمدا على الأصول المخطوطة ومنها نسخة كتبت في حياة الشاعر ، بحيث جاء عمله أفضل تحقيقات الديوان ونشرته منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٦٠ ، وقد اعتمدناه في هذه الدراسة .

(٥) تفرقت آراء ابن حزم في رسائله ، واما آراء ابن خاقان فقد جاءت في كتابه مطمح الانفس وقلائد العقيان ، وأما آراء ابن بسام ففي الذخيرة ، وينظر نقد النص الشعري بين ابن حزم وابن بسام ، مجلة دراسات اندلسية ، العدد ٥ ، تونس ١٩٩٠ .

(٦) تاريخ الأدب الاندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ص ١٠٥ .

(٧) منها رسالة الدكتوراه ابن خفاجة الاندلسي حياته وشعره ، علي محمد سلامة ، جامعة الازهر ١٩٧٧ ، ودراسة حمدان حجاجي ، حياة وآثار الشاعر الاندلسي ابن خفاجة ، وكان محقق الديوان قد وعد بان يفرد الشاعر بدراسة تصدر بكتاب مستقل (مقدمة الديوان ص ٢٧) .

(٨) نستثني من ذلك دراستين الأولى للدكتور احسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ص ١٠٥ - ١٠٦ ، والثانية للدكتور مصطفى الزباخ ، فنون النثر الادبي الاندلسي ص ٩٧ - ١٠٦ .

(٩) مقدمة محقق الديوان ص ٧ .

(١٠) فنون النثر الادبي ص ٩٧ .

(١١) الكشف عن مساويء المتنبي ص ٣٢ .

(١٢) قضايا الشعر في النقد العربي ص ١٥٨ .

(*) كفاية الطالب ص ٤٤ .

(١٣) العمدة ١/١١٧ ، معجم النقد العربي القديم ٢/٣٩٠ .

(١٤) قضايا في النقد الأدبي ، ك . ك - رثفن ، ترجمة د . عبد الجبار المطلبي ، ص ٤٠٨ .

(١٥) الشعراء نقادرا ص ١٩ - ٣٩ .

(١٦) خطبة الديوان ص ٦ .

(١٧) الإبداع العام والخاص ١٤٩ .

(١٨) تنظر الصفحات (١٢ - ١٣ ، ٦٧ ، ١٢٥ ، ١٩٢ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨) .

(١٩) ديوانه ص ١٤ .

(٢٠) ديوانه ١٤ ، ١٥ .

(٢١) ديوانه ١٦ ، ١٨ .

(٢٢) ديوانه ٢٨٣ .

(٢٣) ديوانه رقم ٦٣ .

(٢٤) البديع في وصف الربيع ٧٤ - ٨٠ .

(٢٥) ديوانه ص ٢٤٦ .

(٢٦) جمع شعره صبيح رديف ، ط١ الإيمان - بغداد ، ١٩٧١ .

(٢٧) ديوانه ص ٢٧ .

(٢٨) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ، ص ٢٠٧ .

(٢٩) الديوان ص ٦ ، ٢٩ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٣٣ ، ٣٥٤ ، ٣٣٦ .

(٣٠) الديوان ص ١٠٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٦ .

(٣١) ديوانه ص ٩ ، وينظر نقد الشعر ص ١٥ .

(٣٢) البيان والتبيين ٢٤٣/١ احكام صنعة الكلام ٣٩ وينظر الأدب الأندلسي ١٧٣ .

(٣٣) ديوانه رقم ٢٣٩ ، وكذلك تنظر رقم ١٦ .

(٣٤) خطبة الديوان ١٠ .

(٣٥) مقدمة المحقق ١١ ، خطبة الشاعر ١١ .

(٣٦) خطبة الديوان : ٩ .

(٣٧) نفس المراجع السابق .

(٣٨) تاريخ الأدب الأندلسي ١٠٥ .

(٣٩) تيارات النقد ، ص ٥٢٥ .

(٤٠) خطبة الديوان ٨ .

(٤١) ديوانه ص ٢٩٠ .

(٤٢) ديوانه رقم ٢٥٨ .

(٤٣) ينظر ما كتبه د. عبد الجبار المطلبي عن تهذيب الشعر ، الشعراء نقادا ، ص ٢٩ - ٣٥ .

(٤٤) خطبة الديوان ١١ .

(٤٥) خطبة الديوان ٦ ، وهي اللفظة التي استخدمها ابن سلام في طبقاته ٥/١ وقدامة بن جعفر في نقد الشعر ص ١٦ .

(٤٦) تيارات ٥٢٥ ، والصواب ألا تعرف « غير » ولعل عبارة « دواوين الآخرين » أصح في هذا المقام .

(٤٧) خطبة الديوان ٩ .

(٤٨) نفس المرجع السابق .

(٤٩) ديوانه رقم ٦٥ .

(٥٠) تنظر ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣٤ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٤١ ، ٥٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٥، ١٠٩، ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٥٢ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٠ .

(٥١) تنظر ص ٥٢ ، ٢٩٢ ، ٣٠٦ .

(٥٢) خطبة الديوان ٦ .

(٥٣) نفس المرجع السابق .

(٥٤) الشعر والشعراء ١:٨١ ، وينظر معجم النقد العربي ٢٥١/١ .

(٥٥) الشعر والشعراء ٨٠/١ وينظر معجم النقد العربي ٢٩٩/١ .

(٥٦) الشعراء نقادراً : ٢٣ .

(٥٧) الشعراء نقادا ١٥٨ - ١٦٠ .

(٥٨) الشعر والشعراء ٨٠/١ - ٨١ ، معجم النقد العربي ٢٨٦/١ .

(٥٩) مقدمة الديوان : ٧ .

(٦٠) القاموس المحيط (بره) وجاءت الكلمة عند ابن خفاجة موصوفة بـ «طويلة» .

(٦١) ديوانه رقم ٢٨٥ ، وتنظر مناقشة سبب خلو دواوين الشعراء من رثاء مدن الأندلس ، الاتجاه الإسلامي ص ٣٣٦ - ٣٣٩ .

(٦٢) حياة وآثار الشاعر : ٩٥ .

(٦٣) مقدمة الديوان ٧ - ٨ .

(٦٤) تيارات النقد الأندلسي ٣٦٩ .

(٦٥) نفسه ٣٦٠ .

(٦٦) ديوانه رقم ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٣٥ .

(٦٧) ديوانه ص ١٨٨ .

(٦٨) ديوانه رقم ١٣٣ .

(٦٩) ديوانه ص ٢٧٦ .

(٧٠) ديوانه ص ٢٩٠ .

(٧١) بغية الملتمس رقم ٥٠٢ وينظر الاتجاه الإسلامي ص ٥٠٠ .

(٧٢) ديوانه رقم ٨ .

(٧٣) ديوانه رقم ١٦٤ .

(٧٤) ديوانه رقم ٨٠ .

(٧٥) ديوانه ٦٤ - ٦٥ .

(٧٦) ديوانه ٦٤ - ٦٥ .

(٧٧) ينظر في الموضوع : اسس النقد الأدبي ص ٤٢٤ .

(٧٨) خطبة الديوان ص ١٠ والآية من سورة النساء : ١٤٢ .

(٧٩) خطبة الديوان ص ١١ .

(٨٠) اتجاهات النقد في القرن الخامس الهجري ص ٢٥٤ نقلا عن تيارات النقد ص ٣٥٧ .

(٨١) معجم النقد الأدبي ٨٨/٢ وينسب البيت إلى طرفه وبقيلة الاشجعي (ينظر الشعراء نقاداً ص ٣٥) .

(٨٢) الشعراء نقاداً ٣٥ .

(٨٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، إحسان عباس ٤٣٥ .

(٨٤) طوق الحمامة ١٠٥ ، والآية ٢٢٥ - ٢٢٦ من سورة الشعراء .

(٨٥) تيارات ص ٤٢٣ . مفهوم الشعر ، جابر عصفور ، ص ٦٣ .

(٨٦) خطبة الديوان ، ص ١١ .

(٨٧) نفسه ١٩ .

(٨٨) خطبة الديوان ، ص ١٣ .

(٨٩) نفسه ١٥٧ .

(٩٠) في الشعر ص ٢٥٧ وينظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص٤٩٩ .

(٩١) منهاج البلغاء ، ص٦٣ .

(٩٢) نفسه ٣٤١ .

(٩٣) نفسه ٣٤٣ .

(٩٤) ديوانه ١١ .

(٩٥) نفسه ١٥ .

(٩٦) نفسه ١٦ .

(٩٧) نفسه ١٣ .

(٩٨) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص٤٩٩ .

(٩٩) ديوانه ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(١٠٠) نفسه ٢٠٤ .

(١٠١) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ، ص ١١٦ .

(١٠٢) ديوانه ١٥٤ .

(١٠٣) نفسه ٢٨٣ .

(١٠٤) نفسه ٢٨٤ .

(١٠٥) نفسه ٢٨٤ .

(١٠٦) نفسه ٣٥٨ .

(١٠٧) ينظر بحث الدكتور يوسف حسين بكار ، ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر ، بحث مقدم لندوة « الشعر العربي قديمه وحديثه ، ١٧-١٩ آذار ١٩٩٠ ، كلية التربية ، جامعة الموصل .

(١٠٨) المصدر السابق ص ٤ .

(١٠٩) أبحاث في الشعر العربي ص ١٢١ - ١٢٢ .

(١١٠) ديوانه ق ٦٩ / ٢٥ - ٢٧ .

(١١١) ديوانه ق ٧١ / ١٣ - ١٤ .

(١١٢) ابحاث ص ١١٧ .

(١١٣) ديوانه ق ٥٣ / ٤ ، ٦ .

(١١٤) ديوانه ق ٥٣ / ٧ - ٩ .

(١١٥) ديوانه ق ٦٩ / ٢٧ - ٢٨ .

(١١٦) ديوانه ق ١١٩ / ٣٥ - ٣٦ وينظر القاموس المحيط مادة (فرند) .

(١١٧) ديوانه ق ١٥١/ ٣-٤ .

(١١٨) ديوانه ق ١١٩/ ٣٥ .

(١١٩) ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر ص ٦ .

(١٢٠) ديوانه ق ٢١/١٩٨ - ٢٣ .

(١٢١) ديوانه ق ٦١/١٥٠ .

(١٢٢) ديوانه ق ٢٩/١١٩ . وقد وقفت في إحدى رسائل الديوان ص ٣٣٠ ، أنه يرى «أن الطبع المهذب للوشي المذهب ، وأن لفظ بحر الفكر للجوهر اليكم» .

(١٢٣) ديوانه ق ٢٩/٦٩ .

(١٢٤) ديوانه ق ١١٩ / ٣٠ .

(١٢٥) ديوانه ق ١/١٨٦ .

(١٢٦) ديوانه ق ٣٤/١١٩ .

(١٢٧) الذخيرة ٣٨١/١/٢ .

(١٢٨) ديوانه ق ٩/١٧١ .

(١٢٩) ديوانه ق ٤٤/٢١٥ .

(١٣٠) ديوانه ق ١١/١٨٦ .

(١٣١) ديوانه ق ٤٨/١٩٩ .

(١٣٢) ديوانه رقم ١٠/٢٠٢ .

(١٣٣) الذخيرة ١٦/١/١ - ١٧ .

المصادر والمراجع

١- ابحاث في الشعر العربي ، د. يونس أحمد السامرائي ، ط. بيت الحكمة جامعة بغداد ، ١٩٨٩ .

٢- الإبداع العام والخاص ، الكمسندر روشكا ، ترجمة د. غسان عبد الحي أبو فخر ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٤٤ ، الكويت ١٩٨٩ .

٣- الإتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين د. منجد مصطفى بهجت ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٦ .

٤- ابن الرومي ونقد الشعر بالشعر ، د. يوسف حسين بكار ، بحث مقدم للندوة السنوية الثالثة ، نقد الشعر العربي قديمه وحديثه ١٧ - ١٩ آذار ١٩٩٠ ، كلية التربية - جامعة الموصل .

٥- اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري ، د. منصور عبد الرحمن ، ط. الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

٦- أحكام صنعة الكلام ، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي (ت ٥٥٠ هـ) تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الثقافة - بيروت ١٩٦٦ .

٧- الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، د. منجد مصطفى بهجت ، ط. دار الكتب، الموصل ١٩٨٨ .

٨- أسس النقد الأدبي ، د. أحمد أحمد بدوي ، ط. دار النهضة ، مصر ، ١٩٧٩ .

٩- البديع في وصف الربيع ، أبو الوليد الحميري قريبا من ٤٤٠هـ تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، دار المدني ، جدة ، ١٩٨٧ .

١٠- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس ، ابن عميرة الضبي (ت ٥٩٩هـ) دار الكتاب العربي، القاهرة ، ١٩٦٧ .

١١- تيارات النقد الأندلسي ، مصطفى عليان ، ط. مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٤ .

١٢- حياة وآثار الشاعر ابن خفاجة ، حمدان حجاجي الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ، ١٩٧٤ .

١٣- ديوان ابن خفاجة الأندلسي (ت ٥٣٣ هـ) تحقيق د. سيد مصطفى غازي ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٠ .

١٤- الشعراء نقاداً ، د. عبد الجبار المطلبي ، ط١ ، وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨٦ .

١٥- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٣١ هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٦- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي (ت ٢٣١ هـ) تحقيق محمود محمد شاكر ، ط. المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

١٧- حمامة في الألفة والآلاف ، ابن حزم الأندلسي ، تحقيق د. الطاهر أحمد مكي ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٧ .

١٨- في الشعر ، أرسطو طاليس ، تحقيق د. شكري محمد عياد ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

١٩- قضايا الشعر في النقد العربي ، إبراهيم عبد الرحمن محمد ، ط. دار العودة ، بيروت ، ١٩٨١ .

٢٠- قضايا في النقد الأدبي ك . ك روثفس ، ترجمة د. عبد الجبار المطلبي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٩ .

٢١- الكشف عن مساوئ المتنبي ، الصاحب ابن عباد (ت ٣٨٥ هـ) ، مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٥ .

٢٢- كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب ، ضياء الدين بن الاثير ت ٦٣٧ - جامعة الموصل، ١٩٨٢ .

٢٣- معجم النقد العربي القديم ، د. أحمد مطلوب ، ط١ ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ١٩٨٩ .

٢٤- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجي (ت ٦٨٤ هـ) ، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، تونس ، ١٩٦٦ .

٢٥- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) تحقيق كمال مصطفى الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٣.

٢٦- نقد النص الشعري بين ابن حزم وابن بسام الاندلسيين ، د. منجد مصطفى بهجت ، مجلة دراسات أندلسية ، العدد ٥ ، تونس ، ١٩٩٠م .

التراث العربي والإسلامي في رواية
يقظة فنيغان ل : جيمس جويس

د ٠ أحمد الزعبي

قسم اللغة العربية

جامعة اليرموك - أربد - الاردن

مقدمة :

تقدم هذه الدراسة نموذجاً من نماذج الرؤية الغربية للتراث العربي والإسلامي القائمة على الفهم الخاطئ ، أو التحريف أو التشويه أو العداء الديني والحضاري ٠ والرؤية الغربية في تناول هذا التراث تقوم في معظمها ، وليست كلها بالطبع ، على رؤية سلبية موجهة مقصودة ، وتمتد جذورها إلى عصور الإسلام الأولى ٠ وقد استمرت هذه المواقف السالبة المعادية عبر العصور حتى يومنا هذا باستثناء بعض الأصوات المنصفة المعتدلة من المستشرقين التي لم تكن لتؤثر في هذا الطوفان من الهجوم والعداء والتشويه(١) ٠

وقد تشكلت الصورة القاتمة العدائية للتراث العربي والإسلامي في العصور الوسطى بشكل كبير ومحموم ، وأوقد نارها أكثر فأكثر الصدام والصراع والحروب المهلكة بين الشرق والغرب التي امتدت إلى هذه الأيام ٠ وغدا الفهم الخاطئ والتشويه المقصود للتراث العربي والإسلامي أمراً شائعاً منظماً طاغياً في التراث والتاريخ والثقافة الغربية ٠ وغصت كتب الدين والتاريخ والفلسفة والثقافة بشكل عام في الغرب بالدراسات والكتابات المحرفة المعادية المقاومة للتراث العربي والإسلامي ٠ وشكلت هذه الكتابات انطباعات سالبة عن هذا التراث لدى الاجيال المتعاقبة في الغرب ، وراح كثير من الكتاب يتناول هذا التراث بشكل سلبي استناداً إلى ما وصله من كتابات مشوهة وكأنها حقائق مسلم بها ، فثبتت في ذهنه هذه الصورة السالبة عن التراث والحضارة والقيم العربية والإسلامية ٠

ويتضح طغيان هذه الثقافة الغربية الخاطئة عن التراث العربي والإسلامي في كتابات لا تحصى[٢] . ومن هذه الكتابات رواية جيمس جويس « يقظة فنيغان »[٣] التي هي محور هذه الدراسة . إذ تُقدم الرواية الصورة المكررة المشوهة عن التراث العربي والإسلامي التي ورثها الكتاب المعاصرون عن تراثهم وثقافتهم وكتابات أسلافهم في العهود الماضية .

كما تجدر الإشارة هنا إلى أن « جويس » يعترف ببعض الجوانب « المضيئة » أو الايجابية في التراث العربي والإسلامي ، سواء ما كان منها متعلقاً بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وعظمته وعبقريته أم ببعض علماء المسلمين كابن سينا وابن رشد ، ولكن ذلك لا يشكل جزءاً كبيراً إذا ما قورن بمواقفه السالبة من هذا التراث بشكل عام ، كما أنه لا يخلو من أغراض أخرى مشبوهة ، كما سنبين في هذه الدراسة .

وارتأينا في دراسة التراث الإسلامي والعربي في هذه الرواية أن نقسم هذا التراث إلى نوعين رئيسين ، ثم نناقش كل نوع على حدة . فنذكر إشارة الكاتب إلى أية جزئية أو قضية من قضايا التراث ثم نوضحها بحيث نبين - قدر الامكان - دلالتها في السياق الروائي ومغزاها ووظيفتها ثم ، بعد ذلك ، نقارن بين مفهوم الكاتب لهذه المسألة والمفهوم الإسلامي أو العربي لها . ويُقصد من هذه المقارنة توضيح سوء الفهم أو التحريف الذي يلجأ إليه الكاتب ، سواء كان ذلك يمثل رؤيته الفردية بشكل خاص أم رؤية عصره والثقافة الغربية بشكل عام للتراث العربي والإسلامي . ونخلص بعد كل هذه إلى الإشارة إلى موقع هذا التراث من فلسفة الرواية وفكرتها ومحتواها .

وأخيراً ، فإن التراث العربي والإسلامي في رواية « يقظة فنيغان » هو التراث الوحيد الذي لم يدرس بعد بشكل كلي أو تفصيلي[٤] ، فقد درس في الرواية خمسة عشر تراثاً لأمم مختلفة ودرس أكثر من ست وثلاثين لغة فيها ، وليست العربية منها ، الأمر الذي يجعل هذه الدراسة لا تخلو من بعض الفائدة وتسد نقصاً في دراسات أحد أشهر كتاب القصة في القرن العشرين ، سواء اتفقنا معه أو اختلفنا . وقد وعدنا في دراسة سابقة مختصرة (باللغة الإنجليزية) أن نعود إلى هذا الموضوع بشيء من التفصيل والتحليل لمناقشة الكتاب في فهمه لهذا التراث أو اساءة فهمه المتعمد له وتوضيح وجهات نظر أهل التراث فيه وفي دلالته وابعاده ، التي لا تخلو من دفاع عن كثير من الحقائق التي تجاهلها الكاتب ، ومن دحض الكثير من افتراءاته وتحريفاته ،

الأمر الذي لم يكن متاحاً في الدراسة العاجلة السابقة والتي تركزت على توضيح الكلمات العربية ومعانيها المستخدمة في الرواية بشكل عام[٥] .

حول الرواية :

« يقظة فنيغان » ليست رواية بالمعنى المألوف ، وإنما تسمى كذلك مجازاً فهي « كتابة » بالمفهوم الحداثي أو « عمل أدبي » ، أقرب ما يكون إلى فن الرواية من بين الفنون الأدبية المختلفة ، وتحرياً للدقة وتجنباً لاشكال التسمية يشير بعض النقاد إلى « يقظة فنيغان » بكلمة « كتاب » أو « عمل »[٦] لأن كلمة رواية لا تنطبق على هذا العمل بالمفهوم الشائع . لكن كلمة أو مصطلح « كتابة » الذي شاع مؤخراً في الدراسات النقدية المعاصرة ، وكذلك في الكتابات الأدبية ، قد حل هذه الأشكال بشكل عام ، وأوجد مخرجاً مقبولاً لتداخل الفنون ، وسنشير إليها أحياناً بكلمة « رواية » بالمعنى المجازي .

و « يقظة فنيغان » كتابة أدبية معقدة غامضة مبهمة مليئة بالرموز والإشارات والغرائب التي تحتاج إلى عشرات الباحثين وعشرات السنين للكشف عن مضامينها وبنياتها وموضوعاتها ولغاتها (التي تتجاوز ستاً وثلاثين لغة) . وقد دفعت هذه الصعوبات والتعقيدات في « يقظة فنيغان » أحد الباحثين (ر . ماك هيو R.McHugh)[٧] إلى ترجمتها من الإنجليزية إلى الإنجليزية ، صفحة بصفحة ، إذ من الصعب أن نجد جملة مفيدة واحدة في « الرواية » كلها مكتوبة بلغة سليمة أو مفهومة على الصعيد اللغوي أو البنائي أو الفكري أو الأسلوبي . ولهذا كانت ترجمتها ذات فائدة عظيمة للباحثين والدارسين .

وقد كتب جويس « يقظة فنيغان » في سبعة عشر عاماً من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٩ ، وقد رد على المتذمرين من صعوبة روايته قائلاً « على الذي يريد أن يفهم (يقظة فنيغان) أن يقضي مثل المدة التي كتبت بها على الأقل لكي يحقق ذلك[٨] ، أي على الباحث أو القارئ أن يقضي سبعة عشر عاماً على الأقل ، يقرأ ويحلل وينقب في هذه الرواية حتى يتسنى له فهمها فهماً معقولاً ، والواقع أن أكثر من نصف قرن من الدراسة والبحث من مئات النقاد والباحثين في شتى ارجاء العالم وبخاصة الدراسات التي تقدم كل عام في مؤتمر « دبلن » عن جويس ، لم تصل إلى فهم كامل أو تحليل مقنع مرض

لهذه الرواية ، فعشرات المسائل والقضايا والتراكيب اللغوية والاسلوبية والمفردات والإشارات والألغاز ما تزال موضع حيرة وغموض وإبهام في هذه الرواية .

وليس حديثنا هنا عن « يقظة فنيغان » بشكل عام ، فهذا أمر يطول ويطول ، ولكن موضع اهتمامنا هو الجانب المتعلق بالتراث العربي والإسلامي في هذه الرواية . حيث سنكشف عن هذا التراث ووظيفته وأبعاده ودواعي استخدامه وعلاقته بموضوعات الرواية المختلفة .

و « يقظة فنيغان » باختصار تسجل أو تسترجع التاريخ البشري كله منذ آدم وحواء ، حيث تبدأ بهما الرواية[٩] ، حتى عصر الكاتب ، قبيل الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ . ويسترجع جويس التاريخ البشري كله في حوالي سبعمائة صفحة هي حجم الكتاب ، إذ يسترجع التاريخ الديني والفلسفي والاجتماعي والاسطوري والانثروبولوجي والعلمي بأبعاده الروحية والمادية منذ فجر التاريخ في كل الحضارات الإنسانية القديمة والحديثة . وينطلق استحضاره للتاريخ البشري من فكرة رئيسة مؤداها أن الموروث الإنساني كله هو من صنع العقل البشري . وأنه عبر الأزمنة المختلفة قد اختلطت الفلسفات بالأديان بالاساطير بالقصص الشعبية ، ونحت مناحي شتى مع أنها من أصل واحد وذات غايات متقاربة .

لهذا سنجد جويس رجلاً رافضاً متمرداً قريباً من الوجوديين في هذه المسألة ، لا يؤمن بالأديان أو الانبياء أو الرسل من الناحية الدينية أو الغيبية (الأديان الثلاثة الرئيسة) ، وإنما ينظر إليها كجزء من التاريخ البشري والنتاج العقلي أو الفلسفي . وتجدر الملاحظة هنا إلى أن موقف جويس السلبي من الدين الإسلامي في روايته مرتبط بموقفه السلبي من جميع الأديان ، إلا أن تحريفه أو تشويهه جوانب كثيرة من التراث الإسلامي أو العربي عن قصد ومكر يثير تساؤلات وشكوكاً كثيرة حول أغراضه وسوء نيته من هذا التحريف والتشويه ، كما سنبين في ثنايا هذا البحث .

وتبدأ « يقظة فنيغان » بالإشارة إلى آدم وحواء ثم الإشارة إلى نوح والطوفان وموسى وعيسى واسحق ومحمد ، والتوراة والانجيل والقرآن[١٠] ، وتاريخ الأغريق والفراعنة والهنود والصينين وقصصهم وأساطيرهم وخرافاتهم ، ثم يذكر أمماً شتى وحضارات مختلفة وأماكن وأنهار[١١] واقطاراً وعادات وشعوباً لا تحصى . كما يشير إلى مئات الأسماء والاعلام من الفلاسفة والمؤرخين والأدباء والعلماء وابطال الأساطير ثم

يذكر وقائع وحروباً واحداثاً هامة في التاريخ البشري يصعب حصرها . كل ذلك يشار إليه بشكل غير منتظم وغير واضح ، لا لغة ولا سرداً ولا بناءً . وعلى الدارس اعادة ترتيب الأحداث وربطها وسلسلتها ، ثم اعادة صياغة الجملة وكتابة الكلمات بشكل سليم ثم رد المفردات الأجنبية إلى أصولها وشرح معانيها بلغة الرواية ثم ربط كل ذلك بموضوع أو سياق الرواية المطروح . فمثلاً عندما ترد عبارة « لا اله إلا الله » فإن جويس يكتبها على النحو التالي : La La Alla[١٢] . ولكي تفهم هذه العبارة بالنسبة للقارئ ، فعلى الدارس أن يكتبها بشكل سليم أولاً ، فيقول La Ilaha Illa Allah ، ثم يترجمها إلى الإنجليزية No God , But Ullah ، ثم يشرح معناها أو دلالتها الدينية الإسلامية ، ثم يربطها بالسياق الروائي ، حيث يتحدث عن تعاليم الأديان ، ثم بالتالي يربطها بفكرة الرواية العامة . ولابد أن توضح الأمور على هذا النحو في كل صفحات الرواية وجملها ومفرداتها . وللقارئ أن يتصور صعوبة ذلك وتعقيده عندما يعلم أن في الرواية إشارات إلى ستة عشر تراثاً أو حضارة ، وست وثلاثين لغة ومئات القصص والاسماء والاماكن ، ليستنتج أن جهود مئات الباحثين ومئات الدراسات في هذا المجال لأكثر من نصف قرن لم تصل بعد إلى فهم كامل أو شبه كامل لعالم الرواية الصاخب المتشابك المعقد[١٣] .

و « يقظة فنيغان » مكتوبة بلغة الأحلام أو الكوابيس ، كما يرى كثير من النقاد . فبطله الرئيسفي الرواية الذي رمز له ب : .H.C.E ، تتغير دلالته ورموزه من صفحة إلى صفحة ومن فصل إلى فصل ، فقد يشير في ثنايا الرواية إلى أن هذه الأحرف ترمز إلى « كل إنسان » عندما يطلق على بطله (Here Comes Everybody) ويعني به « كل فرد وأي فرد » ، حيث يشكل الحرف الأول من الكلمات الثلاث اسم البطل H.C.E . وقد يشير إلى بطله ب « الكنيسة البريطانية العليا » عندما يطلق عليه اسم (High Church of England) فالاحرف الأولى للكلمات الثلاث تشكل اسم بطله H.C.E أيضاً . ويتخذ بطله اسماء أخرى كثيرة لها دلالاتها المختلفة في الرواية ، ليس المجال هنا مناقشتها ، أما بطلة جويس الانثوية في الرواية فقد رمز لها ب : .A.L.P ، وهي مثل بطله الذكري تأخذ اسماء ودلالات تتغير وتتحول في ثنايا الرواية ، فهي Anna Liffy في بعض الأحيان ، وتأخذ اسم نهر في « دبلن » ، موطن الكاتب ، في أحيان أخرى .. وهكذا . ولها دلالات كثيرة مختلفة في الرواية متعلقة

بالحياة الإنسانية والطبيعة والمادة ، مقابل البطل .H.C.E الذي تتعلق دلالالته بالعقل الإنساني والفلسفة والفكر عبر تاريخ البشرية كلها .

ويرصد جويس في روايته عبر بطليه - وشخصيات أخرى لا تحصى - مسيرة الإنسان منذ بدء التاريخ ، مسيرته العقلية والروحانية والفكرية والدينية والعلمية ، ويجسد هذه المسيرة بطلة .H.C.E ، بينما تجسد بطلته .A.L.P مسيرة الإنسان الحسية أو المادية والعاطفية والواقعية . لينتهي في آخر الأمر إلى تصور مأساوي للتاريخ البشري دفعه إلى التعليق ذات مرة قائلا : « إن التاريخ الإنساني كابوس مخيف ، وأنا احاول الاستيقاظ منه »[١٤] ، لكن جويس استيقظ ، أو أنهى روايته ، على مدافع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، وصدق تصوره المأساوي لمسيرة التاريخ البشري .

التراث العربي والإسلامي في الرواية
(القرآن والسنة)

أ - الإشارات التراثية المتعلقة بالنبي (ص) وأهله ، ومن أهمها :

١- قريش	صفحة ٥	سطر ١٣
٢- عبد الله وآمنة	صفحة ٣٠٩	سطر ١٣
٣- عائشة	صفحة ١٠٥	سطر ٧
٤- فاطمة	صفحة ٢٩٧	سطر ٣٠
٥- زيد وزينب	صفحة ٣١٥ ، ٣١٦	سطر ٢ ، ١١

وترد هذه الإشارات في سياقات مختلفة في الرواية ، حيث يوظفها الكاتب لأكثر من غرض ، أهمها التجريح أو النقد لشخصية الرسول ، استناداً إلى التفسير الغربي المشوه لسيرة الرسول وأهل بيته . وسنوضح فيما يلي مفهوم الكاتب وتأويله وتوظيفه هذه الإشارات في كتابه ثم نبين المفهوم الإسلامي لهذه الإشارات :

١- قريش

وترد الإشارة إلى « قريش » في بداية الرواية (Chorush) ويقصد (Quraysh)[١٥] في سياق الإشارة إلى الأنبياء والرسل وأقوامهم الذين ناصبوهم العداء أول الأمر . كما ترد قبيلة النبي قريش في سياق خروج الفرد على الجماعة واتخاذ موقف فكري يخالف فيه موقف المجتمع ، ثم نشر هذا المفهوم الجديد بحيث يستطيع من خلاله مواجهة المفاهيم القديمة والانتصار عليها مع مرور الوقت . وخروج النبي على مفاهيم القبيلة أو المجتمع ، من وجهة نظر جويس ، كان يحتاج إلى شخصية فذة عظيمة لكي تنجح في دحر المفاهيم القديمة والانتصار عليها واحلال المفاهيم الجديدة محلها . وقد جسد النبي هذه الشخصية الفذة القادرة على التأثير والتغيير في المجتمع .

ويبدي جويس في هذه المسألة اعجابه بشخصية النبي وقدراته العظيمة على تحويل المسار الاجتماعي والفكري والتاريخي للأمة في تلك المرحلة . ولكن هذا الاعجاب لدى جويس لا يستند إلى مفهوم ديني ، بمعنى أن النبي هو رسول الله وإنما يستند إلى اعتقاده أن النبي شخصية تاريخية قيادية عظيمة استطاعت أن تحول مسار التاريخ البشري كله . وهذا فارق جوهري ما بين مفهوم جويس والمفهوم الإسلامي حول النبي ورسالته ودوره ، كما سنبين .

كما ترد قريش في سياق الصدام والعداء ما بين الأنبياء جميعاً ومجتمعهم الذي يناصبهم العداء ويقاوم « زعمهم » أو فكرتهم أنهم رُسل الله . وقد تكرر هذا ، كما يرى المؤلف ، مع معظم الرسل ان لم يكونوا جميعاً . فقد اصروا على نشر دعوتهم وفكرهم الديني الجديد ، وقاوموا الواقع والمجتمع وعانوا كثيراً حتى نجحوا في نشر عقائدهم ورسالاتهم . وكان النبي محمد من بين هؤلاء الذين تمكنوا من نشر الدعوة الإسلامية بعد معاناة شديدة وكفاح مرير .

كما لا تخلو إشارات جويس إلى قريش من ربط الأحداث والقصص المتعلقة بالصراع ما بين النبي وعشيرته بالقصص والحكايات التاريخية التي يختلط فيها الواقع بالخيال وتمتزج فيها الحكايات التاريخية بالحكايات الدينية وبالحكايات الشعبية وهكذا . وهذه فكرة رئيسة لدى جويس في روايته حيث يرى أن القصص الدينية في

كل الاديان قد اختلطت بالقصص والحكايات والأساطير القديمة وأصبح من الصعب التفريق بينها ٠

أما المفهوم الإسلامي لهذه المسألة - الصدام ما بين النبي وعشيرته قريش - فإنه لا يتفق مع مفهوم جويس وتأويلاته المشوهة التي تخدم رؤيته وموقفه واعتقاده القائم على رفض كل الاديان السماوية وتفسيراتها الغيبية ٠ ويتفق المفهوم الإسلامي مع مفهوم جويس في أن النبي محمداً ذو شخصية فذة عظيمة نجحت في تحويل المسار التاريخي للبشرية ولكن هذا المفهوم يختلف عن مفهوم جويس في البعد الديني لهذه المسألة ٠ فالنبي ، إلى جانب تلك السمات في شخصيته ، هو رسول الله ، وليس مجرد شخصية تاريخية فذة كغيره من الشخصيات الأخرى (يقصد الأنبياء الآخرين) ، كما يرى جويس ٠ وهذه نقطة خلاف ما بين مفهوم الكاتب والمفهوم الإسلامي فيما يتعلق بشخصية الرسول ودوره ورسالته ٠

أما فيما يتعلق بامتزاج القصص الديني بالقصص التاريخي والاساطير وغيرها في سيرة الانبياء ونشر رسالاتهم وما ينسج أو يروي من قصص تفوق الخيال حول ذلك ، كما يرى جويس ، فإن هذه المسألة تعتمد بالدرجة الأولى على موقف الإنسان أصلا من الأديان ٠ فإذا كان مؤمناً بها فإنه سيقبل كل ما فيها ، فلا يستطيع المسلم مثلاً أو المسيحي أن يقبل بعض ما في القرآن أو الانجيل ثم يرفض بعضه الآخر ٠ وهذا يعني أن يقبل ما في دينه من قصص بوصفها قصصاً أو احداثاً حقيقية أو مجازية لا أساطير أو حكايات خيالية ٠ وبما أن جويس يعتقد أصلا أن الأديان من صنع البشر فإنه لابد أن يرد هذه القصص والحكايات إلى أصول غير دينية ٠ وهذه نقطة خلاف أخرى ما بين مفهوم جويس للقصص الدينية والمفهوم الإسلامي لها ٠

٢- عبد الله وآمنة :

أما والدا الرسول ، عبد الله وآمنة ، فانهما يردان في سياق الظروف العصيبة والشقاء المرير الذي يلف حياة الأنبياء في ظروفهم الفردية أو الاجتماعية ٠ ويشير إليهما جويس بلغته « المحرفة » ب (Ibdulin What Of Himana)[١٦] ويقصد (Abdulah : What about Amina) بمعنى : عبد الله ماذا عن آمنة ٠ وإشارة جويس إلى والدي النبي اللذين توفيا في صغره وظروف نشأته الصعبة تعني أن هذه النشأة

المأساوية قد اسهمت نفسياً في تشكيل شخصيته وعالمه الفكري والديني . وهذا أمر ، من وجهة نظر جويس ، اسهم في تعمق النبي في قضايا الإنسان والوجود وزاد من تأملاته وتفكيره العميق الواسع الأمر الذي انتج فيما بعد هذه الرؤية الفلسفية العميقة التي وجدت طريقها وتجسيدها في الدين الإسلامي الذي دعا إليه ونشره .

والخلاف ما بين مفهوم جويس والمفهوم الإسلامي في ظروف نشأة النبي الصعبة وفقده والديه مبكراً ينطلق من رؤية مختلفة . إذ ربما اسهمت هذه الظروف العصيبة في تشكيل كثير من الجوانب الفكرية والنفسية والدينية في شخصية الرسول ولكنها ليست سبباً للنبوة أو نتيجة ليصبح النبي نبياً مرسلاً من عند الله . لكن جويس الذي ينفي النبوة عن أي نبي آخر لابد أن يربط هذه المسألة بتفسيرات دنيوية تاريخية لا دينية غيبية . وهذه نقطة خلاف بين مفهوم جويس والمفهوم الإسلامي في هذه المسألة .

٣- عائشة :

وقد وجد كثير من الغربيين المعادين للإسلام في زواج النبي من عائشة مجالاً للنقد والتجريح في شخصية النبي بسبب فارق السن الكبير بين الزوجين . وجويس يركز على هذه القصة كجانب من جوانب كثيرة متعلقة بزوجات الرسول ينطلق منها للهجوم أو لنقد شخصية النبي في هذا المجال .

وترد عائشة في الرواية في سياق علاقة الزوج بزوجته والأب بابنته كما ترد في سياق الرغبات المادية أو الحسية . بمعنى ، وهذه هي وجهة نظر جويس ، أن النبي تزوج من عائشة « الطفلة الصغيرة » وهو رجل مسن بدافع الرغبة ، وإنها كانت في سن ابنته (فاطمة) أو أصغر ، وهذه ما يقصده في علاقة الزوج بزوجته والأب بابنته ، إذ يذكر جويس اسم عائشة أكثر من مرة ويربطه باسم فاطمة يقول " Aysha "[(١٨)] في سياق ثم : " Fatima .. Iysha "[(١٩)] في سياق آخر ، أي الابنة والزوجة في سن واحدة .

أما المفهوم الإسلامي لهذا الزواج فإنه يختلف ويتناقض مع مفهوم الكاتب . فالنبي ، من ناحية ، لم يتزوج عائشة فعلاً إلا بعد أن بلغت ونضجت كما هو ثابت في سير الرسول[(٢٠)] ، ومن ناحية أخرى ، فإن الرغبة لم تكن منطلقاً في زواج النبي لا من عائشة ولا من غيرها ، وإنما المنطلق كان اخلاقياً حيناً وتربوياً أو تشريعياً أو دينياً حينا آخر ، أي أنها جميعاً منطلقات تصب في الجانب الديني . ومن وجهة النظر

الإسلامية أيضاً ، فإن الرغبات الحسية أو الجمالية أو غير المتعلقة بالميل أو الشهوة لم تكن دافعاً في زواج النبي من أية واحدة من زوجاته . والمعروف أن أغلب زوجات النبي من المسنّات أو الفقيرات أو الارامل اللواتي لا يتمتعن بما يثير الرغبات أو الشهوات أو غير ذلك . وواضح أن النبي لو كان يريد ذلك لتزوج من اجمل النساء وأكثرهن شباباً وعزة ومكانة دون أي عائق ، ولكنه لم يفعل ذلك لأن غايته لم تكن حسيه كما يعتقد المؤلف .

وجويس في هذه المسألة مثل كثير من الغربيين (وكثير من الشرقيين أيضاً) الذين يأخذون من المسائل ما يخدم غاياتهم واغراضهم ويتركون ما عدا ذلك . فعندما يقول للقارئ الغربي أن النبي تزوج أكثر من عشر نساء وتزوج من طفلة في العاشرة وتزوج من زينب (زوجة ابنه بالتبني ، كما سنوضح) دون الإشارة إلى الظروف المختلفة أو الابعاد الحقيقية لهذا الزواج فإنهم بالتأكيد يثيرون القارئ ويرسمون في ذهنه صورة قاتمة سالبة فوضوية عن الإسلام بشكل عام ونبيه بشكل خاص .

وهذه هي الصورة التي ينشرها اعداء الإسلام عبر أجيال وحقبات تاريخية مختلفة . وجويس يسهم في هذا التشويه والتلفيق للقيم الإسلامية والحضارة الإسلامية ، ولا تبرأ ساحته بالقول إنه كان ضحية الثقافة الغربية المعادية للإسلام لسبب بسيط وهو أن من يستطيع أن يقرأ التراث الإسلامي بهذا العمق وهذه الكثافة ، ويضمن هذا الكم الهائل من التراث الإسلامي في روايته ، يستطيع بالتأكيد أن يشير إلى الحقائق من وجهة نظر أصحابها . فلا نظن أن جويس أو غيره يستطيع أن يقول إن النبي تزوج أكثر من عشر نساء ولا يستطيع أن يضيف وقد كان معظمهن من المسنّات مثلاً . كما لا نظن أن جويس أو غيره ممن اطلع على التراث الإسلامي بهذه الدقة كما يتضح في كتابه يستطيع أن يقول إن النبي تزوج من طفلة في التاسعة أو العاشرة من عمرها ولا يسطتيع أن يقول إنه لم يتزوجها بالفعل حتى بلغت سن الزواج ، وبامكانه أن يحمل المسلمين مسؤولية ذلك ويقول مثلا : كما يعتقد المسلمون . لكن المسألة تختلف باختلاف الاغراض والنوايا ، وغرض جويس وغيره واضح في هذا حيث يقصدون التشويه والتحريف والعداء والتأليب على هذا الدين .

٤- فاطمة :

وترد الإشارة إلى ابنة النبي في سياق « البنوة » في الرواية ، أو كما أشرنا قبل قليل في علاقة الأب بالابن والزوج بالزوجة . وكان جويس يقصد أن النبي تزوج من فتاة في سن ابنته أو أصغر ، ثم ذكر فاطمة وعائشة ، الابنة والزوجة[٢١] . وقد أوضحنا قبل قليل وجهة نظر المؤلف ووجهة النظر الإسلامية في هذه المسألة .

٥- زيد وزينب :

ربما كان موضوع زواج النبي من زينب بعد طلاقها من زوجها زيد الذي كان قد تبناه النبي سابقاً ، من أكثر الموضوعات التي استغلت وشوهت وحملت على غير معناها الحقيقي من جانب كثير من المستشرقين أو الكتّاب المعادين للإسلام من أجل الهجوم أو التجريح في شخصية النبي وفي اخلاقه بشكل خاص أو الهجوم على الدين أو القيم الإسلامية بشكل عام . وربما كانت هذه الحكاية أكثر الحكايات ذكراً ووروداً في « يقظة فنيغان » ، وذلك لأن المؤلف وجد فيها موضوعاً يمكن تحريفه واستغلاله لتقديم أشد أنواع الهجوم الاخلاقي على النبي . ومرة أخرى يعرض المؤلف القصة بالمفهوم الذي يريده والذي يحقق غرضه ويتجاهل قاصداً وجهة نظر أهل القصة أو أصحابها من المسلمين مع أنه يعرفها حق المعرفة .

وترد قصة زيد وزينب في سياقات كثيرة في الرواية ، فهي ترد في سياق علاقة «الأبوة» أو «البنوة» التي أشرنا إليها سابقاً ، ويغمز جويس في هذا السياق النبيّ حيث تزوج زوجة ابنه بالتبني . كما ترد في سياق « ابوة » أو « بنوة » المصلحة التي انفضت بهدف الزواج من زينب . إذ يخلي النبي طرفه من الابن ويمنع التبني ليصبح الزواج مشروعاً . كما ترد الحكاية في سياق آخر أيضاً حيث يذكر جويس أن النبي قال ليبرر هذا الزواج : هذه إرادة الله وهذا امره (مراد الله) يقول في الرواية : "Good Marrams Sagd : Sagd : Good's Will Zayd" كما أن المؤلف لا يخفي تلميحاته وتحريفاته أن النبي قد دفع كلاً من زيد وزينب للطلاق مبرراً ذلك باستحالة عيشهما معاً ، إذ يكرر مرة أخرى قائلا : "Good Merrymills Sayd" ثم بلسان زيد "My Godfather"[٢١] أي « العراب » .. وهكذا ..

وواضح أن وجهة نظر جويس في هذا الموضوع تتشابه مع وجهات كثيرين : مستشرقين ومستغربين وآخرين كثيرين . أما وجهة النظر الإسلامية في هذا الموضوع فإنها واضحة ومعروفة ، وهي باختصار توضع في إطارها الديني والاجتماعي والتشريعي . فمن المعروف أن النبي حاول أكثر من مرة أن يصلح ذات البين بين زيد وزينب ، وقال النبي أكثر من مرة لزيد « أمسك عليك زوجك » ، لكن الخلاف بين الزوجين تفاقم واستفحل فلم يكن من حل إلا الطلاق . كما أنه من المعروف أيضاً أن النبي أوحى إليه (سورة الأحزاب) أن يمنع التبني لأسباب كثيرة متعلقة باختلاط الانساب والارث ومسائل أخرى كثيرة ، فأخلى سبيل زيد ثم تزوج من زينب بعد طلاقها لكي لا يبقي أي شك في موضوع التبني . وكأن النبي يسن سنة أو يصدر تشريعاً أو تنظيماً لهذا الأمر . هذا إلى جانب الأمر الالهي الذي ورد بالقرآن وبزواج النبي من زينب ، وقد كان النبي متردداً في ذلك .

فمن الواضح أن وجهة النظر الإسلامية في زواج النبي من زينب تقوم على أسس دينية واجتماعية وتشريعية . فمن ناحية أولى ، تنطوي هذه القصة على بعد اجتماعي متعلق بمبدأ الطلاق الذي هو ابغض الحلال إلى الله . ولكن موافقة النبي على طلاق زيد من زينب بعد أن استحال العيش بينهما ، تتضمن حلاً لمشكلة اجتماعية بحيث يصبح « ابغض الحلال » أي الطلاق هو الحل الأنسب لمعضلة كهذه . بمعنى أنه إذا وصلت الأمور بين الزوجين إلى حالة انعدام الإصلاح فالطلاق هو الحل الأخير ، وإلا لما كان قد سمح به أو حلل في نطاق ضيق .

كما أن زواج النبي من زينب بحد ذاته ينطوي على سنة أو تشريع ديني في موضوع الابن بالتبني وزوجة هذا الابن وأمور أخرى تتعلق بالميراث والزواج ، وما يمكن أن يساء فهمه في المستقبل . فحل النبي المسألة وقطع كل شك أو اجتهاد فيها عاجلاً أو آجلاً(٢٢) .

وجويس الذي يعرف هذه القصة ويغمز ويلمز بها ، يعرف أيضاً ظروفها وحقائقها ، ولكنه اقتطع اجزاء من القصة وحرفها لتتفق مع غايته ، فذكر أن النبي رغب في زوجة ابنه بالتبني ودفعه لطلاقها وألغى التبني ثم تزوج من زينب . . . وتجاهل كل الأبعاد الدينية والاجتماعية للموضوع ، مثلما تجاهل كثيراً من الحقائق التي وردت في سياق القصة لا في تأويلها ، فلم يشر إلى ثني النبي وردعه زيداً أكثر من مرة للابقاء على

زوجته ، كما لم يشر إلى أمور كثيرة تغير مفهوم القصة المشوه الذي ساقه في روايته ، وكان قاصداً في كل ذلك بالطبع .

ب - الإشارات التراثية المتعلقة بالاحداث والقصص الدينية ، ومن أهمها:

١- الاسراء والمعراج	صفحة ٥٢	سطر ٨
٢- معركة بدر	صفحة ٨٦	سطر ٢
٣- قصة الغار (غار حراء والعنكبوت والحمامة)	صفحة ١٠٨ , ١٣١ ، ٣١٧ , ١٨ , ٣٤	سطر ١٦
٤- علي بن أبي طالب (نومه في فراش النبي)	صفحة ٣٩٧	سطر ٣٠
٥- عمر بن الخطاب (قصة اسلامه)	صفحة ٣١٩	سطر ٣٣
٦- قصص أخرى :		
ياجوج وماجوج	صفحة ٦	سطر ١٩
تكسير الاصنام	صفحة ١٢٨	سطر ٣٠
أهل الكهف	صفحة ١٥٦	سطر ٢
موت النبي (خطبة الوداع)	صفحة ٤٩٩	سطر ٧

وترد الإشارات إلى القصص أو الاحداث الدينية في الرواية في سياق استعراض دعوات الانبياء المختلفين إلى دين الله ، ويخُضع الكاتب هذه القصص أو المعجزات إلى الحكم المنطقي أو العقلاني الذي لا تخضع له مثل تلك المعجزات ، وإنما تخضع للإيمان بالخالق وقدرته على فعل هذه المعجزات ، وهو أمر لا يؤمن به جويس ، ولا يريد أن يفهمه في إطار سياقه الديني ، وإنما في سياقه الاسطوري أو القصصي . وجويس يفعل ذلك لبلورة فكرة رئيسية في هذه الرواية تقوم على اختلاط القصص الدينية بالقصص الشعبية والاساطير عبر حقبات مختلفة من التاريخ البشري . وفي إطار القصص والاحداث المتعلقة بالتراث الإسلامي فإن جويس ينتقي بعض القصص ويستغل بعض الأحداث التي تعتمد على المعجزات أو الغيبيات ليثبت رؤيته حيث تختلط في هذا السياق ، كما يعتقد ، الوقائع الدينية بالقصص والأساطير المتخيلة ، وهو يفعل ذلك في قصص كثيرة من ديانات مختلفة وعند شعوب شتى . ومن هذه القصص أو

المعجزات التي يخضعها جويس لبعد عقلي منطقي لا بعد ديني مؤمن ما يلي :

١- الاسراء والمعراج :

حيث ترد في الرواية في سياقات الإشارة إلى قصص دينية مختلفة كقصة الطوفان وقصص الانبياء عيسى وموسى ويوسف ثم قصص ياجوج وماجوج وأهل الكهف والاسراء والمعراج[٢٣] .. وغيرها . وينتقي جويس هذه القصص مجردة من مغازيها ومنسلخة عن الإيمان بالغيب لكي تبدو شبيهة بأية قصص أو اساطير أو خرافات لدى أمم كثيرة وفي تواريخ متعاقبة مختلفة . وتجريد هذه القصص الدينية من معناها الاعجازي الذي يخص به الله أنبياءه ورسله ليميزهم عن باقي البشر ، يحولها إلى قصص أسطورية غير معقولة بالمقياس المنطقي أو المادي .

وترد الإشارة إلى الاسراء والمعراج في اطار ساخر تعجبي ، يقول بلغته غير المفهومة وجمله غير المفيدة التي كتبت الرواية كلها بها : " To take a ride as long as from her totomorow"[٢٤] ويضيف في مكان آخر : " To spare for the space of a world at lime"[٢٥] . ويقصد بذلك من السياق العام الذي يتحدث فيه عن النبي محمد وتعاليمه وقرآنه - كما يقول - « الذي صعد - عرج - إلى الفضاء - السماء - والعالم في وقت واحد - أو ليلة واحدة ، فهذه الحكاية ، كما يريدها جويس أن تفهم ، هي أقرب إلى الخيال أو الأسطورة ، لايمكن أن تصدق ، وهذه القصة حتى بالمفهوم الديني هي أقرب إلى الخيال أو المعجزة ، ولكنها معجزة إلهية ، والمعجزات الالهية كثيرة ، ومعجزة الإسراء والمعراج قد خصّ الله بها نبيه ، فمن يؤمن بالله ورسله لابد أن يؤمن بها وبغيرها من قصص الأنبياء ومعجزاتهم ، أما من لا يؤمن كجويس وغيره ، فلابد أن يدرجها ضمن الخيالات أو الاساطير الشعبية المختلفة .

كما يشير جويس إلى قصة الاسراء والمعراج لتجسيد هدف آخر غير خلط القصص الدينية بالاساطير ، وهو السخرية من اتباع الانبياء الذين يصدقون مثل هذه القصص ويقنعون بنسبتها إلى الإله ومعجزاته وقدرته على كل شيء . وفي مجال الاسراء والمعراج فإنه يسخر من العقلية العربية والإسلامية مثل كثيرين غيره شرقاً وغرباً التي تؤمن بمثل هذه « الحكايات » وهذا مرتبط في مناسبات كثيرة ، سنوضحها في ثنايا هذه الدراسة ، يستغلها جويس للتقليل من شأن العقلية العربية والإسلامية والانتقاص

من مكانة الحضارة الإسلامية بين الحضارات الأخرى .

ولكن جويس يعود بعد إشاراته الساخرة وقدحه وهجومه على عقلية هذه الأمة ، فيربط قصة الاسراء والمعراج بقصص دينية أخرى كثيرة ، ثم يربطها جميعاً بخرافات شعبية وأساطير متعددة ليبلور موقفه من التاريخ الإنسان الفلسفي والديني والاجتماعي حيث اختلطت هذه التواريخ والفلسفات والاديان وقصصها وتعاليمها وخيالاتها معاً عبر أزمنة طويلة .

٢- معركة بدر :

وترد الإشارة إلى معركة بدر في الرواية في سياق القصص الاسطورية التي يحشدها جويس أيضاً ، وبخاصة فيما يتعلق بالملائكة أو جنود الله الذين حاربوا مع المسلمين في تلك المعركة . يقول جويس : "Padder ... Angels and Guinnes"(٢٦) « بدر ... الملائكة والجن " ، ويقصد أن الله أرسل الملائكة والجن لتحارب مع المسلمين وتنصرهم على اعدائهم الذين كانوا يتفوقون عليهم عدة وعدداً ... وواضح هدف جويس من انتقاء هذه الأحداث التي تحوي جانباً من المعجزات الألهية وهو خلطها بالأساطير والتخيلات . ومع هذا فإن معركة بدر ترد في سياقات الحروب والمواجهات الدامية المختلفة . فترد « بدر » في سياق الصدام الدموي والصراعات التي تحدثها الخلافات الدينية ، وهي ترد ضمن صدامات كثيرة وحروب مختلفة اندلعت لأسباب دينية عبر مراحل تاريخية مختلفة وفي أماكن كثيرة في التاريخ القديم والحديث . وهذا يبين ويخدم فكرة هامة لدى جويس تتضمنها روايته وهي أن القوة الدينية هي التي شكلت التاريخ والحضارات قديماً وليست القوة العلمية كما يفترض .

من ناحية أخرى ترد غزوة بدر ، وهذا هو الجانب الذي يركز عليه جويس أكثر ، في سياق الإشارة إلى القصص التي رويت عن هذه المعركة غير المتكافئة ، وكان النصر فيها للمسلمين الذين كانوا أقل عدداً بشكل كبير . ويركز جويس على « قصة » الملائكة الذين حاربوا مع المسلمين وحققوا لهم النصر . وينفذ من هذه النقطة ليوضح كيف تختلط القصص الدينية بالقصص الشعبية وأحياناً بالأساطير ، حيث يعتقد جويس أن قتال الملائكة مع المسلمين في هذه الحرب أقرب إلى القصص الخيالية أو الأساطير . ويربط ذلك بقصص أخرى كثيرة من أديان مختلفة وأساطير أغريقية متنوعة وحكايات

شعبية (كما سنوضح عند الحديث عن قصص ألف ليلة وليلة) ليخلص إلى فكرة اختلاط القصص تاريخياً واسطورياً ودينياً وشعبياً معاً ، عبر مراحل التاريخ القديم .

أما المفهوم الإسلامي لهذه المسألة فإنه يختلف بالطبع عما يحاول المؤلف أن يقدمه في روايته . فالاديان شكلت جوانب كثيرة من تاريخ البشر ، ولكن لا نظن أن هذا التشكيل كان دينيا فقط . فالاديان كانت تسير وتتقدم في شتى جوانب حياة البشر : الاجتماعية والاخلاقية والسياسية والعلمية والاقتصادية إلى غير ذلك . كما أن هذه الأديان لم تكن نقيض العلم في مسيرة البشر والتاريخ ، كما يفترض جويس ، فكثير من العلماء ظهروا في ذروة الحضارات ، سواء كان ذلك في الحضارة الإسلامية أو غيرها . أما تلميحاته إلى نماذج اصطدام العلماء برجال الدين وأحياناً حرق كتبهم أو اعدامهم أو رفض نظرياتهم ومكتشفاتهم . فالامر لا يرجع إلى الاديان نفسها ، كما هو معروف ، وإنما إلى الذين يقومون على هذا الدين أو ذاك ، وهؤلاء ليسوا معصومين عن الخطأ من ناحية ، كما أنهم لا يمثلون الدين الحقيقي في كل الاحيان ، من ناحية أخرى .

ومهما يكن من أمر ، فالمسألة عند جويس أصلاً تتعلق بالإيمان بدين ما أولاً ، وبما أنه ينفي كل الاديان ، فإنه بالتأكيد لن يقبل بأية قصة أو واقعة تتعلق بأمر الهي أو غيبي أو ديني كما هو الأمر في ملائكة بدر . ولهذا لا فائدة من الفصل بين قصة تعتمد على بعد اسطوري وأخرى تعتمد على بعد ديني ، لأن الكاتب لا يؤمن أصلاً بهذا البعد الديني أو الغيبي ، ولابد إذن أن يدرج مثل هذه « الأحداث » الالهية ضمن الحكايات أو القصص أو الاساطير . وهذا بالطبع يختلف عن رؤية أهل الدين مسلمين كانوا أو غير مسلمين .

٣- قصة الغار (غار حراء والعنكبوت والحمامة) :

وتندرج قصة غار حراء الذي لجأ إليه النبي بعد أن قرر المشركون قتله وتسخير العنكبوت والحمامة في تضليل مطارديه . . تندرج أيضاً ضمن الفكرة نفسها التي يراها جويس في غزوة بدر وهي اختلاط القصة الدينية بالقصة الخيالية أو الاسطورية . وترد في سياق الإشارات إلى قصص وخرافات وحكايات شعبية ودينية مختلفة اختلطت معاً وأخذ بعضها من بعضه الآخر . وجويس ينطلق من فكرة أخرى في هذه المسألة

وهي أن الأديان والأنبياء قد اخذوا هذه القصص ووظفوها توظيفاً دينياً غيبياً في كثير من الاحيان . وكأنه بهذا يشير إلى أن أصل القصص الدينية من موروثات الشعوب القديمة واخيلتها وأساطيرها .

ويشير جويس إلى القصة أكثر من مرة . فهو يشير إلى العنكبوت "Spider"[٢٧] مرة ، ثم يفصل القصة بلغته مرة أخرى ، يقول : aspindler web chockes the cavemouth of his unsightlines but the nestling that liven.. the cave[٢٨] ويعود في مكان آخر ليقول : "mountain haares"[٢٩] أي « جبل غار حراء » ويقصد أن العنكبوت نسج خيوطه أمام الغار وأن « الطير » صنع عشاً ، ليضل المطاردين ، إذ تطوعت هذه « الحيوانات » لانقاذ الرسول . ولا يؤمن جويس بأنها « سخرت » من الله لفعل ذلك ، وليس « تطوعت » بطريقة جويس الساخرة التهكمية.

والمفهوم الديني في واقعة العنكبوت وغار حراء من وجهة النظر الإسلامية معروف وواضح ، ينطلق من الإيمان بالله القادر على كل شيء . فالذي خلق هذا الكون يستطيع صنع أشياء صغيرة أو بسيطة كبيت العنكبوت وعش الحمام على مدخل غار حراء ليُضل المشركين . والمسألة تتعلق بالإيمان أو عدمه ، فمن يؤمن بالله يؤمن بقدراته وأفعاله ، ومن لا يؤمن ، مثل جويس ، فسوف ينظر إلى المسألة من الناحية القصصية البحتة أو التخيل الإنساني القصصي . والفهم الإسلامي لهذه النقطة يشبه الفهم الذي اشرنا إليه في مناقشة الإشارة إلى غزوة بدر قبل قليل .

٤- علي بن أبي طالب (نومه في فراش النبي) :

والإشارة إلى علي بن أبي طالب في الرواية متصلة بقصة الغار والعنكبوت أيضاً ، حيث نام علي في فراش النبي حين كشف خطة المشركين الذين بيتوا أمر قتل النبي . والإشارة إلى علي ترد بشكل رئيس في إطار القصة الدينية التي يراها جويس أقرب إلى القصة الخيالية أو الشعبية ، وترد في السياق نفسه الذي وردت فيه الإشارة إلى غزوة بدر وواقعة غار حراء .

وترد الإشارة إلى علي في سياق اصطدام الانبياء بأقوامهم ، وكان اصطدام النبي بقومه قد تفاقم إلى حد أن قرروا قتله ، فافتداه علي ونام في فراشه واختبأ النبي في غار حراء . يقول جويس : "Ali Slupa"[٣٠] ويقصد "Slept" نام مكان النبي .

ويربط المؤلف ذلك بالقصص والحوادث « المسلية » التي تعتمد على الغرائب والتشويق و « الحبكة » الناجحة في القصة . ولم يربط ذلك برعاية الله لانبيائه وتصوير العقبات التي واجهوها في سبيل نشر تعاليمه أو كيف خصهم بمعجزاته وحفظه حتى يؤمن القوم ويقتنعوا . إذ يتجاهل جويس كل ذلك ، وهو يعرفه ولكنه لا يؤمن به ، ويعرض القصة من مفهوم قصصي خيالي ممتع .

والمفهوم الإسلامي لهذه الواقعة معروف وجلي أيضاً كما يشير ابن هشام[٣١] ، فهي إلى جانب بعدها الديني حيث هي ارادة الله وهدايته ، فإنها لا تحمل بعداً خيالياً أو اسطورياً خارقاً للواقع . فحتى لو نظر إلى مسألة علي من الناحية الواقعية إذ نام مكان النبي وخرج النبي إلى مخبئه في الغار ، فإنها مسألة لا تحمل بعداً اسطورياً أو تخيلياً ، فقد تحدث على أرض الواقع في أي زمان ومكان . وهذا يعني أن جويس يحشد الأحداث والوقائع سواء ما يحوي منها بعداً غيبياً دينياً (الملائكة في بدر) أم بعداً واقعياً محتمل الحدوث (نوم علي في فراش النبي) ليخلط الأمور معاً ويدرجها ضمن رؤيته العامة عن امتزاج الأحداث والقصص الدينية والشعبية والاسطورية معاً . ولكنه خلط الأمور معاً أيضا ، ونظن أن ذلك كان مقصوداً وقد اعتمد جويس في ذلك على جهل الناس في كثير من تفاصيل الاديان الأخرى ، فطوع أحداثاً وأول قصصاً لتخدم فكرته وتجسد مفاهيمه المختلفة .

٥- عمر بن الخطاب (قصة إسلامه) :

ويرد اسم عمر بن الخطاب في سياقين رئيسيين في الرواية وفي نفس الصفحة التي يرد بها اسم علي بن أبي طالب[٣٢] ، الأول عند الحديث عن الخلفاء الراشدين وعن (الشخصية القوية) إشارة إلى الخليفة عمر ، والثاني يتضمن الإشارة إلى قصة إسلامه (الدرامية) ، التي تنطوي على ابعاد مختلفة . ولا خلاف على التميز في شخصية عمر القوية التاريخية كما تشير الرواية ، ولكن الخلاف يظهر بين المفهوم الإسلامي لقصة إسلام عمر وبين مفهوم جويس أو تفسيره لهذه القصة . فالمؤلف يوحي بأن هذه القصة (الميلو درامية) التي تبدأ من عداوته للإسلام وثورته على اخته وضربها بسبب إسلامها ثم اهتدائه وإيمانه واعلان إسلامه تدخل ضمن القصص التاريخية الموظفة لابعاد دينية . ويحاول جويس أن يخلط بين هذه القصة وقصص أخرى متعلقة

بشخصية عمر وهيبته وفراسته وبعض الأحداث التي تتجاوز حد المألوف وعرضها بشكل غيبي أو أسطوري ليبلور فكرته الرئيسة التي تنطوي على اختلاط القصص التاريخية والدينية والشعبية معاً .

وقصة إسلام عمر من وجهة النظر التاريخية أو الدينية لم تخضع للتأليف أو الخيال الأدبي أو القصصي أو الاسطوري كما يرى المؤلف ، فهي لا تنطوي على احداث خارقة أو غيبية ، وإنما هي أقرب إلى الحدث الواقعي الذي لا غرابة فيه . وتفاصيل القصة بحد ذاتها « عادية » مقنعة لا تخيل فيها ولا أسطورة . أما ادراجها ضمن بعض الحكايات « الخارقة » التي تروي عن عمر وبخاصة في الإشارات إلى « فراسته » أو عبقريته ، فهو الذي طوعه جويس لاصباغ البعد القصصي الخيالي على شخصية عمر ، ولا تدخل عبقرية عمر أو علم الفراسة الذي عرف عنه في المفهوم الإسلامي ضمن الخيال أو الأمور الخارقة المنسوجة حوله ، وإنما تدخل ضمن عبقريته وشخصيته وفهمه العميق للدين والدولة من ناحية ، كما أنها لا تخلو من بعد غيبي متعلق برعاية إلهية أو هداية منه لخدمة الإسلام ودولته من ناحية أخرى .

وحتى لو وضعنا هذا البعد الغيبي أو الديني جانباً فيما يروي عن الخليفة عمر ، فإن كل القصص والاحداث والوقائع التي تروى عنه تظل في نطاق الواقع المقنع والعبقرية والوعي الذي عرف عنه دون أي حس أسطوري أو تهويم خيالي في هذه القصص والاحداث التي يضعها جويس في إطار غير إطارها .

٦- قصص أخرى :

ياجوج وماجوج[٣٣]	صفحة ٦	سطر ١٩
تكسير الاصنام[٣٤]	صفحة ١٢٨	سطر ٣٠
أهل الكهف[٣٥]	صفحة ١٥٦	سطر ٢
موت النبي (خطبة الوداع[٣٦]	صفحة ٤٩٩	سطر ٧

وترد هذه الإشارات في سياقات مختلفة في الرواية ، إذ يرد بعضها في سياق الحديث عن القصص والاساطير والحكايات الشعبية الموروثة المختلفة ، بينما يرد بعضها الآخر في سياق رصد الكاتب مسيرة الدعوة وأهم الأحداث التي رافقتها حتى موت

النبي صلى الله عليه وسلم . وتتكرر هنا أيضاً محاولات جويس القائمة على مزج القصص (ياجوج وماجوج وأهل الكهف) بالواقع التاريخي (تكسير الاصنام وخطبة الوداع وموت النبي) لكي تشكل هذه الأحداث جميعاً مصدراً قصصياً (تاريخياً) واحداً ، وتختلط معاً ، وبعد ذلك يتحقق هدف الكاتب في أن هذه الأحداث جميعاً - القصص والاحداث والوقائع - صنعها الخيال البشري لأهداف مختلفة ، أي ذات أصل ديني أو تاريخي أو واقعي .

ولو ذهبنا مذهب جويس في النظر إلى قصتي « ياجوج وماجوج » و « أهل الكهف » من حيث أنهما يتجاوزان التفسير الواقعي أو المنطقي إذا جردناهما من مضمونهما الديني ، فإنهما ببساطة حدثان واقعيان موثقان تاريخيا وعلمياً . هذا فضلاً عن أنهما من الوقائع « القريبة » في التاريخ البشري مقارنة بالقصص الأخرى القديمة التي سبقت التاريخين الميلادي والهجري . ووقائع الدعوة المحمدية الموثقة المكتوبة لا تشبه القصص أو الاساطير المغرقة في القدم والمأخوذة « مشافهة » جيلا بعد جيل ، كما يريدها جويس أن تكون أو تفهم في مثل هذا الإطار . فلا يمكن أن ننظر إلى قصة أهل الكهف وواقعة تكسير الاصنام بعد فتح مكة نظرة واحدة وكأنهما قصتان اسطوريتان نقلهما لنا التاريخ القديم ، وأي « تلميذ » يعرف أن أهل الكهف قصة لها دلالتها الدينية والإنسانية ، سواء كان حدوثها واقعياً أم مجازياً ، أما تكسير الاصنام فهي واقعة تاريخية فعلية ولم يذكر أحد أنها قصة منسوجة أو مأخوذة من أساطير القدماء .

ومحاولات جويس في أن يقلب الحقائق ويخلط الواقع بالمتخيل ويمزج التاريخ بالاسطورة في زحمة الإشارات المختلفة وكثافتها وتداخلها وفصلها عن سياقها وتفريغها من مغزاها أو دلالتها التي جاءت من أجلها ... كل هذه المحاولات تهدف إلى تجريد الاديان من ابعادها الغيبية والعقائدية وتحويلها إلى « حركات » تاريخية إنسانية صنعها البشر استجابة لحاجات اجتماعية وفكرية وروحية تنظم شؤون الناس وتشبع رغباتهم المادية والمعنوية عبر العصور المختلفة . لكن هذه المحاولات وغيرها لم تنجح في تحويل الاديان إلى موروث تاريخي يمكن أن تتجاوزه الحضارات المختلفة ، والواقع الديني في العصر الحاضر الذي يظهر حضوراً متزايداً يثبت فشل هذه المحاولات على الرغم من توجه الكثيرين هذه الوجهة في هذا العصر المضطرب القلق .

ج - الإشارات التراثية المتعلقة بالمصطلحات والشعائر الإسلامية[٣٧] :

١- اسلم تسلم	صفحة ٦٨	سطر ١٢
٢- الله حي	صفحة ١٣٩	سطر ١٩
٣- الصلاة	صفحة ٢٣٥	سطر ١
٤- الفاتحة	صفحة ٢٣٥	سطر ٢
٥- لا اله إلا الله	صفحة ٢٣٥	سطر ٨
٦- السلام عليكم	صفحة ٢٤٥	سطر ١
٧- بسم الله	صفحة ٣٥٧	سطر ٤

هذه بعض الكلمات التي يذكرها جويس في « يقظة فنيغان » بنطقها العربي وبأحرف إنجليزية ، وهناك غيرها كثير لا مجال لبحثها هنا . وهو يفعل مثل ذلك في لغات كثيرة بحيث يصعب فهمها ، فكلمة Salat في الرواية[٣٨] لا يمكن أن يفهمها إلا من يعرف العربية ، ولكنه يذكرها هكذا دون ترجمة أو توضيح . ومثل ذلك يحدث في كلمات صينية وهندية وفارسية وفرنسية وألمانية إلى غير ذلك ، وهو أمر يزيد الرواية صعوبة وتعقيداً أكثر فأكثر .

أما هذه المصطلحات أو العبارات الإسلامية أو الشعائر الدينية فإنها ترد في أثناء الحديث عن لغة الاديان والتعاليم الجديدة والقيم الدينية التي تستحدث عند ظهور الرسل والأنبياء . أما ورود هذه المفردات والعبارات في إطار التراث الإسلامي ، فإن جويس يذكرها ويستحضرها في أثناء الحديث عن النبي محمد أو عن القرآن أو التعاليم الإسلامية التي ينشرها النبي ويعلمها إلى اتباعه . وتتفاوت دلالات هذه الإشارات في الرواية ما بين استعراض المبادئ والقيم التي تحملها الاديان وبين اللغة والفكر الجديدين اللذين يحملهما كل دين لدعوة الإنسان واقناعهم باتباعه .

ولا تخلو إشارات جويس السابقة من سخرية مبطنة حين يوظف بعض تلك العبارات في سياق من السياقات . فحين يستخدم عبارة « اسلم تسلم » فإنه يلمح إلى لغة التهديد التي يستخدمها المسلمون في نشر دينهم ، بمعنى إما الإسلام وإما الموت . وقد يقال مثل ذلك في إشارات كثيرة مثل « لا اله الا الله » التي تترجم إلى الإنجليزية "No God but Ullah"[٣٩] . وإن "الله" هذا هو اله المسلمين فقط وليس الاله اطلاقاً ،

أما God فهو آله آخر ، والهة الاديان والأمم الأخرى لها مسميات مختلفة ، وهكذا فإنه يهدف إلى التشكيك بالفكرة نفسها للاله حيث اختارت كل أمة أو كل ديانة الها أو خالقاً خاصاً بها . وسخرية جويس هذه وأغراضه من هذه السخرية واضحة الابعاد والمقاصد .

أما إشاراته الأخرى للمفردات الإسلامية والشعائر الدينية فإنها ترد في سياق الإشارة إلى القرآن وما تحمله عناوين بعض سوره مثل « الفاتحة » وسورة « ق » حيث يكتبها "Quff"(٤٠) ثم يشير إلى " قاف " " كاف " " ميم " " وراء " حيث يقول "The Coughs and the itches and the minnies and the ratties(٤١) التي تتضمن تشويهاً وسخرية لسور قرآنية وآيات مختلفة . وواضح أن جويس يتلاعب بالكلمات ، فإشاراته إلى حرف أو سورة " ق " ترد في سياق Cough أي " كحة " كما يرد حرف "الهاء" في سياق "itches" أي الهاءات والتي تعني « حكة » ثم يتابع سخريته في حرف « الراء » التي ترد في سياق rats أي فئران . . . وهكذا ، فإن تهكمه لغة وفكراً على القرآن والنبي وتعاليم الإسلام يخرج عن أي التزام أو حس موضوعي أو أخلاقي .

إما اشاراته الأخرى الكثيرة « الله حي ، وبسم الله ، والسلام عليكم " التي يكتبها في لغة الرواية : "Ann alive"(٤٢) "Bismilla"(٤٣) "in the name of Annah"(٤٤) "Salama Laim"(٤٥) . فإنها ترتبط حيناً بما بعده جويس « طقوساً » إسلامية ، وترتبط حيناً آخر مع شخصياته الروائية الأخرى مثل "Anna" المرتبطة بـ A.L.P. ، أو بإشارات أخرى لديانات أخرى مثل " السلام عليكم " القريبة من " شلوم عليخم " بالعبرية ، كما يرى أحد النقاد(٤٦) وهو خلط مقصود لتداخل الاديان وتعاليمها ولغاتها وغاياتها .

د - الإشارات التراثية المتعلقة بالاماكن الدينية والمقدسة :

١- الكعبة	صفحة ٥	سطر ١٣
٢- جبل عرفات	صفحة ٥	سطر ١٤
٣- الحجر الاسود	صفحة ٥	سطر ١٥
٤- زمزم	صفحة ١٠٥	سطر ٧
٥- غار حراء	صفحة ٣١٧	سطر ٣٤
٦- الطائف	صفحة ٣١٨	سطر ٢٣
٧- يثرب	صفحة ٣١٨	سطر ٢٥

وترد هذه الإشارات في سياقات مختلفة في الرواية ، وهي على اختلاف دلالاتها مرتبطة بشكل أو بآخر بالرسول في أثناء نشر رسالة الإسلام والأماكن الدينية الهامة التي شهدت مولد الدعوة ونشرها وتطورها . وبعض هذه الإشارات متعلق بالشعائر الدينية التي يؤديها المسلمون مثل شعائر الحج حيث ترد إشارات الكعبة وجبل عرفات والحجر الاسود وزمزم . أما بعضها الآخر فإنه متعلق بأماكن يوجد فيها الرسول في أثناء نزول الوحي وتبليغه الرسالة ثم نشر الدعوة في أماكن مختلفة .

وإشارات الشعائر الدينية ترد في سياق الإشارة إلى شعائر دينية كثيرة في الديانات الأخرى ، إذا يحاول جويس أن يقارب بين هذه الشعائر في الهدف الديني والاجتماعي والأخلاقي الذي تنطوي عليه وان اختلفت في المظاهر أو الأساليب التي تمارس بها . كما أن الكاتب يمزج بين هذه الشعائر في ديانات مختلفة وبين عادات الشعوب القديمة وبعض الطقوس الدينية التي عرفت في تاريخ الأمم والحضارات الماضية. ثم بعد ذلك يربط هذه الرؤية في سياق الرواية العام حيث تختلط هذه الشعائر بالطقوس القديمة وبالقصص والأساطير والخرافات التي عرفتها الشعوب القديمة ، لكي يستكمل تصوره عن الأديان المختلطة بالقصص الخيالية والاسطورية والغيبية التي عرفت لدى الحضارات القديمة شرقا وغربا كالحضارات السومرية والبابلية والآشورية والفرعونية والاغريقية والرومانية إلى غير ذلك . ويخلط الكاتب بين ما هو ديني وما هو اسطوري وما هو خرافي وما هو تاريخي لبلورة رؤيته وفكرته عن تاريخ البشرية ونشوء الحضارات وصراعاتها وتطوراتها .

أما فيما يتعلق بالأماكن المقدسة أو الدينية التي يذكرها المؤلف ، فإنها ترد في سياق إشارات كثيرة أيضاً متعلقة بأماكن العبادة والتقديس في ديانات أخرى وفي حضارات أخرى وفي تواريخ أمم أخرى أيضاً . ويخلط الكاتب في ذكر هذه الأماكن الدينية بين المعابد والكنائس والمساجد وبين أماكن أخرى مقدسة أو أثرية ليست دينية تتمتع بمكانة مقدسة أو روحانية أو أثرية عبر أزمنة مختلفة ولدى حضارات متنوعة . ولكن حس السخرية لدى جويس واضح في ذكر هذه الأماكن وما يرتبط بها من قصص وحكايات ، يراها اسطورية كما هو الأمر في « غار حراء » و « ماء زمزم » ، أو ما يرتبط بها من شعائر دينية ، يراها غريبة أو غير مقنعة كما هو الأمر في تقبيل « الحجر الأسود » وشعائر الحج في (الكعبة ، وعرفات ، يثرب) وغيرها[٤٧] .

الإشارات العربية والإسلامية في « يقظة فنيغان »

(مرتبة بحسب ذكرها في الرواية)

الإشارة باللغة العربية « أو المقصود منها »	الإشارة باللغة الإنجليزية « أو المقصود منها »	الإشارة بلغة الرواية	الصفحة والسطر
الكعبة	Kaaba	Cubehous	١٣/٥
جبل عرفات	Arafat Mountain	Arafatas	١٤/٥
قريش	Quraych	Choruysh	١٥/٥
غير المسلمين	Unqualified Muslims	Limsunkalifiedmuzz Lenimiissilehims	١٥/٥
حرس الحجر الأسود	gaurds of the black stone	blackguardise the whitestone	١٥/٥
المسواك « استخدام النبي ﷺ للسواك	Toothpick	Toothmick	١٨/٥
الصلوات الخمس[٤٨]	Five Prayers in Islam at dawn, noon, afternoon, Sunset and at night	Before We Lump down upown our leatherbed and in the hight and at feding of the stars	١٩/٥
النبي ﷺ	Prophet	nabir	٢٠/٥
بدو الجبال (الرحل)	Bedouins of the mopuntain	Bedoueen the jebel	٢٢/٥
الانصار	The Helpers	ansarshelpers	٢٤/٥
الف ليلة وليلة	One Thousand and one stories	One Thousand and nights	٢٧/٥
ياجوج وماجوج[٤٩]	Gog and Magog	Agog and Magog	١٩/٦
معركة الجمل[٥٠]	The Camel Battle	Camelery	٢٤/٩
عام ٥٦٦ ميلادي مولد النبي تقريباً		566 A.D.	٣٦/١٣

الإشارة باللغة العربية « أو المقصود منها »	الإشارة باللغة الإنجليزية « أو المقصود منها »	الإشارة بلغة الرواية	الصفحة والسطر
عبد الله(والد النبي) رقم ١١١ ، عدد السور القرآنية التي أشار إليها جويس في « كتابه » أو السورة رقم ١١١ «اللهب»[٥١]		Abdulah A hundred and eleven	٢/٣٤ ١٢/٣٨
حواء	EVE	Havvh	٣٠/٣٨
الف ليلة وليلة	One Thousand and one Nights	Althousand or one netional Leaque	٣٣/٤١
شهرزاد	Shehrazad	Scherzarade	٤/٥١
فريضة الحج وتحريم لحم الخنزير	Making pilgramage brohibiting pigs	lesser pilgrimage had made pats and pigs, older inself	٢٩/٥١
الاسراء والمعراج اللذان استغرقا ليلة واحدة	Mohammad's asccnison o hcaven whick took one night	to spare for the space of a world at time	٨/٥٢
هجرة الرسول " بداية التقويم الهجري "	exodus - emigration	hejrite	٣/٦٢
لا اله إلا الله[٥٢]	No god but Ullah	For Ann the is but One Live.	١٣/٦٣
حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الاسود[٥٣]		He Could Distinguish a White thread from a black	٢٥/٦٣

الإشارة باللغة العربية « أو المقصود منها »	الإشارة باللغة الإنجليزية « أو المقصود منها »	الإشارة بلغة الرواية	الصفحة والسطر
« اسلم تسلم » الجميع مسلمون	You must be muslim, everybody is	Aslimall-Muslim	١٢/٦٨
أربعون عاماً « عمر النبي ﷺ عند بدء الرسالة »	Fourty Years	Forty Steps	١٤/٦٨
معركة بدر	the batlle of (badr)	Padder	٢/٨٦
الملائكة والجن « الملائكة الذين حاربوا مع المسلمين في بدر » (٥٤)	angels and Jinnis	Angels and Guinnes	١٣/٨٦
كافر	Islam's new home	Islamatic hewhome	١٥/٩٥
بيت المسلمين الجديد « المدينة » (٥٥)	Islam's new home	Islamatic hewhome	٩/٩٨
بلقيس"ملكة سبأ " (٥٦)	The Queen of Sheba	Bulkis	٢١/١٠٢
بسم الله الرحمن الرحيم	in the name of Ullah the merciful, the compassionate	in the name of Annah the Allmziful the Eerliving	١/١٠٤
ماء زمزم (٥٧)	The holy water of in cecca	Stream of Zemzem	٧/١٠٥
عائشة « زوجة النبي » ﷺ (٥٨)		Aysha	٧/١٠٥
أباً . . كان " يقصد بالنسبة لعائشة" (٥٩)	Father, he was	Fathe He's	٢٩/١٠٥
العنكبوت (٦٠)	Spider	Spider	١٦/١٠٨

الإشارة باللغة العربية « أو المقصود منها »	الإشارة باللغة الإنجليزية « أو المقصود منها »	الإشارة بلغة الرواية	الصفحة والسطر
القرآن كعمل أدبي[٦١]	The Quran as Literature	Biddy Doran Looked at Literature	٢٧/١١٢
رباعيات عمر الخيام	the quatrains of Omar Al-Khayyam	Quarain of rubyjets	١١/١٢٢
عمر الخيام	Omar Al-Khayyam	K.M.O,mara	١٨/١٢٢
تكسير الاصنام بعد فتح مكة(٣٦٠) صنماً[٦٢] والخلاص منها	Destroying the idols by mohamad the prophet	cleared out three hundred sixty five idles to set up one all khalassal	٣٠/١٢٨
العنكبوت والحمامة في غار حراء[٦٣]	the spider and the dove in hira cave	aspindler web chockes the cavemouth of his unsightlines but the nestling that liven.. the cave	١٨/١٣١
الوصية أو خطبة الوداع للنبي ﷺ	Will	Wassia	٢٤/١٣١
ألف ليلة وليلة	A Thousand and One Nights	Thous and in one nightlight	٢٠/١٣٥
الله حي	Ullah is alive	Ann alive	١٩/١٣٩
سورة (ق) في القرآن	The letter (Q)	Qauff	٢٢/١٣٩
أهل الكهف حيث ناموا (٣٠٩) سنوات أو أكثر[٦٤]	the cave people	three thirty and a hundred	٢/١٥٦
قرآن القاهرة	Cairo Quran	Kairo Koran	٩/١٧٧

الإشارة باللغة العربية « أو المقصود منها »	الإشارة باللغة الإنجليزية « أو المقصود منها »	الإشارة بلغة الرواية	الصفحة والسطر
فاطمة (ابنة النبي ﷺ)	Fatima	Fatima	٣٠/٥٠٢
عائشة (زوجة النبي ﷺ)	Aisha	Jyshe	٢٤/٢٠٧
صلاة النبي ﷺ	Prqyers of the prophet	Salat.. nabis	١/٢٣٥
الفاتحة	Opening	Fateha	٢/٢٣٥
لا اله إلا الله	No God, But Ullah	Allah Lah Lahlah Lah	٨/٢٣٥
افتح يا سمسم	Open Sesame	Ephthah Cisamis	٦/٢٤٠
(علي بابا والأربعين حرامي)	Ail Baba and the Fourty thieves	Ani Mama and her Fierty Busles	٤/٢٤٣
السلام عليكم	Peace be upon you	Salamsalaim	١/٢٤٥
التوراة والقرآن «نحت الكلمتين »[٦٥]	Torah and Quran	toran	١٠/٢٤٥
أديان	religions	Deans	٢٦/٢٤٨
عزرائيل	Azrael	Azrael	٧/٢٥٨
يوسف (النبي) أو سورة يوسف رقم(١٢)	Joseph	Uussive	١/٢٦٢
البتراء - المدينة الاثرية[٦٦]	Petra	Petra	١٢/٢٦٤
الهجرة أو سورة الحجرات رقم (٤٩)	Exodus	Hegerite	١٠/٢٧٤
« محمد الأمي » ويتكلم «القرآن»[٦٧]	Mohammad the illiterate	Talking anan illitterettes	١٥/٢٨٤
محمد وفاطمة « نحت الكلمتين »	Mohammad and Fatima	Mahametma	٣٠/٢٩٧
كتاب الله	God's Quran	Allaph Quaran's	٣٣/٢٩٧

الإشارة باللغة العربية « أو المقصود منها »	الإشارة باللغة الإنجليزية « أو المقصود منها »	الإشارة بلغة الرواية	الصفحة والسطر
الاسراء والمعراج	Mohammad's visit to heaven in one night	to take a ride as long as from her to tommorrow	١٦/٣٠٤
عبد الله . . ماذا عن آمنة « والدا الرسول »	Abdullah, What about Amina	Ibdulin What of Himana	١٢/٢٠٩
سورة النور رقم (٢٤)	Light	Nur	٢٣/٣١٠
محمد في الجبل (في غار حراء)	Mohammad to his mountain	Maontte to his montone	٢٠/٣١٢
ان النبي « عراب » زيد		he was my godfather	٩/٣١٣
ارادة الله وأمره يازيد – أن يتزوج النبي من عائشة –	God's Will is a good goal	Good marrams sagd God's will Zayd.	٢/٣١٥
غار حراء	Hira Cave	mouttain heares	٣٤/٣١٧
الطائف	Haif	Taif	٢٣/٣١٨
يثرب	Yathrib	Youthrib	٢٥/٣١٨
علي بن أبي طالب نام (في فراش النبي ﷺ)	Ali Slept "the Calif"	Ali Slupa	٢٢/٣١٩
عمر بن الخطاب	Omar, the Calif	Omar	٢٣/٣١٩
الصلوات الخمس : الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء	muslim's prayers at dawn, noon , after noon, senset and at night	they were precisely the Twelves of clocks, noon minutes noon seconds. At someseat by dawn break	٣٠/٣٥٢
بسم الله	In the name of God	Bismilla	٤/٣٥٧

الإشارة باللغة العربية « أو المقصود منها »	الإشارة باللغة الإنجليزية « أو المقصود منها »	الإشارة بلغة الرواية	الصفحة والسطر
ألف ليلة وليلة	A thousand and one nights	of thousand kinds but one kind	١٩/٣٥٧
شهريار	Shahrayar	Shahrryar	٣١/٣٦٧
لقمان الحكيم وكذلك سورة لقمان	Lokman	Lokman	٣١/٣٦٧
الخليفة	Calif (Thge head of the Islamic State)	Calif	٣١/٣٦٩
العصر الفاطمي أو فاطمة ابنة النبي ﷺ تعيد نفسها	The Fatimi era in Egypt or Fatima the Prophet's daughter.	Fatimilia-Familis, repeating herself.	١٥/٣٨٩
محمد وهاملت « نحت كلمتين » مرحبا في الجبل، حيث تسلم كلاهما « الرسالة »	Mohammad and Hamlet welcome in the mountain, where both recieved the " revelation"	Moyhammlet and marhaba to your mount	١٧/٤١٨
ابن سينا [٦٨]	Avicenna	avcendas	٦/٤٨٨
ابن سينا (مكرر)	Avicenna	Ibn Sen	٦/٤٨٨
ابن رشد [٦٩]	Averroes	Over Who is	١٥/٤٨٨
السور القرآنية التي تسمى أو تبدأ بالاحرف : ق ، ن ، إلى آخره [٧٠]	Q.K.M,R.	the coughes and the itches and the ratties	٣٤/٤٨٨
موت محمد ﷺ [٧١]	Mohammad's Death	mahmato, mout	٧/٤٩٩

الهوامش

١- للتوسع في موضوع الاستشراق ، يمكن الاطلاع على كتاب :
ادوارد سعيد : الاستشراق ، الذي يعد واحداً من أهم الكتب في هذا الموضوع ، ترجمة كمال أبو ديب عن الأصل الإنجليزي "Orientatlism" ، بيروت ، مؤسسة الابحاث العربية ، ط ٢ .

٢- تنوعت الكتب التي تهاجم العرب والمسلمين قديماً وحديثاً ما بين الكتب الفلسفية والسياسية والدينية والأدبية والشعرية وغيرها . انظر كتاب ادوارد سعيد .

٣- James Joyce : Finnegans Wake, N.Y. The Viking Press, 1971.
" لم تترجم الرواية إلى اللغة العربية لصعوبة (أو استحالة ذلك) بسبب لغاتها وأساليبها المعقدة ، مع أن كتبه السابقة جميعاً قد ترجمت إلى العربية مثل بولسس ، أهل دبلن ، صورة الفنان في شبابه وغيرها . وجهد طه محمود طه كبير في هذا المجال : انظر كتابه : الأعمال الكاملة لجيمس جويس (١٩٨٠) .

٤- هنالك ثلاث دراسات جزئية مختصرة لبعض المفردات العربية التي وردت في « يقظة فنيغان » وهي دراسة :

James Atherton : The Books at the Wake .

« الكتب في يقظة فنيغان » ، وقد أشار المؤلف إلى أن القرآن هو أحد الكتب الرئيسة التي استخدمها جويس في روايته . كما أن « ألف ليلة وليلة » من الكتب أيضاً التي وظفت في الرواية . لكنها دراسة عامة مختصرة وتصب في وجهة النظر الغربية السالبة تجاه العرب والمسلمين وحضارتهم ودينهم .

ثم كتاب : R.Mc Hugh: Annotations to Finnegans Wake. « هوامش على يقظة فنيغان » . وقد حاول المؤلف أن يترجم الرواية من اللغة الإنجليزية المحرفة والمعقدة التي كتبت بها إلى الإنجليزية المفهومة أو المفسرة . وفيما يتعلق بالتراث الإسلامي والعربي ، فلم يقدم المترجم أي تحليل أو دراسة لهذا الموضوع . هذا إلى جانب اساءة الفهم في كثير من الكلمات العربية والمصطلحات فيما تعنيه بالعربية أو في الدين الإسلامي .

ثم دراستي المختصرة (باللغة الإنجليزية) عن المفردات العربية والإسلامية في الرواية،

التي وعدت في مقدمتها أن اتناول الموضوع بشيء من التفصيل والتحليل فيما بعد . وها أنا أفعل ذلك في هذه الدراسة .

والواقع أن جميع الدراسات السابقة لا تقدم صورة وافية أو شبه وافية عن التراث الإسلامي والعربي في هذه الرواية . ومع أن هذه الدراسة تحاول استقصاء هذا الموضوع بشيء من التحليل والتفصيل إلا أنها تظل دراسة أولية تحتاج إلى دراسات أخرى أشمل وأعمق وأكثر تفصيلاً .

٥- Ahmed al - Zu'bi : Arabic and Islamic Refernces in Finnegans Wake.

مجلة آداب المستنصرية ، عدد ٧٥٤ مجلد ١٧ بغداد (١٩٨٨) . ص ٢٣٩.

٦- انظر الكتب التالية عن جويس و « يقظة فنيغان » :

Richard Elman, James Joyce, Oxford Univ. Press, 1959. Margot Norris, The Decentered Universe of F.W. John Hopkins Univ. Press, 1974. James Jovce .

٧- R.McHugh : Annotations to Finnegans Wake, John Hopkins Univ. Press, Maryland, London, 1980.

٨- Margot Norriss :

٩- James Joyce : Finnegans Wake, p.1.

حيث تبدأ الرواية على النحو التالي : Riverrunn Adamandeve..... etc.

١٠- يذكر مثلا :

Issac, Christ, Mohammad, The Old Testement, The Koran, The Eddas.. etc.

١١- يذكر في الرواية اسماء لأكثر من الفي نهر .

١٢- Finnegans Wake, P. 235.

١٣- يعقد مؤتمر في« دبلن » سنويا ، بلد جويس ، يسمى باسمه « مؤتمر جويس » لمتابعة البحوث والدراسات التي تدور حول كتاباته . وذكرت الباحثة المتخصصة بأدب جويس Margot Norris عندما كانت تلقي علينا محاضراتها في جامعة متشجن بأمريكا أنها قضت خمس سنوات في مدينة « دبلن » بشكل متواصل في أثناء إعداد رسالتها للدكتوراه عن جيمس

جويس ، وكانت تحضر « مؤتمر جويس » حتى تمكنت من اخراج كتابها عنه ، الذي أشرنا إليه قبل قليل ، وكانت تفضل أن تكون في المكان الذي ولد ونشأ فيه الكاتب لتتعرف على الأماكن الكثيرة التي يذكرها في روايته في دبلن ، ثم تلقى شخصيات كثيرة يذكرها أيضاً وهكذا ، وتشير إلى ذلك في كتابها المذكور .

١٤- التاريخ كابوس انظر : موسوعة جيمس جويس (المقدمة) .

١٥- Finnegans Wake, P.5.

١٦- المصدر نفسه ، ص ٣٠٩ .

١٧- المصدر نفسه ، ص ١٠٥ .

١٨- المصدر نفسه ص ٢٠٥ ، ٢٠٧ .

١٩- ابن هشام : سيرة الرسول ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤ .

٢٠- Finnegans Wake, pp.205, 207 .

٢١- المصدر نفسه ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

٢٢- ابن هشام ، سيرة الرسول ، ص ٤٦ .

٢٣- Finnegans Wake , pp.5,6,262.

٢٤- المصدر نفسه ، ص ٣٠٤ .

٢٥- المصدر نفسه ، ص ٥٢ .

٢٦- المصدر نفسه ، ص ٨٦ .

٢٧- المصدر نفسه ، ص ١٠٨ .

٢٨- المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

٢٩- المصدر نفسه ، ص ٣١٧ .

٣٠- المصدر نفسه ، ص ٢٩٧ .

٣١- ابن هشام ، سيرة الرسول ، ص ١٠٧ .

٣٢- المصدر نفسه ، ص ١٠٧ .

٣٣- Finnegans Wake, p.6.

٣٤- المصدر نفسه ، ١٢٨ .

٣٥- المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .

٣٦- المصدر نفسه ، ص ٤٤٩ .

٣٧- المصدر نفسه ، ص ٦٨ ، ١٣٩ ، ٢٣٥ ، ٢٤٥ ، ٣٥٧ .

٣٨- Finnegans Wake, p. 235.

٣٩- المصدر نفسه ، ص ٢٣٥ .

٤٠- المصدر نفسه ، ص ١٣٩ ، كما يشير إلى سورة قرآنية أخرى مثل « النور » ص ٣١٠ ، و « الفاتحة » ص ٢٣٥ .

٤١- المصدر نفسه ، ص ٤٨٨ .

٤٢- المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

٤٣- المصدر نفسه ، ص ٣٥٧ .

٤٤- المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

٤٥- المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .

٤٦- Annotations to Finnegans Wake, p.245.

٤٧- اشارات جويس إلى الأماكن الدينية الإسلامية مثبتة في آخر هذا البحث بلغة الرواية ثم بالمعنى الذي يقصده منها باللغتين العربية والإنجليزية .

٤٨- McHugh: Annolations, p.19.

حيث يرى هذا الرأي .

٤٩- انظر قصة « ياجوج وماجوج » في : تفسير الجلالين ، لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ، سورة « الكهف » ، مكتبة العلوم ، بيروت ، (د.ت) ، ص ٤٠٠ .

٥٠- انظر « معركة الجمل » في : مروج الذهب للمسعودي ، دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٣٥٧ .

٥١- يرى ذلك « اثرتون » : James Atherton, Books at the Wake, p.201.

٥٢- انظر أيضاً : Annotations to F.W., P.63.

٥٣- إشارة إلى الآية القرآنية في سورة البقرة حيث يتوقف المسلمون عن الطعام والشراب ايذانا ببدء الصيام في شهر رمضان .

٥٤- انظر : سورة الأنفال وسورة آل عمران في القرآن الكريم .

٥٥- إشارة إلى هجرة الرسول وأصحابه من مكة إلى المدينة (البيت الإسلامي الجديد) ، وليس صحيحاً ما ذهب إليه « ماك هيو » في Annotations ، ص ٩٨ ، أن جويس يقصد أن المسلم يكتسب اسماً جديداً بعد دخوله الإسلام ، إذ فهم « newhome » بلغة الرواية « new

name . والواقع أن سياق الرواية يشير إلى بدء الدعوة والهجرة وغزوة بدر ، والبيت الجديد هو « المدينة » أي new home.

٥٦- الإشارة هنا إلى بلقيس ، ملكة سبأ في اليمن ، وليست إلى امرئ القيس الشاعر الجاهلي كما يذهب « ماك هيو في Annotations ص ١٠٢ ، إذ أن السياق لا يدعم ذلك » .

٥٧- الإشارة هنا إلى ماء زمزم التي انفجرت بقدرة الله عند الكعبة عندما كاد إسماعيل (عليه السلام) وأمه هاجر يموتان عطشاً بعد ذهاب إبراهيم (عليه السلام) . انظر تفصيلات القصة في كتاب : أخبار مكة لأبي الوليد الازرق ، دار الالسن ، مدريد ، ص ٥٥ .

٥٨- انظر : ابن هشام في سيرة الرسول ، ص ٤٣ ، حيث يشير إلى زواج النبي ﷺ من عائشة ، وكان في بداية الخمسينيات من عمره بينما كانت عائشة في التاسعة .

٥٩- بلغة الرواية يحذف جويس حرف R من Father وهذا متكرر كثيراً ، وفي السياق أن النبي كان كالاب بالنسبة لزوجته عائشة . الاحتمال الآخر أن Father قد تشير إلى «الفاتحة » في القرآن ، لكن السياق يرجع التفسير الأول لحديث جويس عن علاقة « الابوة» و « النبوة » وعائشة وفاطمة والنبي الزوج والأب . وجويس يهدف إلى « التجريح » في هذه الإشارات والنيل من النبي ﷺ في سلوكه ، وقد شرحنا هذه المسألة في ثنايا هذا البحث.

٦٠- إشارة إلى قصة غار حراء ، وكذلك سورة العنكبوت في القرآن الكريم .

٦١- وجويس يتعجب هنا من أن النبي ﷺ كان أمياً ولكن قرآنه عمل أدبي ، فكيف يكون ذلك. وغرضه واضح في ذلك وهو أن النبي لم يكن أميا وإلا ما استطاع أن « يأتي » بهذا الكتاب الأدبي ، على أساس أن جويس لا يؤمن بأن القرآن هو من عند الله . وقد ناقشنا ذلك سابقاً.

٦٢- إشارة إلى تكسير الاصنام بعد فتح مكة وعددها ٣٦٠ صنماً . انظر تفصيلات ذلك في سيرة الرسول لابن هشام ص ٢٦٩ .

٦٣- انظر تفصيلات القصة في سيرة الرسول ، ص ١٠٨ ، وقد ناقشنا القصة سابقاً .

٦٤- انظر أيضاً : .Anntation to F.W ، ص ١٦ .

٦٥- ينحت جويس هذه الكلمة Toran في كلمتي Quran و Toran إلى جانب ذكر كثير من الكتب المقدسة وغيرها ، يخلطها معاً بشكل ساخر تهكمي حيث يعلق بقوله : Business و Commercial أي أمور للدعاية والتجارة . . . وهكذا (انظر ص ٢٤٨ من الرواية وبعدها) .

٦٦- يكرر ذكر « البتراء » ثلاث مرات فيصفحة واحدة .

٦٧- يشير « ماك هيو في Annotations إلى أن جويس كتب اسم النبي محمد هنا باللغة الايطالية حيث maometto تعني Mohommad (ص ٣١٢) .

٦٨- ولابن سينا (٩٩٨م - ١٠٣٧م) أهمية خاصة لدى الغرب إلى جانب علومه المختلفة وهي أن الغرب مدين له بشرح كتاب أرسطو « فن الشعر » إلى العربية ثم اخذه الغرب عن العربية وهو النص المترجم الوحيد الذي حفظ كتاب أرسطو « العظيم » انظر :
The New Columbia Encyclopedia, Ed. William Harris and Judith Levy, N.Y, and London, 1975, p.196.

٦٩- ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨م) ، ولا ينكر جويس أهمية علماء المسلمين على الرغم من أغراضه الأخرى (المشبوهة) كما أشرنا في ثنايا الدراسة ، انظر : المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

٧٠- انظر أيضا : .Annotations t F.W ، ص ٤٨٨ .

٧١- إشارات كثيرة إلى موت « شخصيات » عديدة ، ومنها موت النبي ﷺ حيث تختفي بعد ذلك الإشارات إلى النبي أو الإسلام في الرواية .

المصادر والمراجع

أ - العربية :

١- أبو الوليد الازرق : اخبار مكة ، دار الأنس ، مدريد (د٠ت) ٠

٢- ابن هشام : سيرة الرسول ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٨ ٠

٣- سعيد ، ادوارد ، الاستشراق ، ترجمة : كمال أبو ديب ، بيروت ، مؤسسة الابحاث العربية ، ط ٢ ، ص ١٨٤ ٠

٤- السيوطي : جلال الدين وجلال الدين المحلي : تفسير الجلالين ، مكتبة العلوم ، بيروت (د٠ت) ٠

٥- المسعودي : أبو حسن : مروج الذهب ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨١ ٠

وكذلك :

- القرآن الكريم ٠
- ألف ليلة وليلة ٠

ب - الإنجليزية :

1 - Altherton, James : The Books at the Wake , Southern Ilinois. Univ. Press, 1974 .

2 - Joyce, James : Finnegans Wake, John The Viking, Press, N.Y., 1971.

3 - McHugh, R. Annotations to Finnegans Wake , John Hopking Univ. Press. 1980 .

4 - The New Columbia Encyclopedia - Ed. William Harris and Judith Levey, N.Y. and London, 1975.

الغوص على اللؤلؤ في
الشعر الجاهلي والإسلامي

د. سلامة عبد الله السويدي

قسم اللغة العربية - جامعة قطر

- ١ -

شاع بين دارسي الأدب وباحثيه أن الشعر الجاهلي يخلو أو يكاد من اهتمام بالبحر وحياته ، فانصرفت جهودهم إلى ما سوى ذلك من علائق الشعر الجاهلي بالحياة ، لا يكادون يتوقفون لينظروا في هذه المقولة ، ويَسْتَقْروا الشعر الجاهلي فيعلموا أصحيحة هي أم باطلة .

ولعل « الجاحظ » هو أساس هذه المقولة بما ذكره في كتابه الحيوان من أنه لم يفرد في كتابه باباً للأحياء المائية مما يسكن الملح والعذوبة وذلك لأنه - على حد قوله - لم يجد في أكثره شعراً « يجمع الشاهد ، ويوثق منه بحسن الوصف ، وينشط بما في غير ذلك للقراءة ، ولم يكن الشاهد عليه إلا أخبار البحريين ، وهم قوم لا يعدون القول في باب الفعل وكلما كان الخبر أغرب كانوا به أشد عجبا مع عبارة غثة ، ومخارج سمجة »[(١)] .

وهكذا ألقى الجاحظ في روع الدارسين أنه لا جدوى من توجيه عنايتهم إلى ما يتصل بحياة البحر من شعر إذ ليس ثم ما يسد الجهد ، وإذا كان ثمة من شيء فهو غث مرذول .

ولم يكد الدكتور طه حسين يحيد عن وصاة الجاحظ ، لذلك نجده في إطار ما وسم به الشعر الجاهلي من بُعده عن واقع العرب في الجاهلية لا يجد أبلغ تمثيلا لقوله ،

وتأكيدا لحجته من أن الشعر الجاهلي لم يتطرق لحياة البحر ، على عكس ما نجده مفصلا في القرآن الكريم الذي صور مناشط العرب ومكارههم ، وأشار إلى معرفة بالصيد واستخراج اللؤلؤ والمرجان[٢] .

ولم يعد هناك من دارسي الأدب من يجهل مقاصد الدكتور طه حسين من وراء هذا القول ، ولسنا بصدد مناقشة هذه المقاصد بعد أن تجاوزت الدراسات الأدبية قضية الشك في الشعر الجاهلي ، ولم تعد - بعد - سوى « ملف » باهت في رفوف التاريخ الأدبي ، ولكن الذي نود الإشارة إليه هاهنا أن الدكتور طه حسين تلقف ما قاله الجاحظ دون تثبت ، ورفعه دليلاً وحجة دون أن يكلف نفسه عناء استقراء الشعر الجاهلي .

ولقد أصاب الدكتور حسين عطوان فيما ذهب إليه من أن الصواب جانب د. طه حسين لأنه أراد أن يثبت بأضعف دليل وأوهى حجة مذهبه في رفض الشعر الجاهلي ، غير أن الدكتور عطوان عاد - من جانب آخر - يلتمس العذر للدكتور طه إذ إنه قال هذا في زمن مبكر ، لم يكن قد نشر فيه بعد كثير من دواوين الشعر الجاهلي[٣] .

وعندنا أن نشر الدواوين أو عدم نشرها لا ينهض عذرا للباحث المستقصي الذي يريد أن يصدر حكما صحيحا ، فعليه أن يعود إلى المخطوط إذا عز المنشور ، هذا مع أن أهم الدواوين الشعرية كانت قد نشرت - في حدود ما نعلم - في المدة التي كتب فيها الدكتور طه حسين ما كتبه عن الشعر الجاهلي .

وإذا كنا سنحاول في هذا البحث استجلاء جانب من حياة البحر في الشعر القديم هو الغوص على اللؤلؤ فينبغي أن نعترف أن هناك من سبقنا في هذا المضمار ، ومنهم الدكتور حسين عطوان، والدكتور يحيى الجبوري ، والسيد مرزوق الشملان ، والسيد عبد الله يوسف الغنيم .

ونحن لا ننكر أن دراسات هؤلاء قد وطأت لنا مواضع خطى كثيرة خطوناها في طريق بناء هذه الدراسة غير أن كل دراسة من هذه الدراسات لم تف بكل ما طمحنا إليه ، إذ كان لكل واحد من هؤلاء الدارسين مقصد حكم توجهات دراسته ، وما توليه من اهتمام لهذا الجانب في الشعر الجاهلي .

ففي دراسة الدكتور عطوان « وصف البحر والنهر في الشعر العربي » لم يكن شعر الغوص إلا خيطا رقيقا من خيوط موضوعه الكبير المتشابك الخيوط وومضة خاطفة في المدى الزمني الشاسع الذي عنيت الدراسة بتغطيته .

وجاء اللؤلؤ في دراسة الدكتور يحيى الجبوري « الزينة في الشعر الجاهلي » ضمن ما تطرق إليه من ذكر لألوان الزينة ، ولم يحظ شعر اللؤلؤ بتركيز منه إلا بقدر ما يمثل الزينة ؛ وعلى ذلك فليس ثم إلا جملة شواهد شعرية مما ورد فيها ذكر اللؤلؤ وأسمائه .

أما دراسة السيد سيف مرزوق الشملان « تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي » فهي كما يشي بها عنوانها تغلب جانب التأريخ ، ولا تنظر إلى الشواهد الأدبية إلا بالقدر الذي توثق به حقائق التاريخ .

ويكاد ينحو النحو نفسه السيد عبد الله يوسف الغنيم في دراسته « الغوص على اللؤلؤ في المصادر القديمة » ومع أن السيد الغنيم اتبع سبيل الإحصاء في تتبع المصادر القديمة فإنه قد أهمل أهم هذه المصادر وهو « دواوين الشعر الجاهلي » مكتفيا ببعض ما تواتر من قصائد في أبحاث الباحثين ، وهذا في رأينا قصور وتقصير .

وسنحاول في دراستنا هذه أن نتتبع اللؤلؤ والغوص في الشعر الجاهلي مركزين على جانب الفن في هذا الموضوع ، متتبعين هذا الجانب من جوانب الحياة وهو يستحيل في إبداع الشاعر إلى صور لها ألقها ، وكيف يغدو بعد ذلك عنصراً من عناصر التصوير يوظفه الشاعر وظائف فنية مختلفة .

* * *

- ٢ -

تعد صور الغوص في الشعر الجاهلي صوراً قليلة نسبيا إذا ما قيست بسائر ما ورد في الشعر الجاهلي عن البحر ، والسفن ، وأسماء البحارة وغير ذلك مما يتصل بحياة البحر .

وكثيراً ما ترد صور الغوص في سياق أطر كبرى تدور حولها القصيدة القديمة شأنها في ذلك شأن سائر الصور التي تمثل حياة العربي وكدحه في سبيل العيش .

وقد بقيت لنا صور شعرية دقيقة موسعة عن الغوص في شعر عدد من الشعراء لعل أشهرهم المسيب بن علس ، والأعشى ، والمخبل السعدي ، وأبو ذؤيب .

وعلى أية حال فالنماذج الشعرية التي وقفنا عليها في هذا الموضوع تكاد تأخذ ما يشبه الخطوط الثابتة ، والتقاليد المرعية ، إذ غالبا ما يكون المدخل إليها وصف المرأة ، حيث يتكئ الشاعر على بعض تشبيهاته مستطرداً إلى صورة مفصلة للغوص واستخراج اللؤلؤ .

ونبدأ بالمسيب بن علس - ولعله أقدم الشعراء الذين صوروا عملية الغوص - ونراه ينطلق في صورته من تشبيه للمرأة بالجمانة البحرية ثم يستطرد فيصور رحلة الغوص بكل تفصيلاتها ، فإذا بلغت رحلة الغواص مداها ، وعثر على الجمانة الحلم ، عاد الشاعر فأغلق دائرة التشبيه ، واصلا ما انقطع من حديثه عن صاحبته ، وهذا نسق معروف في الصورة الشعرية القديمة .

يبدأ المسيّب كما أسلفنا من تشبيه للمرأة بجمانة البحري وهو قوله[٤] :

كجُمانةِ البحريِّ جاءَ بها ... غَوّاصُها من لُجّةِ البَحْرِ

وهكذا يضعنا المسيّب أمام النهاية مباشرة ، ولكنه يعود إلى الأحداث من بدايتها ، حيث يتم اختيار القائد الذي تلقى إليه مقالد الأمر :

صَلبَ الفؤادِ رئيسَ أربعةٍ ... متخالفي الألوانِ والنجْرِ
فتَنازَعُوا حتى إذا اجتمعُوا ... ألقوا إليه مقالِدَ الأمرِ

لقد تم اختيار هذا القائد من بين أربعة رجال كلهم كانوا يتنازعون القيادة ، وهم من أصول متباينة ، وألوان مختلفة ، وقول الشاعر « صلب الفؤاد » إشارة إلى المعيار الذي احتكم إليه الرجال في اختيار قائدهم بعد أن طال تنازعهم ، وهي صفة لا تتصل بالقوة العضلية بقدر ما تتصل بالشجاعة ، وقوة النفس ، على أن وصف الشاعر لهؤلاء الرجال الأربعة بأنهم متخالفو الألوان والنجْر فيه إشارة ربما كان لها قيمتها التاريخية ، في أن الذين امتهنوا مهنة الغوص كانوا من جنسيات مختلفة ، ولكن ربما لم يكن مقصد الشاعر هذا الجانب التأريخي بقدر ما كان مقصده الإشارة إلى نفاسة الدرة التي وحّدت بين الكل المتباين ، وفي إطار ذلك تأتي قيمة إشارة الشاعر إلى التنازع الذي لم يحدد له الشاعر أمداً ولكن نحس من خلال عبارته أنه استغرق زمناً ليس بالقليل .

وينقلنا الشاعر مباشرة بعد ذلك إلى قلب رحلة الصراع ، حيث نرى هؤلاء البحارة

على ظهر سفينة في لجة بحر متلاطم :

وَعَلَتْ بهم سَجْحَاءُ خادمةٌ . . . تَهوي بهمْ في لجة البَحْرِ [٥]

حتى إذا ما سَاء ظَنُّهم . . . ومَضى بهمْ شهرٌ إلى شَهْرِ

ألقَى مَراسِيَهُ بتهلكةٍ . . . ثَبتَتْ مراسِيها فما تجري [٦]

والصورة على إيجازها واختزالها شديدة الإيماء بما تعرّض له البحارة هؤلاء من معاناة وصراع ، إن الشاعر لم يتوقف كثيراً عند وصف السفينة ، وربما لم يلفته منها إلا صفة الطول ، ولكن هذه الصفة تتآلف مع ما يأتي به الشاعر من قوله « تهوي بهم في لجة البحر » لتدل على السرعة فكأن السفينة سهم منطلق ، ثم انظر أيضاً إلى الفعل « تهوى » وما يشعر به من انحدار السفينة ، ثم من غيابها عن أمد الرؤية ، ثم من المجهول الذي هي منطلقة إليه ، وكأنها لا تتقدم وإنما تسقط في لجة البحر .

ولا يفصّل الشاعر ألوان المعاناة التي تعرض لها البحارة ، ولكنه يوحي بذلك إيحاء من خلال حديثه عن سوء ظن البحارة واستيائهم مما قصدوا إليه ، وترسخ هذا اليأس بطول الرحلة ، ومضى الوقت « ومضى بهم شهر إلى شهر » ، وأخذ يلوح الأمل ، ولكن الشاعر لا يأتي به سهلا مربحا ، وإنما هو أمل يكتنفه الهلاك ، ولقد وجد البحارة ضالتهم ، ووصلوا إلى المكان الذي ظنوا فيه تحقق الأمل ولكنه محفوف بالأخطار ، إنه تهلكة ، وهكذا يبقينا الشاعر على ترقب ، نحبس أنفاسنا ، وهنا تأتي قيمة قوله « ثبتت مراسيها فما تجري » يجسد السكون وهو سكون الترقب والانتظار .

وعلى قدر ما اختزل الشاعر صورة المعاناة في رحلة السفينة ، نراه يتأنى ، ويتمهل في وصف تأهب الغائص لعملية الغوص ، معنيا بتفصيلات دقيقة ، وكأنه يعرض علينا مشهداً في حركة بطيئة :

فانصبَّ أسقَفُ رأسُهُ لَبِدٌ . . . نُزِعَتْ رباعيتَاهُ للصَّبْرِ

أشفَى يمجُّ الزَيتَ ملتمسٌ . . . ظمآنُ مُلْتَهِبٌ مِنَ الفقْرِ [٧]

قَتَلَتْ أبَاهُ فقال أتبَعُهُ . . . أو أستفيدَ رغيبةَ الدهرِ

فانظر إلى هذه التفصيلات الدقيقة التي توقف عندها الشاعر من وصف تلبد الرأس ، ومن الإشارة إلى الرباعيتين المنزوعتين ، وصحيح ما يقال من أن الغاصة

ينزعون رباعياتهم لظنهم أن ذلك أمكث لهم تحت الماء ، ولكنا ما نظن أن الشاعر قصد ذلك بقدر ما قصد تجسيد إحساس الترقب بما فيه من ثقل اللحظات .

ولم يكتف الشاعر بتصوير هذا الغائص تصويراً خارجياً ، بل إنه نفذ إلى داخل نفسه ليصور ما يعتريه في هذه اللحظات الثقيلة من أمل يغالبه الخوف ، ومن قوة ينازعها الضعف ، ومن نفس تحدثه بالتراجع ، ومن حلم بالثروة ألهبته حياة الفقر الطويلة ، ومن تردد يعتريه فيقصيه هذا الإصرار الذي ولّده الصراع المتوارث مع الزمن والذي يجعل هذا الغائص يمضي في تأهبه للغوص غير عابئ ، فإذا حانت اللحظة اندفع إلى الماء يمج الزيت من فمه .

ولقد كان الشاعر في هذا المشهد دقيقاً كل الدقة في اختيار ألفاظه ورسم صوره ، فانظر إلى تصاعده بالظمأ إذ يورد كلمة ظمآن ثم يردفها بكلمة ملتهب ثم تأتي شبه الجملة «من الفقر » لتخرج هذا الظمأ من إطاره الحسي إلى إطار معنوي رحب .

وانظر إلى تعميق الشاعر لصراع الإنسان والبحر ، إنه صراع دائم ، فهذا الغائص يواصل السير على درب أبيه الذي قتل دون هذا الأمل ، وتأمل قول الشاعر « قتلت أباه » وما يوحي به من أن تحقيق الأمل هو في الوقت ذاته إدراك للثأر ، ثم تأمل أيضاً وصف الدرة بأنها « رغيبة الدهر » وما فيه من إيحاء بأن الغائص ليس إلا واحداً في سلسلة طويلة من الطامحين الذين تتابعوا على هذا الطريق ، وما فيه من إيحاء أيضاً بتجسد كل الرغائب في هذه الدرة ، « رغيبة الدهر » . إن الإضافة إلى الدهر هنا فيها محاولة من الشاعر لتجاوز الدلالة الحقيقية للدرة . وفيها إفساح لمجالات أخرى من التأويل .

ويمضي بنا الشاعر فيصور الظفر بالحلم ، ولكنه قبل ذلك يتركنا لانتظار ثقيل ، رهناً لهواجس متباينة ، لا ندري من أمر هذا الغواص شيئاً ، إذ طال مكثه في الماء :

نَصَفَ النهارُ الماءُ غَامِرُهُ . . ورفيقهُ بالغَيْبِ لا يَدْري

ولا نتخيل أن هذا الغائص مكث كل هذه المدة في الماء ، وما نظن أن أدوات الغوص وتقنياته - آنذاك - كانت تمكن غائصاً من المكث في الماء نصف النهار ، ولكنها رغبة الشاعر في أن يجسد لنا هذا الزمن البطيء ، أو قل يجسد لنا الإحساس ببطئه ، ثم تأتي صورة هذا الرفيق على ظهر السفينة وقد أضناه قلق الانتظار ولا يدري من أمر

صاحبه شيئاً ، إن الرفيق هنا ليس هو من يمسك بالحبل لكي يجذبه إلى سطح السفينة فقط بل هو كل قارئ لهذا الوصف على تعاقب العصور ، فقد نجح الشاعر في إثارة حس القارئ ، وجعله طرفاً من أطراف هذا الصراع .

وتأتي صورة الظفر متقافزة ، بارقة ، وعلى قدر ما أحسسنا به من بطء في تصوير مشهد التأهب للغوص فالغوص ، نحس في صورة الظفر بالحركة السريعة ، وإيثار الشاعر استخدام الفاء العاطفة التي تدل على التعاقب السريع .

فأصَابَ مُنيتَهُ ، فَجَاءَ بها .·. صَدَفيَّةٌ كمُضيئَةِ الجمَرِ

وتشرق الصورة بضوء غريب مماثل لضوء تلك الجمانة ، ويموج المشهد بحركة ، ولا يجد الشاعر سبيلا لكي ينقل لنا الإحساس بهذه الحركة إلا أن ينقلنا من غير تمهيد إلى مشهد بيع الدرة، حيث يتزاحم الراغبون ويعلو لغط المساومة :

يُعْطَى بها ثمناً ، ويمنعُها .·. ويَقُولُ صاحِبُه : ألا تشري ؟!
فترى الشّواري يسجدُون لها .·. ويضمُّها بيدَيْه للنَّحْرِ (٨)
فَتلْك شِبْهُ المالكيَّةِ إذْ .·. طَلَعتْ بِبهْجتهِا مِن الخِدرِ

هكذا نرى المساومة ، ونرى ضن الغائص بدرته ، ونرى تهافت الشارين الذي يصل إلى حد السجود لجمال هذه الدرة ، ونرى إحساس الغائص بقيمة ما ظفر به ، وضمه بيديه لنحره في حركة تجسد كل الحرص ، ولقد كان في وسع الشاعر أن يستخدم لفظ « الصدر » بدلاً من النحر ولكنه آثر « النحر » لما يوحي به من إشعار بأن هذه الدرة تمثل لهذا الغائص حياة هي الحياة نفسها التي تمثلها سلامة نحره .

ويغلق الشاعر بالبيت الأخير دائرة التشبيه قافلا إلى صاحبته المالكية ، بعد أن جعلنا نعيش هذا الوصف الممتع لرحلة من رحلات الغوص .

* * *

وننتقل إلى الأعشى وهو وإن لم يكن من أهل البحرين فقد أمدته أسفاره ورحلاته بقدر صالح من معرفة البحر الذي تكرر ذكره في شعره غير مرة ، وربما أتيح له في إحدى سفراته أن يلم ببعض الخبرات عن الغوص واستخراج اللؤلؤ .

ومهما كان من أمر فإننا نقع في شعر الأعشى على صورة فريدة ، وذلك في قصيدته القافية[٩] :

نامَ الخَليُّ وبتُّ الليلَ مُرْتفقًا ∴ أرْعَى النجومَ عَميداً مُثْبتاً أرِقًا[١٠]

وينطلق « الأعشى » في صورته من المنطلق نفسه الذي انطلق منه « المسيّب » وهو المرأة حيث يعقد شبها بينها وبين « درة زهراء » أخرجها من البحر غواص من دارين ، مغالبا خوفه من الغرق :

كأنها دُرّةٌ زَهْراءُ أخْرجَها ∴ غوّاصُ دارِينَ يخْشَى دُونَهَا الغَرقا

والأعشى في هذا البيت يجمل خيوط القصة كلها ليستطرد - بعد ذلك - مفصلا القول .

غير أننا نلاحظ - بادىء ذي بدء - أن خطوطا من الصورة اختفت عند الأعشى ، فهو لم يشغل نفسه - كما صنع المسيب - بوصف الاستعداد للرحلة ، ولا بعملية اختيار القائد ، ولم يعرج إلى أوصافه ، كل الذي صنعه أنه نسبه إلى « دارين » وكأن البحارة من أهل « دارين » كانت لهم أوصاف معروفة متداولة .

ولعل « الأعشى » بإغفاله هذه الخطوط أراد أن يضعنا مباشرة في بؤرة الصراع فنرى أنفسنا مع هذا الغواص الذي عاش عمره مذ طرّ شاربه يحلم بالدرة لا يستريح إلى اليأس ، ولا يبلغ ما يخيّله له الحلم فهو في عناء واحتراق :

قَدْ رامَهَا حججا مُذْ طرَّ شاربُه ∴ حَتّى تَسَعْسَعَ يَرْجُوهَا وَقَد خَفَقَا
لا النفسُ تُوئسُهُ مِنْهَا فَيتركُهَا ∴ وقدْ رَأى الرُّغبَ رأيَ العَيْنِ فاحترقَا

ولم يبعد الأعشى كثيراً في تصوير الحلم عن « المسيب » فكلاهما عمق هذا الحلم في وعي الغائص ، فقد رأينا المسيب يجعل إدراك هذا الحلم ثأراً من الأثآر المتوارثة (قتلت أباه فقال : أتبعه) وها هو الأعشى يمتد بالحلم على مساحة عمر كامل (مذ طر شاربه حتى تسعسع) ، فهل يعني هذا غير أنه حلم تتوارثه الأجيال ، أو هو على حد قول « المسيب » « رغيبة الدهر » .

ويمضي الأعشى فيعمق الصراع مضيفا إليه أبعاداً أسطورية تشي بحجم الهول الذي ينتظر هذا الغائص ، فالدرة يحرسها مارد من الجن ، بل هو من غواة الجن لا يعرف رحمة ، ولا تأخذه رأفة ، وهو لا يغفل عن الدرة طرفة عين ، وإنما هو يطيف بالدرة دائبا يخشى عليها سرى السارين والسرق .

ثم تتسع الصورة لتضيف وجها آخر من وجوه المستحيل يتجلى في صورة البحر الصاخب الذي تتصاعد أمواجه كالجبال ، فهل يطمح الغائص - إذن - في غير الموت ؟ :

ومَاردٌ من غُواةِ الجنّ يحرُسُها	...	ذو نيقَةٍ مُستَعدٌ دُونَهَا غرقَا
ليستْ لَهُ غَفلَةٌ عَنْهَا يطيفُ بها	...	يَخْشى عليها سُرَى السَّارينَ والسَّرَقَا
حِرْصًا عَليها لَو انَّ النّفْسَ طاوعَها	...	منهُ الضميرُ لبَالى اليَمَّ أو غَرقَا
في حوم لجةِ آذيٍّ له حَـدَبٌ	...	من رَامَهَا فارقَتْه النفسُ فاعتُلقَا

ويرتد بنا الأعشى كرة أخرى إلى الدرة الحلم متصاعداً بالصراع إلى ذروته في بناء «درامي» عجيب ، فمع هذه المخاطر التي يعيها الغائص تماما ، يراوده الحلم ، ويقترن الظفر بالدرة في وعي الغائص بخلود لا انقطاع له ، وهكذا تأخذ صورة الصراع أبعادا أخرى وتتسع لتأويلات ثرية لا تنتهي ، فكأننا نعيش في قصة هذه الدرة في صراع الإنسان مع الموت ، وكأن هذا الغائص المغامر ما هو إلا تجسيد لسعي الإنسان إلى الخلود من مثل ما نجده في أسطورة « جلجاميش » البابلية ، وغيرها من الأساطير القديمة في هذه المنطقة ، واقرأ قول الأعشى ، وتأمل كيف ربط بين الدرة والخلود ، وما يشي به ذلك من دلالات :

من نَالها نَالَ خُلْداً لا انقطاعَ لَهُ	...	ومَا تَمنَّى فَأضْحَى نَاعماً أَنِقاً
تلك التي كلَّفتَكَ النفسُ تأملها	...	ومَا تَعلقْتَ إلا الحَيْنَ والحَرَقَا

ويترك الأعشى نهاية الصورة مفتوحة ، ويترك الصراع لم يحسم ، وهذا أمر طبيعي طالما أنه اتسع بصورته ، وارتفع بها عن أرض الواقع ، ومال فيها إلى الرمز .

وفرق كبير - ولا ريب - بين الأعشى والمسيب ، فالمسيب مضى في صورته

محاذيا للواقع فحصر الصراع في دائرة محدودة ، أما الأعشى فقد اتسع بدائرة الصراع لتشمل حلم كل بني الإنسان .

* * *

وبعد « المسيب » و « الأعشى » لا نكاد نقع على صورة واسعة للغوص واستخراج اللؤلؤ، وإنما هي صور مختزلة ، ولقطات سريعة نقع عليها عند نفر من الشعراء ، ومثال ذلك ما نجده عند المخبل السعدي إذ يختزل الصورة فيما لا يجاوز أبياتاً ثلاثة ، وتكون نقطة انطلاقة إليها المرأة كما فعل صاحباه من قبل ، وذلك قوله(١١) :

وتريكَ وجهاً كالصحيفةِ لا	ظمآنُ مختلجٌ ولا جَهِمُ
كعقيلةِ الدر استَضاءَ بها	محرابَ عرش عزيزها العجُمُ
أغلى بها ثمناً وجاءَ بها	شخِتُ العِظام كأنّه سَهِمُ
بلبانِهِ زيتٌ وأخْرَجَها	من ذي غوارِب وسطهُ اللخمُ

والصورة على ضيق مساحتها قوية الإيحاء ، ويعتمد الشاعر فيها على الإشارة واللمح ، ويترك للقارئ مهمة ملءِ ما تركه من فراغ وتفصيل ما اختزله من أحداث . فلبيان قيمة الدرة ومكانتها يكتفي بالإشارة إلى أنها « عقيلة الدر » وإلى أنها أضاءت صدر مجلس عزيز العجم ، وطبيعي أن عزيز العجم لا يزين صدر مجلسه إلا بأنفس درة ، وهو قادر أيضاً على أن يدفع أغلى الأثمان ، وهذا يصلنا بالبيت التالي فعزيز العجم وحده القادر على سد نهم هذا الغائص المهزول « شخت العظام » الذي وجد حلم عمره في هذه الدرة ، فانطلق كالسهم يريد أن يبيعها بأغلى ثمن .

ويأتي البيت الأخير فيشير إشارات خاطفة إلى عملية الغوص ، وما تعرض له الغائص من أخطار ، فيكتفي الشاعر في الإشارة إلى الاستعداد للغوص والتهيؤ له بصورة الغائص وقد دهن صدره بالزيت ، ويكتفي في الإشارة إلى ما تعرض له من مخاطر بصورة البحر ذي الغوارب الذي تكمن فيه الأسماك المفترسة « اللخم » .

وعلى أن « المخبل » قدم لنا في صورته ما لم نكن نعلم من دهن الغائص صدره بالزيت قبل الغوص ، وأضاف أيضاً لوناً جديداً من ألوان المخاطر لم يشر إليه المسيب أو

الأعشى ذلك هو « اللخم » فصورته تظل - مع ذلك - محدودة ضيقة ، فليس فيها ما رأيناه عند المسيب من تنامٍ بالحدث ، وعرض حي لمشهد الغوص ، وليس فيها أيضاً ما رأيناه في صورة الأعشى من تعميق للصراع ، واتساع بمدى الدلالة وتجاوز للواقع الضيق .

ونمضي إلى « أبي ذؤيب الهذلي » حيث نقف على صورة أخرى محدودة منطلقاً إليها - أيضاً - من المرأة ، وذلك إذ يقول[١٢] :

كأنَّ ابنةَ السَّهميِّ دُرَّةُ قامسٍ	. . .	لها بعدَ تقطيع النبُوحِ وهيجُ
بكفَّيْ رَقَاحِيٍّ يحبُّ نماءَها	. . .	فَيُبرزُهَا للبيعِ فهيَ فريجُ
أجازَ إليها لُجةً بعدَ لجةٍ	. . .	أزل كغرنيقِ الضحُولِ عموجُ
فجاءَ بها ما شئتَ من لطميةٍ	. . .	تدُومُ البِحَارُ فَوقها وتَموجُ

وصورة أبي ذؤيب كصورة المخبل تقوم على إشارات خاطفة ، فهو أيضاً يشير إلى نفاسة الدرة بما عقده من صورة تبرز وهجها بعد إخراجها من المحار « بعد تقطيع النبوح »[١٣] ويشير بعد ذلك إلى نهم الغائص ، ومغالاته في ثمن درته ، فهو يرى في هذه الدرة الحلم ما يصلح عيشه ، ولذلك هو « يحب نماءها » ويغري بها الشارين إذ يبرزها بكفه ، وفي إشارة خاطفة بعد ذلك يشير أبو ذؤيب إلى حجم معاناة هذا الغائص في سبيل الحصول على هذه الدرة « أجاز إليها لجة بعد لجة » ، و « جاء بها بعد الكلال » كما يشير أيضاً إلى أوصافه الجسدية ، وما هو عليه من ضمور فهو « أزل » أي لا إلية له كطائر الغرنيق ، وهو في دقته ونحافته كالسهم الذي سحج وقشر حتى غدا دقيقا وعلى ما اتكأ عليه أبو ذؤيب في صورته من تشبيهات ، وعلى ما حاوله من إدخال الحركة في صورته لتبدو حيّة أيضاً ، فإننا نحس في صورته بالتقريرية الغالبة ، وبالاعتماد على الوصف الخارجي فلم تنمُ الصورة من داخلها ، ولم نرَ عناصر الصورة في تفاعلها الحي كما رأيناها عند المسيب والأعشى ، وهذا لا ينطبق على صورة أبي ذؤيب وحده وإنما ينطبق أيضاً على صورة المخبل ، وربما كان السرّ في ذلك - فيما نظن - أنهما لم يتح لها مشاهدة عملية الغوص عن كثب ، أو ربما شغلا بما هما آخذان فيه من القول في الغرض المحوري عن التفضيلات ، أو ربما كانا - وهذا ما نميل إليه - دون المسيب والأعشى قدرة في بناء القول بناءً قصصياً « درامياً » .

وأخيراً نقف على صورة شاحبة باهتة للغوص مختزلة في بيت واحد نجدها في شعر النابغة وذلك في معرض حديثه عن صاحبته[١٣] :

أو درَّة صدفيَّةٍ غواصُها . . بهجٌ متى يرهَا يُهِلَّ ويسْجُدَ

ومـا كنا نود الوقـوف عند هذه الصـورة لولا أنهـا تضـيف خطا جـديداً لم نـره في الصور السابقة؛ هو تصوير فرحة الغواص حين يظفر بحلمه .

* * *

– ٢ –

ونطوي العصر الجاهلي إلى الإسلامي فتطالعنا صورتان للغوص عند شاعرين من شعراء الحقبة الأموية هما « الفرزدق » و « القطامي » .

أما صورة « الفرزدق » فتأتي في قصيدته الرائية[١٤] :

عَرَفْتُ بأعْلَى رَائسَ الفأوَ ، بعْدَما . . مَضَتْ سَنَةٌ أيّامُهَا وشُهورهَا

ويلج « الفرزدق » إلى موضـوع الغوص من السنن المعهـود من تشبيـه « المرأة » بالدرة ، ثم يستطرد – على ما تعودنا من سابقيـه – إلى قصة استخراجها . . وهكذا نراه يتكئ على تشبيه صاحبته « الجعفرية » بدرة الغواص ليلقي بنا ، ودون مقدمات في حمأة الصراع ، حيث يقذف الغواص بجسده في تلك اللجة المهيبة ، وهو يعرف تماما ما ينتظره في قاعها من خطر مميت ، إذ هناك حيّة موكلة بالدرة تحرسها ، وقد طالما حُذّر منها وأنذر :

تَهَادَى إلى بَيْت الصَّلاة كَأنَّها . . عَلَى الوَعْث ذُو سَاقٍ مهيض كَسيرُها
كَدُرَّة غَوّاصٍ رَمَى في مَهيبةٍ . . بأجْرَامه ، والنَّفْسُ يخشَى ضَميرُها
مُوكَّلَةٌ بالدُّرّ خَرْسَاءَ قَدْ بَكَى . . إليْهِ مِنَ الغَوّاصِ منْها نَذيرُهَا

ولعلك ترى أن « الفرزدق » نجح في تجسيد الأخطار ووضعها أمام العين ، وتآزرت

ألفاظه وصوره في الإيحاء بهذه الأخطار ، فانظر إليه يستبدل بلفظة « اللجة » أو ما شابهها لفظة « مهيبة » ليجسد لنا مايعتري الغواص في هذه اللحظات ، وانظر إلى ما بداخل نفس هذا الغواص من خوف جسدته عبارة الفرزدق « والنفس يخشى ضميرها » وانظر أيضاً إلى الفرزدق يستغني بوصف الحية عن ذكر اسمها إشعاراً بخطرها ، وانظر أخيراً إلى هذا النذير الذي أتى يلح على الغواص أن يعدل عن خطته ، ويبكي لما سمعه من خطرها ، ولما يراه من إصرار صاحبه « قد بكى إليه من الغواص منها نذيرها » . ودعك من التواء العبارة ، فهو أمر معهود من الفرزدق ، ومعروف في فنه الشعري ، ولكنها عبارة تشي بالخطر ، وتشعر به .

غير أننا لا نريد أن نترك هذه الأبيات دون توقف عند قول الفرزدق في وصف الغواص «رمى في مهيبة بأجرامه » لما تشي به من وصول الغواص إلى ذروة من الصراع النفسي ، لم ير في حسمها إلا أن يلقي بأجرامه في الماء غير ناظر للعواقب ، أو مصغ لوساوس النفس ومخاوفها .

وعلى أي حال فقد أدخل « الفرزدق » بذكره لهذه الحيّة الخرساء عنصراً أسطورياً في صورته ، يذكرنا بمارد الأعشى الذي كان من غواة الجن ، وهو - ولاشك - عنصر يثري الصورة ، ويوسع دلالاتها . ولا ندري - على وجه التحديد - من أين لقف « الفرزدق » حكاية الحيّة الموكلة بالدرة ، غير أننا نرى في تراث العرب الأسطوري اقتراناً بين الحيّة والكنوز المأمولة ، ولعل هذا ما نرى إشارة له في قصة المثل العربي : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟ »[١٥] ويمضي الفرزدق في التصاعد بصورته فيعرض لنا ، مسترجعا ، ما داخل نفس الغائص قبل أن يلقى بنفسه إلى الماء من صراع ، وكيف انتصرت أحلام الفقر على مخاطر الموت وكيف قهر « خيال الدرة » كل نوازع الخوف في هذه النفس التي « لا ينام فقيرها » على حد قول « الفرزدق » :

فقالَ ألاقي الموْتَ أوْ أدْركَ الغنى . . لنَفْسيَ ، والآجَالُ جاءٍ دُهُورها
ولما رَأى ما دُونَها خَاطَرتْ بهِ . . عَلى الموتِ نَفْسٌ لا ينامُ فَقيرها

ثم تمضي بنا الصورة إلى نهاية الغواص المأساوية :

فَأهوَى ، وَنَابَاها حَوَالي يتيمةٍ . . هِيَ الموتُ أو دُنيا يُنَادي بَشيرُها

فألقَتْ بكفَّيهِ المنيَّةُ ، إذ دَنا ∴ بعَضَّةِ أنيابٍ سَريعٍ سؤورُها
فحركَ أعلَى حَبْله بحُشَاشَةٍ ∴ وَمن فَوقه خَضْراءُ طَامٍ بحُورُها
فما جَاءَ حتى مجَّ ، والماءُ دُونَهُ ∴ منَ النفْسِ ألوَاناً عَبيطاً نُحُورُها
إذا مَا أرادوا أنْ يُحيرَ مَدُوفةً ∴ أبى من تَقَضي نَفْسهِ لا يحورُها

هكذا تتابع تفصيلات مشهد الموت ، تبدو الدرة للغواص وبجانبها الموت المتمثل في الحية ، وما إن يمد يده حتى تكون اللدغة القاتلة ، ويسرى السم في أوصال الغواص فيستشعر النهاية ، وبما بقي فيه من حشاشة يحرك الحبل ليجذبه رفيقه وعلى قدر ما نحسه من تتابع الصور في هذا القسم من الصورة وما يشعر به من سرعة سريان الموت ، نحس ببطء الصور وتثاقلها في القسم الأخير إذ يوقف الشاعر الحدث ليبين لنا مدى ما يفصل هذا الغواص وهو في قاع الموت عن سطح الماء ، إذ يجثم فوقه لجة (خضراء طام بحورها) ، وانظر إلى وصف اللجة الفاصلة بأنها خضراء وما يوحي به من بعد الغور ، ثم انظر إلى تأكيد هذا الغور بصفة أخرى وهي (طام بحورها) ، هكذا يريد الشاعر أن يجعلنا نستشعر النهاية ، ثم يأتي البيت التالي فيرسخ اليأس في نفس القارئ من نجاة الغواص ، وكيف ينجو مَنْ مجَّ كل هذا الدم ؟!

ثم يأتي البيت الأخير فيصور النهاية المفجعة ، فقد فشلت كل محاولات إنقاذ الغواص ، فكلما أرادوا أن يسقوه الدواء لم يستجب لأنه كان يلفظ آخر أنفاسه .

على أن هذا الغواص وإن كان فقد حياته فقد ظفر بالدرة ، وهكذا تضعنا النهاية أمام قضية عجيبة من صراع بني الإنسان في سبيل الحلم فقد يدفع الإنسان حياته ثمناً لتحقيق حلم لا يكون هو المتمتع به ، ولكن بعض الأحلام قد يستحق أن يضحي من أجله الإنسان ، وقد يكون أغلى من الحياة نفسها ، ولعل هذا ما قصد إليه «الفرزدق» حين جعل أم الغواص تغلب فرحتها بالدرة حزنها على ولدها :

فلمَّا أروْها أمُّهُ هَـانَ وَجْدُهَا ∴ رَجَاةَ الغنَى لمَّا أضاءَ مُنيرُها
وظَلَّتْ تَغَالاها التّجارُ ، ولا تُرى ∴ لها سِيَمةً إلا قَليلاً كثيرُها

فـأية درة هذه التي تنسي الأم ولدها ؟! وأية درة هذه التي يقل إزاءها كثير ما يغالي به التجار ؟! وهكذا يفسح لنا هذا الغلو في وصف الدرة أبعاداً رامزة في الصورة

تذكرنا بتلك الأبعاد الرامزة في صورة « الأعشى » . وإذا كان الأعشى - كما مر بنا - ترك النهاية مفتوحة ، فإن «الفرزدق» آثر أن تكون لصورته هذه النهاية المأساوية المحددة ، ولعل الفرزدق قصد إلى ذلك قصدا إذ جاءت هذه الصورة في إطار هجائه لبني جعفر بن كلاب ، والقصيدة في عمومها تدور حول الصراع بين قبيلة « الفرزدق » وقبيلة « بني عامر » ، وكأن « الفرزدق » حين جعل الغواص يموت في سبيل الدرة التي كانت بها حياة الأم ، إنما أراد أن يقول أن التضحية بحياة الفرد هيِّنة إذا كان فيها حياة القبيلة ، وكأن أم الغواص ما هي إلا معادل للقبيلة الأم . .

وأخيراً نصل إلى القطامي وصورته في الغوص التي تضمنتها قصيدته الميمية(١٦) :

باتَتْ رميمُ وأمسى حَبلها رمَمَا . . وطاوعَتْ بك من أغرَى ومَنْ صَرَمَا

وتقع صورة الغوص منها في سبعة أبيات ينطلق إليها القطامي أيضا من وصف للمرأة .

وتكاد تكون صورة القطامي تسجيلية بحتة ، تقوم على الوصف الخارجي ولا نجد فيها تلك اللفتات النفسية التي وجدناها عند سابقيه من الشعراء في هذا المضمار ، كذلك لا نجد فيها تلك الأبعاد الثرية التي وجدناها عند الأعشى والفرزدق .

ومع ذلك فقد تطلعنا صورة القطامي على خطوط جديدة في صورة الغوص لم يلتفت إليها سابقوه ، أو لم يعيروها اهتماما مثال ذلك ما ورد عند القطامي من إشارة إلى جنسية «الغواص» بأنه من رجال الهند :

أو درّةٌ من هِجانِ الدُرّ أدركَها . . مُصَغَّرٌ من رجال الهِند قد سُهِما

كذلك أعطانا « القطامي » وصفا لسفينة الغوص فيه إشارة إلى ضخامتها واتساع جوفها :

أوفَى على مَتن مسحاجٍ تَقُدُّ به . . غَوارِبُ الماء قَد أَلقَتْ به قُدَمَا
جَوفاءَ مَطْلِيَّةٍ قاراً إذا اجتَنَحتْ . . بها غَوارِبُه قحَّمْنَها قُحَمَا

كذلك يعرض علينا وصفا تفصيليا لما يصنعه الغواص بدءاً من إلقاء ما عليه من

ثياب ، وانتهاء بغوصه ، وفمه مملوء بالزيت يمجه في الماء :

حتى إذا السُّفْنُ كانَتْ فَوقَ مُعتلِج . . ألقى المعَاوِزَ عَنْهُ ثُمَّت انكَتَما
في ذي جُلولٍ يُقضي الموتُ صاحبهُ . . إذَا الصَّراري مِنْ أهواله ارتَسَما
غوّاصُ ماءٍ يَمُجُّ الزَّيتَ منْغمِساً . . إذا الغُمورَةَ كانَتْ فَوقَه قِيَما

وملء الفم بالزيت ومجه في الماء صورة لها أهميتها الوثائقية وقد وجدنا إشارة لها فيما سلف من شعر المسيب في عملية الغوص وتاريخها إذ يقال : إن الغواص كان يمج الزيت في الماء ليضيء له ما حوله ، ويقال : إن بعض دواب البحر إذا وجدت ريح الزيت هربت .

وعلى أية حال فإن القطامي ينهي صورته ببيت يصور اقتحام الغواص للأهوال ، وظفره بالدرة :

حتى تَناولَها والموتُ كارِبُهُ . . في جَوْفِ سَاجٍ سوادِيٍّ إذ اقْتَحَما

ومهما كان من أمر فقد كان القطامي - في حدود علمنا - وفي حدود ما استقريناه من شعر الجاهلية والإسلام - آخر شاعر تعرض لوصف عملية الغوص في سبيل استخراج اللؤلؤ .

- ٣ -

على أننا إذا كنا لم نقف إلا على هذه الصور لعملية الغوص في الشعر الجاهلي والإسلامي، فإننا لا نعدم إشارات كثيرة متفرقة لجانب آخر هو صناعة اللؤلؤ واستخدامه في الزينة ؛ إذ المعروف أن اللؤلؤ كان يلي الذهب والفضة في التزين عند العرب .

أما من حيث صناعة اللؤلؤ فإننا إذا جمعنا الإشارات المتفرقة لدى الشعراء خرجنا بصورة تكاد تكون كاملة عن هذه الصناعة ، فها نحن نبدأ مع قيس بن الخطيم من لحظة إزاحة الصدف عن الدرة[١٧] :

كأنّها دُرَّةٌ أحَاطَ بها الـ . . ـغواص يجلو عن وجهها الصّدَف

والعملية نفسها يشير إليها ذو الرمة ، ولكنه يستبدل بلفظة « الصدف » لفظة

«الظلمْ» حتى لكأن الصدف كان ظلمة تغشي الدرة[18] :

قد عجزَ البُختيُّ عنها فانحطم . . . دُرةٌ غَواصٍ جَلا منها الظُّلَمْ

ويبدو أن الدر كان يمر بعمليات صقل بعد إخراجه من الصدف ، وكان يقوم بذلك صبية ينعتهم الشمردل بن شريك بالتلاميذ في قوله[19] :

فالماءُ يجلو متونَهُنَّ كَمَا . . . يجلو التلاميذُ لؤلؤاً قَشِبَا

وكان للنساء دورهن في صناعة اللؤلؤ ، ونظمه وقد أشار النابغة إلى بعض العذارى وهن ينظمن عقد صاحبته[20] :

أخَذَ العذَارَى عِقدَه فنظِمْنَه . . . من لؤلؤ متتابعٍ مُتَسَرِّدِ

ويبدو أن نساء ثقيف كن يمتهن مهنة نظم عقود اللؤلؤ ، فنرى القطامي في معرض وصفه لحباب الماء يشير إلى هاتين الثقفيتين اللتين تنظمان الجمان[21] :

فترى الحَبَابَ كأنَّها عبثت به . . . ثقفيتان تنظمان جُمَانَا

أما استخدام اللؤلؤ في الزينة فقد أشار إليه الشعراء إشارات متعددة توضح أنواع الحلي المختلفة التي يدخل فيها اللؤلؤ من العقود والأقراط والأساور ، والتيجان ، وقد أتى معظم هذه الإشارات في سياق وصف الشعراء للمرأة ، فها هو زهير بن أبي سلمى يصور زينة من يصفه من النساء مشيراً إلى ما يتقلدنه من درّ في أعناقهن يبدو من تحت الأكفة[22] :

بيضٌ عليهن الدمقس وبالـ . . . أعناق من تحت الأكفة درّ

وكذلك ما نجده في تصوير سحيم عبد بني الحسحاس لجيد صاحبته[23] :

وجيداً كجيدِ الغَزَالِ النزِّيـ . . . ـف يأتلِفُ الدُّرُّ فيه ائتلافا

على أن هناك من العقود ما يفصل الدر فيها بغيره ويسمى « الفريد » وإلى هذا أشار بشر ابن أبي خازم في وصف صاحبته[24] :

مُقلدةٌ سُمُوطا من فريدٍ . . . يزين الجيدَ منها والتراقِي

وإلى ذلك أيضاً يشير الأعشى في قوله[25] :

أضاءَت أحورَ العينين طفلاً ∴ يكدِّسُ في ترائبه الفَريدُ

وكثيراً ما شارك اللؤلؤ غيره من الأحجار الكريمة مثل الياقوت والزبرجد والجزع وغيرها كما نرى في صفة صاحبة علقمة التي تزينت بسمطي لؤلؤ وزبرجد[٢٦] :

وجيد غزالٍ شادن فردن له ∴ من الحلي سمطي لؤلؤ وزبرجدِ

وكذلك ما نراه في صفة صاحبة طرفة[٢٧] :

وفي الحي أحوَى يَنفضُ المرْدَ شادِنٌ ∴ مظاهِرُ سِمْطيْ لُؤلُؤٍ وزَبَرْجَدِ

وتتحلى صاحبات المرقش الأصغر بعقود يختلط فيها الدر والياقوت والشذر والجزع الظفاري[٢٨]

تَحلينَ ياقوتاً وشذراً وصيغةً ∴ وجَزْعاً ظفارياً ودراً توائما

وقد يفصل بين اللؤلؤ والزبرجد ، خرز صغير شبهه الشعراء بفقرات الجراد ، ونرى ذلك في قول النمر بن تولب يصف جيد صاحبته[٢٩] :

أناةٌ عليها لؤلؤٌ وزبرجدٌ ∴ ونظمٌ كأجواز الجرادِ مُفصَّلُ

وإلى ذلك ذهب « علقمة الفحل » في قوله[٣٠] :

محالٌ كأجواز الجرادِ ولؤلؤٌ ∴ من القَلقي ، والكبيس الملوَّبِ

وفي قول للأحوص الأنصاري نراه يشير إلى خرزات من الياقوت تفصل بين الدر والشذر[٣١] :

درٌّ وشَذرٌ وياقوت يُفصّلُهُ ∴ كأنَّهُ إذا بَدَا جمرُ الغَضَا يَقِدُ

ويجمع الشذر والياقوت والمرجان في القلادة كما أشار عمرو بن معد يكرب[٣٢] :

وأغر مصقولاً ، وعيني جؤذرٍ ∴ ومُقلـــداً كمقلّدِ الأدْمانِ
سَنَّت عليـه قلائداً منظومةً ∴ بالشذرِ والياقوتِ والمرجانِ

وكما نرى في قول حاتم الطائي[٣٣] :

ونحراً كَفَى نُورَ الجبين يَزِينُهُ ∴ توقُّدُ ياقوتٍ وشَذرٌ منظما

وقول سحيم عبد بني الحسحاس[٣٤] :

وجيدٍ كجيدِ الرئم ليس بعاطلٍ ∴ من الدَر والياقوت والشذْر حاليا

على أن هناك خلافا بين اللغويين حول الشذر ، أهو قطع من الذهب أم هو صفار اللؤلؤ ؟ كما أن هناك خلافا حول المرجان أيعد من اللؤلؤ أم لا يعد ؟ غير أن الثابت أن شعراء العرب خلطوا بين المرجان واللؤلؤ ربما لأنهما يستخرجان من مكان واحد ، فالأعشى الكبير يتحدث عن « المرجان » وهو لا يقصد إلا اللؤلؤ إذ يذكر الصدف الذي لا يكون إلا للؤلؤ[٣٥] :

من كُلّ مَرْجانَةٍ في البَحْرِ أخْرجَهَا ∴ غوّاصُهَا ووَقَاها طِينَهَا الصَّدَفُ

وعلى ذلك أيضا مضى « طرفة بن العبد » كما نرى في قوله[٣٦] :

صادَت القَلبَ بعَيْنَي جُؤذرٍ ∴ وَبنحرٍ فوقَهُ المرجانُ جَمّ

ومهما يكن من أمر فقد سمى لنا الشعراء عددا من أصناف الحلي يدخل فيها اللؤلؤ ، فمن القلائد « التقصار » التي يشير إليها عدي بن زيد العبادي[٣٧] :

وأحورَ العينِ مربوبٍ له غُسَنٌ ∴ مقلدٌ من جناح الدُّرّ تَقْصارا

ومن القلائد « المخنقة » ويكون فيها الدر واللؤلؤ ، وتكون ضيقة ومن هنا جاء اسمها ، وقد وردت إشارة لها في رجز « هند بنت عتبة » في معركة « أحد »[٣٨] :

نحن بنات طارقِ
نمشي على النمارقِ
والدُّرُّ في « المخَانق»
والمسْكُ في المفارقِ

ومن القلائد أيضاً « السخاب » وقد وردت لها إشارة في شعر عمر بن ربيعة[٣٩] :

لقد كانَ حَتفي يومَ بانوا بجؤذرٍ ∴ عليه سخابٌ فيه دُرٌّ وعنبر

ومن أصناف الحلي التي دخل فيها اللؤلؤ « القرط » وقد أشار إليه « لبيد » في قوله[٤٠] :

يَرُضْنَ صِعَابَ الدُّر في كل حجَّةٍ ∴ ولو لم تكن أعناقهنَّ عَوَاطلا

وكثرت إشارات الشعراء إلى « التومة » وهي الحبة من اللؤلؤ المستديرة ، وترد في صورة الأعشى إشارة إلى حبتين من اللؤلؤ متماثلتين تعلقان في الأذنين ، وقد ذكرهما الأعشى في وصفه لبعض غلمان حاناته[٤١] :

وذو تُومَتينِ وَقَاقُزَةٌ ∴ يَعُلُّ ويسرعُ تكرارهَا

وفي قول آخر[٤٢] :

هَزِجٌ عليه التُّوْمَتَا ∴ ن إذا نَشَاءُ عَدَا بَها

على أن الأعشى أيضا يذكر لنا من أصناف اللؤلؤ « النطف » والنطفة هي اللؤلؤة العظيمة التي يتحلى بها رجال العجم ففي قول الأعشى نرى سادة الأعاجم في آذانها النطف[٤٣] :

وَجُنْدُ كسرَى غَدَاةَ الحِنْوِ صَبَّحَهُمْ ∴ مِنّا كتائبُ تُزْجِي الموتَ فانَصرفوا
جَحَا جِحٌ وبنو مُلْكٍ ، غَطارِفَةٌ ∴ من الأعَاجمِ في آذانِهَا النُّطَفُ

وفي قول آخر نرى الذي يتحلى بهذه النطف هو غلام الحانة[٤٤] :

يسعى بها ذُو زُجَاجَاتٍ له نُطَفٌ ∴ مُقَلَّصٌ أسفَلَ السِّرْبَالِ مُعْتَمِلُ

ومن حلية الأيدي مما يدخل فيه اللؤلؤ أشار الشعراء إلى « السوار » و « البارق » فنرى في أسورة صاحبات لبيد الجمان والمرجان[٤٥] :

وَعَالَيْنَ مَضْغُوطاً وَفَرْداً سُمُوطهُ ∴ جُمَانٌ وَمَرْجانٌ يَشُدُّ المَفَاصِلا

ونرى صاحبة الأعشى تتحلى بيارقين مفصلين بالدر[٤٦] :

إذا قَلّدَتْ مِعْصَماً يارِقَيْـ ... ـنِ فُصِّلَ بالدُّرّ فَصْلاً نضِيرا

وهكذا أوقفنا الشعراء على قيمة « اللؤلؤ » في ألوان الحلي ، وعلى بعض استخداماته وهيئاته مما لا نجد له ذكرا في المصادر الأخرى .

* * *

ـ ٤ ـ

وقد غدا اللؤلؤ مادة في صور الشعراء ووظفوه توظيفات فنية متنوعة لعل أبرزها توظيفه في وصف المرأة ، فقد وجدوا شبها جامعا بين صفاتها وبين اللؤلؤ فأكثروا من تشبيهها بالدرة ، ودرة الغواص ، ولؤلؤة المرزبان ، وعقيله الدر ، والتؤامية وغيرها ، بل إننا رأينا – فيما سلف – أنَّ المنطلق لوصف رحلة الغوص كلها كان وصف المرأة .

وإذا كان التطرق إلى وصف رحلة الغوص قد اقتصر على عدد محدود من الشعراء فإن توظيف اللؤلؤ في وصف المرأة قد تداوله عدد من الشعراء غير قليل من شعراء الجاهلية أو الإسلام . فها هو بشر بن أبي خازم يرى وجه صاحبته ، وقد أبرز بياضه ما أحاط به من شعر فاحم فلا يجد له مثيلا إلا الدرة[٤٧] :

رأي دُرَّةً بيضاءَ يحفل لونها ... سُخام كغربان البريرِ مُقَصَّبُ

ومن قبل مرّ بنا قول المخبل السعدي في وصف صاحبته[٤٨] :

كعقيلةِ الدُّرّ استضاء بها ... محرابَ عرشٍ عزيزها العُجمُ

وقريب من قول المخبل قول جميل بن معمر الذي يشبه صاحبته بلؤلؤة المرزبان[٤٩] :

وأنتِ كلؤلؤةِ المرزُبانِ ... بماءِ شَبابكِ لم تُعصَرِي

ونرجع إلى زهير بن أبي سلمى الذي يتكئ على الدرة في إبراز ملاحة صاحبته ونقائها[٥٠] :

وأما المقلتانِ فمن مَهَاةٍ ∴ وللدُّرّ الملاحةُ والنقَاءُ

أما سويد بن أبي كاهل فلا يرى شبها لصاحبته إلا الدرة التؤامية[٥١] :

كالتؤامية إن باشرتَها ∴ قَرَّت العينُ ، وطابَ المضطجعُ

ويشبه أمية بن أبي عائذ صاحبته البيضاء صافية المدامع بدرة الغواص[٥٢]

بَيْضَاءُ صَافِيَةُ المدَامِعِ هُولة ∴ للناظرينَ كَدُرَّةِ الغوَّاصِ

أما الشماخ فيعتمد على الدر والصدف في تشكيل صورة يد صاحبته المزينة بالوشم[٥٣] :

لها أقحوانٌ قيدته بإثمدٍ ∴ يدٌ ذات أصداف يُمَارُ نؤورها

ويعتمد الأحوص الأنصاري على لون من قلب أركان الصورة لإبراز جمال وجه صاحبته مستغلا مادة « الدر » وذلك في قوله[٥٤] :

وإذا الدرُّ زانَ حُسْنَ وجُوه ∴ كانَ للدُّرّ حُسْنُ وجهك زَينا

ولم يكن بياض المرأة ، وصفاء وجهها وهو ما جمع بينها وبين الدر في نظر الشعراء ، ولكنهم وجدوا في حديثها النفيس العذب ما يشبه الدر الذي تحدر نظمه كما نرى في قول جميل ابن معمر[٥٥] :

غرَّاء مبسام كأن حديثها ∴ دُرٌّ تحدَّرَ نَظْمُهُ منثورُ

* * *

وخارج دائرة المرأة كان للؤلؤ توظيفات مختلفة ، فكثيراً ما شبهوا به الدموع المنحدرة ، كما نرى في قول امرئ القيس وقد أثر فيه رحيل صاحبته[٥٦] :

فأسبلَ دمعي كفَضّ الجُمانِ ∴ أو الدُرّ رَقراقِه المنحدِرْ

وفي هذا الإطار العاطفي يصور المثقب العبدي دموعه بسمطين من لؤلؤ انقطعت أسلاكهما فتناثر ما فيهما من لؤلؤ(٥٧) :

هل لهذا القلب سمعٌ أو بصر ∴ أو تناه عن حبيب يُدكر؟!
أو لدمـعٍ عن سفاه نِهيَةٌ ∴ تمتري منـه أسَابيُّ الدّرَرْ
مُرْمَعِلات كَسِمْطَيْ لؤلـؤٍ ∴ خَذَلَت أخرَاتُهُ فيه مَغَر

أما زهير فيشبه دموعه باللؤلؤ القلق الذي خان رباته النظم(٥٨) :

كأن عيني وقد سالَ السُّليلُ بهم ∴ وعَبْرَةٌ ما همُ لو أنهم أمَـمُ
غربٌ على بَكرةٍ أو لؤلؤٌ قلِقٌ ∴ في السِّلكِ خانَ به ربّاته النُّظُمُ

وتتكرر صورة الدمع المشبـه بالدر خانه سلكه عند العبـاس بن مـرداس(٥٩) ، والحارث بن خالد المخزومي(٦٠) ، وذي الرمة(٦١) .

وكان للحيوان أيضا نصيبه من مادة اللؤلؤ في صور الشعراء ، فكثيراً ما اتكأ عليه الشعراء في تشكيل صورهم عن بقر الوحش ، وعن الثيران الوحشية ، فنرى الأعشى يجسد حركة بقر الوحش الفار من صياديه في إدباره وتفرقه فيشبهه بعقد لؤلؤ انفرطت حباته(٦٢) :

وَيَوْمٍ إذا مَا رَأيتُ الصّوَا ∴ رَ أدبَرَ كاللؤلُؤ المنخَرِم

وتطالعنا في هذا الإطار صورة لبيد الرائعة التي جسد فيها توجس البقرة الوحشية وقلقها حين شبهها باللؤلؤ سل نظامه(٦٣) :

وتضيءُ في وجهِ الظّلام منيرةً ∴ كجمانةِ البحرى سُلّ نظامها

ومن البقرة الوحشية إلى ثور الوحش حيث نرى الأعشى يشبه أظلاف الثور بالمحار ليمثل لنا انبساطها وصلابتها(٦٤) :

وَرُحٌ كالمحَارِ مُوتَّداتٌ ∴ بها ينضو الوَغَى وبهِ يَذُودُ

كذلك كان للناقة نصيبها من مادة الدر إذ نرى الشماخ يعمد إلى الدرة الزهراء في تشكيل صورته عن جمال وجه ناقته وصفائه[٦٥] :

تَرْمي الغُيُوبَ بمرآتين من ذَهَبٍ . . صَلْتَيْن ضاحيهمَا بالشمسِ مَصْقُولُ
وحُرَّتيْن هجَانٍ ليس بينهما . . إذا هُمَا اشْتَأَتَا للسَّمعَ تهيلُ
عن جانِبي دُرةٍ زَهْراءَ جاءَ بها . . مُحمْلَجٌ من رَجالِ الهِنْد مجدُولُ

* * *

أما « المطر » فقد وجد الشعراء في اللؤلؤ مادة متاحة للتفنن في وصفه لما بين حبات المطر، وحبات اللؤلؤ من صفات كثيرة جامعة ، وقد استأثر بعظم اهتمامهم حبات المطر المتساقطة على الثيران الوحشية ، فنرى الشمردل بن شريك اليربوعي يشبه حبات المطر المتساقطة على متن الثور الوحشي بالجمان واللؤلؤ المنثور[٦٦] :

أمسى بمحنيةٍ يحكُّ بروقه . . حقفاً يهيلُ ترابه المجدُورا
من صَوْبِ ساريةٍ كأنَّ بمتنهِ . . منها الجُمان ولؤلؤاً منثورا

ونرى الصورة عند ذي الرمة تتكرر في غير مشهد فيقول مشبها تحدر ماء المزن على متن الثور بتحدر اللؤلؤ[٦٧] :

فباتَ عَذوباً يَحْدرُ المُزْنُ ماءَهُ . . عليه كَحَدْرِ اللُّؤلؤِ المُتنَاثرِ

ومرة أخرى يشبه حبات المطر باللؤلؤ يجول في أسلاكه[٦٨] :

والوَدْقُ يَستَنُّ عن أعلى طَرِيقتِهِ . . جَوْلَ الجُمانِ جَرى في سِلكِه الثُّقَبُ

أما القطامي فيشبه حبات المطر بلؤلؤ تعبث به « ثقفيتان » في محاولة لنظمه[٦٩] :

فترى الحَبابَ كأنَّما عبثَتْ بهِ . . ثقفيتانِ تنظمان جُمَانَا

ولا يفوتنا في هذا المجال أن نشير إلى صورة بشر بن أبي خازم التي تجمع بين حبات الصقيع وحبات اللؤلؤ[٧٠] :

فأضْحَى وصِئبانُ الصَّقِيعِ كأنها ∴ جُمانٌ بِضَاحي مَتنهِ يتحَدَّرُ

* * *

وبعيداً عن دائرة الحيوان نقع على صورة لذي الرمة يشبه فيها قطرات الندى على أوراق الشجر باللؤلؤ التوم(٧١) :

وَحَفٌّ كأنَّ النَّدى والشمسُ ماتِعةٌ ∴ إذا توقَّدَ في أفنانهِ التّومُ

* * *

ولعل هذه المحاور هي التي استأثرت بجهدالشعراء في توظيف اللؤلؤ والاتكاء عليه في تشكيل الصورة ، غير أننا لا نعدم خارج هذه المحاور صورة هنا أو ثمّ وظف فيها اللؤلؤ توظيفا فنيا من مثل ما نرى في وصف ذي الرمة لنجوم الجوزاء إذ رأى منظومين من فريد(٧٢) :

عارَضْنه من عَنَنٍ بَعيدِ
كأنّها من نَظَرٍ ممدودِ
بالأفقِ منظومانِ من فريدِ

ومن مثل ما نراه من تشبيه الأحوص لشعره بالدر(٧٣) :

فإن لم يكن للشِّعْرِ عندكَ موضعٌ ∴ وإن كان مِثْلَ الدُّرِّ من قَوْلِ قائلِ

ولكن هذه الصور وإن كانت من القلة بالقدر الذي ترى فإنها تشير إلى إمكانية كانت – وما تزال – متاحة أمام الشعراء لتوليد صورهم وتشكيلها من مادة اللؤلؤ .

وإلى هنا نكون قد استقصينا مادة الغوص واللؤلؤ في شعر الجاهلية والإسلام ما وسعنا الجهد ، ناظرين إلى زوايا عدة في معالجتها والله نسأل أن يكون قد حالفنا التوفيق .

الهوامش

(١) الحيوان للجاحظ ١٦/٦

(٢) انظر الأدب الجاهلي : د. طه حسين ص ٧٩

(٣) انظر وصف النهر والبحر في الشعر القديم : د. حسين عطوان .

(٤) الصبح المنير في شعر أبي بصير ص ٣٥١ ، ٣٥٢ ، والقصيدة في خزانة الأدب للبغدادي ٢٣٦/٣ - ٢٣٧ ونُسبت إلى الأعشى .

(٥) السجحاء : الطويلة الظهر وأراد بها السفينة .

(٦) المراسي : جمع مرساة بالكسر وهي آلة ترسي بها السفينة .

(٧) روى البيت في بعض الروايات « وترى الصواري » بدلاً من « وترى الشواري » والصواري جمع صار وهو الملاح ، ونرى أن ما أثبتنا ، أنسب للصورة .

(٨) ديوان الأعشى الكبير ص ٤١٥ - ٤١٧ .

(٩) المفضليات ص ١١٥

(١٠) شرح أشعار الهذليين ١٣٣/١ - ١٣٥

(١١) يقول السكري في تفسير « لها بعد تقطيع النبوح وهيج » بأن الدرة تتوهج بعد هدأة من الليل حين تسكن الأصوات ، ونظن أن الوجه الصحيح هو الذي آثرناه في عرضنا .

(١٢) ديوان النابغة الذبياني ص ٩٢

(١٣) ديوان الفرزدق ص ٣١٣ - ٣١٥

(١٤) مجمع الأمثال للميداني، ج٢، ص ١٤٥ - ١٤٦ (أصل هذا المثل على ما حكته العرب على لسان الحية أن أخوين كانا في إبل لهما فأجدبت بلادهما ، وكان بالقرب منها وادٍ خصيب وفيه حية تحميه من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يافلان ، لو أني أتيت الوادي المكْلىء ، فرعيت فيه إبلي وأصلحتها ، فقال له : أخوه إني أخاف عليك الحية .. وحذره فأبى ، فهبط في الوادي ورعى به إبله زماناً فنهشته الحية ، فقرر أخوه أن يأخذ بثأره ويقتل الحية ، فاتفقت معه الحية على الصلح وأن تعطيه كل يوم دينارا ما بقيت فوافق وأعطاها المواثيق لا يضرها ، وجعل يأخذ منها كل يوم ديناراً حتى كثر ماله فتذكر أخاه فاعمد إلى فأس فضربها فأخطأها ودخلت الجحر ووقعت الفأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه ، فقطعت عنه الدينار وعاد يطلب منها المواثيق والعود إلى ما كنا عليه فقالت المثل ..

(١٥) ديوان القطامي ص ٦٨ - ٧٠ .

(١٦) ديوان قيس بن الحطيم ص ٣٦١ .

(١٧) ديوان ذي الرمة ١٩٠٦/٣

(١٨) الشمردل بن شريك اليربوعي ، مجلة معهد المخطوطات ص ٢٩٢ ، القشيب : الجديد .

(١٩) ديوان النابغة الذبياني ص ٩٥ .

(٢٠) ديوان القطامي ص ١٧ .

(٢١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٤٩ .

(٢٢) ديوان سحيم عبد بني الحسماس ص ٤٣ .

(٢٣) ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٦١ .

(٢٤) ديوان الأعشى الكبير ص ٣٧١ .

(٢٥) ديوان علقمة الفحل ص ١٠٥ .

(٢٦) ديوان طرفة بن العبد ص ٨ .

(٢٧) ديوان المرقش الأصغر ص ٢٠ .

(٢٨) شعر النمر بن تولب ص ٨٢ .

(٢٩) ديوان علقمة الفحل ص ٨٠ ، المحال : الشذر من الذهب وهو يحشى مسكاً ، القلقي : جنس من اللؤلؤ مدحرج لا يستقر ، الكبيس : ما حشي وطلي بالملاب وهو ضرب من الطيب .

(٣٠) شعر الأحوص الأنصاري ص ٩٣ .

(٣١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ١٥٩.

(٣٢) ديوان حاتم الطائي ص ٧٩ .

(٣٣) ديوان سحيم بن عبد بني الحسماس ص ١٧ .

(٣٤) ديوان الأعشى الكبير ص ٣٦١ .

(٣٥) ديوان طرفة بن العبد ص ١٩٦ .

(٣٦) ديوان عدي بن زيد العبادي ص ٥٠ .

(٣٧) ثمار القلوب للثعالبي ص ٢٩٧ .

(٣٨) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٩٨ .

(٣٩) شرح ديوان لبيد بن ربيعة ، ص ٢٤٣ ، الحجة : شحمة الأذن ، ويقال هي الخرزة أو اللؤلؤ .

(٤٠) ديوان الأعشى الكبير ص ٣٦٩ ، القاقزة : قارورة الخمر الكبيرة .

(٤١) المصدر نفسه ص ٣٩ .

(٤٢) المصدر نفسه ص ٣٦١ .

(٤٣) المصدر ص ١٠٩ .

(٤٤) ديوان لبيد ص ٢٤٣ .

(٤٥) ديوان الأعشى الكبير ص ١٤٥ .

(٤٦) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ص ٧ ، البرير : النضيج من ثمر الأراك .

(٤٧) المفضليات ص ١١٥ .

(٤٨) ديوان جميل ، شاعر الحب العذري ص ١٧٥ .

(٤٩) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٦٢ .

(٥٠) ديوان سويد بن أبي كاهل ص ٢٨ ، التؤامية : الدرة المنسوبة إلى تؤام وهي قصبة عمان التي تلي الساحل .

(٥١) شرح أشعار الهذليين ٤٨٩/٢ .

(٥٢) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص ١٦٣ .

(٥٣) ديوان الأحوص الأنصاري ص ٢٢٥ ، ويروى البيت لمالك بن أسماء الفزاري في أمالي المرتضى ٤٣٥/١ .

(٥٤) ديوان جميل ، شاعر الحب العذري ص ٩٧ .

(٥٥) ديوان امرئ القيس ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٥٦) ديوان شعر المثقب العبدي ص ٦٢ - ٦٣ .

(٥٧) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٥٨) ديوان العباس بن مرداس ص ٥٣ .

(٥٩) شعر الحارث بن خالد المخزومي ص ٩٠ .

(٦٠) ديوان ذي الرمة ٧٥٠/٢ .

(٦١) ديوان الأعشى الكبير ص ٨٩ .

(٦٢) شرح ديوان لبيد بن ربيعة ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٦٣) ديوان الأعشى الكبير ص ٣٧٥ .

(٦٤) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص ٢٧٤ - ٢٧٥ ، الحرتان : الأذنان ، اشتأت: استمعت .

(٦٥) الشمردل بن شريك اليربوعي ، مجلة معهد المخطوطات ص ٢٩٢ .

المصادر والمراجع

١- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : الثعالبي - أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (-٤٢٩هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١٩٣٨م .

٢- الحيوان : الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ) تحقيق : عبد السلام هارون ، ط مصر، ١٩٣٨م .

٣- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : البغدادي - عبد القادر بن عمر (- ١٠٩٣هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩م.

٤- ديوان الأعشى الكبير : شرح وتعليق : الدكتور محمد محمد حسين ، ط الرابعة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣م .

٥- ديوان امرئ القيس : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف ، ١٩٨٤م .

٦- ديوان بشر بن أبي خازم : تحقيق : الدكتور عزة حسن ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم ، دمشق ، ١٩٦٠ .

٧- ديوان جميل شاعر الحب العذري ، جمع وتحقيق وشرح : الدكتور حسين نصار ، دار مصر للطباعة ، ١٩٧٩م .

٨- ديوان ذي الرمة ، شرح الإمام أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي صاحب الأصمعي ، رواية الإمام أبي العباس ثعلب ، حققه : الدكتور عبد القدوس أبو صالح ، مطبعة طبرين ، دمشق، ١٩٧٢م .

٩- ديوان سحيم عبد بني الحسحاس : تحقيق : الأستاذ عبد العزيز الميمني نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠م الناشر : الدار القومية والنشر ، القاهرة .

١٠- ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري ، جمع وتحقيق : شاكر العاشور ، مراجعة : محمد جبار المعيبد ، ط الأولى ، وزارة الأعلام ، بغداد ، ١٩٧٢م .

١١- ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره ، دراسة وتحقيق : د. عادل سليمان جمال ، مطبعة المدني ، القاهرة (د.ت) .

١٢- ديوان شعر المثقب العبدي ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه : حسن كامل الصيرفي ، ط معهد المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٧١م .

١٣- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني : حققه وشرحه : صلاح الدين الهادي ، ط دار المعارف ، مصر، ١٩٧٧م .

١٤- ديوان طرفة بن العبد ، شرح الأعلم الشنتمري (-٤٧٦هـ) ، تحقيق : درية الخطيب ولطفي الصقال ، مطبوعات : مجمع اللغة العربية ، دمشق .

١٥- ديوان العباس بن مرداس ، جمعه وحققه : الدكتور يحيى الجبوري ، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة ، دار الجمهورية ، بغداد ، ١٩٦٨م .

١٦- ديوان عدي بن زيد العبادي ، حققه وجمعه : محمد جبار المعيبد ، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع ، بغداد ، ١٩٦٥م .

١٧- ديوان علقمة الفحل ، بشرح أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري ، ويليه جملة مما لم يذكر من شعره في هذا الشرح ، حققه : لطفي الصقال ودرية الخطيب ، راجعه : د. فخر الدين قباوة ، ط الأولى ، دار الكتاب العربي ، حلب ، ١٩٦٩م .

١٨- ديوان الفرزدق ، شرحه وضبطه وقدم له : الأستاذ علي فاعور ، ط دار الكتاب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ .

١٩- ديوان القطامي ، ط بريل ، ليدن ، ١٩٠٢م .

٢٠- ديوان قيس بن الخطيم ، تحقيق : الدكتور ناصر الدين الأسد ، ط الثانية ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٧م .

٢١- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٧م.

٢٢- شرح أشعار الهذليين : السكري - أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري (-٢٥٠هـ) ، حققه: عبد الستار أحمد فراج ، راجعه : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ١٩٦٥م .

٢٣- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعه الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب ، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤م ، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤م .

٢٤- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري : حققه : إحسان عباس ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ١٩٦٢م .

٢٥- شعر الأحوص الأنصاري ، جمعه : عادل سليمان جمال ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م .

٢٦- شعر الحارث بن خالد المخزومي ، جمع وتحقيق : د٠ يحيى الجبوري ، ط دار القلم ، الكويت ، ١٩٨٣م ٠

٢٧- شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، جمعه وحققه : مطاع الطرابيشي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٧٤م ٠

٢٨- شعر المرقش الأصغر وأخباره ، صنعه نوري حمودي القيسي ، مجلة العرب ، السعودية ، ج٦ السنة الرابعة ١٩٧٠م ٠

٢٩- شعر النمر بن تولب ، صنعه : د٠ حمودي القيسي ، مطبعة المعارف ، بغداد ٠

٣٠- الشمردل بن شريك اليربوعي ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ١٨ ، ج٢ ، ١٩٧٢م٠

٣١- كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير ، ميمون بن قيس بن جندل الأعشى والأعشين الآخرين، تحقيق : رودلف جاير ، ط مطبعة آدلف هُلز هوسن ، بيانة ١٩٢٧م ٠

٣٢- في الأدب الجاهلي : د٠ طه حسين ، ط دار المعارف ، ١٩٧٧م ٠

٣٣- مجمع الأمثال : الميداني ، أبو الفضل : أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (-٥١٨هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط السنة المحمدية ١٩٥٥م ٠

٣٤- المفضليات : الضبي - المفضل بن محمد الضبي (-١٧٠هـ) تحقيق : أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، ط الخامسة ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٢م ٠

٣٥- وصف النهر والبحر في الشعر القديم : د٠ حسين عطوان ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٢م٠

الدور البريطاني في عقد اتفاقية السيب عام ١٩٢٠م
بين سلطان مسقط والإمام في داخلية عمان

د· فاضل محمد الحسيني
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس - الرباط

أسفرت الحرب العالمية الأولى عن تدعيم السيطرة البريطانية بالخليج العربي بصورة تفوق كثيرا ما كانت عليه في السابق ، إذ أن الدول الكبرى التي نافست بريطانيا النفوذ وتطلعت إلى الخليج قبيل الحرب لم تلبث بعد انتهاءها أن أرغمت على الخروج من حلبة التنافس ، فألمانيا لهزيمتها في الحرب وروسيا لتبدل أوضاع الحكم فيها وإعلان القائمين بثورة عام ١٩١٧م تخليهم عن الاطماع القيصرية ، أما الدولة العثمانية فقد اختفت تماماً من الوجود وفرنسا أصبحت صديقة لبريطانيا فسلمته لصديقتها بالنفوذ وبادرت إلى إغلاق قنصليتها في مسقط عام ١٩٢٠م كآخر مظهر من مظاهر النفوذ الفرنسي في عمان بصفة خاصة والخليج العربي بصفة عامة ·

وهكذا أصبحت بريطانيا تمتد سيطرتها في الخليج من شط العرب شمالا حتى المحيط الهندي جنوباً وبذلك حق لبعض الكتاب الانجليز أن يصفوا الخليج في ذلك الوقت بأنه بحيرة بريطانية (British Lake) ·

وقد ساعد ذلك بريطانيا على فرض التسويات العديدة في منطقة الخليج العربي منها اتفاقية السيب عام ١٩٢٠م بين سلطان مسقط وزعماء الإمامة الاباضية في داخلية عمان ·

فعندما أعلن زعماء الإمامة الاباضية في داخلية عمان الثورة على السلطان في

مسقط لاعتقادهم بخضوع السلطان للنفوذ البريطاني وخروجه عن المبادئ الاباضية سواء في النظام الوراثي للحكم أو في السماح لاستيراد المشروبات الكحولية أو التبغ للبلاد ، انطلقت قواتهم في يناير من عام ١٩١٥م بقيادة الإمام سالم الخروصي مستهدفة العاصمة مسقط والاطاحة بحكم السلطان ، وقد بدا تعاظم القوات من خلال إعدادها الهائلة التي بلغت الآلاف إذ ضمته القبائل العمانية من الكتلتين : الهناوية ، التي يقودها الشيخ عيسى بن صالح ، والغافرية ، تحت قيادة الشيخ حمير بن ناصر . وقد تقدمت قوات الإمامة حتى وصلت إلى ما يقرب من ستة أميال عن العاصمة مسقط التي أصبح سقوطها وشيكا[1] ، ثم شنت هجوما مركزاً على الحامية البريطانية التي كانت تقوم بالدفاع عن المدينة ، ولكن بالرغم من أن مسقط لم تكن معززة إلا بقوات قليلة العدد يبلغ قوامها (٧٠٠) سبعمائة جندي يرابطون وراء تحصيناته قوية[2] ، إلا أن هذا القوات استطاعت أن تدحر هجوم الإمامة غير المنظم والذي ينقصه التكتيك العسكري ، ففي خلال المعركة التي نشبت بين الطرفين في وضح النهار ، لم تستطع قوات الإمامة الوصول إلى داخل مسقط وإنما تعرضت قواتها إلى مجزرة رهيبة اضطر الإمام بعدها إلى التراجع بقواته نحو المرتفعات الداخلية دون أن يفكر في إعادة الكرة مرة أخرى[3] .

لذلك ، سنحاول في هذا البحث تسليط الضوء على الدور الذي لعبته بريطانيا لارغام الطرفين (الإمام والسلطان) على الجلوس إلى طاولة المفاوضات التي تمخضت عن اتفاقية السيب لعام ١٩٢٠م معتمدين في ذلك على الوثائق البريطانية فضلاً عن المصادر العربية والأجنبية الأخرى .

المحاولات البريطانية الأولى لعقد المفاوضات بين الإمام والسلطان

على أثر المعركة التي نشبت بين قوات الإمام والقوات البريطانية المرابطة في مسقط في عام ١٩١٥م تقدم اللورد هاردنج (Lord Harding) نائب الملكة في الهند لدى وصوله مسقط في نفس السنة - ضمن جولته التي خصصها لزيارة موانئ الخليج -

بتوجيه للسلطان العماني تيمور بن فيصل يدعوه فيها إلى التفاوض مع زعماء الإمامة في الداخل[٤] . كما طلب من الكولونيل بِن Benn الوكيل السياسي البريطاني في مسقط أن يكون وسيطا بين الجانبين وقد أوضح (الكولونيل بِن) لنائب الملك في الهند طبيعة الصراع بين الإمامة والسلطان والصعوبات الجمة التي تعترض الصلح بينهما ، إلا أن اللورد هاردنج ألح عليه بضرورة التوصل إلى اتفاق ينهي النزاع بينهما ، كما أقنع السلطان بذلك بعد ما توضح لهاردنج أن قوات الإمامة لا تزال قابضة على زمام الموقف[٥] .

والواقع أن بريطانيا سارعت لبذل جهودها في سبيل إيقاف الصراع بين الإمامة والسلطان خوفا من أنها قد لا تستطيع في المرة القادمة أن تمنع حكم السلطان من السقوط ، إن حاولت قوات الإمامة الكرة ثانية ، وذلك بسبب انشغال الإنجليز بظروف الحرب ، إضافة لخشية بريطانيا من تأثير دعوة الإمام الخروصي إلى الجهاد في المناطق الإسلامية كالهند وجزيرة العرب وشمال أفريقيا مما سيخلق مصاعب بالغة هناك ، فضلاً عن تعارض ذلك وما كان الإنجليز يفاوضون عليه الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز حول إعلان الجهاد المقدس ضد الدولة العثمانية[٦] .

ولقد جاء رد زعماء الإمامة للوكيل البريطاني سلبيا مفسرين موافقة السلطان على إجراء التفاوض معهم علامة ضعف وتوقعوا انهيار حكمه .

والحقيقة أن زعماء الإمامة بالرغم من أنهم أوقفوا عملياتهم العسكرية بعد خسارتهم في معركة مسقط ، إلا أنهم استمروا في صمودهم حيث أبقوا على سيطرتهم على الوادي سمائل الاستراتيجي والمدن العمانية التي سبق وأن اجتاحوها وخاصة مدن الداخل ، وكان ردهم السلبي على الوكيل البريطاني يعود لسبب ثان - غير الذي تقدم- وهو عدم ثقتهم بصدق النوايا البريطانية في الوساطة بسبب الموقف البريطاني الدائم والثابت مع السلطان طيلة فترة صراعهم معه ، لذلك لم تلق دعوة الوكيل البريطاني للتفاوض تجاوبا حارا من لدن زعماء الإمامة ولا سيما وأن الوكيل البريطاني قد أرفق مع دعوته لهم بالتفاوض شروطا يجري على ضوئها هذا التفاوض وهي كما يلي:

١- الاعتراف بشرعية حكم السلطان في عمان .

٢- عدم نقض المعاهدات التي عقدت بين عمان وبريطانيا .

٣- عدم المساس بمشروع إنشاء مخزن السلاح الذي يلغي تجارة السلاح في عمان[٧] .

وخلال فترة الاتصالات بين الوكيل البريطاني (بين) والسلطان تيمور من جهة ، وزعماء ثورة الإمامة من جهة أخرى ، حاول كل طرف استغلال أية فرصة لضرب الطرف الآخر وإجباره على التفاوض معه وفق الشروط التي يمليها . فقد حاول السلطان مثلا استمالة شيوخ السمائل لمساعدته في حالة هجومه على قلعة سمائل ، كما حاول إقصاء فلول قوات الإمامة بواسطة الهجوم الذي شنه في يوليه عام ١٩١٥ على قبيلة (بني بطاش) والتي لم تكن قد القت السلاح بعده .

كما تمكن ثوار الإمامة من الناحية الأخرى من الزحف على مدينة صور في أكتوبر عام ١٩١٥ وحاولوا خلق الاضطرابات وإثارة القلاقل فيها لزعزعة حكم السلطان .

إلا أن زعماء الإمامة في الداخل بعد إدراكهم لاستحالة القاء السلطان تيمور وقواته في البحر وتدارسهم لموقف الثورة المتصدع في الاجتماع الذي عقدوه فيما بينهم ، وجدوا من الحكمة أن يوافقوا على إجراء المفاوضات مع السلطان والتوصل معه إلى اتفاق[٨] .

وعلى ضوء ذلك ، بعث الشيخ عيسى بن صالح أحد زعماء الإمامة رسالة إلى الوكيل البريطاني تضمنتها موافقة الإمامة على التفاوض شريطة أن تدرس الحكومة البريطانية القضايا المختلف عليها بينهم وبين السلطان على أساس العدل ، مادامت بريطانيا قد قبلت لنفسها التوسط والاشراف على المفاوضات بين الجانبين[٩] .

اجتماع السيب الأول

وهكذا تم عقد أول اجتماع بين ممثل زعماء الإمامة الشيخ عيسى بن طالح والوكيل السياسي البريطاني (بين) نيابة عن السلطان تيمور وذلك في مدينة السيب التي تبعد عن العاصمة مسقط مسافة ٢٥ ميلا ، بتاريخ ١٥ سبتمبر عام ١٩١٥[١٠] .

وفي هذا الاجتماع طرح ممثل الإمامة شروط الثورة التي اعتبرها أساس التفاوض والصلح وهي :

١- إلغاء القيود المفروضة على تجارة السلاح ، إذ أن هناك قبائل تمتلك الكثير من الأسلحة .

٢- أن تكون الشريعة الإسلامية أساسا للحكم في عمان في الساحل والداخل ولا سيما فيما يتعلق بالقضايا الجنائية والمدنية ، وأن تكون العدالة أساس التعامل مع الجميع دون تفريق وتمييز .

٣- إلغاء الضرائب المفروضة على واردات وصادرات المقاطعات الداخلية في عمان .

٤- تحريم استيراد الخمور والتبوغ .

٥- أن يحل السلطان الجيش الجديد من العناصر الدخيلة ، وأن يطلق سراح المعتقلين ويسلم جميع اللاجئين لديه من المجرمين ، إذ تطبق عليهم العقوبات طبقا لقواعد الشرع[١١] .

٦- وأخيراً ، إذا تمت موافقة السلطات على جميع المطالب السابقة فإن زعماء الإمامة على استعداد للاعتراف به حاكما على عمان على أن يكون الإمام مسؤولاً عن السلطة التشريعية وفق أحكام الشريعة الإسلامية ، وأن يتولى بنفسه ممارستها في العاصمة مسقط أو عن طريقة ممثل له[١٢] .

ولقد رد ممثل السلطان على شروط الإمامة التي اعتبرها شروط تعجيزية ، فأجاب على بعضها في حين رفض البعض الآخر رفضاً قاطعاً إذ وعد السلطان بإمكانية النظر في إعفاء البضائع من الضرائب بينما تمسك بعدم تسليم بعض زعماء القبائل الذين تعاونوا معه خلال الاشتباكات مع قوات الإمامة باعتبارهم أدوا واجبهم في الحرب لصالح الحكم في عمان وأنهم ليسوا مجرمين .

كما أعلن عدم مسؤوليته عن التعامل في الخمور والتبوغ بذريعة أن رعاياه لا يقومون بذلك وإنما يفعله رعايا الدول الأجنبية حيث لا يمارس عليهم سلطات قضائية ، كما أكد ممثل السلطان خلال هذا الاجتماع طلب السلطان تيمور من الإمامة تحقيق أمرين هامين هما :

١- خضوع الإمام التام له ، وعندما يتأكد له ذلك ، ينظر بشأن تعيين ممثل عنه في داخلية عمان .

٢- الانسحاب الفوري من وادي سمائل وخضوعه لحكم السلطان لأهمية موقعه الاستراتيجي والتجاري لمدينة مسقط[١٣] .

وهكذا ، يبدو من الاجتماع الأول شدة التعارض بين مطالب الإمامة والسلطان ، إذ كان السلطان يتطلع إلى استعادة نفوذه في داخلية عمان ، بينما كانت الإمامة تسعى

إلى الابقاء على مراكزها التي احتلتها . وعندما لم يتوصل الطرفان إلى صيغة للاتفاق بينهما ، انتهى اجتماع السيب الأول بالفشل ، فانقطعت المفاوضات التي لم تتخذ خطوات باستئنافها حتى مارس من عام ١٩١٨م . وبذلك أصبح انقسام البلاد بين نظامين أمراً واقعاً : فنظام تحت سلطة الإمامة الاباضية في الداخل ، وآخر يخضع لحكم السلطان في الساحل ، ولم يحدث ما يغير هذا الواقع طوال سنين الحرب العالمية الأولى بالرغم من محاولة كل طرف اغتنام أية فرصة تدعم نظامه أو تزعزع النظام الآخر .

اجتماع السيب الثاني

ما إن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، وخرجت منها بريطانيا منتصرة حتى تفرغت إلى مشكلة الصراع القائم في عمان بين زعماء الإمامة والسلطان ، فشددت من لهجتها مع قادة الإمامة بغية إرغامهم على قبول مبدأ التفاوض والتوصل إلى صيغة اتفاق مع السلطان تيمور ، فبعث الماجور هيوارث (Haworth) القنصل البريطاني في مسقط ، رسالة شديدة اللهجة إلى زعماء الإمامة في مارس عام ١٩١٩ جاء فيها «أكتب لكم بالخصوص لاخبركم أن ارادتنا هي أن نساعد على تأليف حكومة في كل البلاد العربية لتحكم حسب عوائدها ، وحيث تخلص العرب من جور الاتراك فالرجاء وثيق أنهم سيتقدمون في أمورهم على الطريقة العربية الطيبة ، وبما أن الفرصة قد سنحت الآن لكي تلتفت إلى عمان فإنه من الواجب أن أشرح لكم سياستنا .. »

وبعد أن أوضح القنصل البريطاني أنه يريد التباحث مع قادة الإمامة بهدف إقرار السلام في عمان اخذ يهددهم ، بقوله : لو أردنا ضرركم لكان من السهل علينا أن نرسل إليكم من طائراتنا طائرة واحدة لا غير تحطم مدنكم وتخرب حصونكم ، ولدينا نصف مليون من العساكر المدربة على الحرب في العراق وقد فرغوا من أعمالهم العربية ولا حاجة لنا فيهم هناك وبضع آلاف منهم يكفون للاستيلاء على عمان قاطبة لو أردنا بكم سوءا ، كما هددهم اقتصاديا بحكم سيطرة الإنجليز على السواحل فقال لهم « إن الحاكم المتولي على السواحل لا يعجز عن فرض الخراج على ما يذهب إليكم ، وتعلمون كذلك أن زمام أمور الحرب في أيدينا فإن كنتم تريدون مناصبتنا العداء فلن نسمح أن يباع لكم الأرز أو القمح أو الاثواب ، ولن نبيح لكم بيع تموركم ، مع العلم بأن كل تجارتكم لا تجري إلا في بلادنا ولكن إذا كنتم مستحسنين صداقتنا فإننا سوف نقوم بمساعدتكم كما

نساعد الآن السيد تيمور ، لكن إن لم ترضوا أن تعاونونا فالعواقب الرخيمة ستحل بكم وليس بنا ، ومن المتعذر أن نكون أصدقاء لمن لا يريد صداقتنا[١٤] » .

وفي الأول من سبتمبر عام ١٩١٩ تقدم القنصل البريطاني في مسقط بدعوة رسمية إلى الإمام لاستئناف المفاوضات التي كانت قد توقفت .

وقد جاء رد الإمام عليها إيجابيا حيث حرص زعماء الإمامة من جانبهم على استئناف المفاوضات من جديد والتوصل إلى صيغة للسلام إذ كانوا هذه المرة أكثر تقديرا لحقيقة الموقف الذي ترتب على خروج بريطانيا منتصرة من الحرب ، وكذلك سيطرتها التامة على الساحل ، الأمر الذي يؤدي إلى تضييق الحصار على الإمامة إذ بوسع الإنجليز في هذه الحالة خنق داخلية عمان سياسيا واقتصاديا[١٥] .

وبموجب ذلك ، تم تحديد يوم الخامس عشر من سبتمبر عام ١٩١٩ موعدا لعقد الاجتماع ، الذي تم بالفعل عقده في الموعد المحدد له في مدينة السيب بين فريق الإمامة يمثله الشيخ عيسى بن صالح وبين فريق السلطان الذي مثله هيوارث القنصل البريطاني في مسقط[١٦] وقد تم خلال الاجتماع مناقشة الأمور التالية :

١- إزالة السلطان لجميع القيود المفروضة على دخول العمانيين إلى مدن الساحل ومن ضمنها العاصمة مسقط .

٢- تخفيض الضرائب الجمركية على البضائع القادمة من المدن الساحلية إلى الداخل بما لا يزيد عن ٥٪ من قيمتها .

٣- إعادة اللاجئين في مسقط إلى سلطات الإمامة .

٤- إطلاق سراح المعتقلين لدى سلطان مسقط .

وقد تعهدت الإمامة مقابل موافقة السلطان على هذه الأمور بعدم مهاجمة مقاطعات السلطنة أو التدخل في حكومته ، وكذلك التعهد بسلامة المسافرين وحرية التجارة واعادة الملتحقين من مسقط إليهم ، إلى جانب إعادة بساتين النخيل التي كانت قد سيطرت عليها قوات الإمامة في الداخل والتي تعود إلى اتباع السلطان[١٧] .

وفي نوفمبر عام ١٩١٩ وصل وينجت (Wingate) القنصل السياسي البريطاني الجديد إلى مسقط خلفا لهيوارث ، وقد واصل القنصل الجديد جهود زميله مع قادة الإمامة فتوصل إلى صيغة اتفاق يعتمد البنود التي نوقشت في اجتماع السيب الثاني الذي عقد في سبتمبر عام ١٩١٩ وقد أرسلها إلى الإمام الخروصي في مدينة نزوى

ليصادق عليها إلا أن الإمام الخروصي رفض ذلك .

ويعزي رفض الإمام المصادقة على صيغة الاتفاق الذي بعث به « وينجت » إلى تزعم شقيقه ناصر بن راشد والي الرستاق حركة المعارضة في إجراء أي صلح مع السلطان وكذلك إلى حصول بعض زعماء عمان في الداخل على مصالح خاصة نتيجة استيلائهم على بساتين كثيرة للنخيل خلال الهجمات التي قاموا بها [١٨] .

إلا أن القنصل البريطاني الجديد لم يستسلم بعد رفض الإمام ، بل استمر في جهوده الرامية إلى دعوة الإمام مجددا إلى التفاوض والتوصل إلى اتفاقية سلام ، غير أن هذه الجهود باءت بالفشل أيضاً ، ولم تسفر عن نتيجة تذكر مما حدا بالسلطان تيمور أن يتخذ جملة من الإجراءات الضاغطة على الإمامة بهدف تليين موقفها من المفاوضات، حيث فرض الحصار الاقتصادي على المناطق الداخلية إذ رفع من نسبة الضرائب الجمركية على منتوجات الداخل إلى ٥٠٪ [١٩] .

ويبدو أن هذا الإجراء جاء بمشورة من القنصل البريطاني (وينتجت) حيث علق عليه قائلا : « إذا أمكن جعل تصدير تمورهم (يعني تمور الإمامة في الداخل) أمراً مستحيلاً أو على الأقل باهظا جدا دون أن يستطيعوا الرد ، عندئذ يكونوا على استعداد للاجتماع والبحث في الشروط لايجاد تسوية مناسبة » [٢٠] .

كما اتخذت بريطانيا بعض الإجراءات التي تبرز قوتها أمام قادة الإمامة كظهور السفن الحربية الإنجليزية على الساحل العماني للتعبير عن تأييدها للسلطان واستعدادها لقمع الاضطرابات إن اندلعت ، كما قام السلطان تيمور خلال هذه الفترة بزيارة إلى الهند ، وكان لهذه الزيارة مغزاها السياسي فهي تعبر عن متانة العلاقة بين حكومة الهند البريطانية والسلطان .

اغتيال الإمام الخروصي وانتخاب الخليلي بدلا عنه

بالرغم من كل الإجراءات السابقة لم يتغير موقف الإمام من المفاوضات ، إلا أنه من الواضح أن تلك الإجراءات قد أدت إلى أن يصبح موقف السلطان ونفوذه مائلا نحو التصاعد بخلاف موقف الإمامة .

ومما زاد ضعف مركز الإمامة هو الوفاة المفاجئة للشيخ حمير بن ناصر النبهاني الذي كان من دعائم الإمامة في الجبل الاخضر ، ولم يقف التدهور في كيان الإمامة عند هذا الحد بل وصل ذروته عندما اغتيل الإمام سالم الخروصي في ٢١ يوليو ١٩٢٠ في بلدة الخضرة وقد مثل مصرع الإمام الخروصي تطورا خطيرا في الصراع القائم بين الإمامة والسلطنة[٢١] .

ويعزي سبب الاغتيال إلى أن الإمام كان قد أصدر أمره مطلع عام ١٩٢٠ باعدام أحد أفراد قبيلة آل وهيبة وهي قبيلة هناوية تعيش في المنطقة الشرقية عرفت بشجاعة رجالها وشدة مراسهم ، وقد استطاع ذلك الرجل الذي أصدر عليه الحكم بالتسلل عبر حرس الإمام ليتمكن من قتله ثم الهرب بعد ذلك[٢٢] . وهناك من يعزو السبب في اغتيال الإمام إلى الحالة العامة التي وصلت إليها القبائل العمانية في الداخل نتيجة الحصار الاقتصادي وتصرفات بعض قادة الإمامة ولاسيما أخو الإمام الذي اتسمت بالانفرادية واللامبالاة بالمصلحة العامة مما جعل التذمر يسود صفوفه أفراد القبائل فكان الاغتيال تعبيرا عن هذا التذمر والاستياء .

ومهما تكن الاسباب التي تقف وراء اغتيال الإمام الخروصي فإن داخلية عمان أصبحت بدون قائد وبدأت الفوضى على أشدها ، وقد تحول ولاء بعض زعماء القبائل نحو السلطان ، كما لجأ البعض الآخر فعلا نحو السلطنة خوفا على حياتهم ، وقد انتهز السلطان الفرصة فأراد أن يعيد سيطرته على الداخل إلا أن الحكومة البريطانية منعته من ذلك .

لقد سعى قادة الإمامة إلى تدارك الموقف المفاجئ والحيلولة دون انهيار نظام الإمامة وعدم إعطاء الفرصة للسلطان لاستعادة سيطرته على داخلية عمان فبادروا إلى انتخاب محمد بن عبد الله الخليلي إماما جديدا لعمان ، وقد لعب عيسى بن صالح دورا في ذلك ، كما يرجع الفضل في انتخابه إلى زعماء قبائل الحرث وبنو ريام .

ينتمي الخليلي إلى قبيلة (بنو راحة) الهنادية ، وهو حفيد أحد أبرز الزعماء المشهورين (الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي) الذي كان الرأس المدبر لإمامة عزان بن قيس (١٨٦٨ - ١٨٧١م)[٢٣] .

ويعتبر انتخاب الخليلي تحولا في موقف الإمامة نحو قبول مبدأ المفاوضات مع السلطان والتي كان يرفضها الإمام الراحل ، وقد شعرت بريطانيا بالارتياح لدى انتخاب

الإمام الجديد لأن الخليلي وصهره عيسى بن صالح يمثلان الجناح الأقل تصلبا ضمن التشكيل القيادي للإمامة ، لذلك أسرعت بريطانيا في انتهاز الفرصة فأوعزت لوكيلها السياسي بضرورة الاسراع واستغلال الظروف الجديدة لتجديد الوساطة بين الطرفين .

نصوص الاتفاقية

استؤنفت المفاوضات بين ممثلي الإمامة والقنصل البريطاني ممثلا عن حكومة السلطان ، وتم عقد الاجتماع في مدينة السيب في الفترة الواقعة بين ٢٣ - ٢٥ سبتمبر عام ١٩٢٠م[٢٤] . وقد حضر عن الإمامة الشيخ عيسى بن صالح الذي أقر كما أقر الشيوخ الآخرون الذين حضروا الاجتماع بأنه مؤهل بكامل الصلاحيات بصفة ممثلا عن الإمام ، وقد حضر الاجتماع القنصل البريطاني في مسقط « وينجت » ممثلا عن السلطان تيمور .

ومن الجدير بالذكر أن المصادر تذكر بأن الاجتماع حضره ممثلو الإمامة والسلطان تحت وساطة الإنجليز إلا أننا لم نجد من مثل السلطان في هذا الاجتماع سوى القنصل البريطاني نفسه كما لم تذيل الاتفاقية بتوقيع السلطان أو من ينوب عنه سوى توقيع القنصل البريطاني فضلا عن ممثلي الإمامة ، وعليه ، فالحقيقة تفرض علينا القول بأن المفاوضات منذ اجتماع السيب الأول ولغاية إبرام الاتفاقية كانت تتم بين طرفين أحدهما ممثل عن الإمامة والثاني القنصل البريطاني في مسقط وليس هناك سواهما[٢٥] .

لقد طرح ممثلو الإمامة في بداية الاجتماع مطالبهم التالية :

١- الاعتراف باستقلال المقاطعات الداخلية لعمان .

٢- أن لا تزيد قيمة الضرائب التي يفرضها السلطان على البضائع القادمة من الداخل أو الواردة إليه عن ٥٪ .

٣- حرية التنقل للعمانيين في مقاطعات الساحل .

٤- أن يعيد السلطان اللاجئين عنده إلى داخلية عمان .

٥- أن لا تساعد بريطانيا أعداءهم وعدم تجاوزها عقيدتهم .

٦- أن يدفع السلطان رواتب لزعماء القبائل .

وفي مقابل هذه الشروط تعهدت الإمامة من خلال قادتها بعدم مهاجمتهم لمقاطعات

الساحل ، وأن يسمحوا بحرية التجارة والسفر إلى داخلية عمان .

وبعد أن أجرى « وينجت » حواراً مباشراً مع قادة الإمامة حول مطالبهم الآنفة الذكر حيث وافق على البعض ورفض البعض الآخر ، توصل الطرفان في النهاية إلى اتفاق للصلح يتضمن ثمانية بنود .

أما البنود الأربعة التي هي في صالح الإمامة فكما يلي :

١- تخفيض الرسوم الجمركية على البضائع القادمة إلى مدن الساحل إلى ٥٪ .
٢- ضمان سلامة العمانيين وحرية تنقلاتهم في المدن الساحلية .
٣- إزالة جميع القيود على تحركات العمانيين في موانئ مسقط ومطرح .
٤- إعادة اللاجئين في مسقط إلى داخلية عمان وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للإمامة .

أما البنود الاربعة التي هي في صالح السلطان فكانت كالآتي :

١- أن يتعهد قادة الإمامة بعدم مهاجمة المدن الساحلية ولا يتدخلون في شؤون الحكم للسلطان .
٢- يتمتع أهالي مسقط والمشتغلون بالتجارة بالحرية والأمان في مقاطعات عمان الداخلية .
٣- عدم حماية اللاجئين في مسقط وتسليمهم إلى حكومة السلطان .
٤- أن تسوى المطالب الخاصة بالسلطان ضد التجار العمانيين وفقا لاحكام الشريعة الإسلامية[٢٦] .

وعندما انتقل الطرفان لتحرير الاتفاقية حدثت بعض العراقيل بينهما إلا أن القنصل البريطاني « وينجت » استطاع ببراعته الدبلوماسية التغلب عليها ومنها مثلا طلب الشيخ عيسى بن صالح أن تكتب الوثيقة على أنها صلح بين السلطان من جهة وبين إمام المسلمين من جهة أخرى فاعترض « وينجت » على ذلك ولما أصر زعماء الإمامة على طلبهم تمكن « وينجت » من أن يقنعهم من خلال روايته لما حدث بين النبي محمد صلى الله عليه وسلم وسكان مكة قبل عام من فتحها في صلح الحديبية حيث وصف النبي صلى الله عليه وسلم نفسه بأنه محمد رسول الله لكن زعماء مكة اعترضوا على ذلك لأنه إذا نص على أنه رسول من الله فليس هناك ما يستوجب عقد الصلح معه وقد أدرى النبي صلى الله عليه وسلم هذا المنطق فاكتفى بذكر محمد بن عبد الله ،

وبذلك استطاع القنصل البريطاني تجاوز هذه العقبة فحذف اسم الإمام من وثيقة السيب واقتصرت على أنها اتفاقية بين السلطان من جهة وعيسى بن صالح ممثلا عن القبائل العمانية في الداخل من جهة أخرى .

يلمس من بنود الاتفاقية مدى الضغط البريطاني على الجانبين ولا سيما جانب الإمامة التي تخلت عن شرط كانت تعده أساسياً وحيوياً منذ أن طرحت مطالبها أول مرة الا وهو الغاء تجارة السلاح الذي سبق وأن أعطته الأولوية في اجراء أية مباحثات مع السلطان إلى درجة أن فضلته على المطلب السياسي (الاطاحة بحكم السلطان) والذي لم يعد هو الآخر له وجود في بنود الاتفاقية ، الأمر الذي مكن الحكومة العمانية من أن تلتزم بقرارات مؤتمر مرور الاسلحة الذي كان لايزال منعقدا في بروكسل منذ عام ١٩١٩ [٢٧] .

وعلى أية حال ، فقد تم التوقيع على الاتفاقية بتاريخ ٢٥ سبتمبر عام ١٩٢٠ من جانب الشيخ عيسى بن صالح ومجموعة من شيوخ القبائل من جهة والقنصل البريطاني في مسقط « وينجت » من جهة أخرى ، كما تم التصديق عليها من قبل الإمام الخليلي بعد ذلك . واعتبرت نافذة المفعول منذ ذلك التاريخ [٢٨] .

ردود الفعل حول الاتفاقية

رحبت الحكومة البريطانية بهذه الاتفاقية كما شعر السلطان تيمور بادئ الأمر بالارتياح إذ اعتبرها بداية لعهد مستقر لحكومته ونهاية للتهديدات والغزوات التي كان يتعرض لها من داخلية عمان .

ومع ذلك ، فقد ظلت اتفاقية السيب لعام ١٩٢٠ تثير جدلا قويا بين السلطان وزعماء الإمامة ، ويرجع السبب في ذلك إلى كون بنود الاتفاقية تسمح بتعدد التفسيرات كما أن اختفاء النص الرسمي الذي يمكن الاعتماد عليه في هذا الجدل أو النقاش حولها ، فقد تعمد السلطان والحكومة البريطانية عدم نشر الاتفاقية [٢٩] . كما عجزت الإمامة عن إظهار النص بدعوى فقدهم له في إحدى الغارات التي تعرضت لها إمامة عمان من قبل حكومة السلطان بعد ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن نص اتفاقية السيب لم تنشر إلا بعد أن نشب القتال بين

الإمامة والسلطان عام ١٩٥٧ وقد نشرتها لأول مرة صحيفة التايمز Times في عددها الصادر في ١٢ أغسطس ١٩٥٧ . إن محور الجدل والنقاش الذي أثير حول الاتفاقية كان يتركز بالأساس على طبيعة الاتفاقية هل هي بين دولتين منفصلتين أم كونها اتفاقية بين حاكم دولة وإحدى المقاطعات التابعة له ، وبعبارة أخرى ، إن طبيعة العلاقة بين السلطان وزعماء الإمامة لم تحدد بشكل واضح ، وأن الفقرة الرئيسية التي تحدد طبيعة العلاقة بينهما كانت غامضة فهي لم تذكر لنا كون العلاقة بين دولتين منفصلتين أم علاقة تبعية ، لذلك استغل كل جانب غموض هذه الفقرة وفسرها لصالحه في جميع الاحداث التي وقعت عقب اتفاقية السيب عام ١٩٢٠ .

فقادة الإمامة الاباضية في الداخل ادعوا أنهم قد وقعوا الاتفاقية باعتبارهم ممثلين عن الإمام وأن الإمام نفسه صادق على هذه الاتفاقية في ٢٨ سبتمبر ١٩٢٠ وأن الاتفاقية كانت تحمل خمسة عشر توقيعا لزعماء القبائل المؤيدة للإمامة[٣٠] . فيما ادعى السلطان تؤيده في ذلك الحكومة البريطانية - أن الاتفاقية لم يرد فيها اسم الإمام وإنما هي صلح بين حكومة السلطان تيمور والشيخ عيسى بن صالح عن أهالي عمان ، كما لا يوجد فيها أية مصادقة من قبل الإمام شخصيا .

ولم يقتصر اختلاف الرأي حول الاتفاقية على السلطان والإمامة وإنما تعداه إلى كثير من الكتاب والرحالة والموظفين الذين زاروا أو عملوا في مسقط ، فقد أشار إليها إيكلز Eccles قائد قوات مسقط والخبير بشؤون السلطنة « ثمة معاهدة وقعت من خلال وساطة القنصل البريطاني ومنذ ذلك الوقت لم يحصل أي عدوان على السلطنة ، وقد تم التوصل إلى هذه المعاهدة وكانت اعترافا عمليا باستقلال الداخل »[٣١] .

أما بوترام توماس Bertram Thomas الذي شغل منصب وزير ومستشار مالي للسلطان من الفترة ١٩٢٥ - ١٩٣٠ فكتب حول الاتفاقية قائلا : « أمكن التوصل إلى تسوية تقوم على الحالة الراهنة وبمقتضاها ظل السلطان سلطانا من الوجهة القانونية على مسقط وعمان ، ونصت التسوية على أن تكون لقبائل الداخل حكومة من بينهم تعتمد على أساس الأمر الواقع لتدبير شؤونهم المحلية البحتة »[٣٢] . كما قال ولفرد ثيجر Wilfred Thesiger الرحالة البريطاني - الذي تجول في عمان كثيرا - عن الاتفاقية « بأنها وقعت عام ١٩٢٠ بين السلطان والعمانيين ، وافق السلطان بمقتضاها على ألا يتدخل في الشؤون الداخلية للإمامة »[٣٣] .

فيما بين وندل فيليبس Wenell Philps وجهة نظره في الاتفاقية معرفا إياها بكونها على غرار الاتفاقيات التي كان يعقدها السلطان العثماني مع مجموعة من الرعايا التابعين له في أجزاء أخرى من الأراضي الخاضعة لسيادته ، وأنه بمقتضى هذه الاتفاقية سمح للقبائل بقدر محدد من الحكم الذاتي في المسائل المحلية البحتة ، بيد أن هذه الاتفاقية لم تتضمن أي الغاء لسيادة السلطان[٣٤] كما علق الكاتب الامريكي لاندن Landen على الاتفاقية بقوله :

« إن معاهدة السيب اتفاقية يحيط بها الغموض من نواح عديدة : فهذه المعاهدة على سبيل المثال لا تحدد بشكل دقيق طبيعة حقوق السيادة الخاصة بالسلطان ، كما أن استقلال الإمامة عن السلطنة غير واضح تماما في المعاهدة ، ومجمل القول أن كلا الطرفين المتعاقدين يعترف فيما يبدو بالاستقلال الذاتي للطرف الآخر ضمن حدود كل دولة منها وإن كانا قد تحاشيا النص بشكل صريح ومحدد على موضوع السيادة[٣٥]

أما الصحفي الإنجليزي جيمس موريس Moris فأكد بأن اتفاقية السيب نصت على سيادة السلطان في عمان[٣٦] .

وهكذا اختلف الكثيرون في تفسير اتفاقية السيب : فمنهم من اعتبرها اعترافا من جانب السلطان بحكم الإمامة في الداخل ، ومنهم من اعتبر الاتفاقية على أنها تنظيم داخلي بين السلطان والقبائل التابعة له .

وقد احتدم النقاش والجدل حول الاتفاقية بعد وفاة الإمام الخليلي عام ١٩٥٤ وإلغاء السلطان سعيد بن تيمور الاتفاقية من جانب واحد[٣٧] مبررا ذلك بقوله أن الاتفاقية كانت بين والده السلطان تيمور والإمام الخليلي وهي بذلك لا تربط خلفاء السلطان تيمور بأي حال من الأحوال ، كما اعتبر الاتفاقية بأنها خطأ سياسي من قبل والده الراحل وأنه لا يعترف بها ويعتبرها اتفاقية مؤقتة وشخصية من جانب والده وزعماء بعض القبائل في عمان ، وأنه لا يعقل منطقيا أن يعقد السلطان معاهدة بينه وبين رعاياه الأمر الذي دعا الإمامة إلى أن تنتخب لها إماما جديدا وترفع قضيتها إلى المحفلين العربي والدولي لمناقشتها خاصة بعد أن اجتاحت قوات السلطان بمؤازرة القوات البريطانية مقاطعاتها الداخلية عام ١٩٥٧ فوصل الجدل ذروته حول الاتفاقية في أروقة الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من هذا القرن ، فقد عرض الإمام الجديد قضيته لأول مرة على هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٥٧

وكانت بعض الدول العربية تؤيد موقف الإمامة باعتبارها دولة مستقلة قد حافظت على استقلالها على مر العصور ، ولذلك دعمت طلب الإمامة في عقد جلسة طارئة لمجلس الأمن الدولي لمناقشة الاعتداء المسلح ضد استقلال وسيادة الإمامة في عمان .

وبالفعل تم بحث قضية الإمامة في هيئة الأمم المتحدة ، وكان الاساس في النقاش يدور حول اتفاقية السيب لعام ١٩٢٠ التي ظهر حولها رأيان متناقضان الأول مثلته الإمامة مؤيدة من قبل بعض الدول العربية التي أكدت بأن معاهدة السيب صحيحة وشرعية وأن طرفيها دولتان تتصفان بالسيادة ، والرأي الثاني أوضحه مندوب بريطانيا في هيئة الأمم المتحدة والذي يقضي بأن عمان ومسقط يمثلان دولة واحدة لا دولتين وأن معاهدة السيب ليست معاهدة بالمعنى المقرر في العرف الدولي ، وإنما هي اتفاقية تم عقدها بين حكومة السلطان وبعض رؤساء القبائل التي تتضمنها دولته[٣٨] .

ولقد احتج السلطان وبريطانيا على بحث الموضوع ضمن هيئة الأمم المتحدة لكون هذا العمل يعد تدخلا في شؤون دولة مستقلة ذات سيادة ، وطالبا برفض القضية لأن مناقشتها سيؤدي إلى إيجاد سابقة خطيرة .

ومهما تكن الآراء بشأن اتفاقية السيب لعام ١٩٢٠ ، فهي قد قسمت عمان عمليا إلى نظامين للحكم بالرغم من أن الإشارة إلى ذلك لم تكن واضحة وصريحة .

وقد عبّرت الإمامة عن ذلك بشكل واضح عندما استمرت بتعيين الولاة والقضاة وجمع الزكاة ، بل تطور الأمر كثيرا في السنوات الأخيرة لحكم الإمام الخليلي عندما أصبح يصدر جوازات سفر لرعاياه معترف بها من قبل بعض الدول العربية[٣٩] بيد أن الجانبين (السلطان والإمامة) طمعا في إلغاء الاتفاقية منذ منتصف الخمسينيات وذلك بهدف السيطرة على جميع أرجاء عمان ، فالسلطان سعيد بن تيمور أراد انتهاز فرصة وفاة الإمام الخليلي عام ١٩٥٤ لينقض الاتفاقية من جانبه ويعيد سيطرته على كامل التراب العماني . وتطلع الإمام الجديد في نفس الوقت إلى حكم عمان جميعها مستندا في ذلك إلى الحق التاريخي للإمامة في حكم البلاد عبر العصور .

وخلاصة القول أن بريطانيا بذلت قصارى جهودها بغية عقد اتفاقية السيب عام ١٩٢٠ انطلاقا من سياستها المعروفة في المنطقة والتي ترتكز على مبدأ (فرق تسد) فهي قد قسمت عمان وفق هذه الاتفاقية إلى نظامين للحكم أحدهما في الساحل يقوده السلطان وآخر في الداخل بزعامة الإمام ، فهي لم تسمح لقوات الإمامة باسقاط حكم

السلطان كما لم تمكن السلطان من القضاء على الإمامة لكي يبقى حكمه في حالة تهديد مستمر الأمر الذي يجعله في حاجة دائمة إلى مساعداتها وبذلك تحفظ مصالحها في عمان التي تقع على الطريق المؤدي إلى أهم مستعمراتها في الهند .

الهوامش

(١) F.O, 371, 2416, Political Agent, Mus Cat, to the Cecretary of the Covernment of India, Dated, 7th, Jan, 1915.

(٢) لاندن ، رويرت جيران ، عمان منذ ١٨٥٦ مسيرا ومصيرا ، ترجمة من أمين عبد الله ، الطبعة الثالثة ، عمان ، ١٩٨٣ ، ص ٤٦٢ .

(٣) فيليبس ، وندل ، تاريخ عمان ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، عمان ، ١٩٨١، ص ١٦٨ .

(٤) الداود ، محمود علي ، أحاديث عن الخليج العربي ، الطبعة الثانية ، بغداد ، بدون تاريخ ، ص ٤٢ .

(٥) قاسم ، جمال زكريا ، بريطانيا والخليج العربي في الحرب العالمية الأولى ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٣ ، السنة الأولى ، الكويت ، ١٩٧٥، ص ٩٥ .

(٦) قاسم ، جمال زكريا ، الخليج العربي - دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٩١٤ - ١٩٤٥). الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٣٩٧ .

(٧) F.O. 371, Muscat, 2416, B- 398, The Rebellion Against Sultan of Muscat, 1913-1919.

(٨) لاندن ، المصدر السابق ، ص ٤٦٣ .

(٩) I.O, Poilitical Report to Pol, Res, 9 Mars, 1917.

(١٠) F.O, 371, 2416, Muscat, Sultan's Negotiations with Oman dated, 15 Sept, 1915.

(١١) F.O, 371, 2416, Transtation of Apetition Presented by Sheikh Isa Bin Saleh, Reprertative of the Iman Salim Bin Rashid Alkharouasi to the Political Agent Muscat at Sib, 15, Sept, 1915.

(١٢) المشهداني ، خليل إبراهيم صالح ، التطورات السياسية في عمان وعلاقاتها الخارجية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص ٩٢ .

(١٣) Arabian Boundaries, Primary Documents, 1953-1957. Vol, 19, Sultanate of Muscat and Oman , London, 1988, p.52.

(١٤) أخذت فقرات هذه الرسالة من مكتب أمانة عمان بالقاهرة عام ١٩٦٥ نقلا عن قاسم ، جمال زكريا ، الخليج العربي ١٤ - ١٩٤٥ - المصدر السابق ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(١٥) لاندن ، المصدر السابق ، ص ٤٧٠ .

(١٦) I.O, 3796/19, Tel 14648, From Viceroy to Secretary of State, Dated 22, Oct, 1919.

(١٧) F.O, 371, 6248, Events from Colonel Benn's First Meeting With the Oman Ckieke In 1915.
Till Major Haworth's Meeting With the Same in Sept, 1919.

(١٨) قاسم ، الخليج العربي ، ١٩١٤ - ١٩٤٥ . المصدر السابق ، ص ٤١١ .

(١٩) Peterson, J.E., Oman in the Twentieth Century, London, 1978, p.174.

(٢٠) المشهداني ، المصدر السابق ، ص ١٠١ .

(٢١) لاندن ، المصدر السابق ، ص ٤٧٠ .

(٢٢) فيليبس ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٢٣) عبيدلي ، أحمد ، الإمام عزان بن قيس ، جوانب من التاريخ العربي الإسلامي في ظل الهيمنة الاوروبية ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٨٤ .

(٢٤) I.O, Covernment of India, Dep, 37, Dated 31 Mars, 1921.

(٢٥) F.O, 371, Report on Negotiations Through Political Officer Between Sultan & Interior Tribes of Oman, 6247, E 95/95/91.

(٢٦) Arabian Boundaries, Vol, 19, Op. Cit. P:35.

(٢٧) Aitchishon, C.U. Acollection of Treaties, Engagement and Sands Relating to India and Neighbouring Countries, Vol. XI, Delhi, P:319.

(٢٨) Arabian Boudaries, Sultanate of Muscat and Oman, Vol:19, P:53.

(٢٩) العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٢٤٣ .

(٣٠) F.O. 371, 2648, Wingate to Deputy Residentn Dated. 14th October , 1920.

(٣١) المشهداني ، المصدر السابق ، ص ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣٢) Thomas, Bertram, Arabe Rule Under the Albu Said Dynasty of Oman 17th, 1937, London, 1938, P.25.

(٣٣) Thesiger, Wilfred, Arabian Sands, NewYork, 1959, P.255.

(٣٤) فيليبس ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(٣٥) لاندن ، المصدر السابق ، ص ٤٧١ .

(٣٦) قاسم ، جمال زكريا ، الاصول التاريخية لقضية عمان ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني عشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٨٣ .

(٣٧) الداود ، محمود علي ، التطور السياسي الحديث لقضية عمان ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٤٥.

(٣٨) الجلسة الثالثة للجنة السياسية الخاصة والتابعة لهيئة الأمم المتحدة والتي عقدت بتاريخ ١٩٦٢/١١/٢١ .

(٣٩) العقاد ، المصدر السابق ، ص ٢٨١ .

دراسة استعمالات الأراضي للحواف الشاطئية لشبه جزيرة قطر

أ٠د٠ إسماعيل عبد العزيز عامر
د٠ علي إبراهيم الشيب
قسم الجغرافيا - جامعة قطر

مقدمــة :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾
صدق الله العظيم « الآية ١٦٣ سورة البقرة »

لقد أعطانا الله طبيعة خلابة من بحار ، وأنهار ويابس نعيش عليه ، عملت وتعمل الأبحاث جاهدة لمعرفة كيفية استغلال المسطحات المائية كبحار وأنهار كما تعمل أيضاً للكشف عن الطاقات الكامنة والموارد الموجودة على اليابس ، لكن مازالت هناك مناطق لم تستغل الاستغلال الأمثل أو ينتفع بها ألا وهي الحواف الشاطئية WATER-FRONT ZONES والتي تقع بين البحار ، الأنهار واليابس حيث أن لكل من المسطحات المائية خواص وفوائد وطرق معاملة ومعالجة واستغلال يختلف عن اليابس .

لذلك فخطوط التلاقي وهي مناطق الحواف الشاطئية تتطلب دراسة ومعالجة خاصة للوصول إلى أنسب استعمال لها وذلك للعمل على الرفع من مستوى المحتوى البيئي وتحقق الاستغلال الأمثل للمواقع مع الحفاظ في نفس الوقت على التوازن الأيكولوجي ! كذا التعرف على أفضل أساليب استغلال موارد الموقع تفادياً لاستنفاذها ، بجانب العائد الاقتصادي والاجتماعي من خلق أنشطة وفرص عمل للسكان من خلال الاستعمالات

المناسبة لأراضي تلك المواقع .

تسعى الدول جاهدة للعمل على تنمية مواردها الطبيعية والاقتصادية وفق مخططات مدروسة للوصول إلى معدلات تنمية عالية وسريعة ، هذا لا يتأتى إلا بمعرفة استغلال هذه الموارد الاستغلال الأمثل ، ومن الصعب الوصول لذلك دون التعرف وتحديد للطاقات الكامنة والموارد الحالية على المستوى القومي حتى يمكن تحديد الإمكانيات المختلفة للاستغلال والاستعمالات المثلى للمناطق المختلفة .

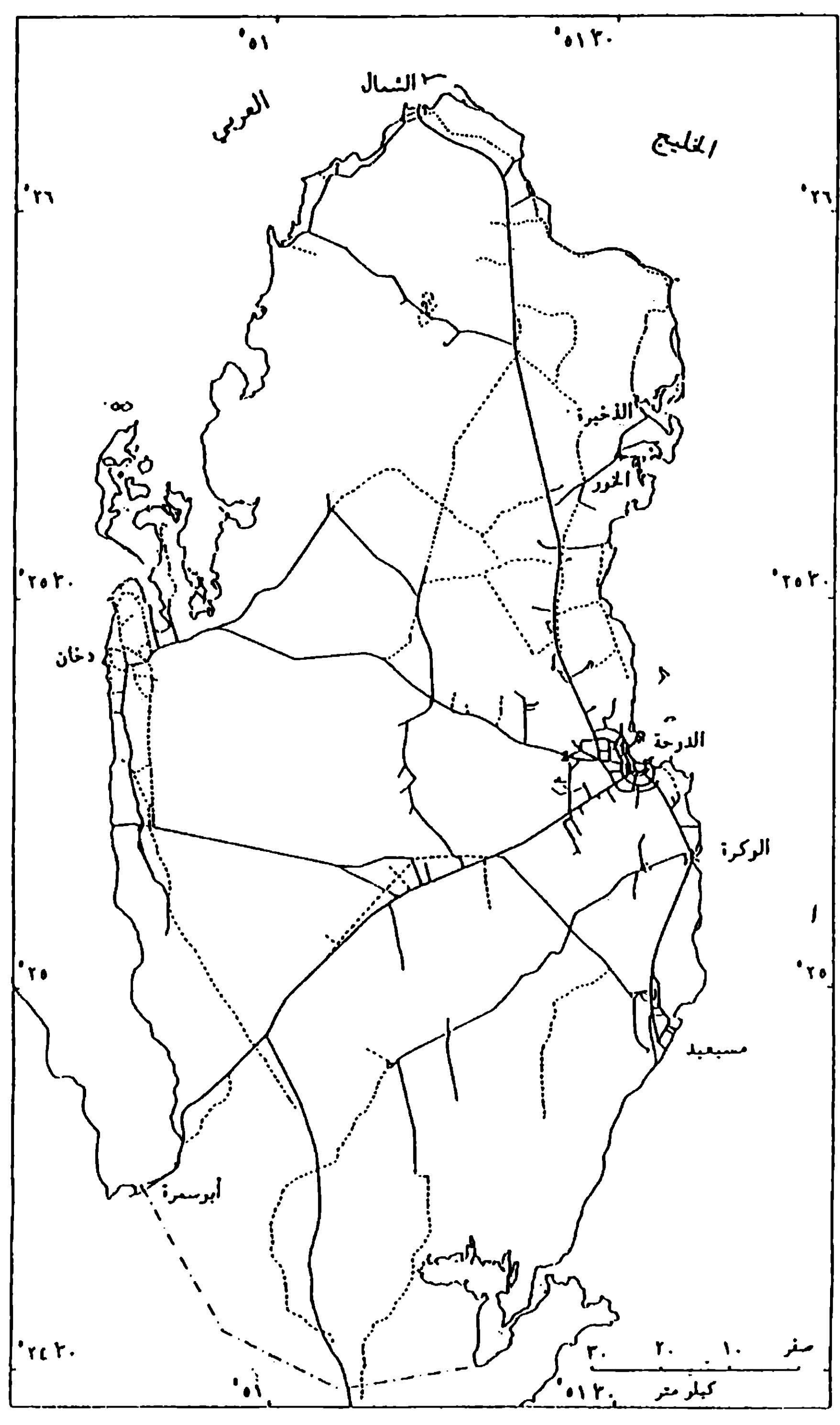
وعلى الرغم من التطور الصناعي والتقدم التكنولوجي الذي يعمل على سهولة إمكانيات الكشف عن الموارد سواء طبيعية أو اجتماعية أو اقتصادية في أغلب دول العالم الثالث فان نسبة كبيرة من هذه الموارد مازالت غير معروفة أو غير مستغلة أو لم تصل لحد الاستغلال الأمثل .

هذا البحث عبارة عن دراسة لمناطق الحواف الشاطئية لشبه جزيرة قطر ، حيث أنها محاطة بالبحار من ثلاث جهات وتصل أطوال السواحل إلى ما يقرب من ٦١٠ كم طولي[١] ، وهذه السواحل قد استخدمت أجزاء منها على مر العصور استخدامات مختلفة ومتنوعة وحدثت فيها تغييرات طبيعية واجتماعية واقتصادية وسياسية إلى أن وصلت للوضع الحالي . كما نهتم الدراسة أيضاً بدراسة وتحليل للإمكانات المختلفة للاستغلال الأمثل مع الأخذ في الاعتبار لكافة العوامل والمخططات المستقبلية . (شكل ١) .

الهدف من البحث :

أهداف البحث الرئيسية تتلخص في :

- دراسة لمناطق الحواف الشاطئية لدولة قطر من تطور وتغيير مرفولوجي كذا العوامل المؤثرة عليها والاستعمالات الحالية لها مستغلة كانت أو غير مستغلة .
- تحليل للوضع الحالي مع التعرض للخطط المستقبلية والأنشطة المختلفة سواء زراعية - صناعية أو سياحية مع الأخذ في الاعتبار لتوزيع السكان بالدولة .
- وضع البدائل للحلول المقترحة لأنسب استعمالات لمناطق الحواف الشاطئية .
- الخلاصة والتوصيات .



(شكل ١) دولة قطر

الجزء الأول : دراسة مناطق الحواف الشاطئية لشبه جزيرة قطر :

١- تعاريف للحواف الشاطئية :

الحواف الشاطئية هي خطوط تلاقي المسطحات المائية ، سواء كانت بحار أو أنهار أو بحيرات ، مع اليابس ، فهي خطوط لها مناطق تابعة من الجهتين البحار واليابس وتلك المناطق ذات ظواهر وخواص متعددة .

هذه المناطق إما أن تكون مناطق يمكن استغلالها طبيعياً من :

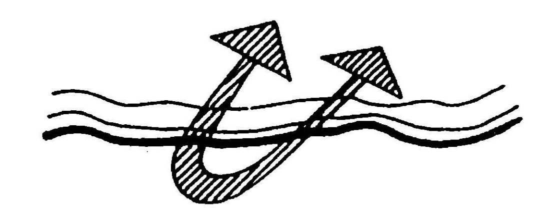
اليابس ⟵ سهول - وديان - مناطق منبسطة - رمال - جبال وتلال . .

البحار ⟵ مياه صافية - مياه عميقة - مناطق صخور وفشوت خلجان . أو أن تكون من الصعب استغلالها نظراً : لطبيعته الوعرة وغير الممكن استخدامها كالمناطق الجبلية - مناطق الحواف الصخرية - سبخات أو مستوى اليابس مرتفع عن منسوب مياه البحر . (الشكل ٢ ، ٣ ، ٤) .

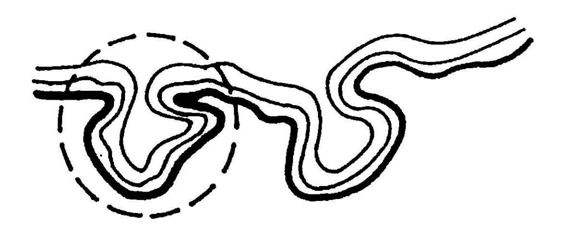
أحياناً يكون لظهير تلك المناطق تأثير على الاستعمالات بها . والمقصود بالظهير هي المناطق التي تقع خلف المناطق الشاطئية وبعمق اليابس مثل مناطق وديان أو أراضي زراعية . لذلك ظهرت استعمالات مختلفة لمناطق الحواف الشاطئية التي يسهل استغلالها فمنها ما هو بين التجمعات الساحلية مثل : سياحة - ترفيه - صيد - دفاع - زراعة - طرق - صناعة - مواني (في حالة ما إذا كان عمق المياه يسمح بذلك) .

أما المناطق داخل التجمعات الساحلية ففي نطاق نفوذها ظهرت الاستعمالات مثل : الترفيهية - التجارية - السكنية - الاجتماعية والثقافية ، كذا الاستعمالات التاريخية والأثرية (مثل القلاع والحصون) وفي معظم الأحوال تظهر استعمالات متداخلة مع بعضها البعض .

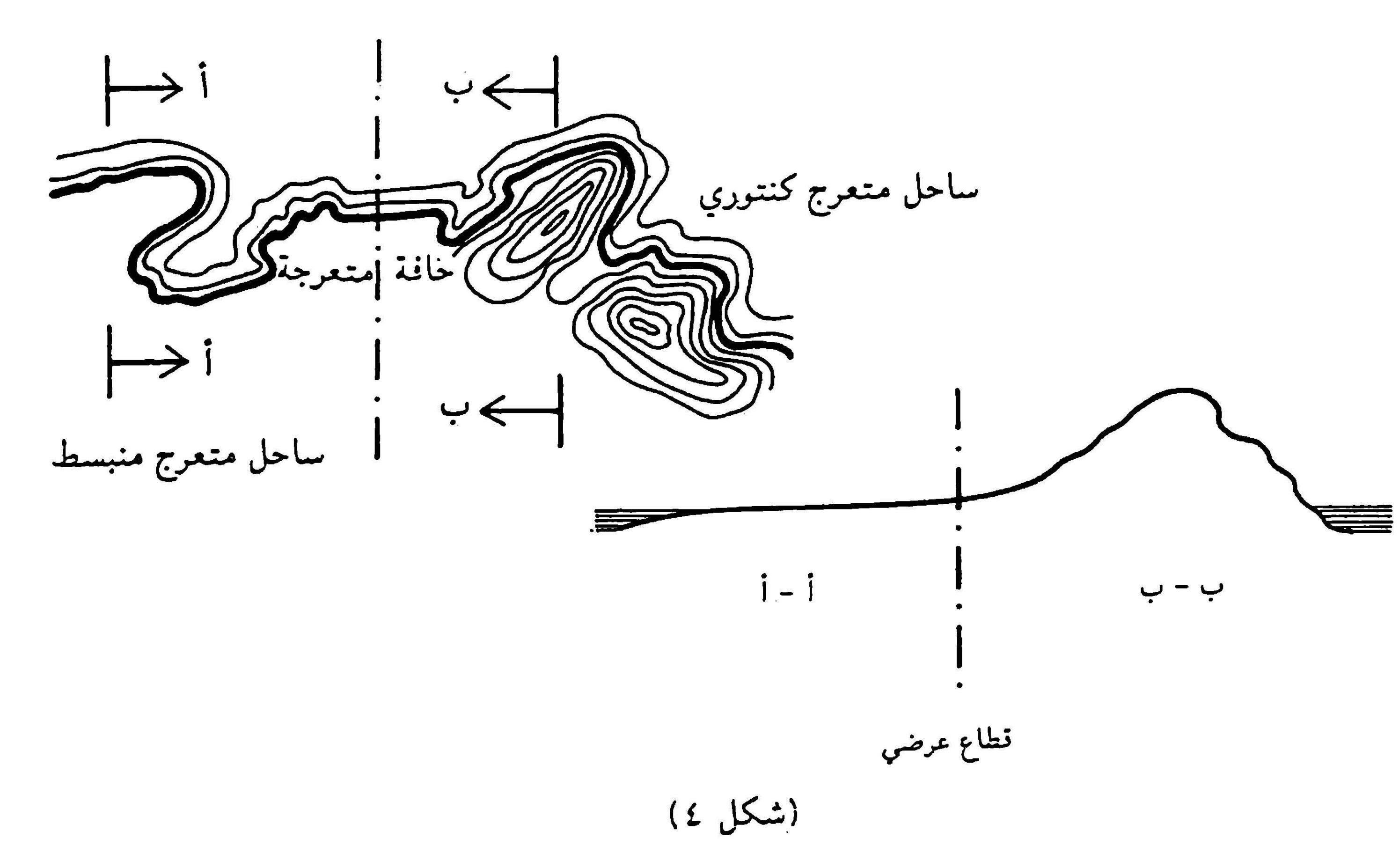
لذلك فقد تعددت الاستعمالات لأراضي هذه المناطق ويتوقف ذلك على العوامل المؤثرة سواء طبيعية - اجتماعية - اقتصادية - سياسية وإدارية .



(شكل ٢)   حافة مفتوحة



(شكل ٣)   حافة لها خلجان ذات خصوصية



ساحل متعرج كنتوري
خافة متعرجة
أ
أ
ب
ب
ساحل متعرج منبسط
أ - أ
ب - ب
قطاع عرضي

(شكل ٤)

٢- العوامل المؤثرة على استعمالات الأراضي بمناطق الحواف الشاطئية :

كما سبق الذكر فالعوامل متعددة منها :

١/٢ عوامل طبيعية :

هناك عوامل طبيعية أثرت على الاستعمالات لمناطق الحواف الشاطئية لشبه جزيرة قطر منها :

١/١/٢ جغرافية المكان :

للموقع الجغرافي أهمية خاصة للتعرف على احتمالات التغيير التي تؤثر على قيمته الفعلية فالموقع يعمل على تأكيد صفات معينة بالنسبة للبيئة . ففي بعض الأحيان تكتسب البيئة الطبيعية بعضاً من صفاتها من شكل السطح - التضاريس ومن المناخ السائد وكذا كل المؤهلات التي تسمح بنشاط بشري .

هناك علاقة بين موقع التجمعات الحضرية كمراكز ثقل حضاري واقتصادي بالدولة وبين المسطحات المائية للبحار والتي من خلالها تتجسد حركة التجارة الدولية والإقليمية حيث أن تحديد هذه العلاقة يؤدي إلى إدراك لبعض احتمالات التغيير التي قد تؤثر على طبيعة هذه العلاقات والتي تؤثر تأثيراً مباشراً على الموقع الجغرافي للتجمع وقيمته الفعلية .

فهناك ظروف معينة قد تطرأ على هذه العلاقة المكانية مما يترتب عليه إما زيادة في قيمته أو يفقد قدر كبير من أهميته . فزيادة القيمة الفعلية أو تدهورها لها تأثير مباشر أو غير مباشر على الموقع الجغرافي وأهميته كتأثيره على دور الإنسان وعلى نشاطه بهذا الموقع .

فمواقع التجمعات العمرانية على البحار تتاح لها فرص تحديد ملامح شخصية هذا التجمع وتكسبه صفات وخصائص من واقع هذه الأبعاد المحددة وينعكس آثارها على نشاط السكان الذين عاشوا ويعيشون بهذا التجمع .

وبالنسبة لدولة قطر ونظراً لكونها شبه جزيرة تتوسط الخليج العربي فأغلب تجمعاتها الحضرية تقع على الشواطئ وتكتسب وظائف نابعة من البيئة والذي ساعد

على ذلك أيضاً سهولة سطح دولة قطر فهي مستوية تقريباً عدا جزء من الساحل الغربي حيث توجد فيه بعض التلال علاوة على المنخفضات في وسط شبه الجزيرة .

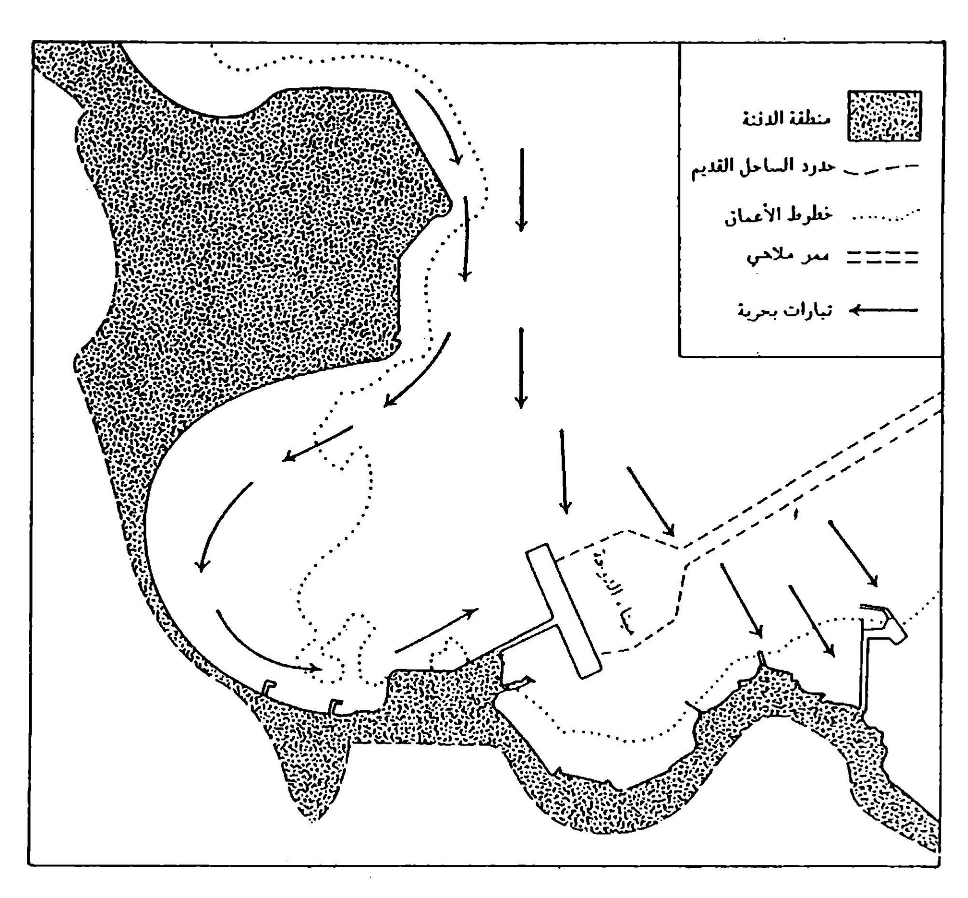
٢/١/٢ مرفولوجية المكان :

لقد كانت ولاتزال سواحل دولة قطر من الأماكن المفضلة لسكن الإنسان القطري وخاصة في مناطق الدوحات والأخوار . وكما سبق الذكر تحظى شبه جزيرة قطر بسواحل تبلغ أطوالها « ٦١٠ كم طولي » (٢٨٥ كم الساحل الغربي - ٣٢٥ كم الساحل الشرقي) .

تتخذ السواحل إتجاهاً طولياً شماليا - جنوبيا يتفق مع محور القوى التي شكلت الحركات التكتونية الرافعة والضاغطة ، وكذلك محصلة الرياح الشمالية الغربية السائدة على مدار السنة وما ينتج عنها من حركة مياه البحر كالأمواج والتيارات البحرية .

السواحل الشرقية والشمالية تشرف على مياه الخليج العربي التي تتميز باتساعها وعمقها النسبي (يتراوح العمق ما بين ١ - ٣٥ متراً) في حين يطل الساحل الغربي على مياه مقعر سلوى الضحل . كان لكل هذه العوامل أثرها في عمليات النحت والنقل والإرساب وتجديد المياه وتشكيل الظواهر الجيومورفولوجية الساحلية . ويتميز ساحل شبه جزيرة قطر بزيادة معدل الترسيب في كثير من الأماكن كذا ارتفاع درجة حرارة المياه وارتفاع نسبة ملوحتها ، وقد تم تنفيذ بعض المشاريع العمرانية وتعديل للسواحل والشواطئ وذلك عن طريق ردمها مثل مشروع الخليج الغربي في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات حيث ردمت بعض الأجزاء الساحلية الضحلة المجاورة لساحل الدوحة والتي استغلت لمنطقة سكنية كالحي الدبلوماسي وسكن كبار الموظفين وإنشاء بعض الجزر الصناعية .

وإلى الجنوب من المنطقة المدفونة يقع ميناء الدوحة والذي يعاني في الأصل من ضحالة المياه وترسيب كميات كبيرة من الرمال في قاع القناة الملاحية بنقل التيارات البحرية (شكل ٥) .



(شكل ٥) منطقة الدفنة

٣/١/٢ الأمواج - التيارات البحرية - المد والجزر :

هناك عوامل طبيعية مؤثرة على شكل وتلوث وترسيب السواحل لشبه جزيرة قطر فمنها :

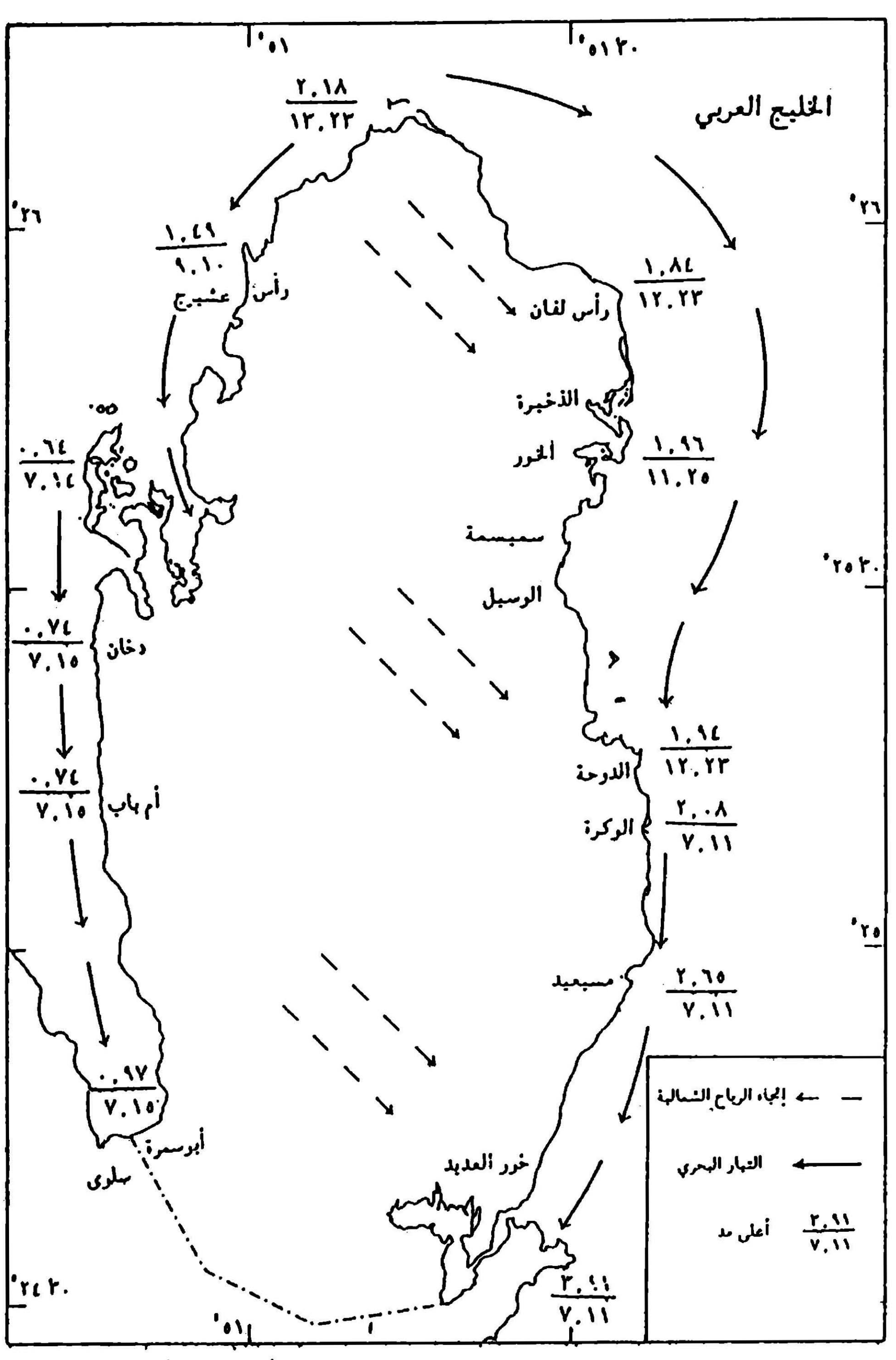
١/٣/١/٢ الأمواج :

تعتبر الرياح عاملاً رئيسياً ومؤثراً على الأمواج ، فهناك ارتباط كبير من ناحية القوة والاتجاه . فالرياح السائدة لشبه الجزيرة هي الرياح الشمالية والشمالية الغربية بصفة عامة ، لذلك فإن الأمواج تكون لها نفس اتجاه التيارات البحرية وهي بهذا تكون موازية لسواحل شبه الجزيرة القطرية على مدار السنة إلا عند هبوب الرياح في اتجاهات أخرى ، ولايزيد ارتفاع هذه الأمواج عن مترين ، وإن كانت تصل إلى ستة أمتار قرب الشواطئ المفتوحة عندما تهب رياح شمالية غربية قوية .

٢/٣/١/٢ التيارات البحرية :

من العوامل الهامة والمؤثرة بشكل كبير جداً في نقل الملوثات المختلفة وتغيير وترسيب للساحل القطري هي التيارات البحرية ، حيث تبدأ بالدخول للخليج العربي من مضيق هرمز . هذا التيار يسير بقوة ٣ عقد/ ساعة ، وفي عكس إتجاه عقارب الساعة موازياً للسواحل الإيرانية متجهاً نحو رأس الخليج العربي ، حيث يغير إتجاهه ويعود موازياً للسواحل العربية ويخرج من مضيقه قرب شبه جزيرة مسندم .

وتعتبر هذه التيارات هي المسؤولة عن تجديد الخصائص الطبيعية والكيميائية لمياه الخليج العربي . وخلال رحلة هذا التيار من رأس الخليج نحو رأس مسندم يمر بسواحل شبه جزيرة قطر وقد لوحظ أنه عند اقترابه من الجزء الشمالي لشبه الجزيرة يتفرع إلى فرعين أحدهما يسير موازياً للساحل الشرقي بينما الآخر يمر بالساحل الغربي للبلاد . (الشكل رقم ٦) .



(شكل ٦) مسار التيار البحري وإتجاه الرياح السائدة ومقدار أعلى مد سُجل سنة ١٩٨٧م.

المصدر : د. عاشور ١٩٩١م

٣/٣/١/٢ المد والجزر :

المد والجزر لا يقل أهميتهما عن التيارات البحرية والأمواج فهي تسير موازية للمحور الطولي للخليج بوجه عام . وكما هو معروف أنها تيارات يومية ثنائية تصل في المتوسط إلى ٢ر٩١ متر على الساحل الشرقي وإلى ١ر٤٩ متر على الساحل الغربي[٢] .

ونظراً لانخفاض السواحل لشبه جزيرة قطر فإن مياه المد تغمر مساحات شاسعة قرب السواحل مؤدية بذلك إلى تكوين السبخات الساحلية من خلال قنوات المد التي تتوغل في اليابس لمسافات كبيرة .

كل هذه العوامل من أمواج وتيارات بحرية ومد وجزر لها تأثير مباشر على استعمالات الأراضي لمناطق الحواف الشاطئية حيث يصعب استغلال مناطق السبخات كذا الترسبات وما تحدثه من تغيير في شكل وعمق الشواطئ .

٤/١/٢ تصنيف السواحل لشبه جزيرة قطر :

تنقسم السواحل لشبه جزيرة قطر لعدة أنواع نظراً للظروف المؤثرة عليها ومنها :

- انخفاض المنطقة الساحلية - وهذا الانخفاض البسيط أدى لظهور ظاهرات كالحواجز الرملية والوفرة أيضاً في الرواسب .
- العمليات البحرية وتأثيرها المباشر على المنطقة الساحلية (أمواج - رياح - درجة حرارة البحر ... إلخ) .
- التيارات البحرية المجاورة للساحل القطري وتأثيرها في نقل الرواسب والملوثات وتغيير في شكل الساحل ؛ ويمكن تصنيف الساحل على النحو التالي :(جدول ١) (شكل رقم ٧) .

١/٤/١/٢ سواحل الكثبان الرملية والغطاءات الرملية الهوائية :

وتتضمن أهم أنواعها : الكثبان الرملية .

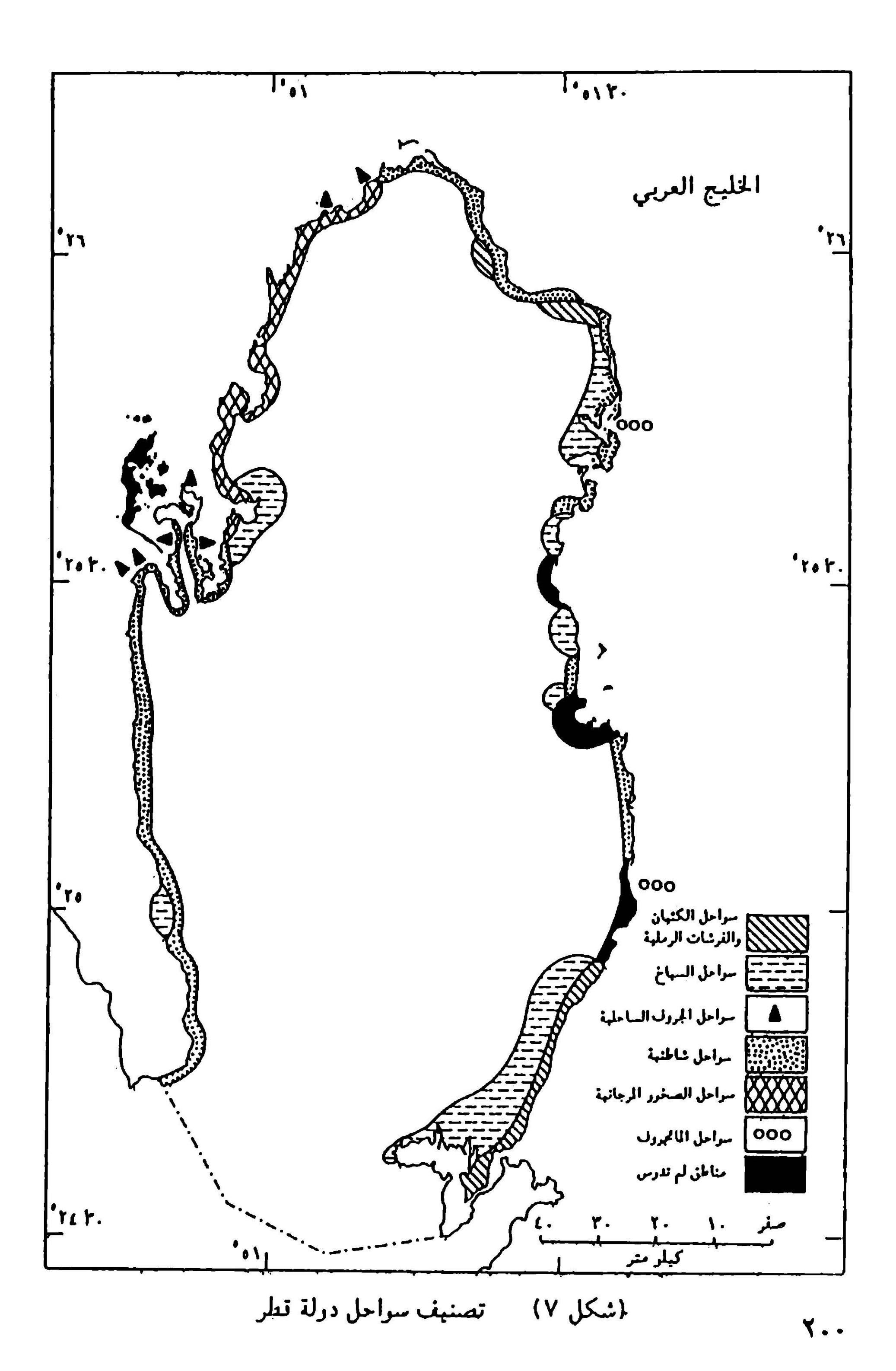
وتغطي الكثبان الرملية أكثر من ١٥٪ من المساحة الكلية لدولة قطر ، وتعتبر منطقة الجنوب الشرقي هي أكثر المناطق تركزاً لهذه التجمعات الرملية حيث يبلغ أقصى

امتداد لها على طول الساحل الجنوبي الشرقي ٦٠ كم أما بالنسبة لارتفاعها فيتراوح من ٨٠ سم إلى ٤٠ متر .

جدول تصنيف الساحل القطري[٣]

النوع	الموقع	الخاصية
سواحل الكثبان ، والغطاءات الرملية	الجنوب الشرقي (كثبان رملية) فرشات رملية الشرق ، الشمال الشرقي والغربي	كثبان رملية نشطة وغطاءات رملية متقدمة إلى الساحل ، أهم أنواعها الكثبان الهلالية والمعقدة على هيئة
سواحل السباخ	الساحل الشرقي ، الجنوبي الشرقي الغربي	قنوات نشطة على الساحل الغربي والشرقي ، مسطحات ملحية كبيرة المساحة
سواحل الجروف الساحلية	الساحل الغربي ، الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي	جدوف نشطة ، وميتة يظهر تأثير التعرية البحرية عند إقدامها ، ذات ارتفاعات مختلفة .
سواحل الشعاب المرجانية	الساحل الشمالي ، الشمال الغربي، الشمال الشرقي والغربي	امتدادها ٢ كم من الساحل . تظهر أثناء الجزر
سواحل الشواطئ الرملية	الساحل الشرقي ، الشمال الشرقي، الغربي والجنوب الغربي	على هيئة : شواطئ ، خطاطيف بحرية وحواجز رملية
سواحل تجمعات المانجروف	الساحل الشمالي الشرقي ، الشمال الجنوب الشرقي	أهم أنواعها : Avicennia Marina ارتفاعها يصل إلى ١ - ٣ أمتار تتجمع في الأماكن المحمية كالاخوار والخلجان
التداخلات الساحلية	الساحل الشرقي والغربي	منها البسيط والمركب الذي يتكون من عدة أحجام مائية .

وتتحرك هذه الكثبان من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي تحت تأثير الرياح الشمالية والشمالية الغربية . أما الغطاءات الرملية الهوائية فهي تتركز في شمال شرق وشمال غرب البلاد .



(شكل ٧) تصنيف سواحل دولة قطر

٢/٤/١/٢ سواحل السباخ :

السباخ الساحلية عبارة عن بقاع مستوية رطبة تغطي حوالي ٧٪ من سطح دولة قطر ، حيث تنتشر على طول الساحل القطري وخاصة في مناطق التداخلات الساحلية ومن أهم العوامل على نشوء هذه السباخ هو تدني السطح في بعض المناطق إلى درجة تسمح لمياه المد بالطغيان عليها فهي ضيقة عندما تقترب الجروف الساحلية وواسعة في حالة ابتعاد هذه الجروف عنها .

وتتركز سواحل السباخ على الشاحل الشرقي أكثر منه على الساحل الغربي ويرجع هذا إلى انبساط الساحل في الجهات الشرقية كما أنها تتعرض لعمليات ارساب أكثر من الجزء الغربي . (شكل رقم ٨)

٣/٤/١/٢ سواحل الجروف الساحلية :

الجروف الساحلية تنقسم إلى :

- جروف نشطة (قريبة من الساحل) - جروف ميتة (متراجعة صوب اليابس) .

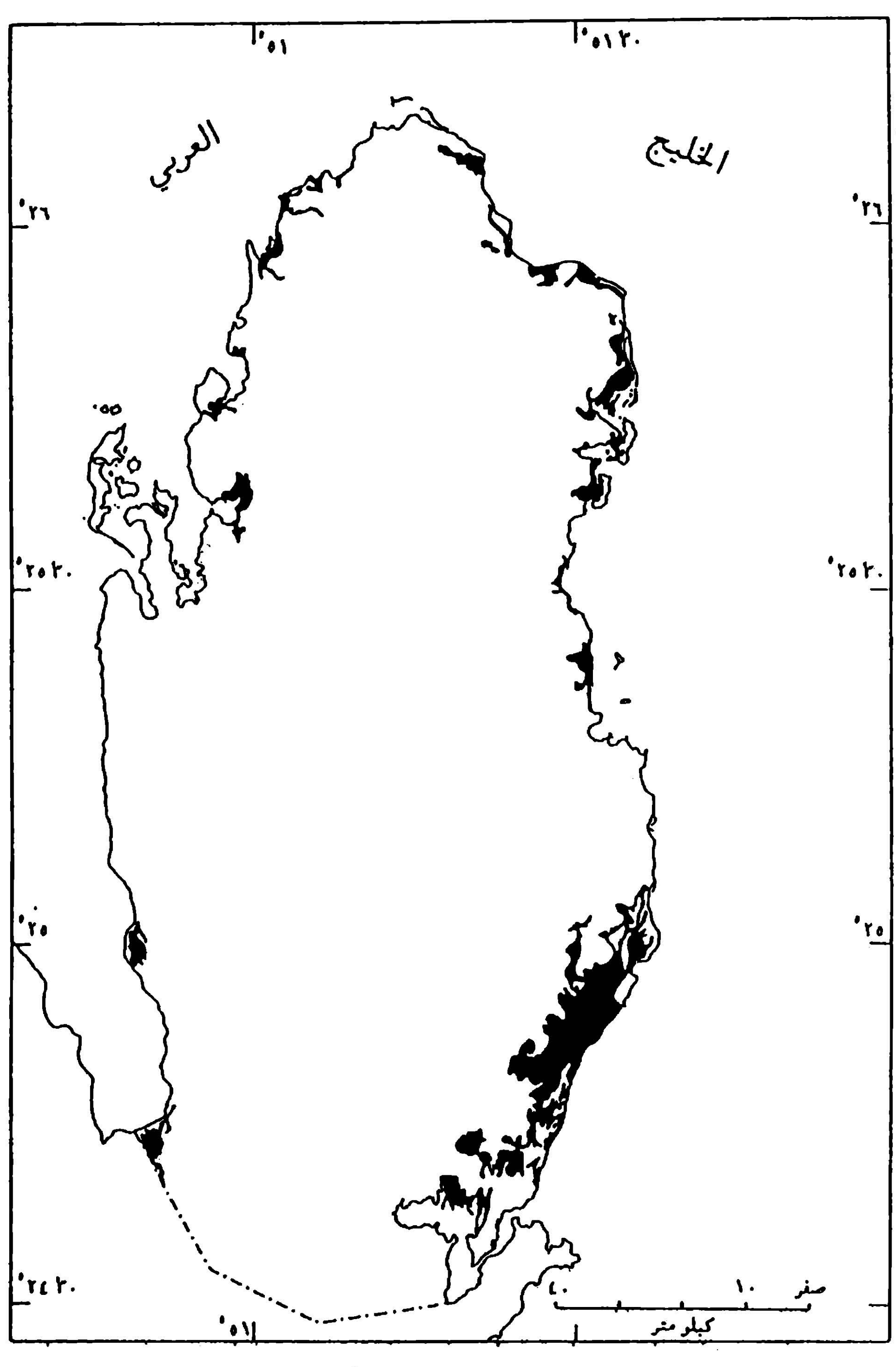
الجروف تنتشر حول السواحل القطرية في مناطق متفرقة منها ما هو على خط الساحل وأخرى متراجعة ، وهي من الظواهر التي توضح عملية النحت البحري بفضل الأمواج ، وذلك نتيجة اصطدامها بصخور الساحل وبفضل العمليات الكيميائية .

٤/٤/١/٢ سواحل الشعاب المرجانية (الفشوت) :

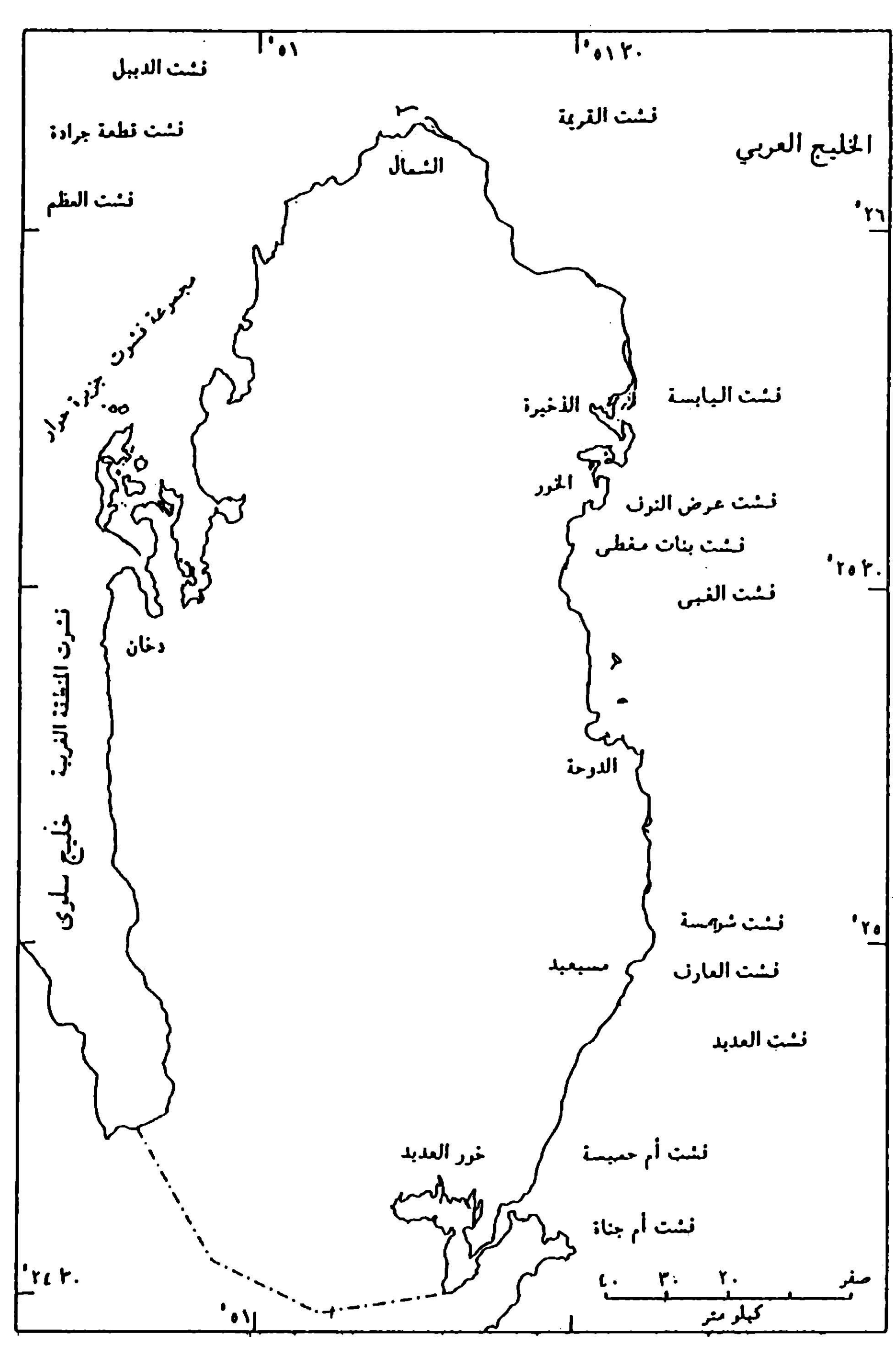
هي عبارة عن امتداد بحري تحت الماء تتراوح أعماقها حول السواحل القطرية من ٢- ٤ متر وتبرز أحياناً على هيئة كتل صخرية عالية تشبه الجزر وتكون طافية فوق سطح البحر أثناء وقت الجزر أما التوزيع الجغرافي للشعاب المرجانية البعيدة والقريبة من الساحل فهي كالآتي :

- اقليم خور العديد (الساحل الجنوبي)
- الساحل الجنوبي الشرقي والشرقي
- الساحل الشمالي الشرقي
- الساحل الشمالي
- الساحل الغربي
- الساحل الجنوبي الغربي

انظر (شكل رقم ٩)



(شكل ٨)   السباخ الساحلية حول شبه جزيرة قطر



(شكل ٩) توزيع الفشوت في دولة قطر

٥/٤/١/٢ سواحل الشواطئ الرملية :

وتغطي الشواطئ الرملية معظم سواحل دولة قطر وتأخذ أشكالاً عديدة كالألسنة والخطاطيف البحرية والحواجز الرملية والشواطئ الرملية والحصوية - تمتد الألسنة حول سواحل شبه جزيرة قطر وخاصة الساحل الشرقي .

ويمكن ملاحظة انتشار الألسنة على الساحل الشمالي والشرقي أكثر منه على الساحل الغربي ويرجع ذلك إلى أن الرياح الشمالية والشمالية الغربية التي تعمل على إيجاد تيار شمالي جنوبي حيث تلائم ظروفها عمليات الارساب بواسطة الأمواج والتيارات البحرية والحواجز الرملية من مظاهر الارساب على السواحل القطرية وتتكون الحواجز من رواسب رملية ترجع نشأتها إلى تكسر الأمواج بعيداً عن خط الساحل مما يؤدي إلى إرساب حمولتها على هيئة حافات ما تثبت أن ترتفع موازية للشاطئ ، وقد تصل في بعض المناطق فتمنع مياه البحر الوصول على خط الساحل في المنطقة وبالتالي تتكون بحيرة تبدأ في الاضمحلال نتيجة لارتفاع قاعها بواسطة الرواسب التي تلقى بها ، وتعرف هذه البحيرات بالبحيرات الساحلية .

٦/٤/١/٢ سواحل المانجروف « القرم » :

وتنمو هذه النباتات المانجروف لعدة عوامل طبيعية منها :

- منطقة محمية من التيارات البحرية والامواج القوية (داخل الخلجان والبحيرات الساحلية) .
- كميات وافرة من الرواسب الدقيقة وخاصة الطبيعية .
- مصدر للمياه العذبة .
- ينمو المانجروف في بيئة تتراوح نسبة ملوحتها بين ٣ - ٥ر٣٪ من الأملاح الذائبة ، حيث تعمل حركة المد والجزر بالمحافظة على نسبة الملوحة القريبة من نسبة ملوحة مياه البحر ؛ بينما تعمل الجداول والأخوار الصغيرة المتشبعة على تصريف جزء كبير من ماء البحر أثناء موجات الجزر ويقتصر نمو هذه النباتات على ضفاف الأخوار الصغيرة الممتدة داخلها والتي تسمح بتجدد الماء في التربة خلال عمليات المد والجزر .

تبلغ أطوال تجمعات نبات القرم (المانجروف) على الساحل القطري من ٣٠ سم إلى ٣ متر ، وذلك حسب وجودها بالقرب من اليابس أو الساحل وتقع في منطقة خور الذخيرة والساحل الشمالي والساحل الجنوبي الشرقي لمنطقة مسيعيد لوجود مصادر مياه عذبة من المصانع القريبة .

تعاني نباتات المانجروف من التدهور الناتج عن الآثار المترتبة على ازدياد الأنشطة البشرية المختلفة ومنها :

- توسع مدينة الذخيرة وامتدادها العمراني تجاه منطقة نباتات المانجروف وما يتبع ذلك من تدخلات في البيئة الساحلية .
- الرعي الجائر وخاصة من الجمال السائبة بالمنطقة .
- الاستخدام الترويحي غير المخطط (عشوائي) .
- التعرض للتلوث . (شكل رقم ١٠)

٧/٤/١/٢ التداخلات الساحلية :

من بين الأشكال المميزة على الساحل القطري والتي تغطي الساحل صبغة التداخل (تداخل اليابس مع الماء) مما يضفي على الساحل صبغة الجمال .

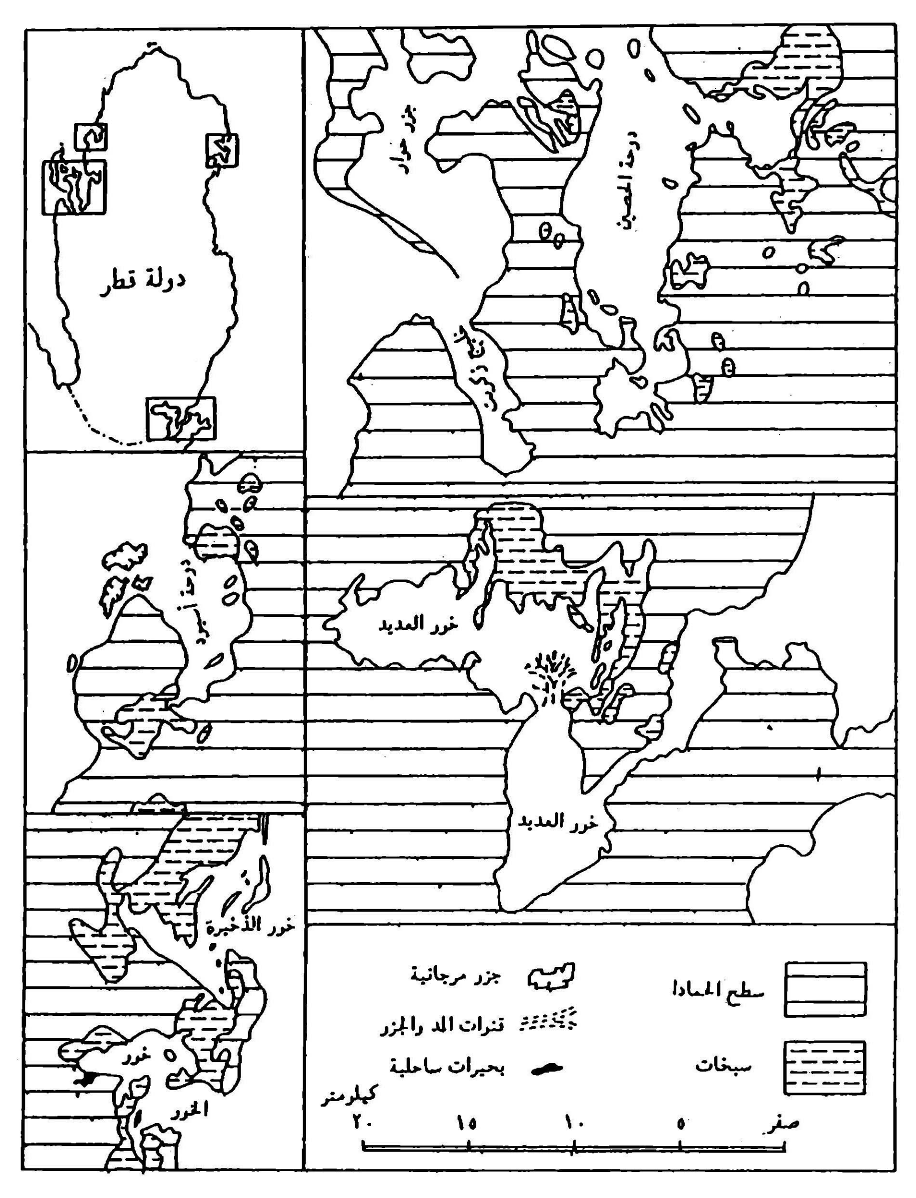
لذلك يمكن تقسيم الخلجان على الساحل الشرقي والغربي لشبه جزيرة قطر إلى الخلجان المركبة والخلجان البسيطة .

المركبة ويمثلها : خور العديد - خور الذخيرة على الساحل الشرقي ، دوحه أسيود - دوحة أم الماء - دوحة الحصين - خليج زكريت دوحة بين رحال ، على الساحل الغربي .

البسيطة وتتصل بالخليج العربي مباشرة ومنها ما هو مركب يتكون من عدة أجسام مائية صغيرة ويعتبر خور العديد أكبر الخلجان حيث يغطي مساحة تزيد عن ١٢٠ كم٢ وينقسم إلى : البحيرة الشمالية - البحرية الجنوبية - قناة خور العديد .

وترجع نشأة هذه التداخلات الساحلية لعدة عوامل بعضها تكتوني والآخر خارجي الأصل . (شكل رقم ١١) .

(شكل ١٠) الأشكال المورفولوجية حول خور الذخيرة



(شكل ١١) التداخلات الساحلية في دولة قطر

٥/١/٢ موارد طبيعية :

بالنسبة للموارد الطبيعية فهي إما موارد أرضية (اليابس) أو موارد بحرية (الماء) ، ففي دولة قطر تندر الموارد الأرضية من معادن وخلافه اللهم عدا البترول والغاز الطبيعي وهو مستغل ومحدد في مناطق معينة آخرها مشروع الغاز الطبيعي وتسييله بمنطقة رأس لفان .

أما بالنسبة للموارد المائية فتحتوى مياه البحار وغيرها من المسطحات المائية على ثروات طبيعية هائلة يمكن استغلالها في أغراض شتى (بالماضي كان اللؤلؤ هو أحد مصادر الدخل القومي ...) .

فالبحار بمثابة مخازن ضخمة للغذاء وللمواد الخام التي تحتاجها الصناعة - كما تكمن في التيارات البحرية وحركات المد والجزر طاقة حركة هائلة ومازال في مياه البحار ثروات معدنية لم تستغل على نطاق واسع بعد(٤) .

هذا بالإضافة إلى أن مياه البحار تعتبر مستودع هائل يستمد منها الهواء حاجته من الرطوبة اللازمة لنمو البيئة النباتية كذا الحرارة وتنظيمها على سطح الأرض . هذا كله بجانب الاستفادة من المياه كطرق رئيسية للنقل البحري واستغلال مناطق الحواف الشاطئية لأغراض الترفيه والسياحة بجانب الموانئ ومرافق الصيد والتجارة .

٦/١/٢ المناطق الحضرية :

ينتشر العمران في شبه جزيرة قطر على شكل عدد من التجمعات العمرانية سواء مدن كانت أو قرى أو عزب وتختلف فيما بينها من حيث الموقع والحجم والوظيفة والشكل ، وكذا ظروف النشأة (سيتم التركيز على التجمعات العمرانية الساحلية) .

كان السكان ولايزالون يقطنون السواحل نظراً لأن المسطحات المائية كانت لهم بمثابة مصدر الرزق بجانب أنها كانت أقل حرارة من داخل شبه الجزيرة لكن الظروف السياسية والاقتصادية ، وكذا الطفرة التي مرت بها المنطقة أثر كبير في ظهور التجمعات بصورة أخرى حيث تعرض السكان إلى أخطار الغارات وهجمات من البحر خاصة من الجهة الغربية مما أدى إلى تحصين مواقع التجمعات وبناء القلاع الحصينة ، وكذلك كان من

الأسباب الرئيسية في انتقال مقر الحكم وأغلب التجمعات من الجهة الغربية إلى السواحل الشرقية . (شكل ١٢ ، ١٣) .

امتداد الساحل كان من أقوى عناصر الجذب للتجمعات العمرانية حيث نجد أن عدد من كبريات هذه التجمعات تقع مباشرة على الساحل لارتباط وظيفة السكان بدرجة أساسية بالبحر (صيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ والتجارة والنقل البحري) ، مدينة الدوحة - الوكرة - مسيعيد - الخور .

ساعدت الدوحات والخلجان وأعماق المياه في بعض المناطق على وجود التجمعات العمرانية ، فلقد تم اختيار العديد من مواقعها على الرؤوس المتعمقة للأخوار باعتبارها خطوط دفاعية طبيعية لحمايتها .

وقد أخذت أغلب التجمعات العمرانية الساحلية إشكالاً منها :

أ - الشكل الطولي (شكل ١٤) .

ب - الشكل الإشعاعي (شكل ١٥) .

- الشكل الطولي هو الممتد على طول عصب رئيسي ممثل في الشارع الرئيسي للتجمع أو موازي للساحل وغالباً ما تأخذ الكتلة العمرانية - هذا الشكل الطولي والامتداد يكون على طول الطرق وبذلك يكون الاستعمال الغالب للحواف الشاطئية هو الاستعمال السكني بجانب النشاط القائم على الصيد .

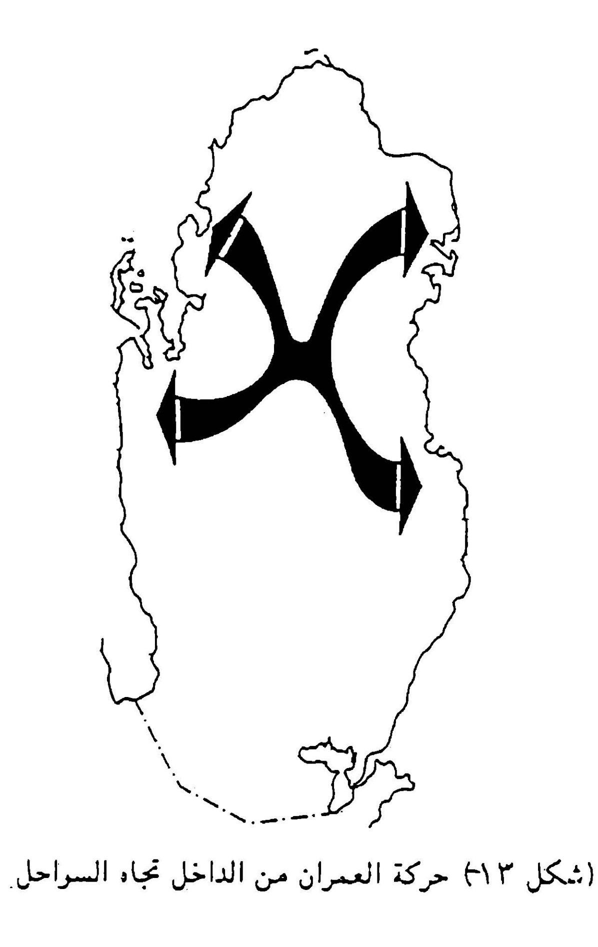
وفي الآونة الأخيرة أخذ التخطيط نفس شكل الكتلة لكن ظهر الكورنيش على الساحل وعليه بعض الاستعمالات للأنشطة الترفيهية كالحدائق والمنتزهات والنوادي .

وظهرت أيضاً بعض التجمعات السياحية بنفس الشكل الطولي على الشاطئ مثل مجموعة شاليهات مسيعيد للسياحة . (شكل ١٦) .

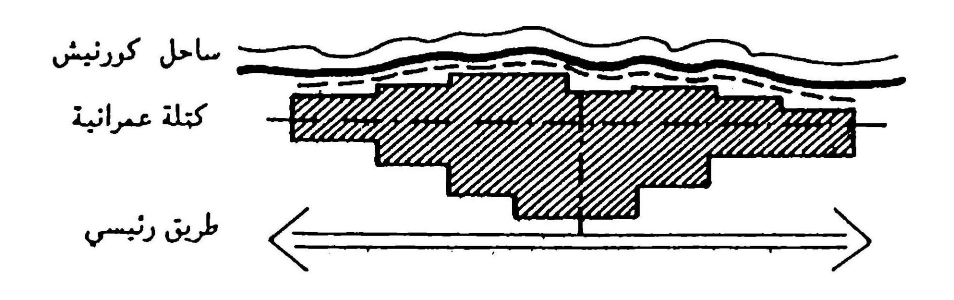
- أما الشكل الإشعاعي فهو عبارة عن كتلة عمرانية على خليج لها شبكة طرق على هيئة حلقات إشعاعية ونواتها منطقة مركز الخدمات والأعمال (السوق الرئيسي) وغالباً ما تتلاقى هذه الطرق في نقطة وهي الميناء وبجانبها منطقة الأسواق والمتاجر .



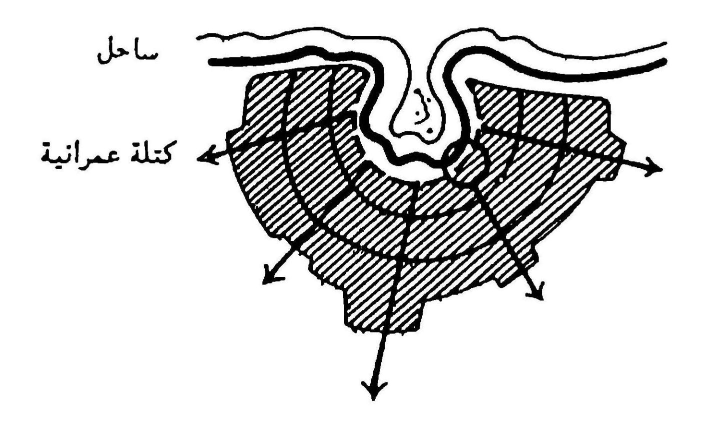
(شكل ١٢) إنتقال الكتلة العمرانية
من الساحل الغربي للساحل الشرقي



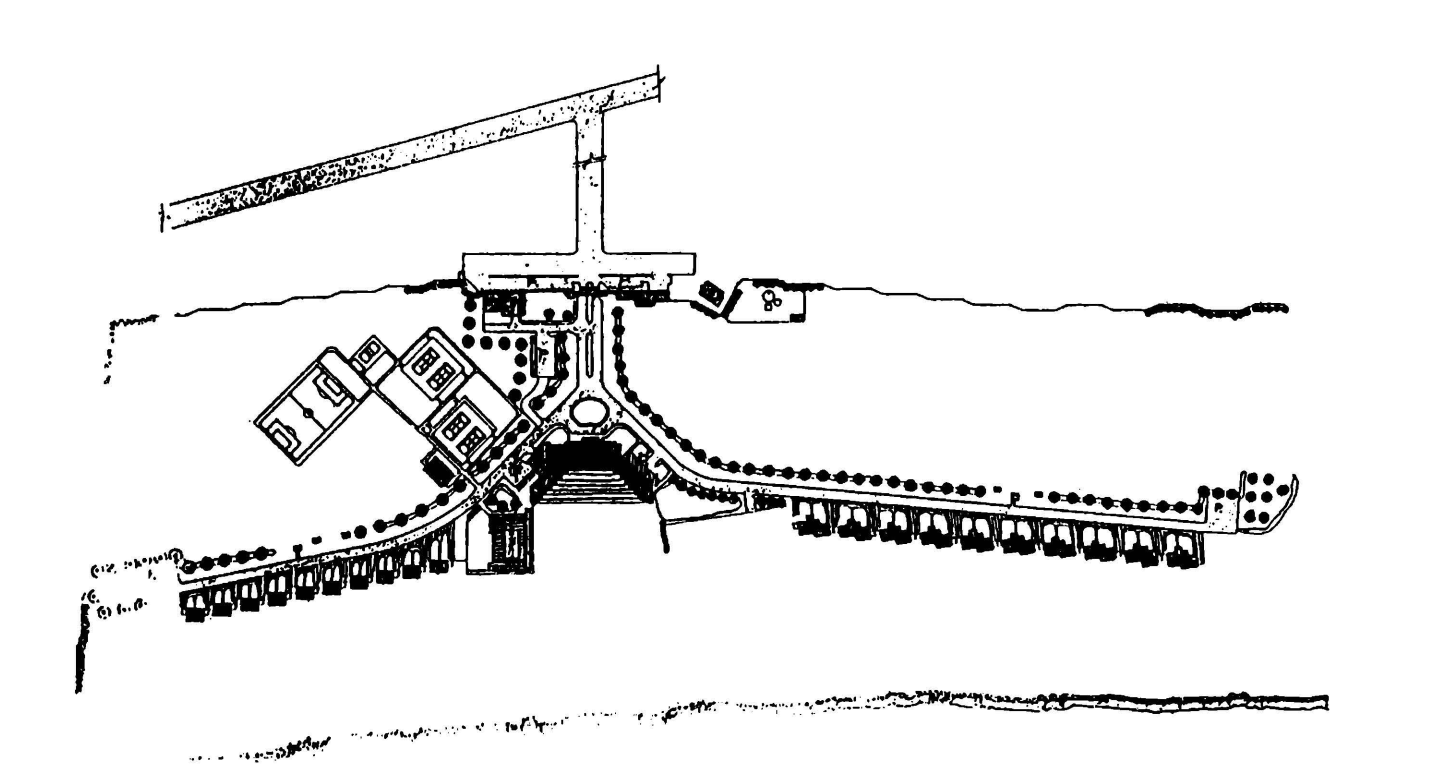
(شكل ١٣) حركة العمران من الداخل تجاه السواحل.



(شكل ١٤) الشكل الطولي للتجمعات



(شكل ١٥) الشكل الإشعاعي للتجمعات



(شكل ١٦) مجموعة شاليهات مسيعيد الساحلية

بذلك يكون الاستعمال لمنطقة الحواف الشاطئية هي الصناعة والتجارة (رأس لفان حديثاً) أساساً بجانب الاستعمال السكني . وبعد الطفرة العمرانية واعادة تخطيط تلك التجمعات ظهر الكورنيش كعصب أساسي وأصبحت الاستعمالات الحالية عبارة عن مناطق ترفيهية سياحية إدارية بجانب منطقة الميناء أو مرسى المراكب (كنشاط صناعي تجاري) كذا بعض الاستعمالات السكنية والشاليهات .

هذا يعني أن المناطق الحضرية بها العديد من الاستعمالات على الرغم من أن التجمع العمراني له على الأكثر من ٢ - ٤ كم طول الساحل (عدا العاصمة التي لها أطوال أكبر من ذلك) فمنها كما ذكر الاستعمالات المختلفة .

٧/١/٢ الطرق :

في بعض الأحيان تتخذ الطرق الموصلة بين التجمعات العمرانية وبعضها مناطق الحواف الشاطئية وتمر بها نظراً لظروف طبيعية تجبرها على ذلك ، ولكن في حالة شبه جزيرة قطر ونظراً لسهولة طبوغرافيتها السهلية فجميع طرقها على المستوى القومي سواء إقليمية أو كشرايين رئيسية سريعة أو طرق أقل درجات تبتعد عن مناطق الحواف الشاطئية اللهم إلا داخل المناطق الحضرية ككورنيش للتجمع نفسه .

هذا يعني أن جميع الطرق تبعد عن نطاق مناطق الحواف الشاطئية بمسافات متفاوتة .

٢/٢ عوامل اجتماعية :

لما كانت وظيفة السكان الغالبة هي صيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ والتجارة أخذت التجمعات العمرانية مواقعها على السواحل حيث كما سبق الذكر كانت تضم مجموعة من أكبر التجمعات في شبه جزيرة قطر .

بظهور البترول وعائداته المرتفعة في مجالات العمل بالشركات البترولية إضافة إلى الكساد الذي حدث في تجارة اللؤلؤ بعد ظهور اللؤلؤ الصناعي . كل ذلك أدى إلى هجرة السكان من تجمعاتهم الأصلية تجاه مركز العمران والتكتلات الحضرية القريبة من مصدر الثروة أو نفس المركز العمراني الغني بموارده البترولية وأصبحت التجمعات الأصلية خالية يقصدها سكانها المهاجرون لقضاء العطلات الأسبوعية أو لممارسة الصيد

والسياحة أي نشاط ترفيهي . أو ظهور مناطق بها ثروات بترولية جديدة مما يؤدي لإنشاء تجمعات ومراكز عمرانية جديدة كسكن للعاملين بتلك المناطق . وبذلك أصبح هناك تمركز ومركزية أدت لتضخم الكتل الحضرية .

من هنا كان لتحرك السكان وأنشطتهم تأثير كبير على استعمالات الأرض للحواف الشاطئية وتمركزهم في نقاط معينة كذلك ونظراً للتمركز الشديد في التجمعات الحضرية جعل البعض منهم يخرج في عطلة نهائية الأسبوع والمواسم إلى الشواطئ لقضاء أوقت فراغهم في أنشطة ساحلية للترفيه ، والمشكلة هي أنه لا يوجد مكان مخصص على الساحل لمثل هذه الأنشطة موضوعة في الاعتبار ولكن ظهرت بعض الاشغالات في أماكن متفرقة ودون تخطيط (أي توزيع عشوائي) .

٣/٢ عوامل اقتصادية :

كانت التجمعات العمرانية كما سبق الذكر تعتمد في نشاطها الرئيسي على البحر والذي فرض على السكان الإقامة في هذه المناطق لكن العوامل الاقتصادية ومنها : مواقع الأسواق والمواد الخام - مراكز العمل والجذب الصناعي للأيدي العاملة - قرب الأيدي العاملة من مكان المصنع ، كلها عوامل أثرت على تمركز الأنشطة في نقطة معينة من الساحل وبعمق كبير من خلال الكتل الحضرية دائمة التمدد - هذا بالإضافة إلى بعض المعوقات التي أثرت على عدم امتداد هذه الأنشطة على طول السواحل ومنها :

١/٣/٢ ملكية الأرض وأسعارها :

في أغلب الحالات يمكن فرض استخدام أو استعمال معين لأراضي الحواف الشاطئية في حالة ما إذا كانت الأرض ليست ذات ملكية خاصة فقد تم بالفعل في بعض الحالات ظهور استخدام خاص بمناطق الحواف الشاطئية حيث أن ملكية الأرض ملكية خاصة وأسعار الأراضي في بعض الأحيان تكون باهظة التكاليف لدرجة أن من دراسة الجدوى الاقتصادية للمشروع يتضح أنه غير مجدي نظراً لارتفاع سعر الأرض فهي تعتبر أحد المعوقات الاقتصادية كذا الملكية الخاصة إذ لم تخضع للتخطيط المقترح لهذه المنطقة .

٢/٣/٢ اقتصادات التنمية :

هناك بعض المعوقات سواء لغرض استعمال جديد للحواف الشاطئية أو تنمية بعض منها قائم وهي ارتفاع تكاليف التنمية حيث يكون الموقع أحياناً غير مزود بالمرافق من مياه - كهرباء - صرف صحي مما يتطلب إمداد الموقع بالتوصيلات من شبكات المرافق وتكاليفها لا تتمشى وحجم الاستثمار المقترح لهذه المنطقة أو المرحلة .

٣/٣/٢ ارتفاع تكاليف اعداد الأرض الصالحة للبناء :

يكون وضع استعمال معين للحواف الشاطئية أحياناً غير متناسب مع طبيعة التربة وطبوغرافيتها حيث أن الإعداد للأرض وتمهيدها كي تكون صالحة للاستعمال والبناء المقترح مرتفع التكاليف أو غير ممكن (وجود صخور ويستلزم الأمر تكسيرها أو ردم سبخات وخلافه . .) .

٤/٣/٢ البعد عن الطرق الرئيسية أو مراكز العمران :

من الناحية الاقتصادية سهولة الوصول لمناطق الاستعمال المقترحة للحواف الشاطئية (Accessibility) مما يعطيها مميزات ومنها مميزات اقتصادية لكن في حالة بعد تلك المناطق عن الطرق الرئيسية أو مصادر الطاقة الرئيسية وشبكاتها يستلزم إعداد وصلات خاصة لهذا المكان حتى لا يكون هناك عوائق للوصول إليه .

هذا بالإضافة إلى بعد المكان أو النشاط المقترح بمناطق الحواف الشاطئية عن مراكز العمران الرئيسية والتكتلات السكانية الذي يعمل على صعوبة وطول مسافة الوصول سواء للأفراد أو الخدمات أو المرافق وخلافه (ومن أمثلة ذلك منطقة خور العديد) .

من هذه العوامل الاقتصادية والمعوقات مجمعة يتضح أن استعمال مناطق الحواف الشاطئية يستلزم دراسة وتحليل لفرض أي استخدام أو استعمال بها .

٤/٢ عوامل سياسية :

١/٤/٢

كان لهذا العامل أثره في ظهور معظم التجمعات العمرانية والتكتلات الحضرية في

مناطق محددة من الحواف الشاطئية بحيث يكون الموقع محصن سواء طبيعياً أو بقلاع وحصون ضد الهجمات والغارات التي كان يشنها بعض القبائل المجاورة .

٢/٤/٢ :

بعد التطورات السياسية وتحديد حدود كل دولة من الممكن أن يكون هناك استعمال لمنطقة الحواف الشاطئية الملاصقة لحدود دولة مجاورة وسياسياً غير مرغوب في هذا الاستعمال أو متفق أن تكون هذه المنطقة خالية الاستعمال . وفي بعض الأحوال يكون هناك عنصر واحد يجمع بين مناطق الحواف الشاطئية لدولتين أو من المحتمل فرض استعمال يتنافر والاستعمال المقترح من الدولة الأخرى حيث أن الحواف الشاطئية مستمرة أو شبه مشتركة بين الدولتين (خور العديد) .

٢/٥ عوامل إدارية :

العوامل الإدارية تتمثل في نفوذ الجهات المسؤولة فرض استعمال معين لمناطق الحواف الشاطئية الممتدة داخل نفوذ منطقة إدارية أو جهة مسؤولية أخرى . ويتوقف أيضاً على الميزانيات المخصصة من قبل كل جهة إدارية والمشروعات المقترحة وسنوات وأولويات التنفيذ لها (مركزية القرار) .

وهناك ظاهرتان من خلال التقسيمات الإدارية لشبه جزيرة قطر وهما :

- تقارب استعمالات مناطق الحواف الشاطئية وتباعدها .
- تقارب الاستعمالات بمناطق الحواف الشاطئية كلما وجد مصدر من مصادر الطاقة الرئيسية من مياه عذبة - جوفية - كهرباء - أيدي عاملة .. داخل الوحدة الإدارية .
- التباعد كلما زادت مساحة الوحدة الإدارية كلما تباعدت المسافة لحد ما بين الاستعمالات ، إلا في حالة وجود مناطق بحرية خلابة يمكن أن تتقارب الاستعمالات وبذلك فالعوامل الإدارية والتقسيمات الداخلية لها تأثير على استعمالات الأراضي لمناطق الحواف الشاطئية وهناك نقطة جوهرية على المستوى القومي من الجهة الإدارية : إذا لم يكن هناك جهاز إداري مختص بمراقبة تطور وتلوث الحواف الشاطئية والاستخدامات المقترحة لها أدى ذلك لمشاكل عدة يصعب

العمل على احتوائها لأن الظروف والعوامل المؤثرة على مناطق الحواف الشاطئية مستمرة ولايمكن ايقافها إلا بالتخطيط والمراقبة المستمرة .

الجزء الثاني : تأثير العوامل والمتغيرات الحالية لمناطق الحواف الشاطئية بقطر :

١/٢ التغيرات التي تطرأ على مناطق الحواف الشاطئية ، ومدى تأثيرها على استعمال الأراضي المختلفة :

تتآكل السواحل عادة بفعل الأمواج والتيارات البحرية والمد والجزر فالأمواج تفتت الصخور وتحملها إلى عرض البحر - أما إذا كان الساحل مكوناً من صخور صلبة فوقها صخور لينة ، أكلت الأمواج الصخور اللينة وتركت الصخور الصلبة بارزة .

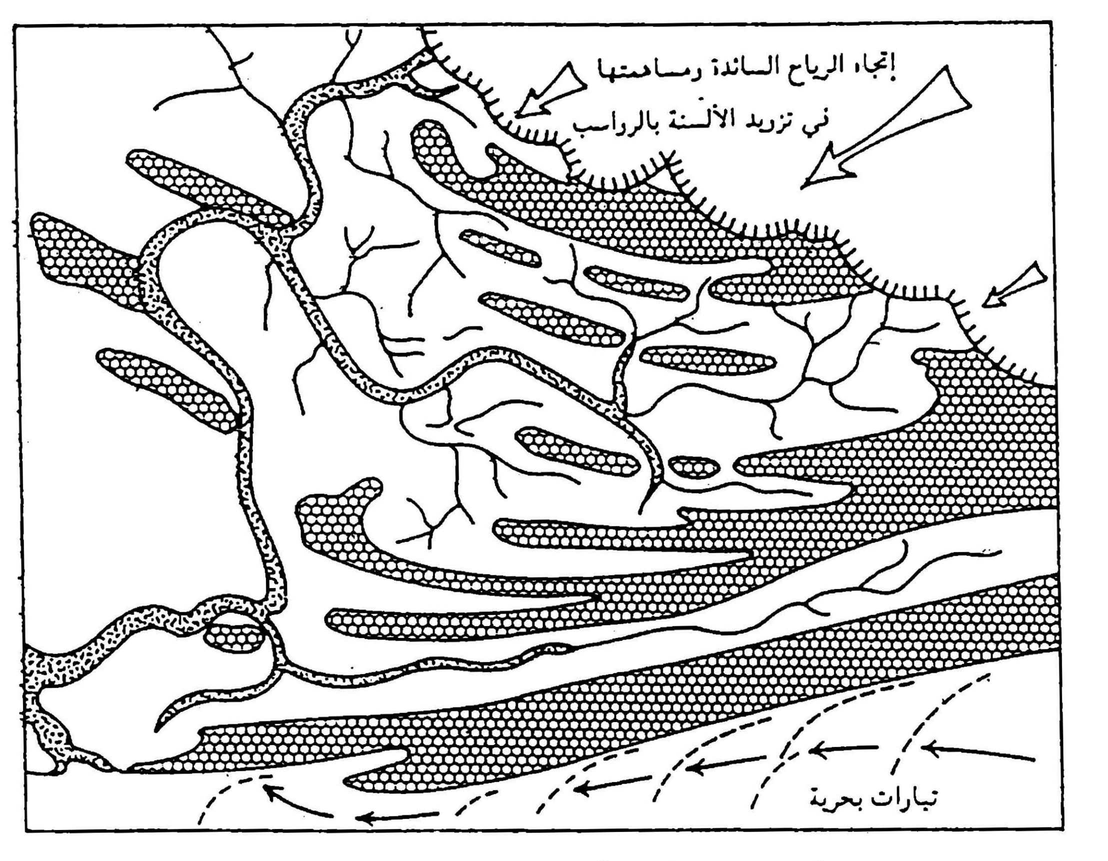
- الساحل الصخري يكون في أغلب الأحوال عميقاً وصالحاً لوجود مواني للسفن الضخمة التي تستطيع أن تقترب من عمق مياهه (ميناء مسيعيد) .

١/١/٢ : الساحل الرملي ويكون منخفضاً قليل الانحدار لا تأكل منه الأمواج كثيراً حيث تفقد قوتها قبل أن تصل إليه ، كذلك بالنسبة للسواحل التي تحميها جزر قريبة من الشواطئ وهذه السواحل تكون صالحة للأغراض الترفيهية والسياحية والرياضية .

٢/١/٢ : السواحل التي بها فشوت فلها أهمية كبيرة لأن تلك الفشوت تقوم بتقليص أثر الأمواج على الساحل (الشمالي خاصة والشرقي على ساحل مسيعيد) مما يعمل على حماية التجمعات الشاطئية (ميناء الرويس استفاد بشكل واضح من الحماية الطبيعية التي تمنحها له الفشوت) .

٣/١/٢ : الألسنة البحرية فهي تتكون غالباً أمام فجوات الأخوار والدوحات حيث تلائم ظروفها عمليات الإرساب بواسطة الأمواج والتيارات البحرية . (شكل ١٧)

وعلى سبيل المثال لسان مدينة الوكرة الذي أخذ بالابتعاد عن اليابس في طرفه الشمالي نتيجة لفعل الإنسان في نقل الرمال القريبة من الساحل ، هذه العملية قللت من مصدر الرمال لهذا اللسان مما أدى إلى انكماشه وصغر حجمه ، ولقد استغل حالياً



(شكل ١٧) تطور الألسنة البحرية حول خور الذخيرة

بظهور بعض العرشان (بيوت من سعف النخيل لاستخدامها أثناء الرحلات ولنواحي ترفيهية) . (شكل ١٨)

٤/١/٢ : الردم بفعل الإنسان والتي تعد أحياناً من السلبيات ومن أمثلتها : تنفيذ مشروع الخليج الغربي (شكل ٥) حيث كما سبق الذكر تم ردم أجزاء ساحلية ضخمة مجاورة لساحل الدوحة ومثل هذه المشاريع وأن بدت إيجابية لحد كبير (من ناحية مساحة الأرض ومساحة الواجهة البحرية) لكن لها مردودها السلبي من حيث زيادة معدلات الترسيب للرمال البحرية بالمنطقة وإلى جنوب هذه المنطقة يقع ميناء الدوحة والذي يعاني في الأصل من ضحالة المياه مما دفع المسؤولين إلى تطهير القناة بصورة مستمرة وهذا مكلف جداً .

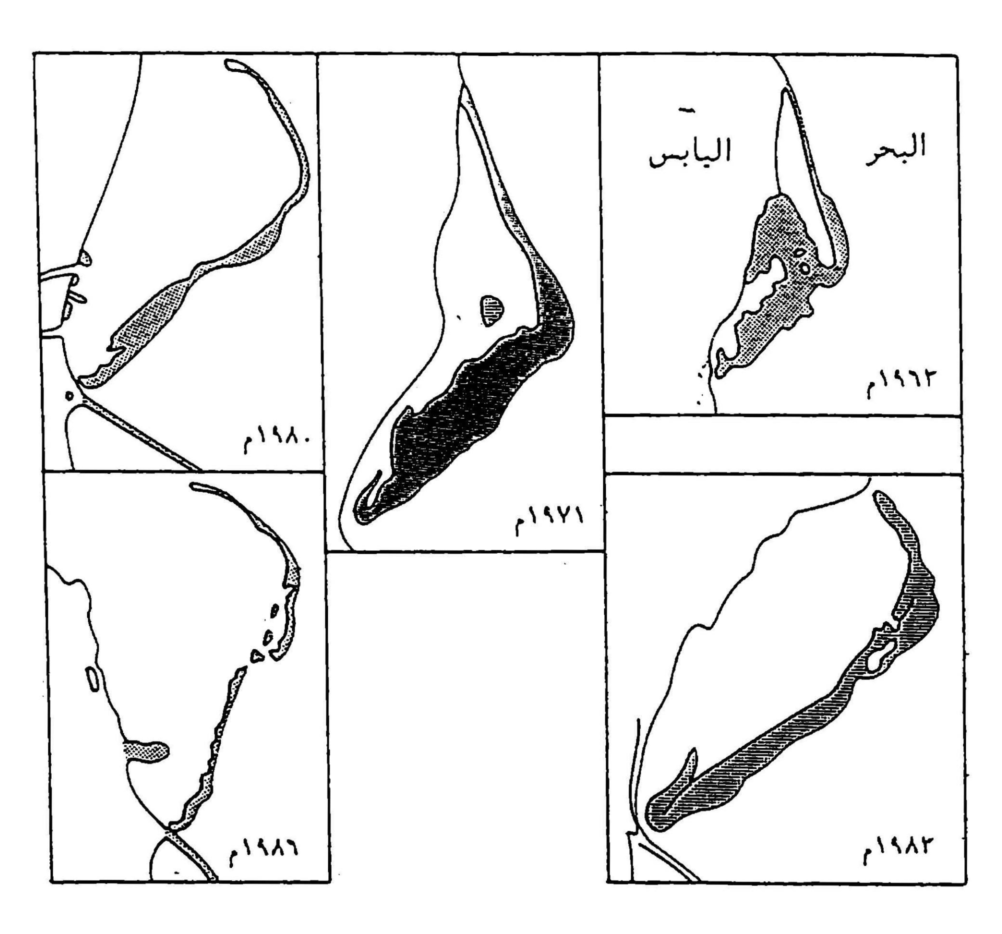
٥/١/٢ : الحواجز الرملية فهي من مظاهر الارساب على السواحل وتتكون من رواسب رملية ترجع نشأتها إلى تكسر الأمواج بعيداً عن خط الساحل مما يؤدي إلى ارساب حمولتها على هيئة حافات ما تثبت أن ترتفع موازية للشاطئ ومن أمثلتها الحواجز الرملية بالركن الشمالي لشبه جزيرة قطر (شكل ١٩) .

٦/١/٢ : سواحل المانجروف وهي تعتبر ذات انتاجية عالية ومن المصادر المهمة للثروة السمكية وتلعب دوراً كبيراً في تطوير السواحل وحمايتها من التعرية البحرية . وتستخدم كذلك كعلف للحيوانات وتمثل ملجأ للطيور المهاجرة وتعمل الجهات المعنية جاهدة لزيادة نسب زراعتها على السواحل القطرية حيث أنها تعتبر من المسطحات الخضراء والتي يقل معدلها عن المطلوب فهي أولاً وأخيراً مسؤولية البلدية لحماية هذه المناطق على الحواف الشاطئية .

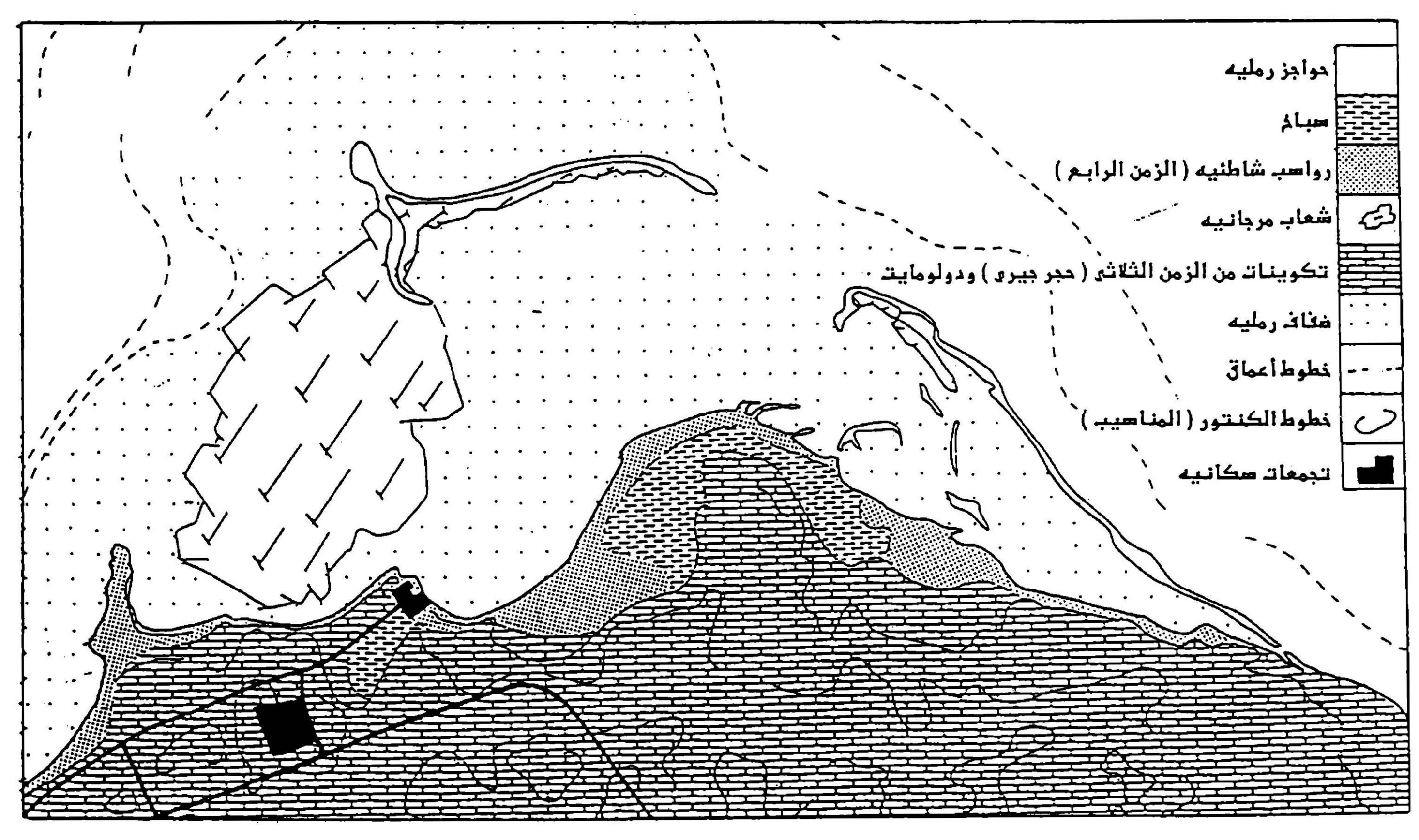
٧/١/٢ : التلوث البيئي لمناطق الحواف الشاطئية :

التلوث في الأونة الأخيرة من القرن العشرين أخذ مفهوماً جديداً وجاء بمفردات ومصطلحات مبتكرة تهم البشرية مثل التوازن البيئي - المطر الحمضي - الأوزون .

وبعد انتهاء حرب الخليج والتي سبقتها الحرب العراقية الإيرانية مازال العمل قائماً حتى الآن لمكافحة تلوث مياه الخليج العربي نتيجة لتلك الحروب من الزيت وتلوث



(شكل ١٨) تطور لسان الوكرة الساحلي في الفترة من ١٩٦٢ - ١٩٨٦



(شكل ١٩) الحواجز الرملية

الهواء نتيجة لحرائق آبار النفط الكويتي . ومن وجهة نظر أخرى فالتلوث أو إصابة البيئة بأضرار جانبية غير مقصودة يسببها نشاط الإنسان عندما يمارس عمليات الانتاج أو استخدام وسائل النقل الحديثة أو يقوم باشباع حاجاته الكثيرة وهي أضرار تصيب المحيط الذي يعيش فيه من (هواء - ماء - أرض) مما يحد صلاحيته لخدمة البشرية ومن أهم أسباب التلوث حركة السفن التجارية وناقلات النفط مما أدى لتلوث البيئة البحرية من كائنات دقيقة وكثيرة من الكائنات التي تعتمد على الأعشاب البحرية والشعب المرجانية - كما لاقت آلاف الطيور حتفها بسبب تلوث مياه الخليج .

والخليج العربي ونظراً لأن البحر شبه مغلق تستغرق دورة المياه فيه من مضيق هرمز حتى تخرج ثانية للمحيط من ٣ - ٥ سنة وهي فترة كافية لتجديد الكتل المائية به - (درجة تلوث مياه الخليج العربي ٤٨ مرة من مثيلتها في بحار العالم[٥] مما يساعد على تراكم الملوثات ويحدث هذا التراكم على شواطئ قطر ويهدد البيئة الساحلية.

علاوة على التصنيع والمجمعات البتروكيمائية وناقلات النفط وشدة ملوحة البحر وارتفاع درجة الحرارة والرطوبة كلها عوامل رئيسية مسببة للتلوث فضلاً عن ذلك تلوث المناطق الساحلية نظراً لأن الرياح والتيارات السطحية تدفع بالفضلات للشاطئ وأن الهواء الحار والرطب يسبب تلوثاً هوائياً خطيراً من مصافي النفط والصناعات البتروكيميائية وصناعة الأسمنت والمعادن .

فالبنسبة للساحل الشمالي لشبه جزيرة قطر يعتبر أكثر المناطق تعرضاً لخطر التلوث البحري البترولي لأن التيارات البحرية الآتية من الأجزاء الشمالية من الخليج تنقسم في هذه النقطة إلى قسمين قسم يتجه بمحاذاة الساحل الشرقي والآخر بالساحل الغربي وأن وجود أي تلوث أياً كان شكله وطبيعته فإنه سوف يمر على هذه المنطقة وليس نقط تلوث فقط بل تدمير للكائنات البحرية أيضاً .

٢/٢ : تقسيم الدولة لاقاليم أو مناطق وتأثير ذلك على استعمالات الأرض لمناطق الحواف الشاطئية :

دولة قطر أو شبه جزيرة قطر مقسمة إدارياً إلى ٩ مناطق أو ما يسمى بالبلديات وهي : الدوحة - الريان - الوكرة - أم صلال - الخور - الشمال - الغويرية - الجميلية

- جريان الباطنة ، ثمان مناطق منها لها حواف شاطئية وبلدية الريان ليس لها واجهة على البحر . هذه المناطق بها تمركز سكاني / كم٢ يتراوح ما بين شخص واحد/كم٢ إلى ١٦٤٩ شخص / كم٢ وهذا يعني أيضاً تمركز الأنشطة حيث كلما تواجد كلما تواجدت الأنشطة ، وبدراسة وتحليل هذا التقسيم واستعمالاته نجد الآتي :

أكبر بلديتين أو منطقتين لهما حواف شاطئية هما :

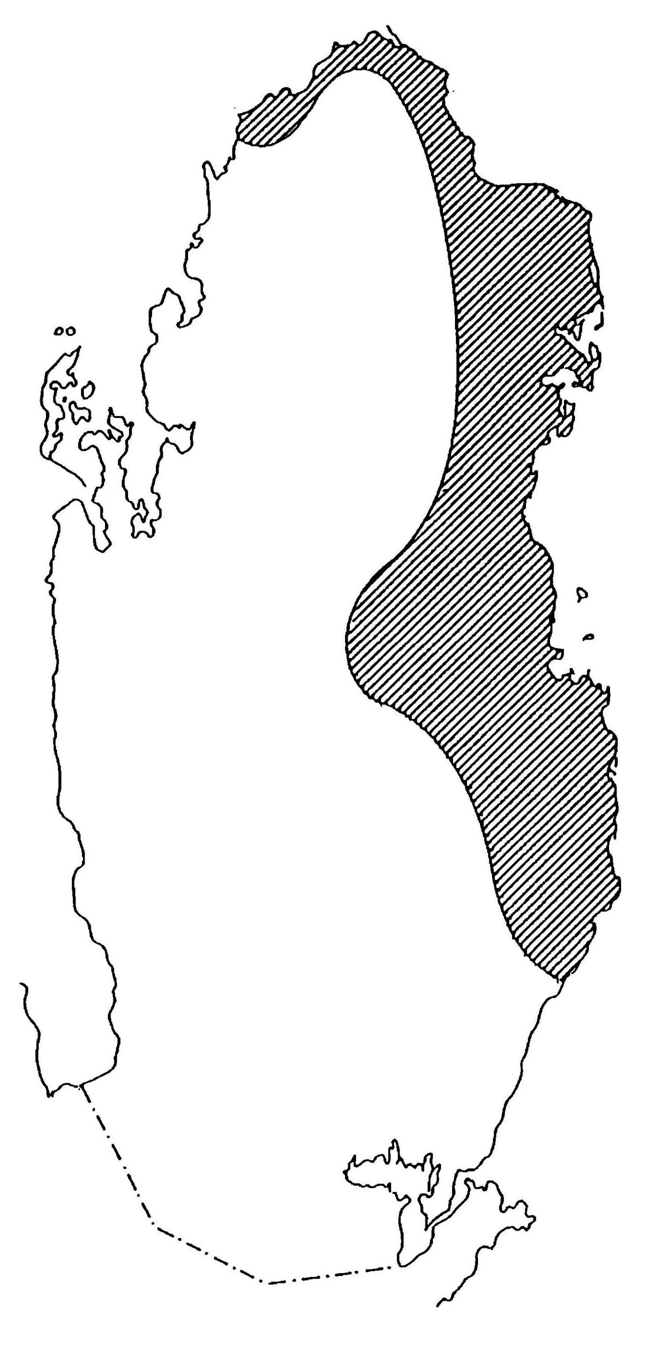
- الجميلية (الساحل الغربي) بكاثافة ٣ شخص / كم٢ .
- جريان الباطنة (الساحل الشرقي والغربي) بكثافة ١ شخص / كم٢ .

هذا يعني عدم الاستفادة من تلك السواحل أو استغلالها الاستغلال الأمثل على الرغم من وجود سواحل رملية وشعب مرجانية وخلافه والتي يمكن استخدامها في أنشطة كثيرة ومتعددة .

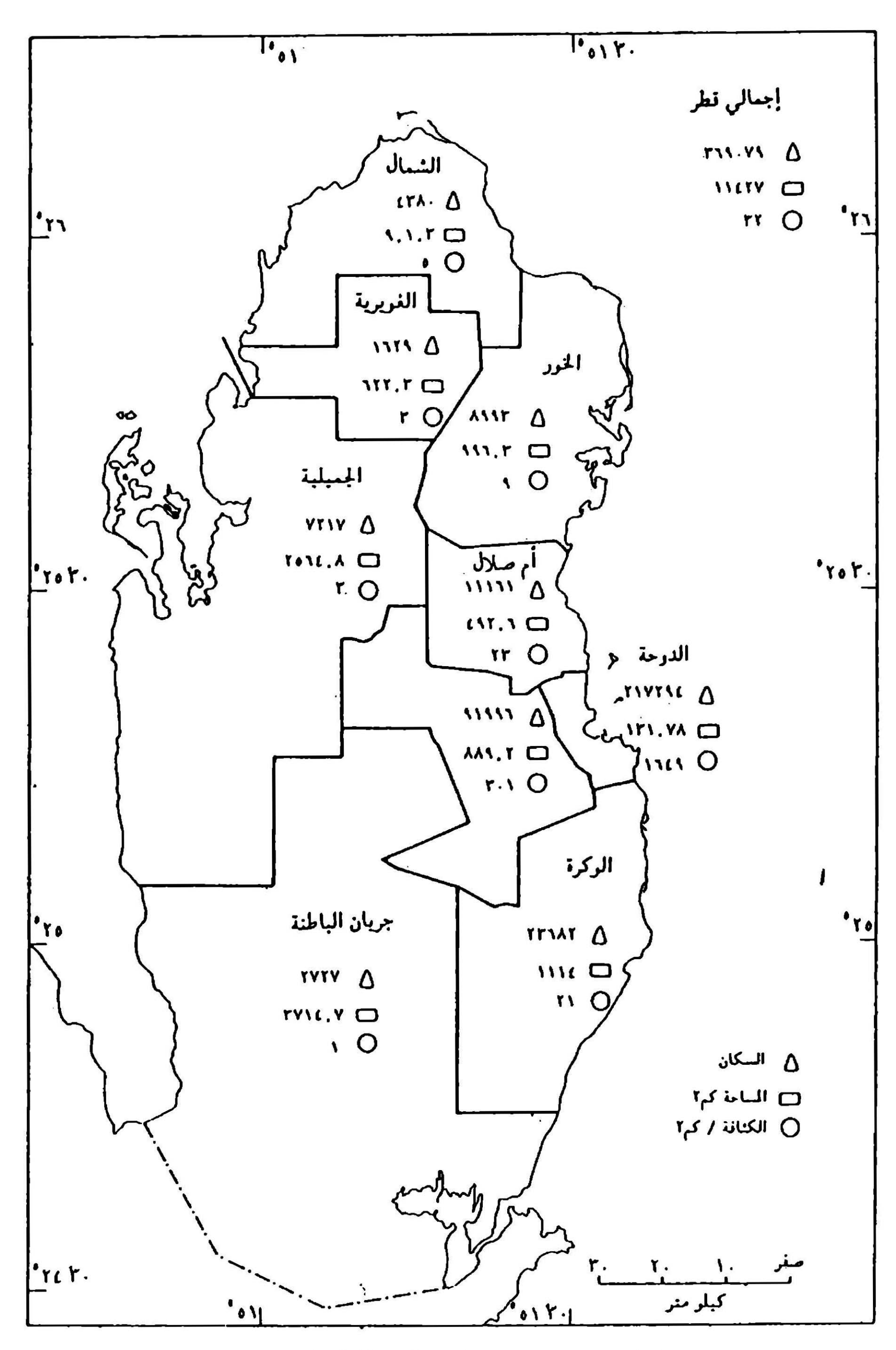
وأقل مناطق لها حواف شاطئية هي :

- الغويرية (الساحل الغربي) بكثافة ٣ شخص / كم٢ .
- الدوحة (الساحل الشرقي) بكثافة ١٦٤٩ شخص/كم٢ (العاصمة وأكبر تكتل حضري) .
- أم صلال (الساحل الشرقي) بكثافة ٢٣ شخص / كم٢ نظراً لقربها من العاصمة.

أما بلديات الشمال والخور والوكرة فهي ذات حواف شاطئية متوسطة الأطوال نسبياً بكثافة من ٩ شخص / كم٢ (الساحل الشرقي والساحل الشمالي) . فنجد أن التمركز السكاني مركز في منطقة العاصمة الدوحة ويقل كلما اتجهنا شمالاً وجنوباً . وهناك تمركز نسبي في بلدية الشمال وينعدم تقريباً في بلدية جريان الباطنة ذات الأطوال للحواف الشاطئية فهي تعتبر بكراً غير مستغلة وتليها الجميلية . (شكل ٢٠ ، ٢١).



(شكل ٢٠) التمركز السكاني بقطر



(شكل ٢١) الحواف الشاطئية للبلديات بقطر

جدول (٢)

السكان والمساحة والكثافة / كم٢ حسب البلديات ١٩٨٦[٦]

البلدية	الدوحة	الريان	الوكرة	أم صلال	الخور	الشمال	الغويرية	الجميلية	جريان الباطنة	المجموع
السكان	٢١٧٢٩٤	٩١٩٩٦	٢٣٦٨٢	١١١٦١	٨٩٩٣	٤٣٨٠	١٦٢٩	٧٢١٧	٢٧٢٧	٣٦٩٠٧٩
المساحة كم٢	١٣١ر٧٨	٨٨٩ر٢	١١١٤ر -	٤٩٢ر٦	٩٩٦ر٣	٩٠١ر٣	٦٢٢ر٣	٢٥٦٤ر٨	٣٧١٤ر٧	١١٤٢٧ر-
الكثافة كم٢	١٦٤٩	١٠٣	٢١	٢٣	٩	٥	٣	٣	١	٣٢

٣/٢ الخطط المستقبلية المنتظرة سواء لتوزيع السكان أو للأنشطة (زراعة - صناعة - سياحة - صيد ...) :

لدراسة استخدام الحواف الشاطئية يجب التعرف على الخطط المستقبلية والمشاريع الجديدة لأخذها في الاعتبار عند وضع استخدامات تلك المناطق .

١/٣/٢ المشروع الصناعي الضخم لاستخراج وتسييل الغاز الطبيعي بمنطقة رأس لفان .

٢/٣/٢ الخطط المقترحة لتنمية مدن الشمال .

٣/٣/٢ المشاريع السياحية بمناطق متفرقة ومنها أساساً خور العديد وأجزاء من الساحل الغربي بالقرب من مدينة دخان .

٤/٣/٢ إعادة توزيع الخدمات والأنشطة (تعليمية - صحية - تجارية ...) على مدن قطر .

٥/٣/٢ شبكة الطرق الجديدة وصيانة وتوسيع الحالي منها طبقاً لاحتياجات الكثافات المرورية .

٦/٣/٢ توسيع وتعميق الموانى الحالية وزيادة طاقاتها الاستيعابية .

كل هذه المشاريع لها تأثير مباشر على استخدامات الأراضي للحواف الشاطئية حيث أن الأنشطة المتعلقة بالتجمعات الحضرية الساحلية لها ارتباط وثيق بالسواحل كما

ذكر من قبل لكن المساحات ما بين تلك التجمعات في حالة زيادة الكثافة السكانية بالمنطقة يعمل هذا واضحاً على استخدام هذه المساحات بين تلك المراكز العمرانية كامتداد عمراني مما يعمل أيضاً على تطوير شبكات الطرق وانشاء الجديد منها وظهور أنشطة جديدة .

فسياحياً : استغلال بعض المناطق للنشاط السياحي والترفيهي (سواء سياحة داخلية أو خارجية) مما يساعد على تعمير مناطق الحواف الشاطئية ذات المقومات السياحية غير المستغلة وبشكل مخطط مدروس .

صناعياً : هناك بعض المشاريع المستقلة التي لها إيجابيات وسلبيات - إيجابياتها أكثر من سلبياتها مثل مشروع الغاز الطبيعي بمنطقة رأس لفان لكن السلبيات لها مردود اجتماعي ، اقتصادي وبيئي مؤثر وكذا بعض التأثيرات على باقي المناطق أو الحواف الشاطئية مما يستدعي دراسة مستفيضة لذلك لتلاشي وتفادي العديد من المشكلات المتوقعة وأهميتها زيادة نسبة تلوث الحواف الشاطئية بالساحل الشرقي .

زراعياً : هناك مناطق بها آبار لمياه جوفية ومن الممكن العمل على زراعتها وتكون بمثابة ظهير لمناطق الحواف الشاطئية كذا زيادة الرقعة المزروعة من نباتات المانجروف لما لها من مزايا عديدة .

الصيد : وضع الخطط اللازمة لتأكيد صلاحية مناطق الصيد ذات التمركز للثروة السمكية كي تعطي إنتاجاً وفيراً وإعداد خطط لزيادة التصنيع المتعلق بالثروة السمكية مع إعداد المناطق الخاصة بالزريعة السمكية والحفاظ عليها وتربيتها لزيادة الانتاج السمكي .

٤/٢ العلاقة بين المناطق وبعضها والمشاريع الجديدة :

هناك مشاريع جديدة تقام لها علاقة بالساحل ويجب دراسة ما إذا كان لها تأثير على المناطق المجاورة أو السواحل بالمنطقة ومنها :

- مشروع بحيرة الخليج الغربي بالدوحة .
- مشروع تسييل الغاز الطبيعي بمنطقة رأس لفان .

وهذان المشروعان لهما تأثير موجب وسالب على النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والبيئية .

فمشروع بحيرة الخليج الغربي بالدوحة مشروع سياحي من الدرجة الأولى وسوف يعمل على زيادة نسب السياحة الداخلية أو الخارجية ومن الناحية الاقتصادية ذو مردود اقتصادي كبيرعلى الدخل القومي نتيجة بيع الأرض إلا أنه يحتمل أن يعمل على زيادة الترسيب نتيجة الألسنة الممتدة داخل الخليج وخاصة بمنطقة الدوحة وميناءها كما أن البحيرات الداخلية إذا لم تجدد مياهها بصفة مستمرة سوف تكون مصدر تلوث للهواء . (شكل ٢٢) .

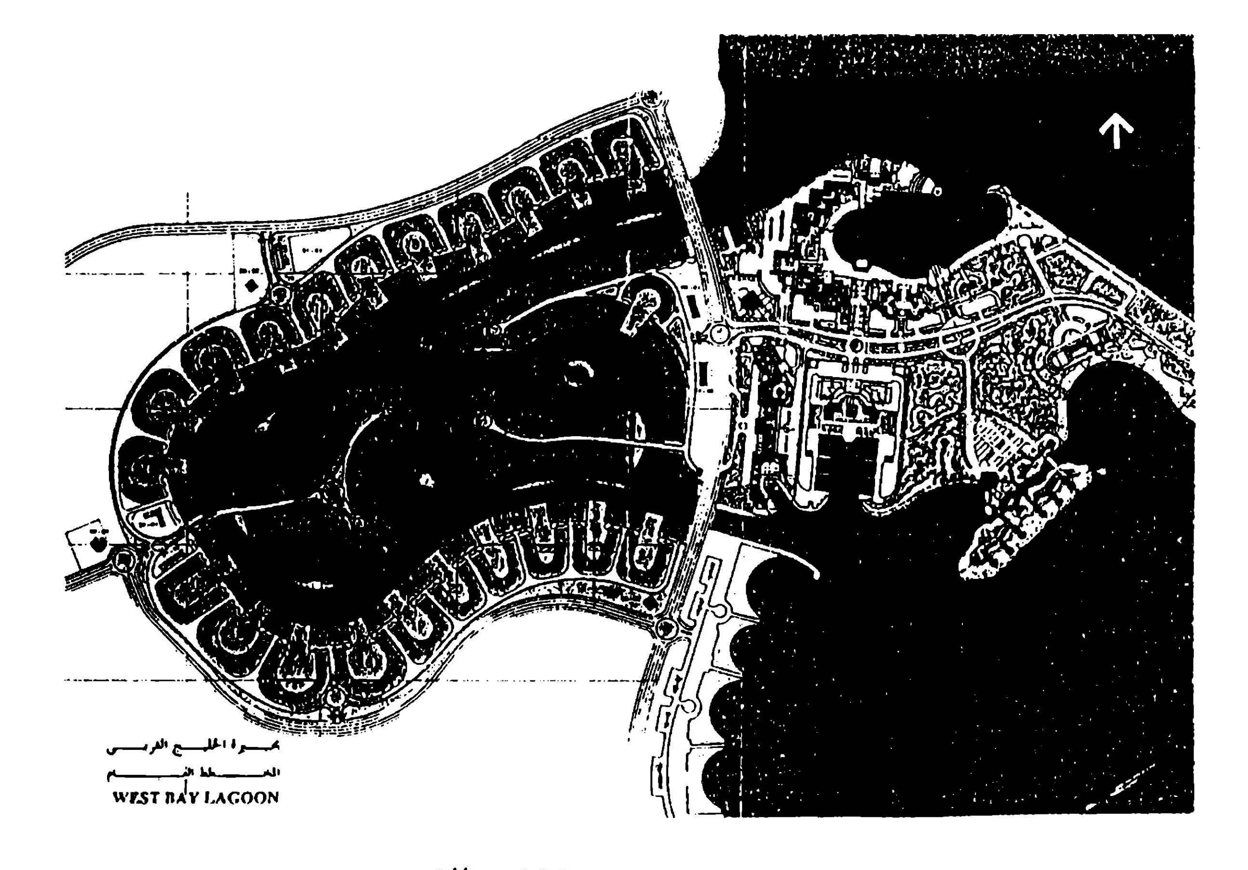
أما المشروع الصناعي بمنطقة رأس لفان الذي يقع على الساحل الشرقي في أقصى الشمال هي منطقة تجمع أسماك ومنطقة رمال أو حواف رملية وبها أكبر مخزون للغاز الطبيعي في العالم ولسهولة نقله يتم تسييله وضخه في أنابيب إلى الناقلات وينتقل عبر الخليج العربي لدول العالم ولهذا المشروع مميزات منها :

اجتماعياً : خلق فرص عمل وتجمعات جديدة بالمنطقة ويساعد على التوازن في توزيع السكان . (شكل ٢٣) .

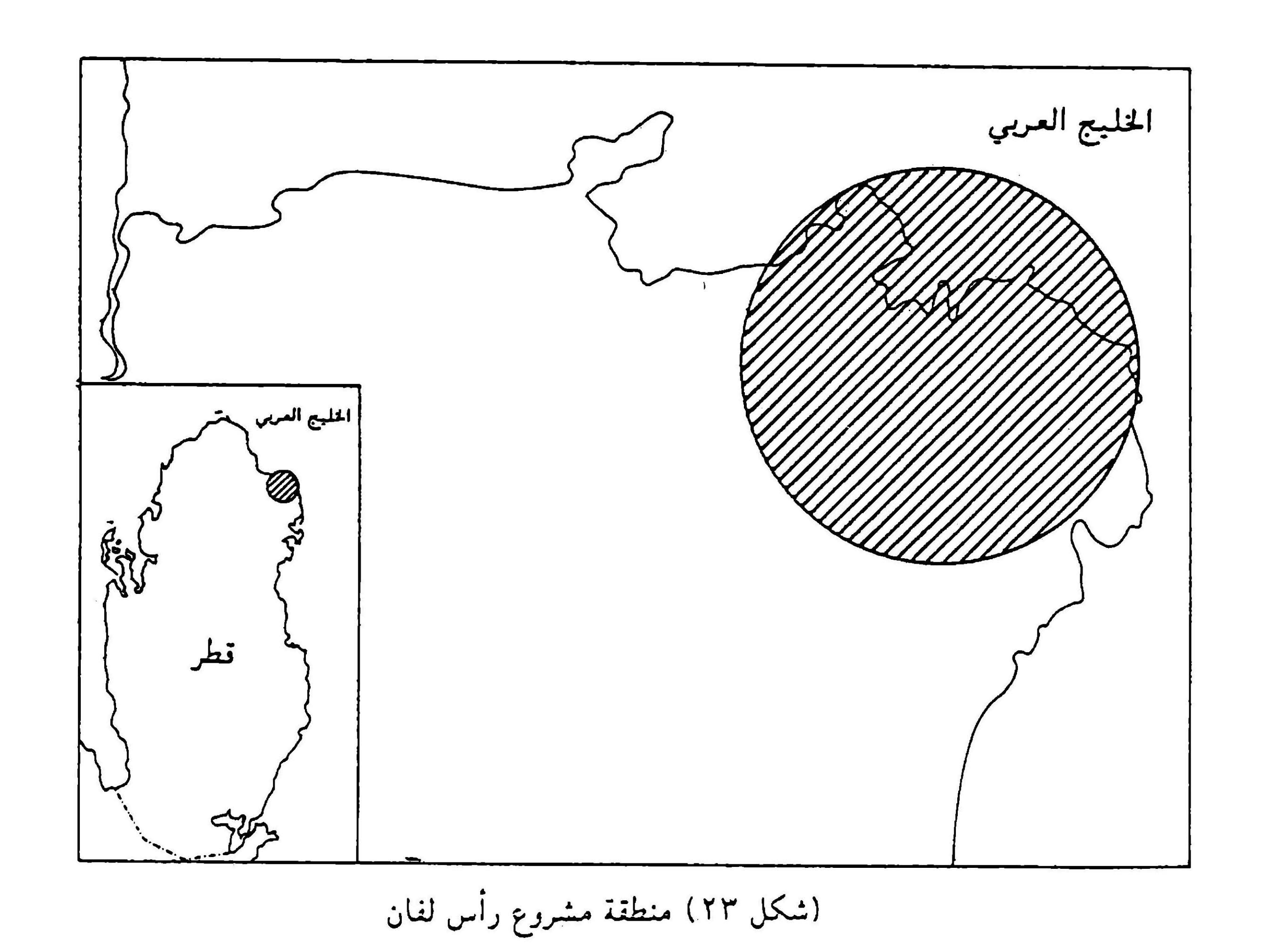
اقتصادياً : زيادة الدخل القومي وبالتالي رفع مستوى معيشة المواطنين .

بيئياً : استغلال وظهور مناطق جديدة وتعمير للبيئة الصحراوية بالمنطقة لكن للمشروع مردود سلبي أيضاً من الترسيب والتلوث وخلافه .

وعلى الرغم من أن المشروعين سيعملان على زيادة المشاريع السياحية وإعادة توزيع السكان واتزانهم إلا أنه يجب العمل على دراسة تأثيرهما على الحواف الشاطئية لمنطقة المشروع وكذا للمناطق المجاورة ذات أهمية قصوى كي يمكن تلافي سلبيات تلك المشاريع وخاصة من ناحية التلوث وتغيير ملامح الساحل علماً بأن الساحل الغربي مازال غير مستغل وخالي من الأنشطة عدا منطقة دخان وأم باب فقط كذلك النهضة السياحية التي تشهدها البلاد ودخول دولة قطر في صناعة السياحة مما يعطي دراسة للحواف الشاطئية حيث أن العديد من صور السياحة متعلق بالسواحل والحواف الشاطئية ومازال الكثير منها غير مستغل بعد .



(شكل ٢٢) مشروع بحيرة الخليج الغربي



(شكل ٢٣) منطقة مشروع رأس لفان

الجزء الثالث : بدائل توزيع استعمالات الأراضي المختلفة لمناطق الحواف الشاطئية وعلاقتها بالاستعمالات الداخلية وتمركز السكان مع تقييم للبدائل واختيار البدائل الأمثل :

١/٣ بدائل توزيع استعمالات الأراضي المختلفة لمناطق الحواف الشاطئية :

لوضع بدائل استعمالات الأرض للحواف الشاطئية يجب تجميع كافة التحاليل الخاصة بتلك المناطق ، وعليه يمكن تقسيم شبه جزيرة قطر إلى خمسة أجزاء . (الأشكال ٢٤ - ٣٩) .

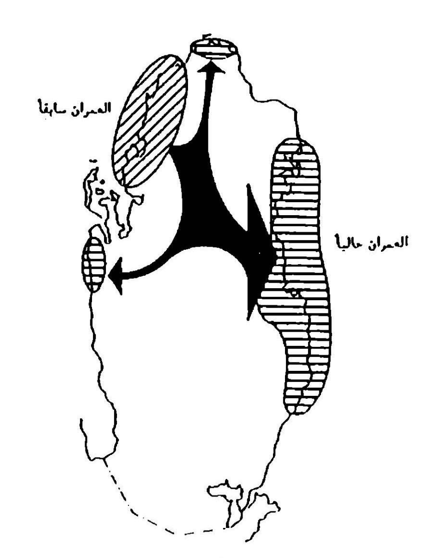
١/١/٣ الجزء الشمالي : نجد أنه محمي طبيعياً من الحواف الرملية وهي تعتبر مصدر رئيسي للتيارات البحرية المحملة بالرمال الناعمة من جهة والشعب (الفشوت) من جهة أخرى (منطقة تلوث في الركن الشمالي الغربي منه) (شكل ٣٨) .

٢/١/٣ الجزء الشرقي : وهو يعتبر منطقة تمركز للسكان وبداية مناطق التلوث بدءاً من موقع مشروع رأس لفان - ثم ميناء الدوحة - ثم ميناء مسيعيد على الرغم من وجود مناطق رمال شاطئية ومناطق مزروعة بنباتات المانجروف وتعتبر أحد مصادر الثروة السمكية .

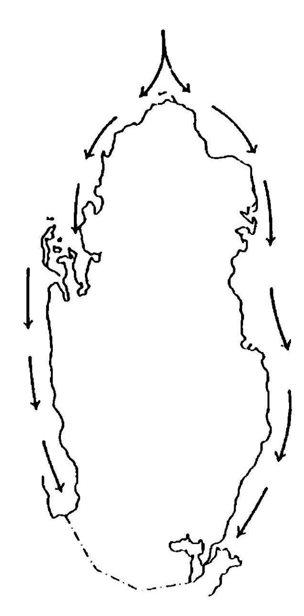
٣/١/٣ الجزء الشرقي والجنوبي : وهي منطقة رمال وبعض مناطق السبخات ومدخل منطقة خور العديد ذات الرمال الناعمة وتعد من أجمل المناطق للاستغلال السياحي والصيد إلا أنها نقطة تجمع لكافة الترسبات والملوثات نتيجة لفعل التيارات البحرية الشمالية .

٤/١/٣ الجزء الغربي : هي منطقة الشعب المرجانية والجزر وبها أكبر خزانات البترول الجوفية وعليه فهناك منطقة تلوث من الصناعات القائمة ، هذه المناطق أو الحواف الساحلية ذات طبوغرافية مختلفة عن باقي مناطق شبه جزيرة قطر فهي تعتبر من مناطق الجذب السياحي .

٥/١/٣ الجزء الغربي الجنوبي : هي منطقة ضحلة كلها رمال وبها مناطق تمركز للثروة السمكية ومازالت غير مستغلة ومن خلال هذا التصنيف السريع يمكن وضع البدائل .



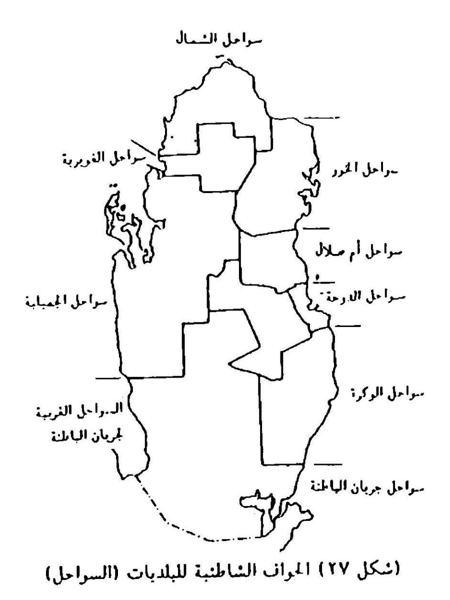
(شكل ٢٤) إنتقال العمران من الساحل الغربي سابقاً إلى الساحل الشرقي حالياً



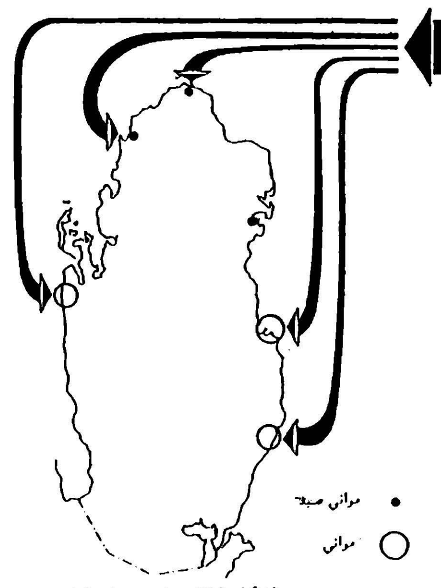
(شكل ٢٥) إتجاه التيارات البحرية



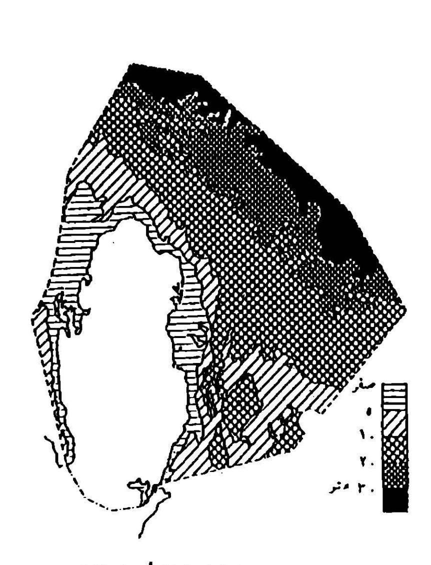
(شكل ٢٦) التكتل الحضري



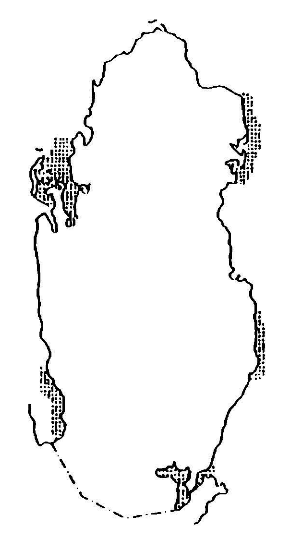
(شكل ٢٧) الحواف الشاطئية للبلديات (السواحل)



(شكل ٢٨) مواقع تصلح لمواني



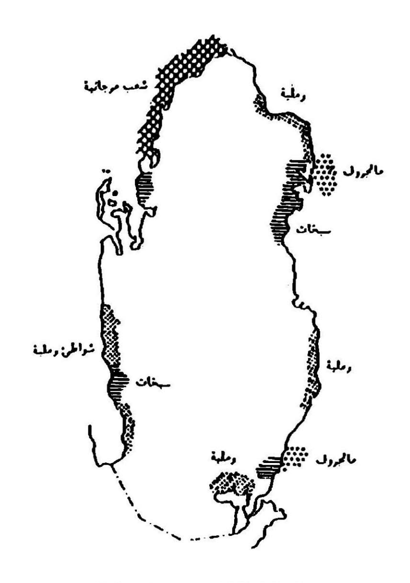
(شكل ٢٩) أعماق المياه



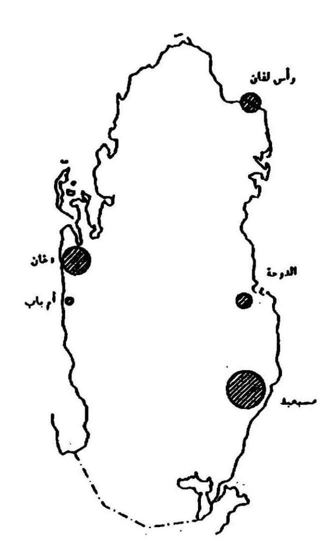
(شكل ٣٠) مناطق تجمع الأسماك



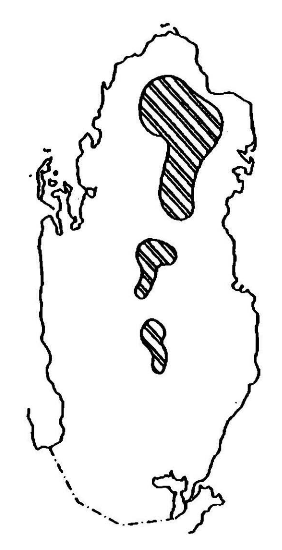
(شكل ٣١) مناطق التلوث الساحلي



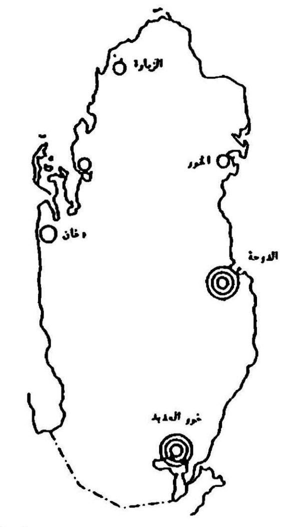
(شكل ٣٢) تصنيف السواحل



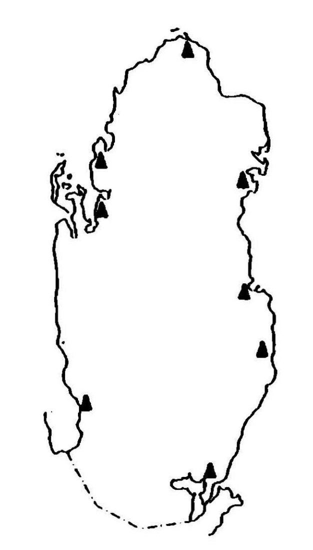
(شكل ٣٣) تمركز المناطق الصناعية



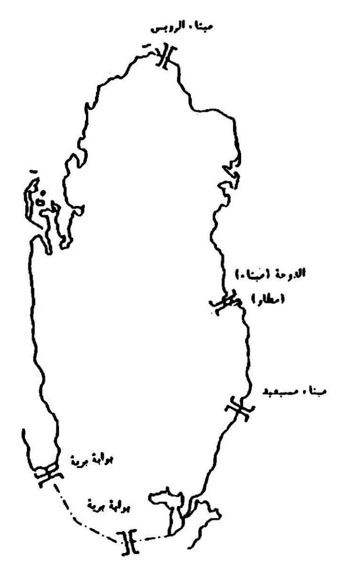
(شكل ٣٤) تمركز المناطق الزراعية



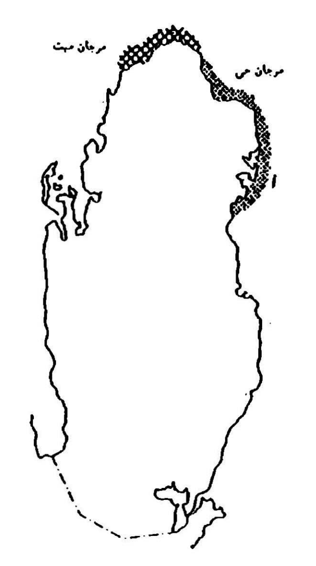
(شكل ٣٥) مناطق بها مقومات سياحية



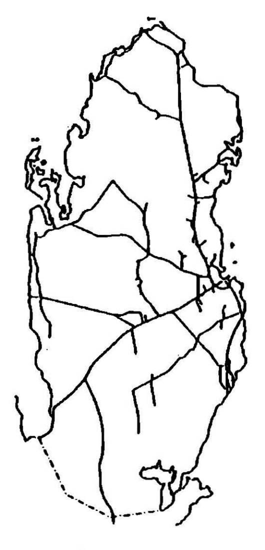
(شكل ٣٦) مناطق تصلح كمواني لصيد الأسماك



(شكل ٣٧) مداخل ومخارج الدولة برأ وبحرأ



(شكل ٣٨) توزيع مناطق المرجان الحي والميت



(شكل ٣٩) شبكة الطرق

من خلال هذا البحث تم وضع ثلاثة بدائل لتوزيع استعمالات الأراضي على مناطق الحواف الشاطئية وبنيت هذه البدائل على أسس وهي :

- توزيع السكان وتمركزهم في شبه جزيرة قطر .
- توزيع المناطق الصناعية وعلاقتها بالمواني .
- التلوث والتيارات البحرية .
- استغلال المناطق ذات المقومات السياحية والثروات السمكية .
- الحفاظ على البيئة الزراعية والبحرية .

ومن هذا المنطلق أمكن وضع بدائل الحل وهي :

البديل الأول : وهو تمركز السكان وكذا الاستعمالات الصناعية والمواني على الساحل الشرقي . أما الساحل الغربي فيستخدم للسياحة والترفيه والصيد عدا منطقة الصناعات الاستخراجية (دخان) أما الساحل الشمالي الشرقي ذو الحماية الطبيعية للترفيه . (شكل ٤٠/أ) .

البديل الثاني : وهذا البديل يعمل على نقل المواني والمناطق الصناعية إلى الساحل الغربي نظراً لوجود الصناعات الاستخراجية بهذا الساحل وكذا بالنسبة لأنابيب الغاز الطبيعي المسال إلى مواقع المواني بهذا الساحل والعمل على إخلاء الساحل الشرقي من الملوثات ومعالجة الترسيب حيث يتمركز السكان بهذه الحواف الشاطئية للساحل الشرقي كذا زيادة نسبة مسطحات نبات المانجروف ومناطق تمركز الثروة السمكية والحفاظ عليها . (شكل ٤٠/ب) .

البديل الثالث : وهو عبارة عن استغلال المناطق غير المستغلة حالياً مع العمل على معالجة التلوث والترسيب ومحاولة خلق أنشطة على الساحل والحواف الشاطئية الغربية كي يكون هناك اتزان في توزيع الأنشطة الذي سوف يعمل على جذب السكان أيضاً . (شكل ٤٠ جـ) .

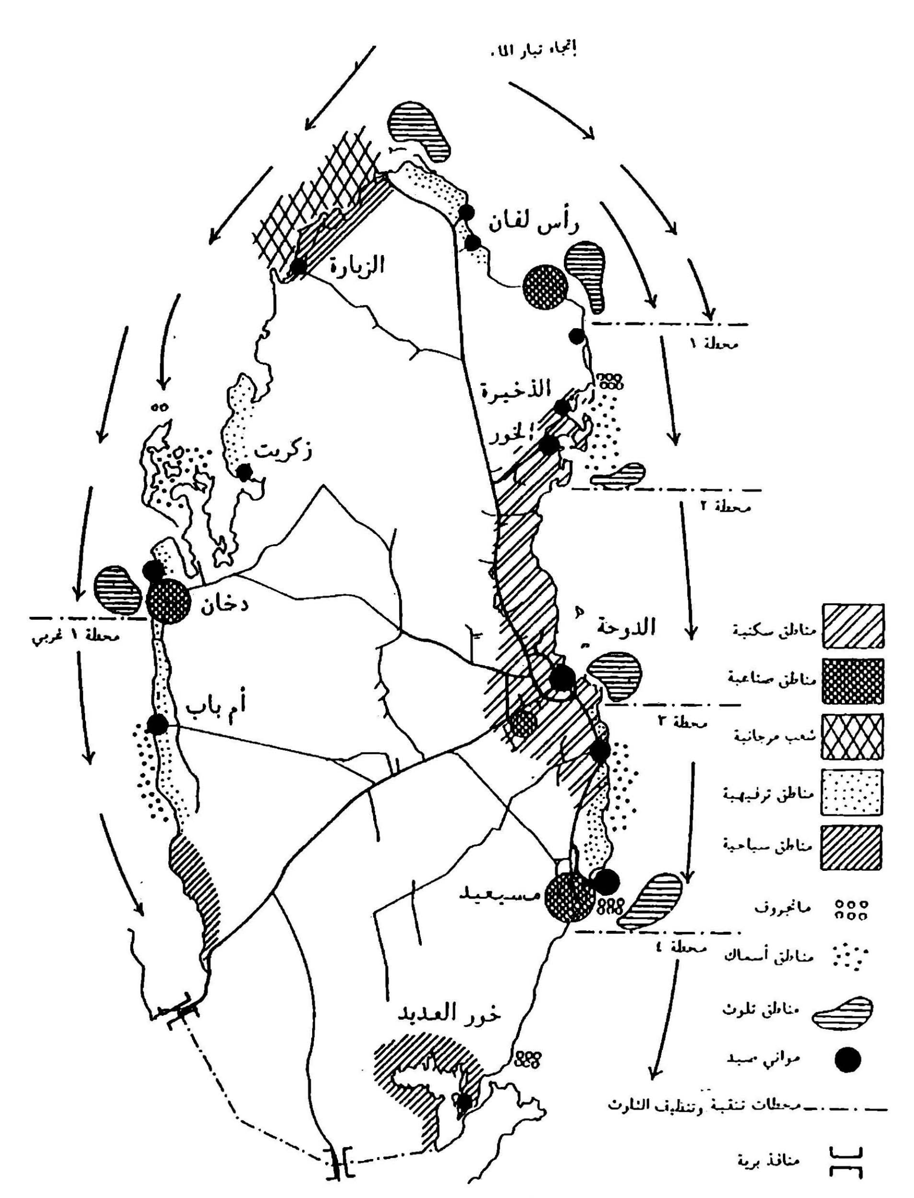
ويمكن تقييم البدائل الثلاثة من خلال تأثير كلاً منها على : النواحي الطبيعية ، الاجتماعية ، الاقتصادية والبيئية . وعليه :

مناطق سكنية
مناطق سياحية
مناطق ترفيهية
مواني صيد أسماك
مواني
مناطق صناعية
الدوحة
مسيعيد
دخان
أم باب

(شكل ٤٠ أ) البديل الأول
لاستعمالات أراضي الحواف الشاطئية

رأس لفان
نقل الغاز
الزبارة
حركة نقل الغاز المسال
زكريت
تمركز الصناعة ومواني
أم باب
تمركز العمران
مناطق سياحية
مصدر الغاز
مواني صيد
تجمع الصناعة والميناء الرئيسة

شكل ٤٠ ب) البديل الثاني
لاستعمالات أراضي الحواف الشاطئية



(شكل ٤٠ جـ) البديل الثالث : (البديل المختار)

لتوزيع استعمالات أراضي الحواف الشاطئية

فالبديل الأول :

- يعمل على زيادة تمركز السكان بالساحل الشرقي وانعدامهم بالساحل الغربي وبالتالي تمركز الأنشطة .
- تدمير للبيئة البحرية والنباتية نتيجة لزيادة نسب التلوث بالحواف الشاطئية .
- زيادة ملوحة المياه وخاصة بالمناطق الجنوبية والمياه الجوفية مما سيؤثر على الزراعات .
- خطورة تعمير ساحل واخلاء آخر من جهة أخرى إدارياً وسياسياً .

البديل الثاني :

- هذا البديل اقتصادياً غير ممكن نظراً لأن تكلفة نقل الموانى والغاز غير ممكن علاوة على زيادة مسارات رحلة الناقلات للوصول إلى الساحل الغربي .
- نقل الأنشطة إلى جهة الغرب يعمل على جذب السكان معه هذا يعني وجود تجمعات ساحلية على شواطئ ملوثة وتدمير البيئة الطبيعية والتي لها مقومات سياحية .

البديل الثالث :

وهو أكثر البدائل واقعية مع العمل على معالجة السلبيات من ترسيب وتلوث والعمل على اعادة استغلال المناطق ذات التاريخ القديم بالساحل الغربي والتعرف على المقومات السياحية بهذا الساحل لوضع الخطط لتوطين أنشطة تعمل على إحياء الحواف الشاطئية بالمنطقة وجذب السكان تباعاً .

من خلال هذا البديل يمكن رسم استراتيجية واضحة للاستعمالات كما هو موضح (الشكل ٤٠ ج) على أن يكون هناك تخطيط معتمد لضمان تنفيذ الخطة على مراحل ؛ وهذه الاستراتيجية آخذة في الاعتبار إلى :

- توزيع السكان والأنشطة المستقبلية وعدم التمركز في جانب واحد .
- توجيه الاستثمارات تجاه المناطق المطلوب تعميرها .
- الخطط السياحية المستقبلية بالدولة وكذا سياسات التصنيع والنقل البحري .

الخلاصة والتوصيات :

لاستخدام الحواف الشاطئية أمثل استخدام أو استعمال ولعدم إهدار أي موارد سواء طبيعية أو اجتماعية وكذا الحفاظ على البيئة الطبيعية والبحرية يجب العمل على :

- دراسة مناطق التلوث والتي لها تأثير على باقي المناطق المجاورة كما هو واضح (بالشكل ٤٠ ج) فهناك أربعة محطات[٧] على الساحل الشرقي وواحدة على الساحل الغربي وهذه المحطات تعمل على تنظيف ومنع تلوث المناطق التالية لها . حيث أن إهمال البيئة يمثل هدراً للمجتمع ، وعليه يجب عمل برامج لحماية البيئة الطبيعية والبحرية من التلوث وأن تكون الاعتبارات البيئية هي أحد الضوابط التي يحسب حسابها في خطط التنمية ومشروعاتها التنفيذية .
- الحفاظ وزيادة الرقعة المزروعة من نباتات المانجروف لذلك ينبغي أن تحظى هذه التجمعات الطبيعية بالحماية والرعاية لما لها من أهمية بيئية واقتصادية وذلك عن طريق :
  - ترشيد الاستخدام الترويحي بالمنطقة .
  - تكثيف الجهد لدراستها (مناطق نباتات المانجروف) دراسة عملية ووضع تقويم موضوعي متكامل بخصائصها وأوجه الافادة منها في الأغراض المختلفة .
  - دراسة إمكانية زيادة انتاجه بطريقة اصطناعية لاستزراعه في البيئات المشابهة (فقد تم فعلاً استزراعها من قبل بلدية الدوحة في الركن الشمالي الشرقي من الدولة) .
- العمل على الحد من زيادة تراكم الارسابات الرملية والبحرية المنتشرة على الساحل مكونة حواجز وجزر رملية تعمل على ضحالة المياه أمام الساحل وزيادة نسبة ملوحتها وتعرقل الملاحة ونتيجة لذلك طمرت الارسابات معظم أجزاء المواني كالخور والوكرة حتى كادت تزول وبالتالي تركز الاقتصاد والتمركز البشري في نقطة معينة كذا النشاط الصناعي بمنطقة الدوحة ومسيعيد .
- استغلال الشواطئ والحواف الرملية لبرامج السياحة سواء الداخلية أو الخارجية والعمل على تعمير تلك المناطق .

- استغلال الحواف الشاطئية ذات الشعب المرجانية في سياحة الغطس والصيد وتربية الأسماك .
- هناك مناطق متفرقة على سواحل شبه جزيرة قطر يجب العمل على إعادة استخدامها كمرافئ وموانئ طبيعية للصيد حيث أنها كانت قديماً تتصف بهذا النشاط ومنها منطقة العريش - الزبارة - زكريت .
- العمل على إبراز دور ميناء د خان ، حيث أن من الجانب الاقتصادي يجب تخطي العقبات الطبيعية وتعميق القناة أمامه واستغلال المد والجزر في دخول وخروج السفن .
- استغلال طبوغرافية منطقة دخان والتي تتميز بالارتفاع في عمل مصايف وأماكن للراحة والاستجمام (قرى سياحية) علماً بأن المياه الجوفية متوفرة بالمنطقة وبذلك تظهر منطقة حيوية نشطة على السواحل الغربية تعمل على جذب العمالة والسكان وتعميرها .
- دراسة لمواقع تمركز الثروة السمكية والحفاظ عليها وزيادتها مع إنشاء موانئ للصيد بتلك المناطق لزيادة الانتاج البحري من الأسماك .
- العمل على الحفاظ وزيادة الثروة السمكية بمنطقة خور العديد حيث أن الأسماك هاجرت نتيجة لتلوث السواحل بالمخلفات الصناعية بمنطقة مسيعيد إلى منطقة خور العديد فهي أصبحت من أفضل المناطق لصيد الأسماك - كذا خفض نسبة ملوحة مياه الخور .
- الإقلال من المشاريع التي يستخدم فيها الحفر والردم لعدة أسباب منها :
  - تغيير الملامح الطبيعية للحواف الشاطئية .
  - تدمير للبيئة الطبيعية والبحرية .
  - زيادة نسب الارسابات بتلك المناطق .
- استغلال المناطق التي بها مياه جوفية عذبة لزراعتها كمناطق ظهير زراعي للحواف الشاطئية ، وذلك لزيادة فرص العمل ولمنع امتداد العمران بتلك المناطق .
- إعداد شبكة طرق على المستوى القومي لخدمة كافة المناطق ولتسهيل الوصول إليها لسرعة وسهولة تعميرها والحفاظ عليها حيث في أغلب الأحوال يصعب الوصول إلى مناطق الحواف الشاطئية .

الهوامش

(١) Al Sheeb A, Coastal Geomorphology at the Coast of Qatar Peninsula PH.D. thesis , 1988.

(٢) محمود محمد عاشور ، السبخات في شبه جزيرة قطر ، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، الدوحة ، ١٩٩١م .

(٣) الشيب ، مصدر سابق .

(٤) أحمد خالد علام ، تخطيط المدن ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

(٥) محمود محمد عاشور ، بعض الضوابط البيئية التي تؤثر على نشأة وتطور الموانئ في شبه جزيرة قطر ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ، الكويت ، ١٩٨٥م .

(٦) الجهاز المركزي للإحصاء ، السكان ، ١٩٨٦م ، الدوحة ، قطر .

(٧) المقصود بالمحطات هي عبارة عن خطوط تجميع التلوث والتي يجب العمل على تنظيفها أولاً بأول حتى لا تتأثر المناطق التالية لكل محطة ويصبح السطح المائي نظيفاً لحد ما .

المراجع

أولاً : المراجع العربية :

١- أحمد خالد علام ، تخطيط المدن ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

٢- اعتماد علام ، النمو الحضري والمدن الجديدة في المجتمع القطري ، جامعة قطر ، الدوحة ، ١٩٩٣م .

٣- حسن الخياط ، المدينة العربية الخليجية ، جامعة قطر ، الدوحة ، ١٩٨٨م .

٤- دراسة قطاع السياحة في دولة قطر ، المجلس الأعلى للتخطيط والأمانة العامة ، الدوحة ، ١٩٩٠م .

٥- سارة الزمان ، مراكز العمران بدولة قطر (رسالة ماجستير) ، جامعة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

٦- عادل عوض ، دور الإعلام في تكريس أسس الصحة والتربية البيئية ، مجلة قطر للإنشاء ، العدد ٣٠ ، المجلد الثالث ، الدوحة ، ١٩٩١م .

٧- علي الشيب ، أثر الإنسان في أيكولوجية ومورفولوجية الساحل القطري ، بحيث مقدم لندوة التصحر واستصلاح الأراضي في منطقة مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، جامعة الخليج العربي ، البحرين ، ١٩٩٣م .

٨- عز الدين الدنشاوي ، شكل البيئة والتربية البيئية (وقائع ندوة التصورات المستقبلية لجامعة الخليج العربي) ، البحرين ، ١٩٨٣م .

٩- محمد سعيد صباريني ، البيئة إطارها ومعناها ، جمعية حماية البيئة ، الكويت، ١٩٨٣م .

١٠- محمد متولي - محمود أبو العلا ، جغرافية الخليج ، الكويت ، ١٩٨٢م .

١١- محمود محمد عاشور ، السبخات في شبه جزيرة قطر (دراسة جيوموفولوجية ، جيولوجية ، حيوية) ، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، جامعة قطر ، الدوحة ، ١٩٩١م .

١٢- محمود محمد عاشور ، بعض الضوابط البيئية التي تؤثر على نشأة وتطور الموانى في شبه جزيرة قطر ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ، الكويت ، ١٩٨٥م .

١٣- فنيس أسعد عبد الملك ، وطارق عبد الغني ، التنمية الاقتصادية والاجتماعية بدول الخليج العربي في ضوء الاعتبارات البيئية ، ندوة الرؤية المستقبلية للتنمية وحماية البيئة ، جامعة قطر ، الدوحة ، ١٩٨٠م .

١٤- نبيل سيد امبابي ، ومحمود عاشور ، الكثبان الرملية في شبه جزيرة قطر ، الجزء الأول ، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، جامعة قطر ، الدوحة ، ١٩٨٣م .

١٥- نبيل سيد امبابي ، الخريطة المرفولوجية لاقليم خور العديد ، منشورات الجمعية الجغرافية الكويتية ، قسم الجغرافية ، العدد ٤٧ ، الكويت ، ١٩٨٢م .

١٦- نبيل سيد امبابي ، التغلغل البحري للساحل القطري ، مجلة جمعية الجغرافيين الكويتية ، قسم الجغرافية ، العدد ٧٠ ، الكويت ، ١٩٨٤م .

١٧- وزارة الصحة العامة بالكويت ، إدارة حماية البيئة ، كيف نحمي هواءنا من التلوث ، العدد الثاني ، الكويت .

١٨- الجهاز المركزي للإحصاء ، قطر ، الدوحة ، ١٩٨٦م .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

1 - Al - Sheeb A., Costal Geomorphology of the Coast of Qatar Peninsula, PHD . thesis, 1988 .

2 - A . Breen - D. Rigby Water - Front. New York, 1994.

3 - B. Gallion - S. Eisner, the Urban Pattern. New York, 1986.

4 - World Conservation Monitoring Center Gulf War Environmental Monitoring Service, 1991.

هيكل الصناعات التحويلية في دولة قطر وانتشارها الجغرافي

د. نظام عبد الكريم الشافعي

قسم الجغرافيا - جامعة قطر

مقدمة :

اتجهت دولة قطر نحو الصناعة كقطاع اقتصادي أكثر قدرة على تحقيق أهداف التنمية الاقتصادية في ظل الظروف الطبيعية والبشرية التي تتميز بها قطر .

وما إن بدأ انتاج النفط في الدولة في عام ١٩٤٩م حتى بدأت قطر ، الدولة الصغيرة ، في تبني الخطط التنموية في جميع المجالات البشرية والاقتصادية والعمرانية والخدمية . ومن الخطأ أن نتصور أن قطر ومعها الدول العربية الخليجية لم تبدأ خطوات التنمية إلا بعد تحسن أسعار البترول في منتصف السبعينيات والذي أدى بالتالي إلى زيادة الايرادات المالية لهذه الدول .

والحقيقة أن هذه الدول منذ أن كانت إمارات قبل استقلالها تنبهت إلى أهمية الاستفادة من إيرادات النفط في تنمية مجتمعاتها وأفراد شعوبها علمياً واجتماعياً ، ففي قطر بدأ أول مشروع تنموي شامل في عام ١٩٦٣[١] ، وتلته مشاريع صناعية كبيرة مثل تأسيس شركة مطاحن الدقيق وشركة الاسمنت ومصنع الأسمدة ومصفاة النفط حيث وجدت جميعها قبل عام ١٩٧٣م ، وقس على ذلك الخطط التنموية غير الاقتصادية والصناعية وخاصة في مجال التنمية البشرية التي كانت بمثابة الوجه الآخر للعملة .

وأصبحت الصناعة في قطر ، مع الوقت ، تلعب دوراً مهماً في النشاط الاقتصادي

للدولة وخاصة في فترة الأزمات الاقتصادية بسبب تدني أسعار البترول أو الحروب الإقليمية وخاصة في ثمانينيات هذا القرن .

فعلى سبيل المثال ، فقد بلغ عدد المنشآت الصناعية في نهاية ١٩٩١ حوالي ٣٢١ منشأة من التي يعمل بها عشرة عمال أو أكثر ، بلغ مجموع العاملين بها حوالي ١٨ ألف عامل وقيمة الأموال المستثمرة فيها بلغت حوالي ٨٤٠٠ مليون ريال قطري . وقد تطورت في نفس الوقت مساهمة القطاع الصناعي عبر الوقت من حوالي ٣٪ في عام ١٩٧٥ إلى حوالي ٥ر١٤٪ في عام ١٩٩٢ من اجمالي قيمة الناتج المحلي[٢] .

وتنوعت الصناعة القطرية ، حيث اشتملت على جميع النوعيات الصناعية حسب التصنيف الدولي ، وتنتشر على مساحة كبيرة من أرض الدولة بلغ عدد مواقعها ٢٣ موقعاً ، من أبرزها مدينة مسيعيد الصناعية ومنطقة الدوحة الصناعية ومدينة الدوحة ، العاصمة ، ومدينة أم باب وما جاورها ومدينة رأس لفان الصناعية في شمال شبه الجزيرة وهي في طور الإنشاء والتطوير .

منهجية الدراسة وأهدافها :

تعتمد الدراسة على البيانات الإحصائية للقطاع الصناعي التي تصدرها أجهزة الدولة المعنية في قطر . وعلى درجة الخصوص المسوحات الصناعية السنوية من قبل الجهاز المركزي للإحصاء ، علماً بأن المسح الأول قد صدر في عام ١٩٨٢ ، وآخره ويحمل رقم (١٢) قد صدر في مايو ١٩٩٣م يحدد معالم الصناعة إحصائيا لعام ١٩٩١م .

والمصدر الآخر للبيانات المستخدمة هو إدارة التنمية الصناعية بوزارة الطاقة والصناعة ، وخاصة دليل عام ١٩٩٢ الخاص بالمنشآت الصناعية المسجلة والمرخصة في الدولة حتى نهاية عام ١٩٩١ والصادر في مارس ١٩٩٢م . وفي هذه الحالة قام الباحث بفرز البيانات وعمل الجداول التفصيلية الواردة في البحث .

وتحليل البيانات هو الأسلوب المتبع في هذه الورقة للتعرف على الوضع الصناعي في دولة قطر والتغيرات أو التطورات التي طرأت كماً ونوعاً وموقعاً وانتاجاً . واضعاً في الاعتبار محاولة تحقيق الأهداف الآتية :

١- التأكيد على أن للبترول الدور الأكبر في توجه دولة قطر نحو التصنيع .

٢- مدى اختلاف الصناعة في قطر عن مثيلاتها الخليجيات أو تشابهها .
٣- التعرف على خصائص الصناعة في قطر من حيث الأحجام والعاملين والنوعية والمواقع .
٤- مدى التطور الذي حدث للواقع الصناعي القطري ، بمقارنته بفترات سابقة .

مجال وحدود الدراسة :

تتضمن الدراسة المنشآت الصناعية التي تتفق مع التعريف الوارد في قانون التنظيم الصناعي في دولة قطر الذي يحمل رقم ١١ والصادر في عام ١٩٨٠ . حيث يعرف القانون المنشأة الصناعية بأنها التي يعمل بها ١٠ أفراد أو أكثر ولا يقل رأسمالها عن ربع مليون ريال قطري . أي أن المنشآت الصناعية الحرفية والمهنية لا تدخل ضمن هذه الدراسة وهي في الحقيقة تساوي ، بأقل تقدير ، خمسة أضعاف المنشآت الصناعية تحت الدراسة[٣] .

هموم النفط : الانطلاقة الكبرى :

إن هموم النفط التي يحملها أهل الخليج لهي المحرك الأول والأكبر في التفكير في التنمية الشاملة والتنمية الصناعية على وجه الخصوص . وقد اختلفت هذه الهموم البترولية في هذه المنطقة الصحراوية من العالم العربي مع الوقت .

ويمكننا تحديد هموم أربعة وهي كالآتي :

١- هم نضوب النفط : وهو الأقدم ، وبالتالي عودة الحياة الصعبة لأهل الخليج من جديد ، لذا يجب تمديد عمره والانتاج حسب الحاجة .
٢- هم الاستغناء عنه : بمحاولات دول الغرب الكشف عن مصادر بديلة للطاقة بدلاً من البترول ، وترصد في سبيل ذلك الميزانيات الضخمة . وبالتالي قد يصبح البترول مادة لها منافس .
٣- هم انخفاض أسعاره : وخاصة أن العرض منه أكبر من الطلب عليه ، بسبب استراتيجيات التخزين من قبل الدول الغربية أو بسبب الكشف الكبير والمستمر عنه في أرجاء العالم المختلفة .

٤- أما الهم الأخير ، وهو الأحدث ، فمتعلق بضريبة الكربون أو الطاقة التي تحاول الدول الغربية فرضها على الدول المنتجة للبترول والغاز بواقع ٣ دولارات بأقل تقدير على البرميل الواحد . وبالتالي انخفاض ايرادات دول الخليج ، وقد قدر بحوالي ١٨ مليار دولار بحلول عام ٢٠٠٠ إذا ما بدئ في تنفيذه .

ولكل هذه الهموم ، ان اصبحت واقعية ، آثار سلبية على دول الخليج ، وبالدرجة الأولى على قطر والكويت ذات الامكانات المحدودة جداً . وقد كتب في هذه الهموم كثير من الباحثين ، منهم على سبيل : الدكتور علي خليفة الكواري(٤) والأستاذ عبداللطيف الحمد(٥) .

وفي حالة قطر ، على سبيل المثال ، فإن احتياطي قطر من النفط بلغ في عام ١٩٨٩ حوالي ٥ر٤ مليار برميل ، أي حوالي ١٪ من احتياطي دول مجلس التعاون الخليجي ، ويكفي الاحتياطي المذكور لمدة ٣٠ عاماً بقياس انتاج عام ١٩٩٠ البالغ حوالي ١٤٨ مليون برميل . أما بخصوص الغاز ، فإن قطر تمتلك منه حجماً كبيراً ، فنسبة الاحتياطي منه في قطر تبلغ حوالي ٥٪ من الاحتياطي العالمي ، وتأتي بذلك في المرتبة الثالثة بعد كل من روسيا وإيران ، ويقدر العمر الزمني لبقائه طبقاً لانتاج عام ١٩٩٢ البالغ حوالي ٤٢٦ بليوم قدم٣ ، حوالي ٥٩٠ عاماً(٦) .

ومن جانب آخر ، فإن أسعار النفط القطري متذبذبة كغيره . فقد ارتفعت إلى أقصاها بين عامي ٨٠ - ١٩٨١ إلى حوالي ٣٧ دولاراً وانخفضت إلى حوالي ٨ دولارات عام ٨٦ - ١٩٨٧ ، ومن ثم ارتفعت أثناء حرب الخليج إلى حوالي ٢٣ دولاراً وبمتوسط بلغ حوالي ١٨ دولاراً . والآن (١٩٩٣ - ١٩٩٤) تشهد الأسعار انخفاضاً حيث المتوسط بين ١٢ - ١٣ دولاراً ، ومن المتوقع انخفاضها أكثر لزيادة المعروض منه وذلك لحاجة الدول إلى الايرادات وخاصة الخليجية ، بسبب ما فقدته وخسرته هذه الدول أثناء حرب الخليج(٧) . ونتيجة لهذا التذبذب ، يحدث الخلل بايرادات الدولة وتضطرب الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية المعتمدة على القطاع الحكومي بوجه خاص .

بسبب هذه الهموم مجتمعة والتي بدأت مع اكتشاف النفط ، أولت دول الخليج ومن ضمنها قطر ، التي تعتبر رائدة في المجال الصناعي الضخم في المنطقة ، التنمية الصناعية جل اهتمامها كقطاع اقتصادي مهم لتحقيق تنويع في مصادر الدخل

واستغلال المورد البترولي وايراداته بصورة أكثر مثالية . فقد بدأت التنمية الصناعية في قطر منذ فترة طويلة ، فعلى سبيل المثال ، فقد تأسس مصنع الأسمدة الكيماوية في قطر عام ١٩٦٩ ، ومصنع الاسمنت عام ١٩٦٥ ومصفاة النفط في عام ١٩٦٨ ، ومطاحن الدقيق عام ١٩٦٩ .

وجاءت زيادة أسعار البترول منذ ١٩٧٣ ، لتدفع التنمية الصناعية بشكل أكبر وأسرع مما كان متوقعاً ومخططاً لها .

ونقتبس الفقرة الآتية من تقرير المركز الفني للتنمية الصناعية المؤسس عام ١٩٧٣ لبيان الأهداف الاستراتيجية للتنمية الصناعية لدولة قطر : « استغلال فترة الرخاء النفطي لمواجهة المستقبل من خلال توسيع القاعدة الانتاجية وتقليل الاعتماد شبه الكلي على مصدر وحيد للدخل ، وبالتالي بناء اقتصاد متوازن يستطيع الصمود في وجه التقلبات التي تصيب قطاع النفط سواء كانت هذه الأسباب تكنولوجية أو اقتصادية أو سياسية ، ومن ثم تضمن للأجيال القادمة مستقبلاً أكثر طمأنينة عندما تنضب هذه الثروة أو لضعف قدرتها على مجابهة أعباء المستقبل »[٨] .

اختلاف قطر عن مثيلاتها الخليجيات في التنمية الصناعية :

كما يقولون ، بأنه ما من موقع أو مكان إلا ويعتبر فريداً ومميزاً عن غيره فالأماكن لا تتشابه تماماً ، حتى وإن كانت قريبة جغرافياً ، لأسباب طبيعية أو بشرية والعلاقات فيما بينهما . ونعتقد أن قطر في تنميتها الصناعية تختلف عن الدول الخليجية في بعض الصور والنقاط نوردها كما يلي :

١- اختلافها في الاستراتيجية التصنيعية مع معظم الدول الخليجية ، ولكنها قد تتفق مع البحرين ، من حيث أنها بدأت خططها الصناعية بالصناعات الثقيلة والكبيرة بملكية القطاع العام بالدرجة الأولى . على عكس الكويت مثلاً ، التي رصدت مبالغ وصلت إلى حوالي ٢٢٦ مليون دينار للخطة الخمسية الأولى والثانية للفترة من ٦٧ - ١٩٧٦م ، لاقامة الصناعات الخفيفية[٩] ، ولكن قطر رصدت أو أنفقت في البداية مبالغ تقدر بحوالي ٨٧٠٠ مليون ريال على الصناعات الثقيلة[١٠] .
ومن بينها مصنع الحديد والصلب المؤسس عام ١٩٧٤ ومجمع البتروكيماويات عام

١٩٨٧ كأقدم منشآت من حيث هذه النوعية في الخليج العربي .

٢- الريادة في استغلال الغاز المصاحب حيث وصلت نسبة الاستغلال في قطر إلى حوالي ٩٤٪ عام ١٩٩٠ بعد أن كانت فقط حوالي ٤٠٪ عام ١٩٧٥ . وبهذه النسبة فإنها تتقدم على متوسط استهلاك واستغلال الغاز الطبيعي المنتج في دول الخليج بحوالي ٩٪ [١١] . ومن أوائل المشروعات الصناعية في استغلال الغاز ، مع استثناء محطات توليد الطاقة الكهربائية ، مصنع الاسمنت في عام ١٩٦٩ ، حيث يستغل هذا المصنع حاليا حوالي ٢ر٢ بليون قدم٣ من الانتاج الكلي للغاز ، ومصنع الأسمدة الكيماوية منذ عام ١٩٧٣ ، بكميات تقدر الآن بحوالي ١٥٪ من انتاج الغاز [١٢] .

٣- مساهمة القطاع الصناعي من اجمالي الناتج المحلي في تطور مستمر ، فمن حوالي ٣٪ فقط عام ١٩٧٥ إلى حوالي ٥ر١٤٪ في عام ١٩٩٢ . فمن حوالي ٢٥٥ مليوناً إلى حوالي ٣٤٥٠ مليوناً للسنتين على التوالي [١٣] ، وأن نصيب الفرد في قطر من قيمة الناتج الصناعي يأتي في مقدمة الدول الخليجية البترولية ، كما هو واضح في الجدول رقم (١) ، حيث يرتفع فيها نصيب الفرد من قيمة الناتج الصناعي إلى حوالي ٢١٣٨ دولار للفرد في عام ١٩٩٠م ، مقارنة بالمعدل العام لدول الخليج البالغ ٧١٨ دولارا ، وينخفض هذا النصيب في كل من عمان والسعودية إلى أقل من المعدل العام ، بينما تأتي الكويت في المركز الثاني بنصيب يبلغ ١٦١٧ دولاراً للفرد . أما بخصوص مساهمة القطاع الصناعي من إجمالي الناتج المحلي ، فإن قطر تأتي في المرتبة الثالثة بين دول الخليج بعد كل من البحرين والكويت وذلك لعام ١٩٩٠ (انظر الجدول رقم ١) .

٤- الحوافز التشجيعية للصناعة : اعتمادا على القوانين المنظمة للنشاط الصناعي في دول الخليج تحتل قطر من حيث المزايا والحوافز غير المالية المرتبة الثانية بعد الكويت في سعر الأراضي الصناعية وسعر الكهرباء والاعفاءات المختلفة [١٤] . ولكن من حيث القروض الصناعية ، فمازالت القروض المالية صغيرة ، حيث أنها لم تقدم إلا لعدد محدود من المصانع وبمبالغ لا تتعدى ٦ر٣٣ مليون حتى عام ١٩٨٦ [١٥] ، على عكس حالة كل من الكويت والسعودية التي أقرضت مشاريع القطاع الخاص بشكل سخي خلال الفترات السابقة . فصندوق التنمية الصناعية

السعودي المؤسس في عام ١٩٧٤م قدم قروضاً لعدد ٣٨٠ مشروعاً صناعياً[١٦] .

جدول (١)

الدول الخليجية ونصيب الفرد من الناتج الصناعي ١٩٩٠

الدولة	عدد السكان بالألف	اجمالي الناتج المحلي بألف دولار	قيمة الناتج الصناعي بألف دولار	نسبة مساهمة الصناعة	نصيب الفرد بالدولار
الإمارات	١٨٤٤	٣٣٧٨٠	٢٥٢٠	٥ر٧٪	١٣٦٧
البحرين	٥٠٣	٣٩٠٣	٦٧٢	٢ر١٧٪	١٣٣٦
السعودية	١٤٨٧٠	١٠٠٥٤٤	٧٩٦٢	٩ر٧٪	٥٣٥
عمان	٢٣٧٩	١٠٦٢٢	٣٩٣	٧ر٣٪	١٦٥
قطر	٤٨٦	٧٣٨١	١٠٣٩	١ر١٤٪	٢١٣٨
الكويت	٢٠٤٨	٢٣٠٥٩	٣٣١١	٤ر١٤	١٦١٧
المجموع	٢٢١٣٠	١٧٩٢٨٩	١٥٨٩٧	٩ر٨٪	٧١٨

المصادر :

من حساب الباحث اعتماداً على البيانات الأساسية من :

- النشرة الاقتصادية ، الأمانة العامة لمجلس التعاون ، العدد السابع ، ١٩٩٢ ، ص ٧٩-٨٠ و ص ١٧٩ .
- بيانات الكويت خاصة بسنة ١٩٨٩ .

هيكل القطاع الصناعي في قطر :

أ - عدد المنشآت :

بصفة عامة ، فإن عدد المنشآت الصناعية بجميع مستوياتها الصغيرة والمتوسطة والكبيرة بلغ في عام ١٩٩٠ - ١٨٥٥ منشأة يعمل بها ١٧١٦٣ ، بعد أن كان عددها في عام ١٩٨٥م ١٢٠٢ منشأة يعمل بها ١٥٨٩٧ عاملاً .

أما بخصوص المنشآت - تحت الدراسة - فإن أعدادها تشهد نمواً . فالجدول (٢)

يبين أن عدد المنشآت من هذا الحجم قد وصل إلى ٢٠٨ منشأة في عام ١٩٨٥م وأصبح ٣٢١ منشأة في نهاية عام ١٩٩١ . علماً بأن نسبة التغير بالزيادة بلغت ٥٤٪ .
ولصدور القانون الصناعي أثره الفعال ، حيث زاد عدد المنشآت الصناعية بين ٨١ و ٨٥ بواقع ١٠٠٪ . وأن الزيادة السنوية في عدد المنشآت تبلغ حوالي ٢٠ منشأة ، كما هو المثال في ١٩٩١ بعدد ١٩ منشأة وأقصى عدد كان في عام ١٩٩٠ بعدد ٣٧ منشأة صناعية .

هذا ، وقد رخصت في عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٣ ما مجموعه ٥٩ منشأة ، مجموع العاملين بها ١٤٧١ عاملاً ومجموع الاستثمارات فيها حوالي ٤١١ مليون ريال قطري. وكأنه بالتالي ، يصبح عدد المنشآت الصناعية المسجلة والمرخصة والتي يعمل بها عشرة عمال أو أكثر حوالي ٣٨٠ منشأة بنهاية عام ١٩٩٣[١٧] .

ب - المنشآت من حيث النوعية :

تتوزع المنشآت على جميع الفروع الصناعية المعروفة عالمياً . ولكن الأكثر شيوعاً ووجوداً هي الصناعات التعدينية غير المعدنية (مواد البناء) بنسبة ٢٢٪ ، وتتعادل كل من الصناعات الكيماوية والآلية بنسبة ١٨٪ لكل منهما ، أما أقلها وجودا هي الصناعات المعدنية الأساسية بعدد منشأتين . وللفترة ٨٥ - ١٩٩١ ، فقد نمت الصناعات النسيجية (المنسوجات والجلديات) بنسبة ٦٥٠٪ أي ستة أضعاف ونصف، وتأتي الصناعات الآلية والأجهزة في المرتبة الثانية بنسبة نمو وصلت لحوالي ٨٠٪ للفترة نفسها ، انظر الجدول رقم (٣) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن المنشآت الغذائية والتعدينية غير المعدنية والورقية (الطباعة) أقدمها وجودا ، فدار العروبة للطباعة والنشر تعتبر أقدم المنشآت من حيث الحجم المذكور حيث انشئت عام ١٩٥٦م . ومن حيث الرخص الجديدة في عام ١٩٩٠ فإن منشآت النسيج والملابس والجلود هي الأكثر بنسبة تصل إلى ٣٠٪ أي بعدد ١١ من ٣٧ منشأة . أما في سنة ١٩٩١ فقد احتلت الصناعات الكيماوية المرتبة الأولى بعدد ٧ منشآت بنسبة ٣٧٪ من اجمالي المنشآت المرخصة والبالغ عددها ١٩ منشأة[١٨] .

وأخيراً فإن المنشآت الأكبر عمالة وانتاجا واستثمارات هي المنشآت الكيماوية

الكبيرة والواقعة بمدينة مسيعيد ، والتي تمتلك من قبل الحكومة بمفردها أو بمشاركتها مجموعة من الشركات الصناعية العالمية .

ونتيجة لمؤتمرات الرواج الصناعي التي تعقدها الجهات المختصة بين الحين والآخر الأثر في زيادة تنويع النشاط الصناعي ودخوله مجالات جديدة . كما في المؤتمرين الأول والثاني لعامي ٩١ و ١٩٩٢ للترويج عن ٣٦ مشروعاً صناعياً للقطاع الخاص .

ج - العمالة :

يبلغ عدد قوة العمل في المنشآت الصناعية لعام ١٩٩١م ١٨٢٤٥ بمتوسط ٥٦٫٨ عاملاً للمنشأة الواحدة . وقد تطور هذا العدد مقارنة مع عام ١٩٨٥ حيث كان عدد العاملين ١٢٧٠٨ عاملاً موزعين على ٢٠٨ منشأة بمتوسط عام بلغ ٦١ عاملاً لكل منشأة . أما أكثر النوعيات الصناعية عمالة فهي الصناعة المعدنية الأساسية وعلى رأسها مصنع الحديد والصلب الذي يعمل به حوالي ١٠٥٦ عاملاً ، وبمتوسط يبلغ ٥٩٢ عاملاً للمنشأة الواحدة . وفي المرتبة الثانية تأتي المصانع الكيماوية بمعدل ١٧٩ عاملاً للمنشأة الواحدة ، انظر الجدول (٢) .

وبتقسيم المنشآت الصناعية من حيث حجم العمالة كما هو وارد بالجدول(٤) ، نجد أن ١٣٧ منشأة يعمل بها بين ١٠ و ١٩ عاملاً ، وأن عدد المنشآت التي يعمل بها ٥٠٠ عاملاً لا يتعدى ٤ منشآت ، وإذا ما جمعت المجموعات الحجمية نجد أن معظم المنشآت يبلغ حجم العمالة بها بين ١٠ - ٤٩ عاملاً وبنسبة ٧٦٫٢٪ ، في حين أن المنشآت الصناعية التي يعمل بها أكثر من ١٠٠ عامل لا يتعدى عددها ٤٣ منشأة وبنسبة ١٣٫٥٪ . أي بمعنى أن المنشآت الصناعية في قطر تعتبر صغيرة الحجم .

وفي احدى الإحصائيات السنوية للجهاز المركزي للإحصاء عن المنشآت الصناعية (١٩٩١) وجد أن هناك ١٤٩٢ قطرياً يعملون بالصناعة من بين ١٨٢٥٢ عاملاً بنسبة لا تتعدى ٨٫٢٪ [١٩] . ومن هؤلاء حوالي ٤٧٠ يعملون في الصناعات المختلطة الكبرى [٢٠] .

د - رؤوس الأموال :

بلغت قيمة الأموال المستثمرة في القطاع الصناعي في قطر بنهاية ١٩٩١م ٨٤٠٣

مليون ريال باستثناء وحدتي تسييل الغاز اللتين لا تتوافر عنهما بيانات في هذا الشأن . وبالتالي فإن متوسط رأس المال للمنشأة الواحدة يبلغ ٢٦٫٢ مليون ريال قطري . وترتفع رؤوس الأموال المستثمرة قطاعياً كمتوسط في الصناعات المعدنية الأساسية « الحديد والصلب حيث يبلغ المتوسط ١٢٠٣ مليون ريال . وتأتي الصناعات الكيماوية بمعدل ٧٥ مليون للمنشأة الواحدة .

ومما يجدر ذكره ، أن معظم الأموال المستثمرة هي وطنية ، ولكن من ضمن المنشآت الصناعية ، هناك ٤٠ منشأة تتواجد فيها مشاركات أجنبية / عربية في المتوسطة ، وأجنبية (أوروبية بالدرجة الأولى) في الكبيرة . و ٢٩ منها نسبة المشاركة حوالي ٤٩٪ حيث يسمح القانون بذلك ، و ٨ منشآت في حدود ٢٥٪ والثلاث الباقية أقل من ٢٥٪ . ونذكر هنا على سبيل المثال : أن مصنع الحديد والصلب تشارك فيه الحكومة بنسبة ٧٠٪ والثلاثين الأخرى لشركات يابانية ومجمع البتروكيماويات نسبة الاستثمار الوطني تبلغ ٨٤٪ والأجنبي تبلغ ١٦٪ وهي شركات فرنسية[٢١] .

أما في القطاع الخاص فإن المشاركة الأجنبية تكون في المنشآت الغذائية والخشبية والتعدينية غير المعدنية .

والجدول رقم (٥) يقسم المنشآت الصناعية إلى مجموعات وفئات من حيث قيمة رأس المال المستثمر . نستخلص منه أن معظم المنشآت صغيرة في استثماراتها حيث يبلغ عدد المنشآت التي يقل رأسمالها عن ٥ مليون ريال قطري ٢٢٨ منشأة أي حوالي ٧١٪ من مجموع المنشآت ، بينما الأكثر من ١٠٠ مليون لا يتعدى عددها ٨ منشآت وبنسبة ٢٫٥٪ .

جدول (٢)

المنشآت الصناعية في دولة قطر بنهاية ١٩٩١ حسب النشاط الصناعي (المسجلة والمرخصة)

الرقم الدولي	النوعية الصناعية	عدد المنشآت	النسبة المئوية	قوة العمالة			رأس المال مليون ريال قطري			
				الاجمالي	٪	المتوسط للمنشأة	الاجمالي	٪	المتوسط للمنشأة	المتوسط للعامل
٣١	صناعة المواد الغذائية والمشروبات والتبغ	٤٧	١٤ر٦	١٨٠٦	٩ر٩	٣٨ر٤	٥٥٢	٦ر٦	١١ر٨	ر٣٠١
٣٢	صناعة المنسوجات والملابس والجلود	٣٠	٩ر٣	٥٣٧٩	٢٩ر٥	١٧٩ر٣	١٣٠	١ر٦	٤ر٣	ر٠٢٤
٣٣	صناعة الخشب والمنتجات الخشبية بما فيها الأثاث	٣٤	١٠ر٦	٩٤٧	٥ر٢	٢٧ر٩	٥٥	ر٧	١ر٦	ر٠٦
٣٤	صناعة الورق ومنتجاته والطباعة والنشر	٢٣	٧ر٢	١١٠٦	٦ر١	٤٨ر١	٢٥١	-ر٣	١٠ر٩	ر٢٣
٣٥	صناعة الكيماويات والمنتجات الكيماوية	٥٧	١٧ر٨	٣٧٠٤	٢٠ر٣	-ر٦٥	٤٢٦١	٥٠ر٧	٧٢ر٨	١ر٢
٣٦	صناعة منتجات الخامات التعدينية غير المعدنية	٧٠	٢١ر٨	٢٦٣٩	١٤ر٥	٣٧ر٧	٤٢٨	٥ر١	٦ر١	ر١٦
٣٧	الصناعات المعدنية الأساسية	٢	ر٦٢	١١٨٤	٦ر٥	٥٩٢	٢٤٠٦	٢٨ر٦	١٢٠٣	-ر٢
٣٨	صناعة المنتجات المعدنية والماكينات والمعدات	٥٧	١٧ر٨	١٤٥١	-ر٨	٢٥ر٥	٣٢٣	٣ر٨	٥ر٧	ر٢٢
٣٩	صناعات تحويلية أخرى	١	ر٣	٢٩	ر٢	٢٩	٢	ر٠٢	٢	ر٠٧
	المجموع والمتوسطات	٣٢١	١٠٠	١٨٢٤٥	١٠٠	٥٦ر٨	٨٤٠٨	١٠٠	٢٦ر٢	ر٤٦١

المصدر : وزارة الطاقة والصناعة ، إدارة التنمية الصناعية والتراخيص الصناعية ، قائمة بالمنشآت المسجلة والمرخصة حتى نهاية ١٩٩١ ، الدوحة ، مارس ١٩٩٢م .

* جمعها ورتبها الباحث .

جدول (٣)

تطور عدد ونوعية المنشآت الصناعية في دولة قطر

بين عامي ١٩٨٥ و ١٩٩١

الرقم الدولي	النوعية الصناعية	١٩٨٥	٪	١٩٩١	٪	نسبة التغير
٣١	صناعة المواد الغذائية والمشروبات والتبغ	٣٥	١٦ر٨	٤٧	١٤ر٦	٣٤٪
٣٢	صناعة المنسوجات والملابس والجلود	٤	٢ر	٣٠	٩ر٤	٦٥٠٪
٣٣	صناعة الخشب والمنتجات الخشبية بما فيها الأثاث	٢٣	١١	٣٤	١٠ر٦	٤٧٪
٣٤	صناعة الورق ومنتجاته والطباعة والنشر	١٨	٨ر٧	٢٣	٧ر٢	٢٨٪
٣٥	صناعة الكيماويات والمنتجات الكيماوية	٤٣	٢٠ر٧	٥٧	١٧ر٨	٣٢ر٦٪
٣٦	صناعة منتجات الخامات التعدينية غير المعدنية	٤٩	٢٣ر٦	٧٠	٢١ر٨	٤٢ر٩٪
٣٧	الصناعات المعدنية الأساسية	٣	١ر	٢	٦ر	- ٣٣٪
٣٨	صناعة المنتجات المعدنية والماكينات والمعدات	٣٢	١٥ر٤	٥٧	١٧ر٨	٧٨ر١٪
٣٩	صناعات تحويلية أخرى	١		١		
	المجموع والمتوسطات	٢٠٨	١٠٠٪	٣٢١	١٠٠٪	٥٤ر٣٪

المصدر : نفس مصدر الجدول رقم (٢) .

جدول (٤)

توزيع المنشآت الصناعية حسب حجم قوة العمل

حجم قوة العمل	عدد المنشآت	النسبة المئوية
١٠ - ١٩ *	١٣٧	٤٢٫٦
٢٩ - ٤٩	١٠٨	٣٣٫٦
٥٠ - ٩٩	٣٣	١٠٫٣
١٠٠ - ٤٩٩	٣٩	١٢٫٢
٥٠٠ أو أكثر	٤	١٫٣
	٣٢١	١٠٠٪

* بعض قليل من منشآت هذه الفئة يعمل بها أقل من ١٠ ولكن برؤوس أموال أكبر من ربع مليون ريال قطري .

المصدر : نفس مصدر الجدول (٢) .

جدول (٥)

توزيع المنشآت الصناعية حسب حجم رؤوس الأموال بالريال القطري

فئة رأس المال	عدد المنشآت	النسبة المئوية
أقل من ١ مليون	٨٨	٢٧٫٤
من ١ - ٥ مليون	١٤٠	٤٣٫٦
حتى ١٠ مليون	٤٣	١٣٫٤
حتى ٥٠ مليون	٣٩	١٢٫٢
حتى ١٠٠ مليون	٣	٫٩
أكثر من ١٠٠ مليون	٨	٢٫٥
	٣٢١	١٠٠٪

المصدر : نفس مصدر الجدول (٢) .

المواقع الصناعية :

بتحليل البيانات الصناعية الصادرة عن إدارة التنمية الصناعية والتراخيص الصناعية ، فإن الصناعة تتخذ مواقع في ٢٣ مستوطنة على أرض الدولة . والجدول رقم (٦) يبين توزيع المنشآت الصناعية على المواقع وعلى رأسها الدوحة (العاصمة) ومدينة مسيعيد الصناعية ومنطقة الدوحة الصناعية . والشكل رقم (١) يبين تلك المواقع .

أولاً : مدينة الدوحة :

هي أقدم موقع للصناعة التحويلية في دولة قطر . وقد بدأت الصناعة الحديثة بها بعد انتاج البترول وبسبب تزايد حاجة المجتمع لمثل هذه الصناعات وخاصةج الغذائية ومواد البناء والطباعة ، حيث تعد تلك ، الأولى والأقدم من الصناعات وجوداً في قطر . أما اليوم ، فإن عدد المنشآت الصناعية بها من المتوسطة (دون الصغيرة) ٢٧ منشأة تمثل حوالي ٤ر٨٪ من إجمالي المنشآت في عام ١٩٩١ ، يعمل بها ٧٧٥ عاملاً وهم يمثلون حوالي ٣ر٤ من إجمالي العاملين في هذه الصناعات . ولكن بخلاف المواقع الأخرى ، فإن مدينة الدوحة تستقطب الغالبية العظمى من المصانع الصغيرة ذات الاتصال اليومي لسكانها وخاصة أنها تستحوذ على حوالي ٨٠ - ٨٥٪ من سكان الدولة . ومعظم الصناعات بها غذائية وخشبية وطباعة (ورقية) ، غير الملوثة ، ومتوسط عدد العاملين بمنشآت الدوحة يبلغ حوالي ٢٩ شخصاً ، أي أقل المواقع في هذا الجانب .

ولأنها أقدم المواقع ، فقد بدأت منشآتها بالهجرة إلى خارجها ، وخاصة عندما انشئت منطقة الدوحة الصناعية ، وخاصة مصانع مواد البناء والمصانع الكيماوية (الغازية) ، لأسباب تخطيطية وتجميلية ، ولأسباب انتاجية . فعلى سبيل المثال ، فإن مركز المدينة قد خلا من مثل هذه المنشآت الصناعية وتحولت إلى منطقة تجارية ، بعد أن كان مصنع الكوكاكولا والبيبسي كولا والمطابع ومصانع الثلج والمخابز ومعامل الطابوق والمناجر ومخازن الأخشاب (العمارات) تتركز في وسطها لسنين ماضية .

ومن حيث الملكية ، فإن الأرض الصناعية في مدينة الدوحة ذات ملكية خاصة ، ومساحاتها صغيرة ، وأن جميع المنشآت الصناعية ذات ملكية خاصة كذلك .

جدول (٦)

المواقع الصناعية في دولة قطر وبعض خصائصها ١٩٩١

الموقع	المنشآت		العاملين		ملاحظات بالنوعية والملكية
	العدد	٪	العدد	٪	
الدوحة العاصمة	٢٧	٨ر٤	٧٧٥	٣ر٤	معظمها غذائية وورقية - القطاع الخاص
مسيعيد	٢٠	٦ر٢	٤٣٠٣	٦ر٢٣	معظمها بترولية وكيماوية القطاع العام والخاص
منطقة الدوحة الحديثة	٢٣٥	٢ر٧٣	١٠٦٢٥	٢ر٥٨	متنوعة - القطاع الخاص
أخرى *	٣٩	٢ر١٢	٢٥٤٢	٩ر١٣	متنوعة وخاصة التعدينية القطاع الخاص
المجموع	٣٢١	٪١٠٠	١٨٢٤٥	٪١٠٠	

* أهمها : : طريق سلوى = ٦ منشآت ، الوكرة = ٥ منشآت ، الريان = ٣ منشآت وأم باب = ٣ منشآت .

المصدر : نفس مصدر الجدول (٢) .

ثانياً : مدينة مسيعيد الصناعية :

تقع على بعد ٤٠ كم جنوب العاصمة ، الدوحة ، وعلى الساحل الشرقي لشبه الجزيرة . وقد اقيمت بها أول مصفاة للنفط بها عام ١٩٥٣ لتكرير ٦٠٠ برميل يومياً. وفي الفترة الحديثة ، أصبحت المدينة تمثل المركز الرئيسي للصناعة في قطر ، وتعد المدينة ذات انتاج صناعي ضخم بسبب وجود المنشآت الصناعية الثقيلة بها . ومن أقدم المنشآت الصناعية بها هي شركة مطاحن الدقيق القطرية منذ عام ١٩٦٩ . ويبلغ عدد المصانع بها اليوم ٢٠ منشأة تمثل حوالي ٦ر٢٪ من اجمالي المنشآت الصناعية في الدولة ، وتعد بالتالي أقل المواقع الرئيسية في عدد المنشآت ، ولكن لها ، رغم ذلك ، أكثف العمالة للمنشأة الواحدة حيث تبلغ الكثافة العمالية في منشآتها حوالي ٢١٥ شخصاً ويبلغ مجموع العاملين بها ٤٣٠٣ عاملاً ، بنسبة ٢٤٪ تقريباً من اجمالي العاملين الصناعيين .

وبدءاً من عام ١٩٧٧ ، عند وضع الخطة الصناعية الأولى ، بدأت الدولة تعد مدينة مسيعيد لتكون المدينة الصناعية الأولى في البلاد ، وصرفت عليها مبالغ كبيرة ، لتهيئة البنية التحتية بها من طرق ومرافق وخدمات ، بلغت في ميزانية ٧٧ - ١٩٧٨ حوالي ٧٢٠ مليون ريال قطري ، لتعميق الموانئ وأرصفتها ومعداتها وتسوية الأرض وتوصيل الخدمات لها من طرق وبناء حوالي ٤٤٠٠ وحدة سكنية[٢٢] .

وتنقسم المدينة إلى ثلاثة أقسام رئيسية : الأول وهو موقع الصناعات الثقيلة بموازاة الساحل بطول ٥ كيلو مترات تقريباً . والثاني هو مناطق الصناعات المتوسطة ، أما القسم الثالث فهو المركز المدني للمدينة والمنطقة السكنية .

ومن بين المصانع الكبيرة بها : مصنع الأسمدة الكيماوية ، مصنع البتروكيماويات ، مصنع الحديد والصلب ، مصفاة النفط ومصانع تسييل الغاز الطبيعي ، وهي صناعات ذات كثافة رأسمالية وعمالية عالية وذات ملكية حكومية أو مختلطة . بجانب تلك الصناعات الثقيلة ، تتواجد مجموعة من المصانع المتوسطة كمطاحن الدقيق ومخابز مسيعيد ومصنع اسمنت الجبر والترسانة البحرية ومصانع الحبوب القطرية وبعض المصانع الكيماوية في صناعة العوازل والبلاستيك ، وهي ذات ملكية خاصة .

وملكية الأراضي الصناعية في مدينة مسيعيد حكومية ، تتوفر بها جميع الخدمات والمرافق ، تقوم الدولة بتأجيرها بأسعار رمزية تشجيعية . وقيمة المتر المربع للمنشآت الكبيرة ريال واحد سنويا ، بينما هي ثلاثة أرباع الريال للمنشآت الخاصة المتوسطة .

ومما يجب ذكره ، أن استغلال الأرض الصناعية ، وخاصة في المناطق الصناعية الصغيرة ، ليس كما ينبغي ، ولا تمنح رخصة الايقاع فيها إلا لأسباب ، منها على سبيل المثال ، علاقة المصنع المزمع اقامته بالصناعات القائمة أو مدى حاجة المصنع للميناء أو الواجهة البحرية ، وغالباً ما يكون المستثمر المواطن بنفسه غير راغب في اتخاذ مدينة أمسيعيد موقعاً لمشروعه الصناعي لبعدها وخاصة إذا كان هدف المشروع خدمة الأسواق المحلية وكذلك بسبب زيادة سعر التأجير بها مقارنة بمنطقة الدوحة الصناعية .

ومما يجدر ذكره ، أن مدينة مسيعيد تعد المرفأ الأول لتصدير النفط القطري ومازال وذلك منذ ١٩٤٩ . حيث الأمل الحقيقي لتوطن الصناعة في قطر ، وأن قوة العمل

الصناعية المواطنة متركزة في صناعات مسيعيد بينما تختفي في غيرها ونسبتها حالياً حوالي ٢٠ - ٢٥٪ من اجمالي العاملين الصناعيين ، فهم في عددهم يبلغون ٨٧٠٠ تقريباً[٢٣] .

ثالثاً ، منطقة الدوحة الصناعية ،

أنشئت في بداية السبعينيات من قبل وزارة الاشغال العامة بالتعاون مع وزارة الشؤون البلدية ، آنذاك ، بغرض إبعاد المنشآت والمعامل الصناعية عن مدينة الدوحة لاعادة تخطيطها وتجميلها ، وبغرض تشجيع المستثمرين كذلك في التوجه نحو الصناعة . وقد تحققت في اعتقادنا معظم الأهداف السابقة .

وتقع المنطقة الصناعية جنوب غرب العاصمة ، على طريق سلوى الدولي بمسافة تبلغ حوالي ١٢ كم من مينائها . بدئ في توزيع قسائمها ، بشكل غير منضبط ، على كل قطري لديه سجل تجاري ، كانت نتيجة ذلك أنه لم تستغل الأراضي بالشكل المطلوب والمخطط ، مما أرغم الإدارة المعنية إلى تجديد طريقة الحصول على أراضيها أو اعادة توزيعها لتحقيق الأهداف المرجوة ، بسن تشريعات وقوانين جديدة أكثر صرامة وتحديداً وحزماً .

وقد اتسعت المنطقة الصناعية ، مع الوقت ، حتى أصبحت مساحتها اليوم حوالي ٢١ كيلو مترا مربعاً على شكل مستطيل بطول ٧ كم وعرض ٣ كم . وبهذه المساحة تعد من أكبر المناطق الصناعية في منطقة الخليج وتأتي بعد منطقة الشارقة الصناعية التي تبلغ مساحتها حوالي ٢٦كم٢ .

وتنقسم المنطقة الصناعية إلى بلوكات متنوعة النشاط ، صناعياً وخدمياً ، وتتنوع الصناعات من غذائية وخشبية وتعدينية نسيجية ومعدنية وورقية وكيماوية ، بالإضافة إلى المنشآت الخدمية الأخرى ، يبلغ عددها حوالي ٩ أقسام ، وعدد قسائمها حوالي ٢٠٠٠ قسيمة مختلفة المساحات أقلها تقريباً ١٥٠٠ متر مربع . وتوشك نسبة الاستغلال أن تكتمل بعد تنفيذ الإجراءات الجديدة بشأنها ، وتكبر نسبة الاستغلال لتصل إلى حوالي ١٠٠٪ في المناطق الشمالية وتتدنى في المناطق الجنوبية والغربية . ويستأجر المستثمرون الأراضي من الدولة بأجور تشجيعية وهي نصف ريال للمتر المربع الواحد سنوياً بينما كانت الأجور قبل عام ١٩٩٠ صغيرة جدا حيث كان ٥٠ ريالاً عن

القطعة ذات مساحة ٣٠٠٠م٢ ، واليوم تبلغ ١٥٠٠ ريالاً .

وبنهاية عام ١٩٩١ ، بلغ عدد المنشآت الصناعية فقط في منطقة الدوحة الصناعية ٢٣٥ منشأة ، تبلغ نسبتها حوالي ٧٣٪ من اجمالي المنشآت الصناعية بالدولة ، ويعمل بها حوالي ١٠٦٠٠ عامل ، بنسبة تبلغ حوالي ٥٨٪ من اجمالي القوة العاملة في الصناعة . وتقل نسبة العاملين القطريين ، وهم الملاك أو من يعمل منهم كعمل ثانوي ، وأن العمالة الآسيوية هم الأكثر وجوداً . وتبلغ كثافة العمالة للمنشأة الواحدة حوالي ٤٥ شخصاً . ويسكن معظم عمال المنشآت الصناعية من الطبقة العمالية الدنيا في مساكن مبنية بجانب أو في الدور العلوي من المنشأة الصناعية . وبالتالي قد يصل عدد العمال في المنطقة الصناعية عند اتمام استغلالها إلى أكثر من ٥٠ ألفاً ، مما يدعو إلى تنمية الخدمات الترفيهية والأمنية والعلاجية والمرورية للتقليل من الآثار الناتجة عن تلك الأعداد البشرية المتنوعة في أجناسها ومعتقداتها وأفكارها ولغاتها وخاصة أن المنطقة الصناعية بدأت تحاط بها المناطق السكنية والتجارية .

رابعاً : مواقع أخرى للصناعة :

لأسباب كثيرة تختار مواقع بعيدة عن المواقع الثلاثة الرئيسية السابقة . من بينها ملكية الأرض أو توافرها بمساحات كبيرة أو قربها من مصدر المواد الخام أو لخدمة المناطق الواقعة بها الصناعة . والخريطة رقم (١) تحدد المواقع الصناعية . وقد بلغ عدد المنشآت في هذه المجموعة من المواقع الأخرى ٣٩ منشأة صناعية بنسبة ١٢٪ تقريباً ، ويعمل بها حوالي ٢٥٤٢ عامل بنسبة ١٤٪ من مجموع العاملين بالصناعة . ومن أهم هذه المواقع مدينة الريان ومعيذر وأم باب وأم الأفاعي والوكرة والخور .

ومن أهم المصانع وأكثرها انتشاراً في هذه المواقع هي صناعات مواد البناء وعلى رأسها يأتي مصنع الأسمنت الواقع بأم باب ، جنوب دخان ، على الساحل الغربي ، وقد أختير الموقع بسبب توافر المواد الأولية لهذه الصناعة وتوافر الغاز الطبيعي ، مصدر الطاقة الحرارية للمصنع . وتنتشر في هذه المواقع مصانع المياه المعدنية بسبب توافر العيون كما في الخريب والخور ، وكذلك مصانع الكسارات في أم الأفاعي وأم باب والخور وبسبب توافر المواد الأولية وتحديدها من قبل الدولة .

وتتسم مساحات الأراضي الصناعية في هذه المواقع بالاتساع على عكس أراضي

الدوحة وحتى أراضي المنطقة الصناعية ، وخاصة التي تكون بعيدة عن مراكز المدن والقرن · ومعظم الأراضي خاصة ، وبعض منها مستأجرة من الدولة بايجارات سنوية · ولكن تعد أكثر المواقع معاناة من حيث الخدمات والمرافق ·

ومما يجب ذكره ، أن الدولة تخطط لاقامة مناطق صناعية بالقرب من المستوطنات مثل الخور والوكرة ومدينة الشمال ورأس لفان · وتأتي منطقة رأس لفان في شمال شرق البلاد لبناء مدينة صناعية كبرى ثانية بعد مسيعيد ، يبدأ انتاجها الصناعي مع بداية ١٩٩٧ بانتاج سوائل الغاز بكمية تبلغ حوالي ٤ ملايين طن سنوياً على الأقل ·

ومنطقة رأس لفان الصناعية ستصبح مدينة صناعية مشتملة على صناعات كيماوية كبيرة ومصانع تعدينية ثقيلة اعتماداً على غاز حقل الشمال البحري الضخم الذي تبلغ مساحته حوالي ٦٠٠٠ كم٢ ، واحتياطي مؤكد بحوالي ٢٥٠ تريليون قدم٣ واحتياطي محتمل بحوالي ٥٠٠ تريليون قدم٣ · وقد تأسست حتى الآن ثلاث شركات كبرى لتصنيع الغاز في منطقة رأس لفان : وهي شركة قطر غاز ، وشركة يوروب غاز لتصدير سوائل الغاز الطبيعي ، وشركات أخرى للصناعات الكيماوية مثل شركة قطر للإضافات البترولية وشركة قطر للطاقة النظيفة[(٢٤)] ·

ورأس لفان تقع على بعد ٧٠ كم شمال الدوحة العاصمة · والعمل جار على تنميتها على مساحة اجمالية تبلغ حوالي ٤٢كم٢ بما فيها المنطقة الصناعية والسكنية والمناطق الخدمية · ومن المنجزات ، حتى الآن ، انشاء الميناء بتكلفة ٨٠٠ ملتيون دولار الذي يتم الانتهاء منه في ديسمبر عام ١٩٩٦[(٢٥)] ·

ماذا بعد ؟ :

أظهرت الدراسة أن نتائج جيدة قد تحققت في صناعة دولة قطر ، وأن جهوداً تبذل لتحقيق أهداف أخرى ، وأن القطاعين العام والخاص يشتركان معاً في تنمية البلاد صناعيا ، وبالتالي يتحقق لها ابتعادها ، نوعاً ما ، عن الأزمات الاقتصادية التي تنشأ بسبب هموم البترول · وكأن الرؤية أصبحت واضحة تماماً بضرورة تنويع مصادر الانتاج والدخل واستغلال أمثل للموارد المتاحة في الفترة الحالية لأجل إنسان قطر المعاصر وأحفاده من بعده مستقبلاً ·

والتوصيات التالية أراها مهمة في النظر فيها حتى تتحقق أهداف التوجه الصناعي بصورة أكبر :

١- أن الاستراتيجية التنموية في مجال الصناعة يجب أن ترتبط بالغاز والمحافظة على المخزون النفطي المحدود . وشيء منطقي ان استطاعت قطر اتخاذ قرار حاسم بوقف تصدير النفط في المراحل القادمة عندما تبدأ بعون الله تعالى مشاريع الغاز الجديدة والتي قدر أحد المسؤولين أن استثماراتها تبلغ حتى سنة ٢٠٠٠ حوالي ١٧٫٧ مليار دولار[٢٦] .

٢- الاهتمام بالجانب البيئي ، وخاصة أن قطر مقدمة على مرحلة جديدة للصناعة . وقد تأثرت مواقعها الصناعية الحالية بشيء من التلوث ، وعليها بذل جهد أكبر في هذا المجال والاهتمام من الآن قبل أن تستفحل الأمور ، حينها تكون التكلفة عالية جداً . فالمحافظة على البيئة هدف لابد من العناية به ، ودراسة المشاريع من البعد البيئي لأمر مطلوب . جهود مبذولة حالياً لتحقيق ذلك .. ولكن الحاجة أكبر .

٣- بمرور هذه المرحلة الصناعية التي تزيد على ٢٥ سنة ، لم يستطع القطاع الصناعي جذب المواطنين للعمل فيه ، وإن خلق الوظائف لمن أهم أهداف التنمية الصناعية ، فهناك حاجة إلى رسم خطة ووضع استراتيجية بخصوص تقطير الصناعة ببرامج منظمة مدروسة ، وفي نفس الوقت لابد أن تكون لقطر رؤيتها في هذا المجال ، مرتبطة بقيمها الاجتماعية . فكلما اتسعت الصناعة ونهضت احتاجت إلى بشر يصونونها ويتفاعلون معها وينشرون بضاعتها . فإعداد الصناعيين يجب أن يكون الشعار القادم في عمليات التنمية الصناعية .

٤- إن من أهداف التنمية الصناعية تعويد الصناع على الابتكار والإبداع والاختراع . فالصناعة في قطر في المراحل القادمة بحاجة إلى بحوث علمية لتطويرها ذاتياً . وإن أغفلت هذه النقطة ، فإنه كما جاءت هذه المصانع إلى قطر فإنها قد تهجرها دون رجعة في يوم من الأيام . فوضع ميزانيات للبحث العلمي الصناعي : ميكانيكا ، بيئيا ، بشريا .. حاجة ملحة لاتمام عمليات التنمية الصناعية ، وتحقيق التوطن الصناعي الحق .

المراجع

١- محمد علي الكبيسي ، التنمية الصناعية في دولة قطر ، ترجمة حسن الخياط ، المؤسسة العالمية للطباعة والنشر ، الدوحة ، ١٩٨٦ ، ص ١١٦ .

٢- دولة قطر ، الجهاز المركزي للإحصاء ، المجموعة الإحصائية السنوية ١ و ١٣ و ١٩٨٣ و ١٩٩٣ ، الدوحة (جداول الناتج المحلي الإجمالي) .

٣- دولة قطر ، الجهاز المركزي للإحصاء ، المسح الصناعي ١٩٩١ ، مايو ١٩٩٣ ، الدوحة ، جدول رقم (١) ص ١٣ .

٤- علي خليفة الكواري ، هموم النفط وقضايا التنمية في الخليج العربي ، كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ١٩٨٥ .

٥- عبد اللطيف الحمد ، التأثيرات الاقتصادية للموضوعات البيئية على الدول العربية المنتجة للنفط ، مجلة النفط والتعاون العربي ، المجلد ٢٦ ، العدد ٥٩ ، ربيع ١٩٩٠ .

٦- بخصوص الاحتياطي : بيانات الأمانة العامة لدول مجلس التعاون عبر مجلة التعاون ، العدد ٣٢ الصادر في ديسمبر ١٩٩٣ ، وبخصوص انتاج قطر : العرض الاقتصادي لدولة قطر ، وزارة المالية والاقتصاد والتجارة ، ديسمبر ١٩٩٣ .

٧- - الجهاز المركزي للإحصاء ، مرجع سابق (٢) يوليو ١٩٨٢ .
- التقارير السنوية لمنظمة الخليج للاستشارات الصناعية ، آخرها تقرير ١٩٩٣.
- التقارير السنوية لمؤسسة النقد القطري ، آخرها التقرير الخامس عشر ، لعام ١٩٩١ .

٨- دولة قطر ، المركز الفني للتنمية الصناعية ، التقرير السنوي ، ١٩٨١ ، الدوحة ، ص ١٨ .

٩- عبد الإله أبو عياش ، التخطيط لمدن التنمية في الكويت ، النشرة رقم ٣٣ قسم الجغرافيا والجمعية الجغرافية الكويتية ، سبتمبر ١٩٨١ ، الكويت ص ١٨ - ١٩ .

١٠- Jaffer, N.A. Private Sector Industries in the State of Qatar, Unpublished Ph. D.thesis, Univ. of Wales, Swansea Geography, Dept. 1989, p.43.

١١. منظمة الخليج للاستشارات الصناعية ، ملامح الاقتصاد الصناعي في دول مجلس التعاون ، الدوحة ١٩٩٢ .

١٢- دولة قطر ، المؤسسة العامة القطرية للبترول ، التقرير السنوي ، الدوحة ، ١٩٩٤ .
١٣- نفس المصادر المذكورة في رقم (٢) .
١٤- سامي زريقات ، حوافز التنمية الصناعية في البحرين ، مركز البحرين للدراسات والبحوث ، مايو ١٩٨٥ ، ص ٢٠ - ٢٥ (جداول المقارنة للحوافز الصناعية بدول مجلس التعاون) .
١٥- نظام عبد الكريم الشافعي ، معوقات التنمية الصناعية للقطاع الخاص في قطر، ورقة مقدمة لندوة الأبعاد الاقتصادية والبيئية للتنمية في دول الخليج العربية ، جامعة الإمارات ، العين ، مارس ١٩٩٠ ، ص ١٥ .
١٦- المملكة العربية السعودية ، التنمية من الاعجاز إلى الانجاز ، دار الخضرمة ، ١٩٩٢ ، ص ١٤٢ .
١٧- دولة قطر ، إدارة التنمية الصناعية ، النشرة الصناعية ، العدد (٣١) ، اكتوبر ١٩٩١ ، والعدد (٣٥) ، اكتوبر ١٩٩٢ ، وبيانات ١٩٩٣ معدة في الإدارة ولم تنشر بعد .
١٨- المصدر السابق .
١٩- دولة قطر ، الجهاز المركزي للإحصاء ، المسح الصناعي ١٩٩١ ، مرجع سابق ، ص ٦٥ .
٢٠- دولة قطر ، الجهاز المركزي للإحصاء ، المشتغلون في القطاعين الحكومي والخاص ، ١٩٩١ - ١٩٩٢ ، أغسطس ١٩٩٣ ، الدوحة ، ص٣٣ .
٢١- دولة قطر ، المركز الفني للتنمية الصناعية ، التنمية الصناعية في دولة قطر ، ١٩٨٠ .
٢٢- المصدر السابق .
٢٣- العدد المذكور يشمل العاملين في صناعات القطاع الحكومي ممثلة في مصفاة النفط ومصانع تسييل الغاز بالإضافة إلى العدد المذكور في المرجع (١٦) وهم العاملون في القطاع الصناعي المختلط .
٢٤- دولة قطر ، المؤسسة العامة القطرية للبترول ، صناعة البترول والغاز في قطر ، الدوحة ، ١٩٩٢ .
٢٥- جريدة « الشرق القطرية » ، الشرق في أرض تصنع المستقبل في صمت « رحلة إلى منطقة رأس لفان الصناعية ، ١٥ مايو ١٩٩٣ ص ١٣ .
٢٦- جاء ذكر الرقم في محاضرة لمدير عام الشركة القطرية الأوروبية للغاز ، المهندس عبد الرزاق الصديقي ، في مركز شباب الدوحة ، ٨ نوفمبر ١٩٩٣ .

الصناعات الغذائية في دولة الكويت :
خصائصها الجغرافية ، مشاكلها وآفاقها المستقبلية

د. عبيد سرور العتيبي

جامعة الكويت - كلية الآداب

مقدمـــة :

تعتبر الصناعات الغذائية بشكل عام قطاعا هاما في الصناعات التحويلية بدولة الكويت ، إذ أنها تحتل المرتبة الرابعة من حيث عدد المصانع (٣٠٥ مصنعا) * ، كما يمثل انتاج الصناعات الغذائية حوالي ٧٪ من اجمالي قيمة الانتاج الصناعي ، ويعمل بها ١٤٪ من اجمالي القوى العاملة في القطاع الصناعي وذلك في عام ١٩٩٢ .

وجاءت الصناعات الغذائية في المرتبة الثانية بنسبة ٢٢٪ تقريبا من جملة القروض الصناعية التي يقدمها البنك الصناعي ، وحصلت على نفس المرتبة في متراكم قروض البنك الصناعي خلال الفترة الممتدة من ١٩٧٤ - ١٩٩٣ وبنسبة ١٧٫٥٪ تقريبا[1] .

ومن المؤشرات الهامة التي تعبّر عن مدى تطور الصناعات الغذائية في الكويت ، امتداد نشاطها للأسواق الخارجية عن طريق تصدير بعض الصناعات الغذائية المحلية ، خاصة منتجات دقيق القمح كالبسكويت والمعكرونة ، وأيضاً منتجات الحليب الطازج كالحليب المبستر والمعقم واللبن واللبنة ، بالإضافة إلى اللحوم بانواعها وغيرها من المنتجات الغذائية . وجدير بالذكر أن هذه المنتجات كانت تصدر إلى الدول الخليجية والعربية والإسلامية والآسيوية ، بل أن بعض هذه المنتجات يصدر إلى بعض الدول الأوربية والولايات المتحدة الامريكية وجنوب شرق آسيا .

---

* يشمل هذا العدد جميع أنواع المصانع دون النظر إلى حجم عمالتها .

وتدلنا هذه المؤشرات على أن الصناعات الغذائية اصبحت تحتل مركزا هاما وملموسا بين الصناعات التحويلية الكويتية . فضلا عن كونها تساهم في تنويع مصادر الدخل والحد من الواردات الغذائية .

وتزداد أهمية الصناعات الغذائية في الكويت إذا ما قيمت من منظور الأمن الغذائي المحلي ، ومدى مساهمتها في استغلال الموارد الزراعية المحلية ودورها في اتاحة الفرصة نحو تحقيق التكامل الصناعي - الزراعي ، وتوفير المزيد من فرص الاستثمار محليا .

مراحل تطور الصناعات الغذائية :

لقد مرت صناعة المواد الغذائية في الكويت كغيرها من الدول بأربعة مراحل يمكن اجمالها على النحو التالي :

١- مرحلة الانتاج أو الصناعة التقليدية :

ساد هذه المرحلة الاعتماد على أساليب الانتاج التقليدية القديمة . وهو الأسلوب الشائع في الفترة السابقة لعقد الستينيات (فترة ما قبل الاستقلال) ، وكانت الصناعات الغذائية قليلة العدد ولم تكن تتجاوز صناعة بعض أنواع من الحلوى والمشروبات .

٢- المرحلة المبكرة في الصناعة الحديثة :

وقد بدأت في الستينيات ، وتميزت بانشاء العديد من المصانع حيث بلغت في نهاية ذلك العقد ٢١ مصنعا . وأخذت هذه المصانع تستفيد من التقنيات الحديثة . وتوزعت هذه المصانع على الكثير من أنواع الصناعات الغذائية خاصة المشروبات الغازية والعصائر ، والشيكولاته والحلويات السكرية ، وصناعة الألبان ومنتجاتها . كما تزايدت أعداد عمالتها بشكل كبير .

٣- مرحلة التطور الصناعي الغذائي :

وتشتمل هذه المرحلة على عقدي السبعينيات والثمانينيات وتعتبر فترة النمو والتطور الواضحين في الصناعات الغذائية حيث تزامنت مع الوفرة المالية والرخاء الاقتصادي للدولة ، مما جعل كثيرا من المستثمرين يتجهون للاستثمار الصناعي بوجه عام وللصناعات الغذائية بشكل خاص . ولقد أعطى اهتمام الحكومة بانشاء البنك الصناعي في عام ١٩٧٣ زخما كبيرا لتطور الصناعات الغذائية . وقد بلغ قيمة تمويل البنك للصناعات الغذائية خلال الفترة (١٩٧٤ - ١٩٨٩) أكثر من ٥٠ مليون دينارا كويتيا ، ولقد شهدت سنوات عقدي السبعينيات والثمانينيات انشاء مصانع جديدة بلغت ١٦ مصنعا لكل عقد . وبدأت هذه المصانع في تغطية جزء مهم من الطلب المحلي على منتجات المواد الغذائية المصنعة .

٤- مرحلة اعادة بناء الصناعات بعد التحرير :

وهي المتمثلة في الفترة من ١٩٩٠ - ١٩٩٤ ، أي فترة ما بعد الغزو العراقي الغاشم والدمار الذي حل بالقطاع الصناعي بشكل عام والصناعات الغذائية بشكل خاص وما ترتب عليه من توقف انتاجها بشكل كبير . فقد بلغت نسبة الأضرار في الأصول الثابتة ما نسبته ٢٥٪ . ولكن بدأت الصناعات الغذائية منذ عام ١٩٩١ (بعد التحرير) مرحلة البناء واسترداد عافيتها والقيام بدورها المهم في القطاع الصناعي ، على الرغم من تغير الظروف الاقتصادية والمالية للدولة وكذلك التركيبة السكانية .

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى اجراء مسح شامل للمصانع الغذائية * في دولة الكويت ودراسة خصائصها ونموها وتوطنها ، وكذلك تهدف إلى تحليل النمط التوزيعي للصناعات الغذائية في مناطق ومحافظات الكويت ، ودراسة الارتباط الجغرافي والارتباط الوظيفي والبحث في مشاكلها . وتحاول هذه الدراسة استشراف الاتجاهات المستقبلية للصناعات الغذائية ومدى مساهمتها في تحقيق الأمن الغذائي .

---

* على الأخص في المصانع التي يبلغ حجم عمالتها عشرة فأكثر .

منهج الدراسة وأسلوبها :

تركز هذه الدراسة على الصناعات الغذائية في دولة الكويت (منطقة الدراسة المحددة في الشكل رقم "١") . والمصنفة حسب « التصنيف الدولي » للصناعات الغذائية [٢] (انظر الجدول رقم ١) .

وتقع الدراسة في نطاق ما يعرف بالدراسات المسحية Survey Studies ، فقد استعين بالمنهج الاستقرائي الذي يبدأ بدراسة الظاهرة في واقعها الطبيعي . وبما أن المعلومات والبيانات الرسمية يعتريها بعض النقص ، فقد تم تصميم استبانات بهدف جمع البيانات اللازمة التي تخدم أهداف البحث . وتم تسليم الاستبانات إلى المديرين العامين أو مديري الانتاج لملئها وذلك في المصانع المنتجة فعليا .

وقد قام الباحث باستخدام الوسائل الكمية التالية : معامل صلة الجوار ، معامل التوطن الصناعي ، معامل الارتباط الجغرافي ، معامل ارتباط كيندال للرتب ، إضافة إلى التكرارات والنسب المئوية . وذلك لتحليل البيانات والإجابة عن تساؤلات الدراسة.

تساؤلات الدراسة :

١- ما النمط التوزيعي العام للصناعات الغذائية في مدينة الكويت الكبرى ؟ وهل النمط التوزيعي يتفاوت بين المحافظات والمناطق الصناعية في منطقة الدراسة ؟

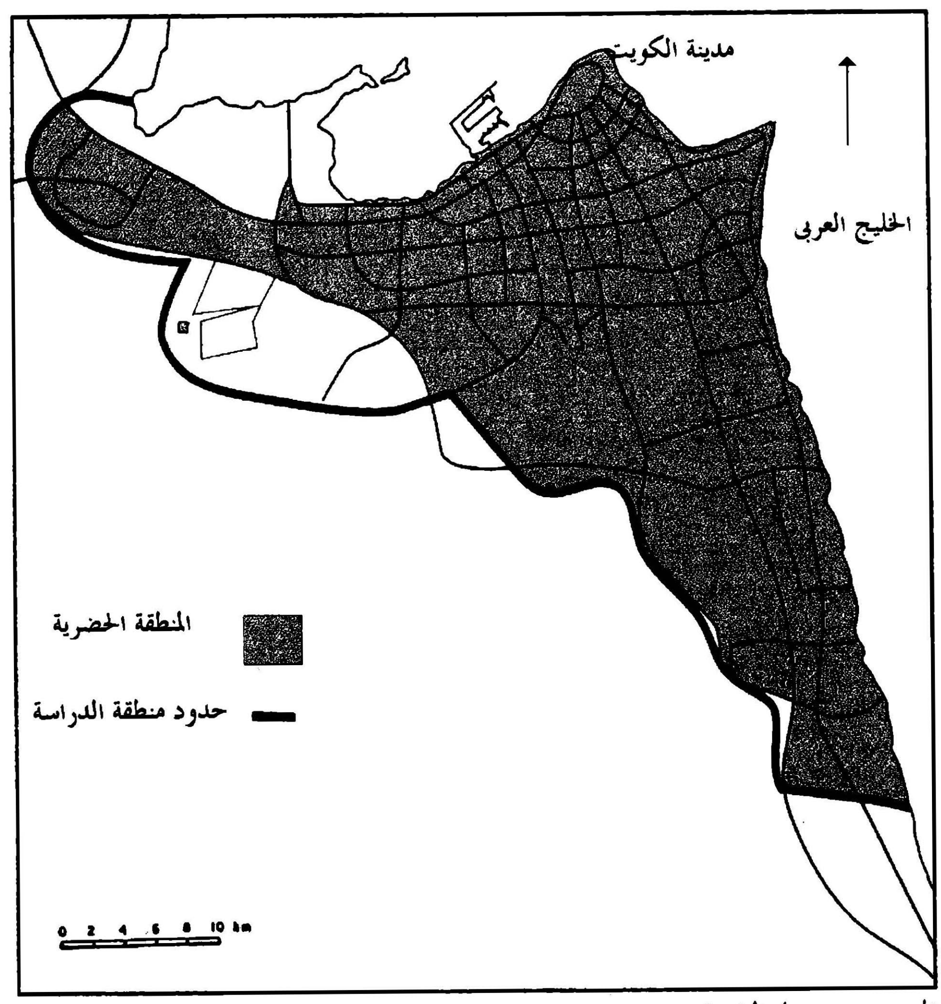
٢- ما مدى وجود الارتباط الجغرافي بين الصناعات الغذائية في منطقة الدراسة ، وما مقداره ؟

٣- ما درجة التوطن الصناعي ؟ وهل تختلف باختلاف الوحدة المكانية في منطقة الدراسة ؟

٤- ما درجة الارتباط الوظيفي للصناعات الغذائية بالصناعات الأخرى ؟

٥- هل هناك علاقة بين حجم عمالة الصناعات الغذائية وبين النمو السكاني في دولة الكويت .

شكل(1) المنطقة الحضرية وحدود منطقة الدراسة فى دولة الكويت



المصدر : من عمل الباحث

التحليل والنتائج :

قام الباحث بالمسح الميداني لجميع المنشآت الصناعية الغذائية القائمة فعليا وفقا للأدلة الصناعية[3] . حيث بلغت ٥٥ مصنعا قائما وموزعة جغرافيا في دولة الكويت حسب التقسيم الإداري (المحافظات) * . والجدير بالذكر أن بعض هذه المصانع يقوم بانتاج أكثر من منتج واحد في نفس الموقع الصناعي مما ساهم في رفع عدد أقسام الصناعات حسب التصنيف الدولي .

ويعمل بتلك الصناعات نحو ٨٠٣٤ عاملا في عام ١٩٩٥ ، وقد مثلت العمالة الكويتية ادنى نسبة لها حيث بلغت ١ ، ٢٪ فقط تركزت في الأعمال الإدارية ، مما يعطي مؤشرا واضحا على النقص الشديد في مدى اقبال العمالة الوطنية على العمل في الصناعات الغذائية . ومن ثم اعتمدت هذه الصناعات على استقدام العمالة العربية وغير العربية ، حيث بلغت العمالة الآسيوية (الهندية والباكستانية ، بنغلاديشية ، سيلانية والفلبينية) ما نسبته ٥٠٪ تقريبا ، يليها العمالة العربية بنسبة ٤١٪ التي يغلب عليها العمالة المصرية ، وتصل نسبة العمالة الإيرانية ٤ر١٪ التي تتركز غالبا في قطاع صناعة الشيكولاته والحلويات السكرية ، وتتوزع النسبة الباقية وهي ٤ر٧٪ على الجنسيات الأخرى . وبلغ عدد العمالة الإدارية في الصناعات الغذائية نحو ٥٣٢ عاملا بنسبة ٧٪ ، في حين بلغ عدد عمال الانتاج ٤٦٨٧ عاملا بنسبة ٥٨٪ تقريبا والعمالة الأخرى السائدة بلغت ٢٨١٥ عاملا بنسبة ٣٥٪ . (انظر الشكلين " ٢ " و " ٣ ")

وتوزعت عمالة الصناعات الغذائية إلى اقسامها المذكورة في الجدول رقم (١) ، وكان أولها قسم تعبئة المياه الطبيعية والمعدنية والغازية والتي يعمل بها ٣٢٪ من اجمالي العمالة ، وقد استحوذ قسم الخبز ومنتجات المخابز على ٥ر١٧٪ أما قسم الألبان ومنتجاتها فحوالي ١٣٪ من اجمالي العمالة وجاء قسم اغذية الدواجن والاعلاف بنسبة ١١٪ تقريبا ، وجاء في المرتبة الأخيرة في حجم العمالة قسم حفظ وتعليب الفواكه والخضروات بنسبة تقل عن ١٪ .

---

* تنقسم دولة الكويت إلى خمس محافظات إدارية هي : العاصمة ، حولي ، الفروانية ، الأحمدي ، والجهراء .

وبلغت انتاجية العامل من جملة الانتاج الاجمالي ١٥٢ر١٢ دينارا كويتيا ، بينما بلغت انتاجية العامل من القيمة المضافة٣ر٥٣ دينارا كويتيا وذلك في عام ١٩٩٢[٤] .

الجدول رقم (١)

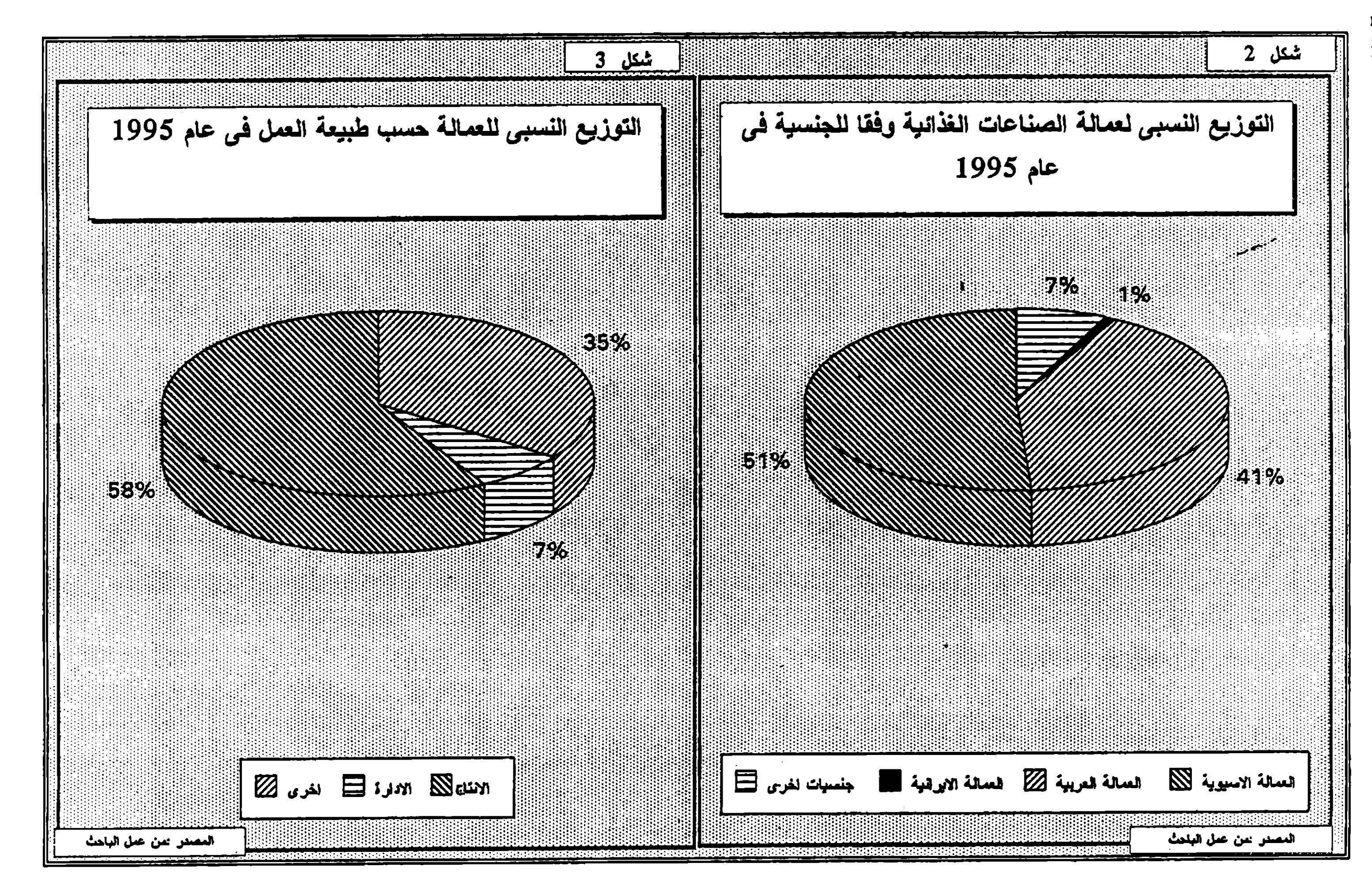
تصنيف الصناعات الغذائية في الكويت لعام ١٩٩٤

(وفقا للتصنيف الدولي) وعدد منشآتها وحجم عمالتها

رقم التصنيف الدولي	أقسام الصناعات الغذائية	عدد المنشآت	٪	عدد العمالة	٪
٣١١١	الذبح وتهيئة وحفظ اللحوم	٥	٩ر١	٤٣٢	٤ر٥
٣١١٢	صناعة الألبان ومنتجاتها	٣	٤ر٥	١٠٣٣	٨ر١٢
٣١١٣	حفظ وتعليب الفواكه والخضروات	٢	٦ر٣	٤٩	٦ر.
٣١١٤	تعليب وحفظ وتجميد الأسماك	١	٨ر١	٥٨	٧ر.
٣١١٥	صناعة الزيوت والدهون النباتية	٢	٦ر٣	١٤٥	٨ر١
٣١١٦	طحن الغلال وتجهيز الحبوب الغذائية	١	٨ر١	٦٤٠	٨
٣١١٧	الخبز ومنتجات المخابز *	١٥	٣ر٢٧	١٤٠٩	٥ر١٧
٣١١٨	انتاج وتكرير السكر	-	-	-	-
٣١١٩	الشيكولاته والحلويات السكرية	٧	٧ر١٢	٣٨٢	٧ر٤
٣١٢١	مواد غذائية لم تصنف في مكان آخر	١٠	٢ر١٨	٤٥٣	٦ر٥
٣١٢٢	اغذية الدواجن واعلاف الحيوان	٣	٤ر٥	٨٦٥	٨ر١٠
٣١٣٤	تعبئة المياه الطبيعية والمعدنية	٦	٩ر١٠	٢٥٦٨	٣٢
٣١٤٠	التبغ والسجائر	-	-	-	-
	الاجمالي	٥٥	١٠٠	٨٠٣٤	١٠٠

المصدر : من عمل الباحث .

* لقد اقتصرت الدراسة على مصانع الخبز الآلية ، واستبعدت المخابز نصف الآلية والمخابز المنتشرة في المناطق السكنية والجمعيات التعاونية .


شكل 2
التوزيع النسبى لعمالة الصناعات الغذائية وفقا للجنسية فى عام 1995
7%
1%
51%
41%
العمالة الاسيوية
العمالة العربية
العمالة الايرانية
جنسيات اخرى
المصدر :من عمل الباحث
شكل 3
التوزيع النسبى للعمالة حسب طبيعة العمل فى عام 1995
35%
58%
7%
الانتاج
الادارة
اخرى
المصدر :من عمل الباحث

يتم تسويق معظم انتاج الصناعات الغذائية في السوق المحلي في مدينة الكويت الكبرى (مدينة الكويت وضواحيها) وتقوم بعض الصناعات بتصدير جزء من انتاجها إلى الأسواق الخارجية خاصة دول الخليج العربية التي تستأثر بنصيب الأسد من هذه الصادرات . وتستفيد الصناعات الغذائية بقربها من مدينة الكويت الكبرى (المنطقة المتروبوليتانية) حيث الكثافة السكانية العالية والاتصال الحضري والقدرة الشرائية الجيدة والاستفادة كذلك من توفر الأيدي العاملة خاصة القرب من مناطق اسكان العمالة الوافدة ، والقرب من المواد الخام ووسائل النقل والخدمات الأساسية من كهرباء ومياه والخدمات الأخرى الضرورية لقيام الصناعة .

وتتركز المنشآت الصناعية في محافظة العاصمة بنسبة ٤٠٪ وذلك لوجود منطقة الشويخ الصناعية التي تقع في هذه المحافظة والتي تعتبر أقدم منطقة قامت الدولة بتخصيصها للأنشطة الصناعية في الستينيات . ويتوطن في منطقة الشويخ الصناعية حوالي من ٣٨٪ من هذه الصناعات الغذائية التي يغلب عليها صناعات الشيكولاته والحلويات السكرية ، وصناعة الثلج ، وكذلك يوجد فيها المصنع الوحيد الذي يقوم بطحن الغلال وتجهيز الحبوب الغذائية الذي يقع في منطقة ميناء الشويخ ولهذا الموقع أهمية كبيرة وذلك لارتباطه باستقبال المواد الأولية التي تأتي محمولة بالسفن Bulk Carrier .

وتأتي محافظة الفروانية في المرتبة الثانية من حيث توطن الصناعات الغذائية وذلك بنسبة ٣٤٫٥٪ وذلك لوجود منطقتين صناعيتين هما صبحان الصناعية والتي تقع جنوب مدينة الكويت وقريبة من مطار الكويت الدولي ويوجد بها ٢٩٪ من المنشآت الصناعية الغذائية ، والأخرى منطقة الري الصناعية والتي تقع جنوب الشويخ الصناعية وقد قامت الدولة بتوفير الأراضي وتأجيرها للمستثمرين الصناعيين بإيجار رمزي .

وتأتي محافظة الجهراء في المرتبة الثالثة من حيث توطن الصناعات الغذائية بنسبة ١٤٫٥٪ وتتوزع على مناطق الصليبية الزراعية والشقايا والروضتين . ويغلب على صناعات محافظة الجهراء أغذية الدواجن واعلاف الحيوان . ويعود سبب ذلك إلى وقوعها على أطراف المنطقة السكنية الحضرية كما هو الحال في منطقة الصليبية ، وكذلك لبعدها عن المنطقة السكنية وارتباطها باسباب موقعية هامة كما هو الحال في

صناعة تعبئة المياه الطبيعية والمعدنية التي ارتبطت بآبار المياه في منطقة الروضتين والتي تبعد عن العاصمة قرابة ٧٠ كيلو مترا ، أما فيما يتعلق بمنطقة الشقايا والتي تبعد قرابة ٨٥ كيلو مترا تقريبا على طريق الجهراء - السالمي في غرب البلاد فقد قامت فيها صناعة تربية الدواجن وأغذيتها واعلاف الحيوان وذلك لبعدها عن تأثير رطوبة الساحل البحري والتي لها اثار سلبية على هذا النوع من الصناعات الغذائية

وتأتي محافظة الأحمدي في المرتبة الرابعة بنسبة ٧٪ تقريباً حيث يوجد بها أربعة مصانع فقط للصناعات الغذائية ، يقع اثنان منها في منطقة الشعيبة الصناعية وذلك لأسباب موقعية مرتبطة بمياه البحر ، الأول هو مصنع تعليب وحفظ وتجهيز الأسماك ، والثاني لصنع ملح الطعام . أما الآخران فهما في مدينة الأحمدي وبشملان مصنعا للثلج ومخبزاً الياً .

وجاءت محافظة حولي في المرتبة الأخيرة بنسبة ٣٫٦ ٪ وذلك بوجود مخبزين آليين فقط ، يقع احدهما في منطقة الشعب والآخر في منطقة الرميثية السكنيتين .

خصائص التوزيع المكاني للصناعات الغذائية في منطقة الدراسة :

ورغبة في التعرف على النمط التوزيعي Locational Pattern للصناعات الغذائية في الكويت (منطقة الدراسة) وإدراكا لأهمية هذا التعرف وتحليله ، تم استخدام معامل صلة الجوار / أو معيار الجار الأقرب Nearest Neighbour Analysis ويعد هذا المقياس رغم بساطته من أفضل المقاييس الوصفية Non-Parametric التي يمكن الاستعانة به لوصف النمط التوزيعي لمواقع المصانع كظاهرة نقطية مكانية ، وصيغته على النحو التالي :

$$ر = ٢ م \bar{x} \sqrt{\frac{ن}{ح}}$$

ر = معامل صلة الجوار .

م = متوسط المسافة الفعلية بين مواقع المصانع في منطقة الدراسة .

ن = عدد النقاط الممثلة لمواقع المصانع .

ح - مساحة منطقة الدراسة (٩٠٤ كم٢) .

ولقد اخرج كل من كلارك وايفانز [٥] هذا المعيار واعدا له دليلا للتمييز بين أنماط التوزيع لأي ظاهرة نقطية (مواقع المصانع مثلا) تتراوح قيمته بين الصفر(ر= ٠ر٠) إذا تجمعت كل مواقع الظاهرة المدروسة في موقع أو نقطة واحدة ، و (ر = ١٤٩ر٢) وفيه تكون مواقع الظاهرة (نقاطها) في اقصى بعد عن بعضها البعض وبين هاتين القيمتين توجد ثمة أنماط متعددة توصف إما بالميل نحو التقارب Clustering كلما اقتربت من الصفر ، أو الميل نحو التباعد والتشتت Scattering إذا اقتربت من (١٤٩ر٢) . وإذا كانت قيمة المعيار واحدا صحيحا (ر = ٠٠ر١) فعادة ما يوصف نمط التوزيع بالعشوائية Random .

لوحظ خلال تطبيق هذا المقياس على الصناعات الغذائية في دولة الكويت (منطقة الدراسة) أن نمط توزيعها يتصف بعدم الانتظام ، فهي تتوزع داخل الإطار العمراني وعلى اطرافه في مجموعتين واضحتين : الأولى منطقة الشويخ الصناعية حيث يوجد بها ما نسبته ٣٨٪ من إجمالي المصانع الغذائية ، والثانية في منطقة صبحان الصناعية (والتي تتبع محافظة الفروانية) وذلك بنسبة ٢٩٪ من اجمالي المصانع الغذائية في منطقة الدراسة . وهذا ما جعل النمط العام لتوزيع الصناعات الغذائية في منطقة الدراسة أميل إلى النمط التوزيعي المتجمع بمعامل صلة الجوار وقدره (٤٩٣ر٠) ويمكن ملاحظة هذا التوزيع في الشكلين (٤ و ٥) .

وللتحقيق من درجة فاعلية معيار الجار الأقرب (ر) في وصف توزيع الصناعات الغذائية ، استخدمنا معيار تقدير درجة الخطأ المعياري Standard Error of Estimate ويأتي ذلك بقسمة قيمة (ر) على الجذر التربيعي لمربع عدد النقاط (ن٢) على مساحة مكان الظاهرة (ح) وكلما كان الناتج صغيرا دل ذلك على درجة عالية من فعالية تحليل صلة الجوار في وصف نمط التوزيع .

$$\text{الخطأ المعياري} = \frac{\text{قيمة مؤشر الجار الأقرب} =}{\sqrt{\frac{(\text{ن})^{2}}{\text{ح}}}}$$

وجاءت نتيجة الخطأ المعياري (٢٧ر٠) حيث تؤكد درجة عالية من الثقة في نتيجة معيار الجار الأقرب .

وبالنظر إلى التقسيمات الجغرافية في دولة الكويت (منطقة الدراسة) والتي تمثلها هذه المحافظات الإدارية ، نلاحظ التباين في أنماط التوزيع المكاني للصناعات الغذائية (انظر الشكلين ٤ و ٥) .

يتوطن في محافظة العاصمة والتي تشتمل على عاصمة الدولة وقلب المدينة ، ٤٠٪ من هذه المصانع ، حيث تتوزع بنمط شبه متقارب إذ بلغ معامل صلة الجوار لها (٤٦٨ر٠) حيث توجد مصانع الحلويات والثلج بشكل متقارب في منطقة الشويخ الصناعية باعتبارها أقدم المناطق الصناعية .

ويتوطن في محافظة الفروانية ما نسبته ٥ر٣٤٪ من اجمالي عدد المصانع الغذائية وتتوزع فيه تلك المصانع بنمط متجمع حيث بلغ معامل صلة الجوار لها (٢٨٩ر٠) . ويرجع السبب في ذلك إلى توطن غالبية هذه المصانع في مواقع يقرب بعضها من بعض في المنطقتين الصناعيتين صبحان والري .

وفي محافظة حولي حيث يتواجد بها مصنعان فقط ، وكلاهما من مجموعة صناعة الخبز ومنتجات المخابز التابعة لشركة المطاحن والمخابز الكويتية وذلك بنسبة ٨ر٣٪ حيث توزعا بنمط أقرب إلى النمط العشوائي إذ بلغ معامل صلة الجوار في هذا القطاع (٨٤٧ر٠) . حيث تتبع الشركة سياسة الوصول إلى المستهلك في منطقته السكنية ولتغطية محافظات الكويت .

وفيما يتعلق بمحافظة الاحمدي والتي تقع فيها المنطقتان الصناعيتان وهما الشعيبة الصناعية وشرق الاحمدي ، واللتان يتوطن فيهما ٧ر٧٪ من المصانع حيث تتوزع بنمط متقارب إذ بلغ معاملة صلة الجوار لها (٥٣٢ر٠) .

وأما في محافظة الجهراء والذي يتوطن فيها ٥ر١٤٪ تقريبا من هذه الصناعات ، فيتجمع فيها ٦ مصانع بالقرب من بعضها البعض ومصنعان متباعدان بشكل واضح في صحراء الكويت وذلك لارتباطهما بأسباب موقعية ذكرت آنفا . وبلغ معامل صلة الجوار لها (٩٤٠ر٠) بنمط يقترب من التوزيع العشوائي .

ومن خلال الجدول رقم (٢) الذي يبرز التوزيع المكاني الخاص بكل صناعة غذائية ، يلاحظ أن هناك اختلافا واضحا في أنماطها التوزيعية ، فبعضها يتميز بنمط التوزيع المكاني المتجمع كما في صناعة الشيكولاته والحلويات السكرية ، وصناعة المواد الأخرى (مثل : الثلج ، ورقائق البطاطا) وصناعة الزيوت والدهون النباتية والحيوانية ،

ويعود ذلك إلى تخصيص الحكومة للمناطق الصناعية (مثل : الشويخ وصبحان الصناعية) ، وبعضها الآخر يتميز بنمط التوزيع المكاني المتقارب مثل صناعات الألبان ومنتجاتها ، وحفظ وتعليب الفواكه والخضروات ، وتهيئة وحفظ اللحوم ، والتي تحتاج لأن تكون على أطراف المنطقة السكنية وحاجتها للمساحات الكبيرة . والبعض الأخير يتميز بنمط التوزيع المكاني المتباعد كصناعة الخبز ومنتجات المخابز ، وصناعة المياه الطبيعية والغازية وأغذية الدواجن وأعلاف الحيوان .

ومن خلال هذا التحليل والنظرة الفاحصة لخصائص التوزيع المكاني للصناعات الغذائية يتضح لنا أن التوزيع الإجمالي للصناعات الغذائية في دولة الكويت (منطقة الدراسة) يتصف بعدم الانتظام .

جدول رقم (٣)

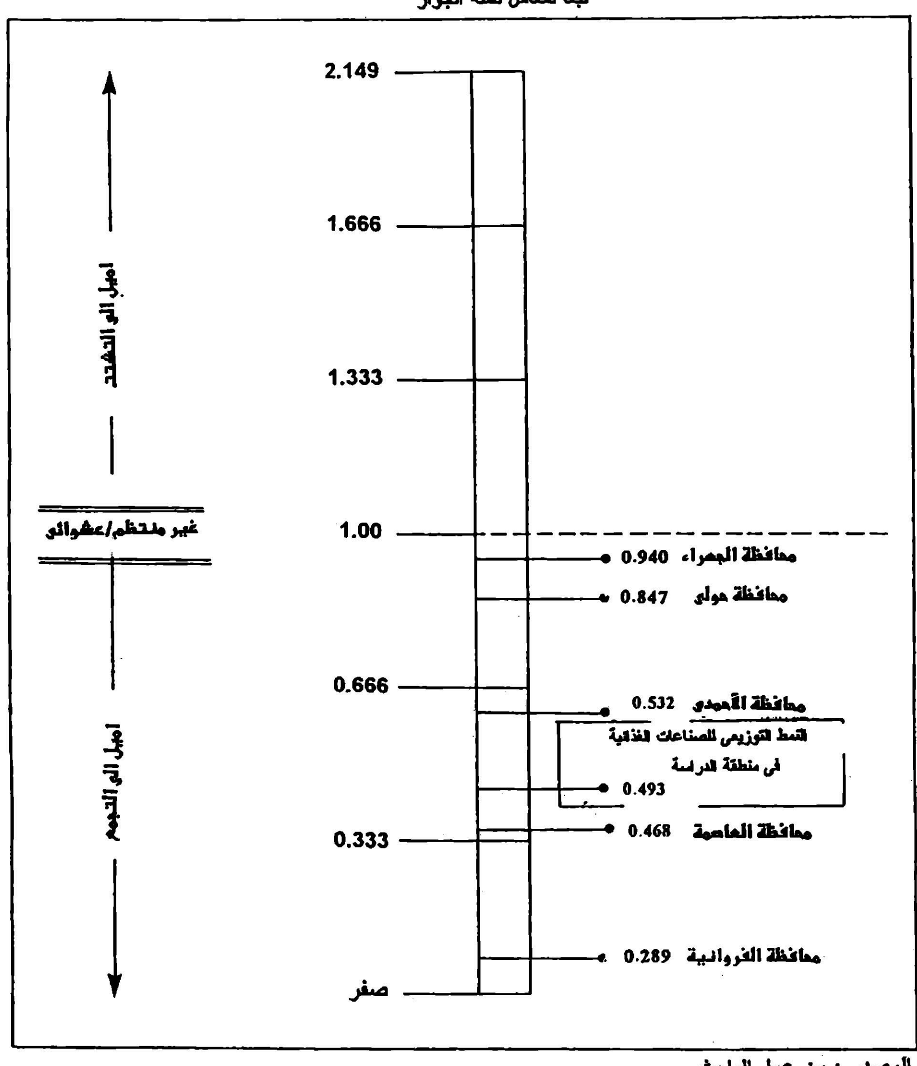
انماط التوزيع المكاني الخاصة بالصناعات الغذائية في منطقة الدراسة

نمط التوزيع السكاني	النشاط الصناعي	معامل صلة الجوار
النمط المتجمع	- الشيكولاته والحلويات السكرية	٤٧٥ر.
	- مواد غذائية أخرى	٤٩٨ر.
	- الزيوت والدهون النباتية	٥١٠ر.
النمط المتقارب	- الألبان ومنتجاتها	٦٢٤ر.
	- حفظ وتعليب الفواكه والخضروات	٩٣٨ر.
	- الذبح وتهيئة اللحوم	٩٣٨ر.
النمط المتباعد	- الخبز ومنتجات المخابز	١٦ر١
	- تعبئة المياه الطبيعية والمشروبات الغازية	٣٦٠ر١
	- أغذية الدواجن وأعلاف الحيوان	٠١ر٢

* تم استبعاد الصناعة التي يوجد لها مصنع واحد فقط .

* * المصدر : من عمل الباحث .

شكل (٤) قيم أنماط التوزيع المكانى للصناعات الغذائية على مستوى المحافظات فى منطقة الدراسة تبعا لمعامل صلة الجوار



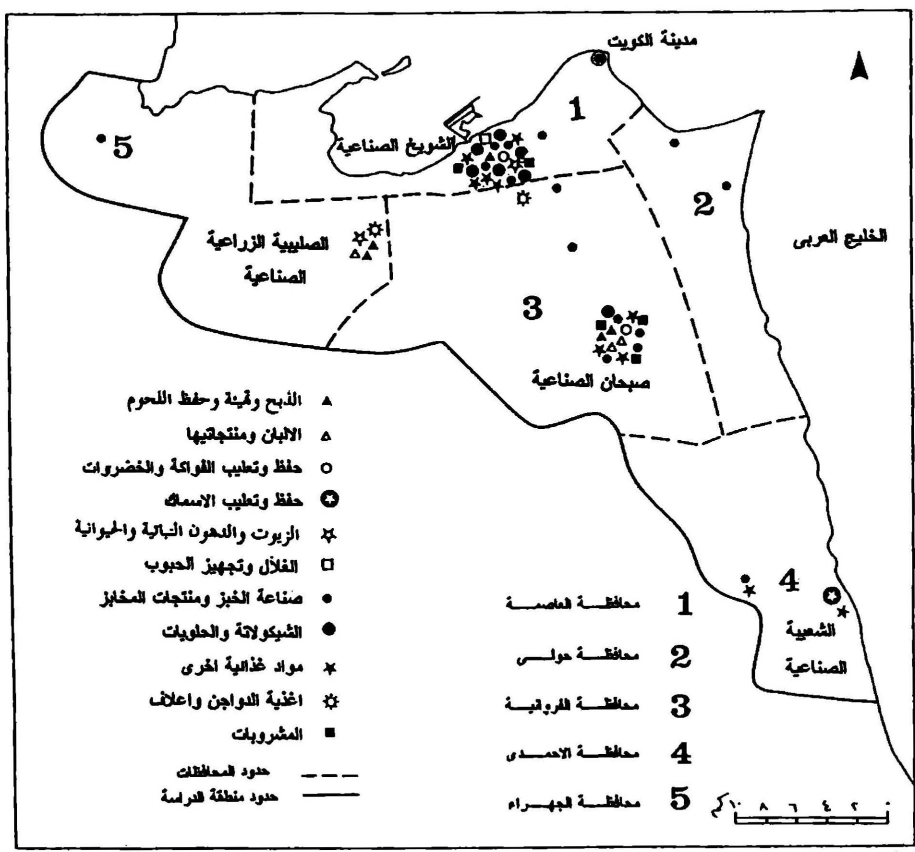
المصدر : من عمل الباحث

ملاحظة : يتأثر معامل صلة الجوار بعاملين اساسيين هما

- مساحة وحدود منطقة الدراسة.
- عدد المصانع بها (عدد النقاط)

ولقد قام الباحث بتثبيت المعامل الاول الذى كان يمثل مساحة وحدود منطقة الدراسة والذى قدر بحوالى 904 كم2 ويتضح من ذلك ان عدد المصانع (النقاط) هو العامل الذى كان له الآثر على درجات فعالية صلة الجوار فى وصف النمط التوزيعى للظاهرة

شكل (٥) التوزيع الجغرافي للصناعات الغذائية على مستوى المحافظات المختلفة في منطقة الدراسة



المصدر : من عمل الباحث

الارتباط المكاني والوظيفي للصناعات الغذائية :

١- الارتباط الجغرافي :

نعني بمفهوم الارتباط أو التجمع الجغرافي « قدرة بعض الصناعات على اجتذاب صناعات أخرى إلى نفس المكان التي توجد فيه » . وتقاس هذه الارتباطات الجغرافية (المكانية) بمعامل التجمع الجغرافي Coefficient of Geographic Association أو بمعامل الترابط الوظيفي Cofficient of Functional Linkage ومعادلته كالتالي[٦] :

$$\text{Coefficient of Linkage (CL)} = 1.00 - \sum \frac{+}{-} \frac{(Xi - Yi :)}{100}$$

وترجمتها إلى العربية :

$$ر ج = ١ - مجـ \frac{+}{-} \frac{(س١ - ص١)}{١٠٠}$$

حيث أن :

ر ج = معامل الارتباط الجغرافي .

س ١ = نسبة كل محافظة من جملة عمالة الصناعات الغذائية في مدينة الكويت .

ص ١ = نسبة كل محافظة من جملة عمالة الصناعات الغذائية المعطاة .

مجـ + = مجموع الفروق الموجبة أو السالبة (يجب أن تتساوى هذه الفروق) .

وكلما اقتربت قيمة (ر ج) من الواحد الصحيح كان الارتباط سواء كان تجمعا جغرافيا (مكانيا) أو ارتباطا وظيفيا قويا بين المتغيرين ، وكلما انخفضت القيمة عن الواحد الصحيح كان الارتباط ضعيفا حتى نصل إلى الصفر الذي يدل على انعدام الارتباط .

ويبين الشكل رقم (٦) قيم معامل الارتباط الجغرافي للصناعات الغذائية وتصنيفها حسب نوع العلاقة في منطقة الدراسة ويتضح من الجدول السابق ما يلي :

١- إن هناك صناعات غذائية ذات ارتباط جغرافي قوي وهي : الصناعات الغذائية المتنوعة ، والمشروبات الغازية والمنكهة ، والخبز ومنتجات المخابز ، وتهيئة وحفظ

اللحوم ، حيث انها ترتبط بمناطق الاستهلاك مما يستدعي توزيعها بشكل سريع وطازج . مثل الثلج ، الخبز ، واللحوم ، وكذلك التوزيع اليومي الذي تقوم به الشركات المصنعة للمشروبات الغازية والمنكهة .

٢- إن هناك صناعات غذائية ذات ارتباط جغرافي متوسط وهي : صناعات الألبان ومنتجاتها ، الشيكولاته والحلويات ومطاحن الدقيق . وقد يعود ذلك بالنسبة (للألبان ومنتجاتها) إلى تخصيص الدولة لمنطقة صبحان الصناعية ووقوع مزارع الأبقار في منطقة الصليبية الزراعية على أطراف المنطقة السكنية في حين أن منتجات صناعة الشيكولاته والحلويات تتحمل النقل العادي لمسافات طويلة وكذلك التخزين لمدة طويلة نسبيا . وكذلك وقوع مطاحن الدقيق في منطقة ميناء الشويخ وهي منطقة قديمة تم تخصيصها في الستينيات وأصبحت داخلة في المنطقة الحضرية المتروبوليتانية .

٣- إن هناك صناعات غذائية تتميز بارتباطها الجغرافي الضعيف نسبيا ، وهي صناعة حفظ وتعليب الفواكه والخضروات ، والأعلاف ، حيث أن منتجاتها لا تتلف بسرعة ويمكن تخزينها بكفاءة جيدة وكذلك لانخفاض تكاليف نقلها وعدم حاجتها إلى كفاءة عالية في النقل خاصة منتجات الأعلاف ، مما يجعلها غير مرتبطة جغرافيا بمناطق الاستهلاك .

ويتضح لنا من خلال تحليل الارتباط الجغرافي للصناعات الغذائية ، إن هناك ارتباطا قويا ومتوسطا لمعظم الصناعات الغذائية في منطقة الدراسة .

٢- التوطن الصناعي :

وتقاس درجة التوطن الصناعي في أي وحدة مكانية بما يعرف باسم معامل التوطن الصناعي Location Auotient وهو يهدف إلى قياس درجة النشاط الصناعي في الوحدة المكانية ومقارنتها بالمستوى العام للدولة أي اظهار ثقل توزيع الظاهرة في اقليم أو منطقة معينة . ونقصد هنا بالوحدة المكانية أولا : المحافظة (الوحدة الإدارية) وثانيا : المنطقة الصناعية ، وذلك لمعرفة في أي المحافظات والمناطق الصناعية تتوطن الصناعات الغذائية ؟ ، وهل النشاط الصناعي الغذائي يساوي أو يزيد أو يقل

عن المعدل العام للدولة ؟ ولقد استخدمنا هنا متغيرا واحدا وهو عدد المنشآت الصناعية الغذائية وذلك لتوفر بياناتها وتوزيعها الجغرافي .

ولقد استخدمت الصيغة التالية(٧) :

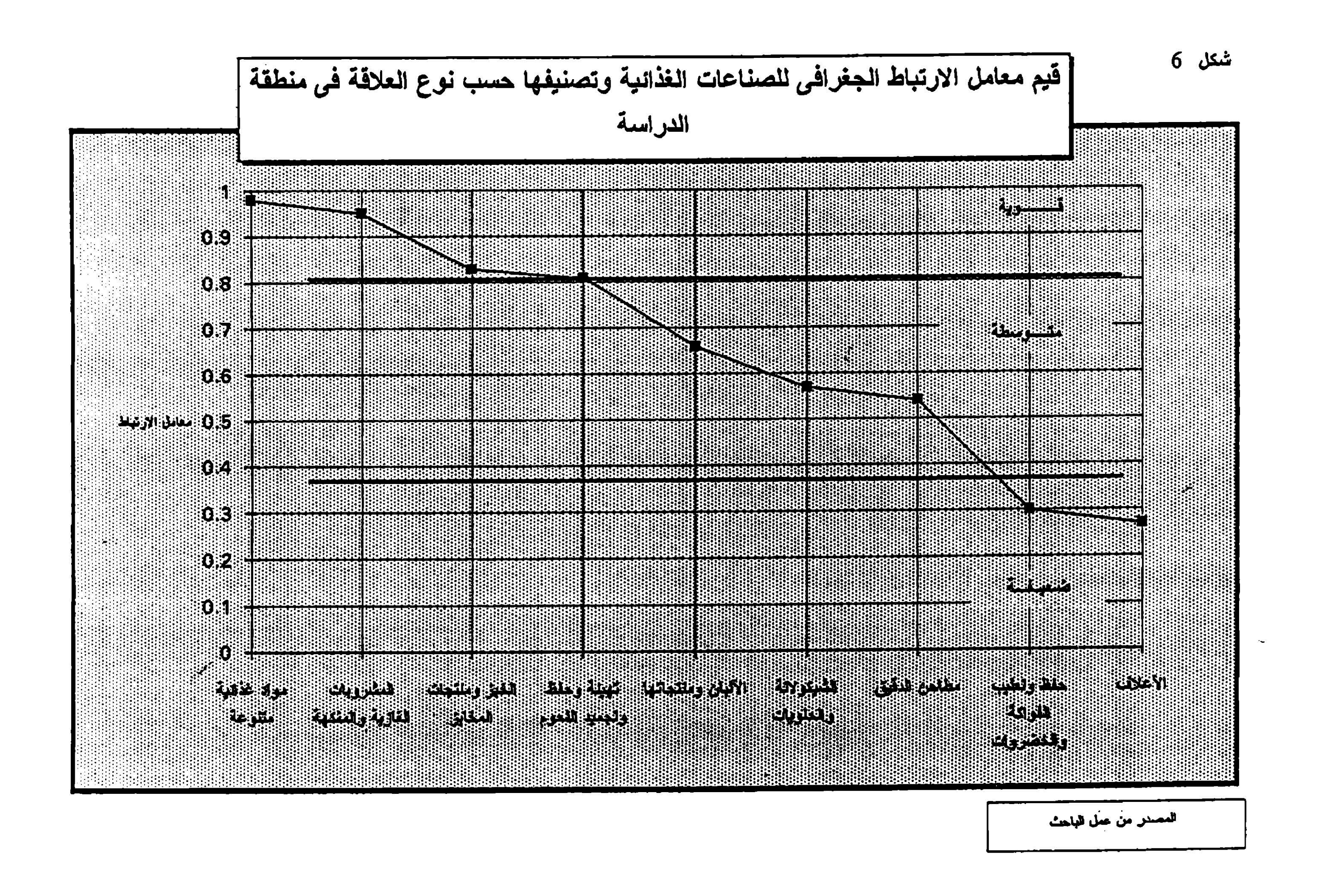
$$\text{معامل التوطن الصناعي} = \frac{\dfrac{\text{عدد المنشآت الصناعية الغذائية في المحافظة}}{\text{جملة المنشآت الصناعية فى المحافظة}}}{\dfrac{\text{عدد المنشآت الصناعية الغذائية في الدولة}}{\text{جملة المنشآت الصناعية فى الدولة}}} \times ١٠٠$$

وتأخذ النتيجة ثلاثة أشكال هي :

- إذا كانت النتيجة أقل من (١٠٠) فتعني عدم توطن الصناعة في المكان .
- إذا كانت النتيجة (١٠٠) فتعني أن المكان يتمتع بأهمية صناعية تعادل اهتمام الدولة لصناعة معينة .
- إذا كانت النتيجة أكبر من (١٠٠) فتعني أن المكان يحتوي على نصيب أكبر من صناعة معينة مما هو موجود في الدولة ، ويعني ذلك توطن الصناعة في المكان .

ويبدو من الشكل رقم (٧) أن مؤشر التوطن الصناعي أقل من ١٠٠ في جميع المحافظات بمعنى أنه لا يوجد تميز في توطن الصناعات الغذائية في محافظات الكويت. بينما أظهرت نتائج مؤشر التوطن الصناعي نتائج إيجابية على مستوى المناطق الصناعية (التي خصصتها الدولة) . فجاءت قيمة المؤشر في منطقتي الشويخ وصبحان الصناعيتين ١١٢ و ١٠٩ على التوالي ، أي أن هناك زيادة في تركز الصناعات الغذائية والتي تعتبر ضمن الصناعات الاستهلاكية والخفيفة في منطقتي الشويخ وصبحان الصناعيتين . بينما لا يوجد تركز للصناعات الغذائية في منطقة الشعيبة الصناعية ، حيث يغلب عليها تركز الصناعات الكيماوية ، ومنتجات الخامات التعدينية المعدنية وغير المعدنية والصناعات الأساسية .

شكل 6



المصدر من عمل الباحث

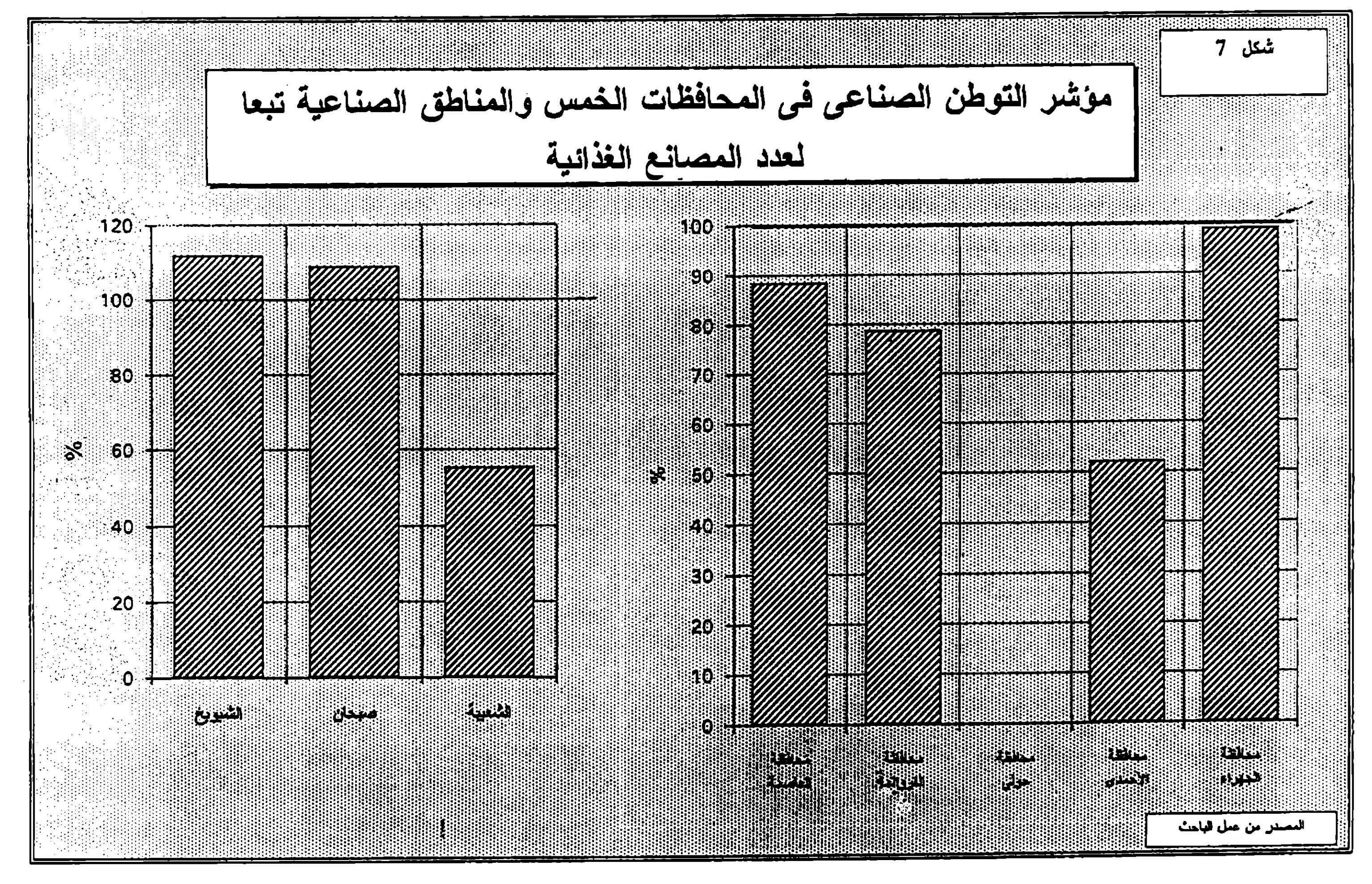
ويتضح من كل ما سبق ذكره أن مؤشر التوطن الصناعي في مدينة الكويت الكبرى بالنسبة لتركز الصناعات الغذائية غير واضح على مستوى المحافظات ، بينما هو واضح نوعا ما في منطقتين صناعيتين فقط . وقد يكون ذلك مرتبطا إلى حد كبير بقرار تحديد مواقع الصناعات على اختلاف أنواعها من قبل الدولة المسؤولة عن تخصيص وتحديد Zonning المناطق الصناعية .

الارتباط الوظيفي في الصناعات الغذائية :

يقصد بالارتباط الوظيفي بين الصناعات تواجد مجموعات عديدة من الصناعات في مكان معين ، وقد يكون بسبب قدرة المكان على جذب العديد من الصناعات إليه ، ولتوفر مقومات الجذب المكاني من بنية أساسية وخدمات ونقل واتصالات (الذي يقلل من تكاليف الطاقة والنقل) وخدمات اعلانية وتسويقية ، أو أن التجاذب يكون بين الصناعات نفسها لأنها ترتبط وظيفيا ، أو أن منتج أحد المصانع يعتبر مادة خام لمصنع آخر ، والاستفادة من تحقيق وفورات خارجية External Economies وذلك بتوفير تكاليف نقل المواد الخام والمنتجات وتسويقها . وبذلك تنتشر ظاهرة الارتباط الوظيفي التي من أهمها الارتباطات الرأسية والمتممة والخطية .

والارتباط الرأسي Vertical Linkage حيث نجد مصانع منفصلة يقوم كل منها بعملية واحدة من عمليات الانتاج ، أي أن انتاج احد المصانع يعتبر مادة خام للمصنع الآخر . وتمر المنتجات بمراحل مختلفة من الصناعة قبل أن تصل إلى تاجر الجملة ثم تاجر التجزئة ثم المستهلك النهائي[(٨)] . ومن أمثلة الارتباطات الرأسية في الصناعات الغذائية ما يأتي :

- صناعات الخبز والحلويات والمعجنات والكيك التي تعتمد على صناعة الدقيق (منتج شركة المطاحن والمخابز الكويتية) .
- صناعة المشروبات الغازية والعصائر - التي يدخل الماء بنسب كبيرة في عملياتها الانتاجية ، حيث تعتمد على المياه من وزارة الكهرباء والماء .
- صناعة الدقيق والأعلاف اللتان تعتمدان على صناعة تخزين الحبوب التابع لشركة المطاحن والمخابز الكويتية .


شكل 7
مؤشر التوطن الصناعى فى المحافظات الخمس والمناطق الصناعية تبعا لعدد المصانع الغذائية
%
محافظة العاصمة
محافظة الفروانية
محافظة حولي
محافظة الأحمدي
محافظة الجهراء
الشويخ
صبحان
الشعيبة
المصدر من عمل الباحث

- صناعة الثلج التي تعتمد على المياه والأملاح وغاز الفريون التي تنتجه شركة الأكسجين .

والنمط الثاني من أنماط الارتباطات هو ارتباط التصنيع المتمم Complementary Manufacturing حيث يتم توظيف امكانيات المصنع من الآلات أو العمالة في الأوقاف التي تقل فيها كمية الانتاج بسبب ارتباطها بتوافر المواد الأولية في انتاج منتجات مشابهة للمنتج الرئيسي للمصنع وعادة ما تحمل هذه المنتجات المتعددة اسما تجاريا واحدا (٩) - مثل صناعة تجميد اللحوم والخضروات ، وصناعة مشتقات الحليب والألبان والعصائر .

ويتمثل الارتباط الخطي Diagonal Linkage في مصانع التعبئة والتغليف التي عادة ما تتوطن قريبة من الصناعات ، خاصة الغذائية حيث تقدم خدماتها . ومن هذه المصانع ، مصانع الكرتون والورق والبلاستيك وكذلك مصانع العلب المعدنية والزجاج. ولقد أظهرت الدراسة الميدانية وجود ارتباط خطي واعتماد شبه كلي على صناعات التعبئة والتغليف وذلك لحفظ المنتج النهائي ونقله إلى الأسواق .

ويتبين لنا من خلال تحليلات الارتباطات الصناعية ، بان هناك ارتباطا وظيفيا كبيراً .

الصناعات الغذائية والسوق الاستهلاكية :

من أجل التعرف على العلاقة بين الصناعات الغذائية والسكان في مدينة الكويت الكبرى ، قام الباحث باستخدام أسلوب الارتباط الكمي وهي صيغة ارتباط « كيندال للرتب » : Kendell's Rank Correlation Coefficient ، وهو أفضل معاملات الارتباط حيث يمكن استخدامه حينما تكون مفردات القيم (س) و (ص) صغيرة أي أقل من ١٠ ونتائجه أفضل ، وذلك لتحديد العلاقة بين المتغيرين للظاهرتين قيد الدراسة ، وفي هذا المقام فان المتغير المستقل هو سكان دولة الكويت لعام ١٩٩٣م ممثلا في تعدادهم في كل محافظة ، والمتغير التابع هو الصناعات الغذائية ممثلة بعدد عمالتها .

ومعادلة هذا المعامل على النحو التالي :

$$ر ك = \frac{٢ \text{ مجـ د}}{ن (ن - ١)}$$

حيث أن :

ر ك = معامل ارتباط « كيندال » .

مجـ د = مجموع الفروق بين رتب المتغيرين

ن = عدد مفردات كل من المتغيرين .

وقد تبين من قيمة معامل ارتباط « كيندال » (٠٠ر٠) أن العلاقة بين هذين المتغيرين معدومة مما يعني عدم وجود علاقة بين النمو السكاني لدولة الكويت وبين الحجم العمالي للصناعات الغذائية ، وقد يعود ذلك إلى عدة عوامل ، منها :

- إن اختيار مواقع الصناعات الغذائية في الواقع كان قديما (خاصة في مرحلة الستينيات) ، حيث تخصص الدولة مناطق صناعية ثم يطغى عليها النمو العمراني بعد فترة من الزمن (على سبيل المثال : منطقة الشويخ الصناعية) .
- تميز الصناعات الغذائية بارتفاع آليتها واستغنائها عن العمالة تدريجيا .
- أن بعض الصناعات الغذائية تحتاج إلى مساحات كبيرة من الأراضي ، ومن السهولة بمكان توفر هذه الأراضي في المناطق المخصصة للنشاط الصناعي على أطراف المناطق السكنية بأسعار رمزية وخدمات أساسية .
- اتخاذ النمو العمراني نمطا توزيعيا متميزا في الكويت حيث أصبح نمطقه السائد وفقا للمخططات الهيكلية القرب من الساحل الشرقي للدولة وجنوبا من مدينة الكويت العاصمة مما جعله يبتعد قليلا عن المناطق المخصصة للأنشطة الاقتصادية الصناعية .
- تطور وسائل النقل والحفظ وأساليب التسويق مما يقلل من احتمالات تلف المنتجات الغذائية نتيجة لبعد المسافة بين مواقع الانتاج ومناطق الاستهلاك .

أما بالنسبة للعلاقة بين الانتاج وحجم السوق الاستهلاكية فانه بالنظر إلى الجدول رقم (٥) يتضح لنا أن صناعة تعبئة المياه الطبيعية والمعدنية والغازية والمشروبات المنكهة تنتج ٨١٪ من طاقتها الانتاجية المرخصة وتأتي في المركز الأول ، بينما تحتل

صناعتا الخبز ومنتجات المخابز والشيكولاته والحلويات السكرية في المراكز الأخيرة بنسب ٥١٪ ، و ٥٠٪ على التوالي ، وتأتي الصناعات الغذائية بصفة عامة بمتوسط انتاجي يصل إلى ٣ر٦٠٪ .

وقد وافقت نتائج الدراسة التي توصلنا إليها ، ما أظهرته دراسة ميدانية سابقة قام بها البنك الصناعي [١٠] . إن متوسط معدل استغلال الطاقة الانتاجية القصوى المتاحة في المنشآت الصناعية المشمولة بالدراسة قد بلغ ٤٩٪ في عام ١٩٨٥ ، وانخفض إلى ٤٧٪ في عام ١٩٨٦ من اجمال الطاقة الانتاجية القصوى المتاحة في الفروق الصناعية المختلفة للصناعات التحويلية .

جدول رقم (٥)

النسبة المئوية للطاقة الانتاجية الفعلية من الطاقة المرخصة

لبعض الصناعات الغذائية

النشاط الصناعي	الطاقة الانتاجية الفعلية ٪
الذبح وتهيئة وحفظ اللحوم	٦٠
الألبان ومنتجاتها	٧٠
حفظ وتعليب الفواكه والخضروات	-
تعليب وحفظ وتجهيز الأسماك والقشريات	-
الزيوت والدهون النباتية والحيوانية	٣ر٥٨
طحن الغلال وتجهيز الحبوب الغذائية	٥٢
الخبز ومنتجات المخابز	٥١
الشيكولاته والحلويات السكرية	٥٠
مواد غذائية أخرى	٥٥
أغذية الدواجن وأعلاف الحيوان	٦٥
تعبئة المياه الطبيعية والمعدنية والغازية	٨١
المتوسط العام	٣ر٦٠

المصدر : قام الباحث بحساب النسبة المئوية من نتائج الدراسة الميدانية .

وتعتبر هذه الأرقام مؤشرا على تراجع الطاقة الانتاجية الفعلية لتلك الصناعات ، وقد يعود ذلك إلى عدة أسباب ، أهمها[11] :

١- تراجع الحجم السكاني لدولة الكويت عما كان عليه قبل الغزو العراقي الغاشم (١٤، ٢ مليون نسمة عام ١٩٨٩) .
٢- تغير هيكل الطلب جذريا ، بأثر التغير في تركيب السكان من حيث الجنسية إلى الجنسيات التي تتمتع بارتفاع ميلها للادخار ، كما أن العمالة الوافدة تسود النسبة الغالبة منها العائلات الجماعية بخلاف العائلات الفردية التي كانت سائدة قبل الغزو، فهي عمالة مؤقتة وليست دائمة ومستقرة مما يؤثر على مستوى ونمط الانفاق الاستهلاكي الخاص .
٣- الكساد العالمي وتراجع أسعار النفط وعوائد الدولة المالية وكذلك انخفاض معدلات الاتفاق العام .
٤- حالة الأمن في المنطقة وأثرها في ايجاد حالة نفسية غير مطمئنة أو غير مستقرة لدى العمالة وأصحاب العمل من شأنه تكثيف الحاجة إلى التوقي من مخاطر المستقبل .

إن معطيات ما بعد التحرير تجعل من الصعب تصور عودة مستويات الانتاج إلى المستويات السائدة قبل الغزو ، اللهم إلا إذا اتسع مجال التصدير واتخذت سياسات جادة بهذا الخصوص .

وإذا أضفنا إلى ذلك المشكلات المختلفة التي تعاني منها الصناعات بشكل عام والصناعات الغذائية على وجه الخصوص ، والتي من بينها :

١- مشكلة المنافسة الشديدة بين الصناعات الغذائية الوطنية والمنتجات المستوردة من جهة وبين الصناعات الوطنية نفسها من جهة أخرى . وذلك لأن سوق الكويت مفتوحة لجميع أنواع المنتجات ودون تقييد . إضافة إلى أن الدول المصدرة تدعم صادراتها أما لحاجتها للعملة الصعبة أو لتحسين ميزانها التجاري مع الكويت باعتبارها أحد الدول النفطية . وأن سياسة الأغراق التي تتبعها بعض الدول المصدرة تكون لها انعكاسات سلبية تتمثل في انخفاض المقدرة التنافسية

للمنتجات الوطنية خاصة مع غياب الدعم والحماية الكافيين للمنتج الوطني ، وعدم الاستفادة من الطاقة الانتاجية المتاحة بشكل كامل ، وانخفاض كفاءة عناصر الانتاج وارتفاع تكاليفها ، وتزايد حجم المرتجعات نتيجة لعدم التسويق .

إن هذه المتوالية من نتائج المنافسة ، قد تجعل الدولة تفكر في حماية الصناعات الوليدة مما قد يضر المستهلك من جانب ويقلل من اهتمام الصناعات الوطنية في تحسين نوعية منتجاتها ومطابقتها للمواصفات العالمية من جانب آخر(١٢) . وقد أوضحت نتائج الدراسة أن هذه المشكلة تعتبر من أهم المشاكل لدى المنشآت الغذائية وذلك بنسبة ٦٢٪ . ولقد علقت وزارة التجارة والصناعة دعم الصناعات الغذائية بعد الغزو الغاشم على دولة الكويت وذلك لظروف الدمار الذي حل بهذه الصناعات ولكي يستعيد السوق وضعه الطبيعي ، والجدير بالذكر أن سياسة حماية المنتج الوطني وفرض رسوم الحماية الجمركية على الواردات الاجنبية المنافسة والتي وصلت إلى ٢٠٪ وطبقتها وزارة التجارة والصناعة قبل الغزو الغاشم قد شملت ثلاث مجموعات من الصناعات الغذائية هي : المياه المعدنية ، والبسكويت بجميع أنواعه والكيك الأسفنجي .

٢- مشكلة ارتفاع تكلفة توزيع وتسويق المنتجات : وقد يكون جزء من هذه المشكلة مرتبطا بمشكلة المنافسة الاجنبية ، أما الجزء الثاني هو في عدم اتباع سياسات تسويقية أفضل واتباع طرق ترويج ذات فعالية أكبر . وهناك بعض من المصانع التي لا يوجد بها إدارات للتسويق ، ويستندون إلى القول الشائع أن السلعة الجيدة تسوق نفسها ، وليس هناك حاجة في رصد ميزانية لإدارة التسويق أو للدعاية والأعلان ، غير أن هذا القول غير صحيح .

إن المنتجات الوطنية بحاجة ماسة للاستفادة من وسائل الإعلام الحديثة للتسويق ولترويج منتجاتها وابراز مقدرتها التنافسية أمام المنتجات الأجنبية المشابهة والانطلاق من السوق المحلية - التي تعاني من ضعف قدرتها الاستيعابية - إلى الاسواق العربية والإسلامية . وذلك من خلال سياسة التنسيق مع هذه الدول لفتح أسواقها وتسهيل اجراءات دخول الصادرات الكويتية . والذي سوف ينعكس على خفض تكاليف الانتاج والتوزيع وزيادة مقدرتها التنافسية . ولقد لاقت الدراسة الأولية لانشاء شركة لتسويق المنتجات الوطنية ، والتي قام بها مركز

التجارة الدولي التابع لهيئة الأمم المتحدة I T C في مستهل عام ١٩٩٥ ، بتكليف من بنك الكويت الصناعي ودعم من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، استحسان الصناعيين انفسهم[١٣] . وأبرزت نتائج الدراسة المسحية أن مشكلة ارتفاع تكلفة توزيع وتسويق المنتجات قد حصلت من حيث الأهمية على ما نسبته ٥٢٪ خاصة الصناعات المرتبطة بعوامل موقعية بعيدة عن مناطق الاستهلاك مثل صناعات تعبئة المياه وأغذية الدواجن وأعلاف الحيوان .

٣- مشكلة قلة توافر المواد الخام المحلية كمشكلة مهمة بنسبة ٤٠٪ تقريبا خاصة صناعات تهيئة وحفظ لحوم الحيوانات والدواجن والمياه المعدنية والغازية والمشروبات المنكهة وطحن الغلال وتجهيز الحبوب الغذائية . لذلك تلجأ تلك المصانع وغيرها للاستيراد من الخارج .

ومن المشكلات الأخرى التي تعاني منها الصناعات الغذائية :

- النقص في العمالة الوطنية بشكل عام والعمالة الفنية المدربة الوطنية في تقنيات الانتاج الغذائي بشكل خاص ، بالرغم من أن خلق فرص العمالة يعتبر هدفا استراتيجيا .
- ندرة المعلومات المتعلقة بالتسويق .
- ضيق السوق المحلي وتغير الهيكل السكاني ، فمهما ارتفعت انماط الاستهلاك الفردي يبقى الطلب الاجمالي محدودا .

وجدير بالذكر أن هذه المشكلات وما رافقها من ظروف ومعطيات ما بعد الغزو الغاشم قد ساهمت في عدم استغلال كامل الطاقة الانتاجية للمصانع . وينبغي أن تتم دراسة الحاجة الفعلية في المستقبل لهذه المصانع وربطها بالنمو السكاني .

ووفقا لاحدث الإحصائيات السكانية فقد كان مجموع السكان ١٫٤٨٤٫٤٣١ نسمة في عام ١٩٩٣م ، وكان عدد السكان الكويتيين ٦٤٢٫٥٩٦ نسمة بنسبة ٤٣٫٣٪ وبزيادة نحو ٩٢٫٤ ألف نسمة عن عام ١٩٨٩م وبمعدل نمو سنوي وصل إلى ٤٪ وهي زيادة طبيعية يفسرها ارتفاع معدل النمو السكاني . فالمجتمع الكويتي يمر بالفعل بمرحلة متقدمة من مراحل التحول الديمغرافي الذي تنخفض فيه معدلات الوفيات، فيما تعتبر معدلات الخصوبة مرتفعة بصورة ملحوظة . ومن هنا يمكن أن

نتوقع أن معدل النمو السكاني للكويتيين سيستمر حتى عام ٢٠٠٠ عند نفس مستواه البالغ حوالي ٤ر٣٪ سنويا في الوقت الراهن ثم يميل إلى الانخفاض تدريجيا وببطء ليصل إلى نحو ٢ر٣٪ سنويا عام ٢٠١٠ ثم إلى حوالي ٣٪ في عام ٢٠٢٠ .

فإذا ما تحققت هذه التوقعات فإن عدد السكان الكويتيين سوف يرتفع من نحو ٥٩٦ر٦٤٢ نسمة في عام ١٩٩٣م إلى حوالي ٨١٢ ألف نسمة في عام ٢٠٠٠م ثم إلى ١١٣ر١ مليون نسمة في عام ٢٠١٠م ، ليصل إلى نحو ٤٩٥ر١ مليون نسمة في عام ٢٠٢٠م[١٤] .

أما بالنسبة لغير الكويتيين فقد انخفض عددهم من ٩٥٤ر٦٣ر٤ر١ نسمة عام ١٩٨٩م وبنسبة ٧ر٧٢٪ إلى ٨٣٥ر٨٤١ نسمة وبنسبة ٧ر٥٦٪ في عام ١٩٩٣م ، ويعود سبب هذا التراجع للغزو الغاشم على دولة الكويت في شهر أغسطس عام ١٩٩٠م، وهجرة معظم الوافدين بما فيهم الجنسيات العربية التي أيدت دولها العدوان ، إضافة إلى اتخاذ الدولة بعض الإجراءات التي تهدف إلى اعادة ترتيب الأوضاع السكانية على أسس جديدة لفترة ما بعد التحرير[١٥] .

ومع الأخذ في الاعتبار إن استقدام الوافدين ، يتم عادة بغرض تلبية حاجة سوق العمل ، لذا تبقى ضرورة التأكيد على أن توجهات السياسة السكانية المعتمدة ، تقتضي ضرورة السعي إلى الارتفاع بنسبة المواطنين في مجموع السكان إلى حدودها القصوى في أقصر فترة زمنية ممكنة ، مع تنظيم تدفق الهجرة الوافدة ومراقبة تطورها[١٦] . وفي ظل الظروف السابقة يتوقع أن يصل معدل النمو السنوي لغير الكويتيين إلى ٢٪ ، مما يجعل عدد السكان غير الكويتيين يصل في عام ٢٠٠٠ إلى ٩٥٩ ألف مليون نسمة وإلى حوالي ١٥٠ر١ مليون نسمة عام ٢٠١٠م ثم إلى ٣٨٠ر١ مليون نسمة عام ٢٠٢٠م (انظر الجدول رقم "٦") .

وفي ضوء المعطيات والبيانات السابقة يمكننا وضع تصورات لتنمية الصناعات الغذائية في الكويت في ضوء الأهداف والسياسات المتعلقة بالقطاع الصناعي والتي تقوم بها الدولة . حيث توفر الدولة المناطق الصناعية المجهزة بالخدمات الأساسية والقريبة من مناطق الاستهلاك والعمالة إلى حد ما في بعض الصناعات القريبة إلى المادة الخام (صبحان والصليبية الصناعيتين) . وتقوم الجهات المختصة في وزارة التجارة والصناعة والبنك والصناعي الممول لهذه الصناعات بالزام المستثمرين الصناعيين بتحديث

الأساليب الصناعية والاستفادة من احدث التقنيات ورفع درجة الميكنة .

وفيما يتعلق برفع مستوى الكفاءة الفنية للأيدي العاملة فقد أوضحت الدراسة الميدانية أن هناك نوعين من التدريب : تدريب إداري ويشمل تدريب الكوادر الإدارية العليا وتدريب المشرفين على الانتاج ، والنوع الآخر من التدريب هو تدريب مهني لاعداد العمالة الفنية الماهرة . وقد أوضحت الدراسة أن ٤٥٪ من اجمالي المصانع الغذائية يقوم اربابها بتعيين العمالة المدربة وتدريب العمالة وهم على رأس العمل ، إضافة إلى أن ما نسبته ٢٤٪ من المصانع الغذائية تقوم بتدريب عمالها وهم على رأس العمل ، وأن ما نسبته ٢٢٪ من الصناعيين لا يقبلون إلا عمالا متدربين .

وأظهرت الدراسة الميدانية أن معظم الصناعات الغذائية تستورد مواردها الخام من دول كثيرة وأسواق متعددة مما يتيح مجالا واسعا للحصول على الجودة والنوعية الذي تساهم في رفع كفاءة المنتج النهائي ومنافسة المنتجات المشابهة في الأسواق المحلية أو الخارجية .

وحول زيادة الانتاج الصناعي وذلك من خلال التوسع الرأسي أو الأفقي وفيما يتعلق بنمو الانتاج رأسيا - أي زيادة انتاج المصانع العاملة - ، وبالنظر إلى الجدول رقم (٥) يبرز بشكل عام أن معظم الصناعات الغذائية تعمل بطاقة انتاجية فعلية تصل إلى ٣ر٦٠ (المتوسط العام) وذلك لأسباب ذكرت آنفا ، وأن هذه المصانع تحتاج إلى فترة زمنية تتراوح ما بين ١٢ - ١٥ سنة (أي لغاية عام ٢٠١٠ حيث يتوقع أن يصل عدد السكان إلى ٢٦٣ر٢ مليون نسمة أكثر قليلا من إحصائية السكان في عام ١٩٨٩ حيث وصل تعدادهم ٠١٤ر٢ مليون نسمة انظر جدول رقم (٦) لكي تعود إلى مستويات الانتاج التي كانت سائدة قبل الغزو الغاشم . وأن هناك ٤٠٪ تقريبا من إجمالي الطاقة الانتاجية المرخصة غير مستغلة .

وبالرغم من ذلك فقد أوضحت الدراسة الحقلية أن ما نسبته ٤ر٦٣٪ من اجمالي المصانع الغذائية يوجد لديها خطط للتوسع في المستقبل ، وحول نوع هذا التوسع المستقبلي فقد أشار ٤٩٪ منهم إلى أن التوسع سيكون في تشغيل خطوط انتاجية جديدة ، وأشار ٢٧٪ تقريبا إلى أن التوسع سيكون في حجم الانتاج ، وأوضح ما نسبته ١٥٪ تقريبا من المصانع إلى أن التوسع سيكون في حجم المصنع وتقنيته ، وجاءت نية التوسع في الأيدي العاملة بنسبة ٩٪ تقريبا .

جدول رقم (٦)

تطور حجم وهيكل المجتمع السكانى حسب الجنسية فيما بين السنتين ١٩٨٩، ١٩٩٣ والتوقعات المستقبلية للسكان

الجنسية	١٩٨٩		١٩٩٣		التغير خلال الفترة ٨٩-١٩٩٣		٢٠٠٠	٢٠١٠	٢٠٢٠
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪			
الكويتيون	٥٥٠،١٨١	٢٧،٣	٦٤٢،٥٩٦	٤٣،٣	٩٢،٤١٥	١٦،٨	٨١٢،٠٠٠	١،١١٣،٠٠٠	١،٤٩٥،٠٠٠
غير الكويتيين	١،٤٦٣،٩٥٤	٧٢،٧	٨٤١،٨٣٥	٥٦،٧	٦٢٢،١١٩	(٤٢،٥)	٩٥٩،٠٠٠	١،١٥٠،٠٠٠	١،٣٨٠،٠٠٠
جملة المجتمع السكانى	٢،٠١٤،١٣٥	١٠٠	١،٤٨٤،٤٣١	١٠٠	(٥٢٩،٧٠٤)	(٢٦،٣)	١،٧٧١،٠٠٠	٢،٢٦٣،٠٠٠	٢،٨٧٥،٠٠٠

* الارقام بين الأقواس سالبة .

المصدر : وزارة التخطيط – الادارة العامة لشئون التخطيط . السمات الأساسية للسكان والقوى العاملة فى الكويت فى ١٩٩٣/٦/٣٠ . ابريل ١٩٩٤ . ص : ٤٣ .

والجدير بالذكر أن معظم المصانع الغذائية التي لا توجد لديها خطط للتوسع المستقبلي هي مصانع الثلج والحلويات وقد يعود السبب في ذلك بالنسبة لصناعة الثلج إلى انتشار وسائل التبريد في المنازل والمطاعم والمحلات والفنادق وغيرها حيث تنتج مختلف أحجام الثلج المطلوب . وأما بالنسبة للحلويات فقد يكون السبب المباشر في ذلك كثرة محلات الحلويات والمخابز نصف الآلية وانتشارها في المناطق السكنية .

وفيما يتعلق بالنمو الأفقي لمؤسسات صناعية غذائية جديدة ، فينبغي عدم تكرار ما هو موجود وقائم من صناعات ، لكي لا تزيد مشاكل هذه الصناعات القائمة خاصة فيما يتعلق بقلة توفر المواد الخام المحلية وتنوعها . باستثناء التوسع في رفع الطاقة الانتاجية للمخبز الآلي في مدينة الأحمدي والذي يخدم المناطق التي تقع جنوب الدائري السادس حتى الحدود الجنوبية مع المملكة العربية السعودية ، وذلك لتغطية الطلب المتزايد والزيادة السكانية المتوقعة في محافظة الأحمدي نتيجة للنمو العمراني واستحداث مناطق سكنية جديدة هي : القرين ، غرب الفنطاس ، هدية . أو استحداث مخبز آلي جديد يقع في منطقة سكنية تتوسط محافظة الأحمدي . وكذلك لتوسع في رفع الكفاءة الانتاجية للمخبز الآلية في مدينة الجهراء والذي يخدم محافظة الجهراء وذلك لنفس الأسباب السابقة .

الخاتمة :

لقد تزايدت الأهمية النسبية لقطاع الصناعات الغذائية في الصناعات التحويلية وأصبحت تحقق نموا متزايدا ، إلا أنها لازالت بعيدة عن تحقيق الاكتفاء الذاتي والحد من الواردات . كما أن عليها أن تسهم بقدر أكبر في جذب العمالة الوطنية وذلك لتحقيق المنافع الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على توظيف العمالة الكويتية .

لقد اظهرت الدراسة أن نمط التوزيع العام للصناعات الغذائية في مدينة الكويت الكبرى يتسم بعدم الانتظام ، وتتركز في مناطق محدودة هما منطقتا الشويخ الصناعية وتستأثر بنسبة ٣٨٪ من المنشآت الصناعية الغذائية ، ومنطقة صبحان الصناعية وتستأثر بنسبة ٢٩٪ . وباستخدام معامل صلة الجوار (معيار الجار الأقرب) اتضح أن النمط التوزيعي للصناعات الغذائية في مدينة الكويت الكبرى يمكن وصفه بانه يميل إلى النمط المتجمع ، إذ بلغت قيمته (٤٩٣ر٠) وهو أبعد عن النمط العشوائي أو

النمط المتشتت . وجاءت قيمة الخطأ المعياري (٢٧ر٠) مؤكدة لفعالية هذا المعيار في وصف نمط التوزيع للصناعات الغذائية ، وكذلك دور التخطيط في وجود منطقتين محددتين . بينما تفتقر محافظتا الاحمدي والجهراء إلى صناعة المخابز ومنتجاتها وصناعة الحلويات وهي المحافظتان اللتان يتوقع تزايد أعداد سكانهما في السنوات القليلة القادمة .

لقد أوضحت الدراسة أن هناك ارتباطا جغرافيا واضحا لدى الصناعات الغذائية في محافظات دولة الكويت ، حيث وجد أن ٧٨٪ تقريبا من مجموعات الصناعات الغذائية يتراوح ارتباطها الجغرافي بين ارتباط قوى وارتباط متوسط .

تفاوت مؤشر التوطن الصناعي في مدينة الكويت الكبرى بالنسبة لتوطن الصناعات الغذائية ما بين المحافظات الخمس والمناطق الصناعية ، حيث لم يكن مؤشر التوطن الصناعي واضحا في المحافظات ، بينما أظهر نوعا من الوضوح في منطقتي الشويخ وصبحان الصناعيتين فقط .

لقد أظهرت النتائج وجود ارتباط وظيفي بين الصناعات الغذائية وصناعات الكرتون ، والورق والبلاستيك والعلب المعدنية والزجاج التي تتوطن بالقرب منها مما يساهم في تحقيق الوفورات الخارجية .

أوضح معامل ارتباط « كيندال » للرتب أن العلاقة معدومة بين سكان دولة الكويت وعمالة الصناعة الغذائية ، وقد يعود السبب لأمور تتعلق بمتغيرات أخرى مثل كفاءة وسائل النقل ، سهولة عملية التسويق والتوزيع ، وارتفاع كفاءة وتقنية المصانع الغذائية مما يجعلها تستغنى عن العمالة بالتدريج .

التوصيات :

تقترح الدراسة بعض التوصيات ، وهي :

١- ضرورة تشجيع ودعم الصناعات الغذائية ذات الأهمية الاستراتيجية حتى لو ارتفعت تكلفة انتاجها وانخفضت مقدرتها التنافسية ، مثل صناعة طحن الغلال (القمح) ، وصناعة الخبز والمياه وذلك لأهميتها للأمن القومي وتحقيقها للشعور بالأمن والاستقرار .

٢- دعم الصناعات الغذائية التي تشبع الحاجات الأساسية اليومية مثل : منتجات الألبان ، الدواجن البيض واللحوم والمشروبات بأنواعها .

٣- وقف منح تراخيص صناعية جديدة ، ويستثنى من ذلك التفكير في إمكانية :

- التوسع في رفع الطاقة الانتاجية للمخبز الآلي في مدينة الأحمدي إذا سمحت الطاقة التصميمية للمصنع الحالي أو إنشاء مخبز آلي جديد .
- التوسع في رفع الطاقة الانتاجية في المخبز الآلي في مدينة الجهراء . لأن نتائج الدراسة أظهرت أن هناك طاقات مرخصة غير مستعملة ، ونظراً لإمكانية المصانع الحالية في أن تغطي حاجة السوق الاستهلاكية لسنوات تتراوح ما بين ١٢ - ١٥ سنة .

٤- الاسراع في تطبيق اجراءات دعم وحماية المنتج الوطني من منافسة السلع المستوردة والمدعمة من قبل حكوماتها والتي توقفت بسبب الغزو العراقي الغاشم ووضع آلية عمليةوجادة في دعم الصناعات الجادة والمنتجة والتي تحقق أهداف التنمية الصناعية في الكويت .

٥- تشجيع وتوجيه العمالة الكويتية نحو العمل الصناعي وحل جميع المشكلات التي تعترض ندرة هذه العمالة خاصة فيما يتعلق بالأجور والرواتب ، والمكافآت ، الترقيات ، نظام التأمينات الاجتماعية . وذلك لتحقيق هدفين ، الأول هو ايجاد عمالة وطنية صناعية فنية مدربة ورفع التكاليف الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الكويتي ، والثاني هو تخفيف الأعباء المالية على ميزانية الدولة حيث يستنزف بند الأجور والرواتب معظم الموازنة المالية العامة للدولة .

٦- أن تقوم الجهات المعنية والمهتمة بالقطاع الصناعي بتوفير المعلومات والإحصاءات الصناعية بشكل أكثر تفصيلا ، مثل : المصانع المنتجة فعليا : طاقتها المرخصة والانتاجية الفعلية ، أعداد العمالة المنتجة والعمالة الإدارية ومستوى انتاجها ، وجنسية العمالة ، وتوزيع المنشآت الصناعية جغرافيا سواء على مستوى المحافظات أو المناطق الصناعية ، القيمة المضافة ورأس المال المستثمر لهذه الصناعات . ويقف نقص هذه المعلومات حجر عثرة أمام الأبحاث العلمية المهتمة بالصناعة مما يقلل من قيمتها العلمية وفائدتها التنموية في تطوير القطاع الصناعي .

٧- سد النقص في بعض المواد الخام للمصانع التي تعتمد على مواد خام محلية عن طريق دعم ورفع مستوى التنسيق بين المنتجين الزراعيين والصناعيين في القطاع الغذائي مثل توفير اللحوم عامة ، واللحوم الحمراء خاصة ، ودعم الانتاج الزراعي لزيادة كمية المنتجات الزراعية .

٨- الاستفادة من تجارب الدول الأخرى خاصة الدول الخليجية في تطبيق نظام استثمار رأس المال الأجنبي لما له من آثار ايجابية كثيرة خاصة فيما يتعلق باشتراطات نقل التكنولوجيا وذلك لرفع كفاءة هذه الصناعات .

الهوامش

١- بنك الكويت الصناعي ، التقرير السنوي لعام ١٩٩٣ ، ص ٣٦ .

٢- المفهوم العام للصناعات الغذائية هو : الأنشطة الصناعية المشمولة تحت التصنيف الدولي الصناعي رقم ٣١ (ISIC 31) . وهي الصناعات التي تقوم على إجراء عمليات تحويلية مثل التجفيف ، والتبريد ، والتجميد ، والمعالجات البيولوجية والكيماوية وتجرى هذه العمليات على المنتجات الزراعية (والحيوانية) لتحويلها إلى منتجات نصف مصنعة ونهائية .

انظر : منظمة الخليج للاستشارات الصناعية . تقرير عن الصناعات الغذائية في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية . نوفمبر ١٩٩٣ ، ص ٢ .

٣- وزارة التجارة والصناعة . دليل الكويت الصناعي ، الكويت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٣ .

اتحاد الصناعات الكويتية . دليل الصناعات الكويتية ، ٩٤ - ١٩٩٥ ، الكويت، ١٩٩٥ .

٤- وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء . البحث السنوي للمنشآت الصناعية ١٩٩٢ ، ص ٣١٧ .

٥- Clark, P.J. and Evans, F.C., " Distance to Nearest Neighbour as a Measure of Spatial Relationships in Population " Ecology, 1954, Vol.33, pp.445-453.

٦- Alexander, John W. and Gibson, L.J., Economic Geography. Prentice-Hall Inc., NJ, 1979, 2nd edition . P.426.

٧- محمود محمد سيف . المواقع الصناعية دراسة تحليلية في الجغرافيا الاقتصادية . الاسكندرية. دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٠ ، ص ٣١٤ .

٨- Norman, Pounds. Success in Economic Geography. John Murray Ltd., London, 1981. p.184.

١- نفس المرجع السابق .

١٠- عثمان مردم بك ، الطاقة الانتاجية المستغلة والعاطلة في قطاع الصناعة التحويلية في الكويت، بنك الكويت الصناعي ، ١٩٨٩ ، ص ٢ .

١١- بنك الكويت الصناعي ، التقرير السنوي لعام ١٩٩٣ ، ص ص ٣٣ - ٣٤ .

١٢- محمد حامد عبد الله ، اقتصاديات الصناعات الغذائية في المملكة العربية السعودية ، جامعة الملك سعود ، كلية العلوم الإدارية ، مركز البحوث ، ١٩٨٨، ص ٧٨ .

١٣- اتحاد الصناعات الكويتية ، مجلة الصناعي ، العدد الأول ، مارس ١٩٩٥ ، ص ٢٦ .

١٤- صحيفة الوطن . التقرير الوطني للسكان والتنمية لدولة الكويت للعام ١٩٩٤ السنة ٣٣ . العدد ٦٦٦٦/١١٢٢ ، الاربعاء ١٩٩٤/٨/٣١ ، ص ١٥ .

١٥- وزارة التخطيط ، الإدارة العامة لشئون التخطيط ، السمات الأساسية للسكان والقوى العاملة في الكويت في ١٩٩٣/٦/٣٠ . أبريل ١٩٩٤ ، ص ٥ .

١٦- صحيفة الوطن ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

المراجع العربية

الكتب :

- عثمان مردم بك ، الطاقة الانتاجية المستغلة والعاطلة في قطاع الصناعة التحويلية في الكويت ، بنك الكويت الصناعي ، ١٩٨٩ .
- محمد حامد عبد الله ، اقتصاديات الصناعات الغذائية في المملكة العربية السعودية ، جامعة الملك سعود ، كلية العلوم الإدارية ، مركز البحوث ، ١٩٨٨ .
- محمود محمد سيف ، المواقع الصناعية دراسة تحليلية في الجغرافيا الاقتصادية . الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٠ .
- منظمة الخليج للاستشارات الصناعية ، تقرير عن الصناعات الغذائية في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، في نوفمبر ١٩٩٣ .

مصادر حكومية :

- بنك الكويت الصناعي ، التقرير السنوي لعام ١٩٩٣ .
- وزارة التجارة والصناعة ، دليل الكويت الصناعي ، الكويت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٣ .
- وزارة التخطيط ، الإدارة العامة لشئون التخطيط ، السمات الأساسية للسكان والقوى العاملة في الكويت في ١٩٩٣/٦/٣٠ ، ابريل ١٩٩٤ .
- وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، البحث السنوي للمنشآت الصناعية، ١٩٩٢ .

أخرى :

- اتحاد الصناعات الكويتية ، دليل الصناعات الكويتية ٩٤ - ١٩٩٥ ، الكويت ، ١٩٩٥ .
- صحيفة الوطن . التقرير الوطني للسكان والتنمية لدولة الكويت للعام ١٩٩٤ ، السنة ٣٣ ، العدد ٦٦٦٦/١١١٢٢ ، الاربعاء ١٩٩٤/٨/٣١ .

المراجع الأجنبية

- Alexander, John W. and Gibson, L.J. Economic Geography. Prentice Hall Inc., NJ, 1979, 23nd edition.
- Clark, P.J. and Evans, F.C. "Distance to Nearest Neighbor as a Measure of Spatial Relationships in Population " Ecology, 1954, Vol. 33 pp. 445-453.
- Norman, Pounds. Success in Economic Geography. John Marray Ltd., London, 1981.

نحو تفسير آليات العنف في المجتمع المصري
رؤية سوسيولوجية

د. نادية علي قناوي
قسم الاجتماع بجامعتي عين شمس وقطر

توطئـــة :

إن العنف ، كنمط من أنماط السلوك الإنساني ، يعد أحد المظاهر التي صاحبت الإنسان خلال مختلف حقب وجوده على سطح الأرض . فالعنف قديم قدم الإنسانية ، وهو سلوك لم يتعلمه الفرد في فترة زمنية لاحقة ، بالإضافة إلى أنه ليس من الظواهر الاجتماعية التي ظهرت على مسرح الحياة في فترة متأخرة من تاريخ البشرية .

والعنف **استعداد نفسي تزكيه قدرات وممارسات سلوكية لمواجهة الآخر أو البيئة المحيطة بالإنسان** . ولا يعني هذا بطبيعة الأمر أننا نؤمن بأن العنف سلوك غريزي فطري غير مكتسب، بل هو سلوك يدفع إلى ظهوره بواعث خارجية بيئية ، مع التأكيد على أن الإنسان مزود بقدرات نفسية عدوانية أو عاطفية أو عقلانية .. إلخ تسهم في ظهور إما أنماط سلوك العنف أو سلوك التعاطف أو غيرها من الأنماط السلوكية خلال عملية تفاعل الفرد مع الآخرين .

ومن أهم الدلائل التي تؤكد صدق هذه المقولة **مجموعة الرؤى الاجتماعية والأنثروبولوجية التي تؤكد دور البيئة والعوامل المجتمعية المختلفة في إكساب أو عدم إكساب الفرد للعنف والسلوك العدواني** .

فيشير " جولدن ألبورت ALLPORT " إلى أن العنف و العدوانية خارج الجماعة ، يساعدان على تقوية الإحساس بالانتماء ولكنهما ليسا ضروريان له . وهو في ذلك يدلل على وجهة نظره في تأثير القيم السائدة والنظم الاجتماعية على السلوك العدواني والعنف فيقول :

« إن " تازادي Tasady " ، (وهي جماعة من البشر يعيشون في غابات الفلبين) قد عاشوا مئات السنين دون أعداء من البشر ، وحتى كلمة الحرب لا توجد في قاموسهم اللغوي ، " فأنا وأنت " كي نصبح " نحن " لا نحتاج إلى عدوانية ولا إلى تهديد »[١] .

وعلى العكس من ذلك يشير التراث الأنثروبولوجي إلى قبائل " الموند جومور " في غينيا الجديدة والتي يتميز سلوك أعضائها بالميل إلى العدوان . فنجد أن الطفل يكتسب هذا الميل من بيئته ، لأسباب ترتبط بشعوره منذ صغره أنه غير مرغوب فيه من قبل والديه أو لمظاهر الشجار الدائم بين الوالدين على مرأى من الأطفال[٢] .

إن الاستعداد للعنف من السمات السلوكية التي لا يتميز بها الإنسان فقط بل هو سمة تتسم بها كل الكائنات الحية الأخرى . ومن ثم فالعنف ليس سلوكاً فطرياً تدفعه الغرائز ، بل هو سلوك اجتماعي تدفع إلى ظهوره مجموعة من العوامل الموضوعية الكامنة في البيئة المحيطة بالفرد ومجموعة من العوامل الذاتية الفردية التي تتمثل في القدرات السيكولوجية والفروق النفسية للأفراد . فيشير مأمون سلامة في هذا المقام إلى دور " المثيرات البيئية " التي تدفع الفرد إلى السلوك العدواني فيقول :

« ليس هناك حاجة ملحة للإنسان في المقاتلة بعيداً عن المثيرات البيئية سواء أكانت هذه المقاتلة عدوانية أم دفاعية . على حين أن التصرفات الغريزية تستمد أصولها من حاجات الإنسان البيولوجية .

معنى ذلك أن هذا السلوك مكتسب ويتشكل تبعاً لتداخل الظروف البيئية والداخلية للفرد . وأياً كان الإتجاه في تفسير سلوك العنف فان الحقيقة التي لا تتحمل شكاً هي وجود الدافع العدواني لدى جميع الأفراد والذي يتشكل في سلوك خارجي يتصف بالعنف نتيجة لتضافر عوامل داخلية تتعلق بحالة الفرد النفسية والعضوية وعوامل بيئية خارجية »[٣] .

وإذا كان الإنسان مارس العنف منذ القدم وهو ما تثبته النقوش والآثار القديمة ، فإن المجتمعات الإنسانية على إختلاف أبنيتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تعرف أيضاً العنف وتخبره بصور شتى ، تختلف باختلاف الظروف المجتمعية وباختلاف آليات وظروف التقدم والتخلف وكذا باختلاف درجات تحقق إنسانية الإنسان في هذه المجتمعات . وعليه فإن مظاهر ومؤشرات وأنماط العنف يمكن أن يدركها الباحث في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية ، إلا أن كم وكيف هذه الممارسات السلوكية هو فقط ما

تختلف فيه المجتمعات عن بعضها البعض .

والمجتمعات العربية عموماً والمجتمع المصري على وجه التحديد لا يختلف عن المجتمعات الأخرى في هذا الشأن . فهو أيضاً قد خبر بالأمس ويعايش اليوم نماذج من العنف خاصة بآلياته الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية ، تلك التي تحتم ظهور وتشكل ظاهرة العنف على نحو محدد في الأونة الأخيرة .

إن العنف كأحد الأنماط السلوكية الرافضة التي تأخذ شكلاً فردياً أو جمعياً في التعبير عن هذا الرفض يمكن القول بأنه يمثل ظاهرة اجتماعية ، مشروطة بظروف مجتمعية محددة ، موجودة في كل المجتمعات الإنسانية ، بل وفي كل الأزمنة ، فهي نسبية في المكان والزمان .

وفي هذه المحاولة المتواضعة لتفسير أبعاد ظاهرة العنف وآلياتها المجتمعية في المجتمع المصري سنعمل على تقسيم هذا العمل إلى أربعة أجزاء رئيسية :

أولاً : مقولات في المبدأ ، نحاول من خلالها أن نعرض للمقولات النظرية الأساسية التي يعتمد عليها الإطار الفكري لهذا العمل .

ثانياً : تعريف العنف ، مستعرضين في هذا المحور بعضاً من ملامح التعريفات القانونية والاجتماعية للعنف وأوجه الاختلاف والتباين وكذا الاتفاق بينها .

ثالثاً : نماذج العنف في المجتمع المصري ، وهو المحور الذي حاولنا فيه أن نعرض لبعض من نماذج العنف السائدة ، سواء كانت من أنماط " العنف الرسمي المشروع " أو " العنف المضاد - الجرم " .

رابعاً : أما المحور الأخير فقد تناول معالجة الآليات المجتمعية المختلفة الدافعة إلى ظهور هذه الأنماط المختلفة وهذا الكم من العنف في المجتمع المصري مقسمين هذه الاليات والأسباب إلى خمسة أقسام على النحو التالي :

١- آليات خاصة بالبنية الاقتصادية .

٢- آليات خاصة بالبنية السياسية .

٣- آليات خاصة بالعملية التعليمية والتربوية .

٤- آليات خاصة بدور وسائل الإعلام .

٥- آليات خاصة بدور الأسرة .

أولاً : مقولات في المبدأ :

يرجع اهتمامنا في هذا العمل بموضوع العنف وآلياته في المجتمع المصري لما يتركه هذا السلوك من آثار سلبية بالغة تهدد أمن المجتمع والفرد على حد سواء . هذا الاهتمام يدفعنا بدوره إلى تحديد عدد من المقولات والمنطلقات الفكرية التي يعتمد عليها العمل يمكن إيجازها في التالي :

١- إن العنف سلوك إنساني عام ونسبي ، تعرفه كل المجتمعات الإنسانية وكل الأزمنة القديمة والوسيطة والحديثة .

٢- إن تحليل أسباب **إنتشار العنف في شكل ظاهرة اجتماعية مرضية ضارة** بالمجتمع، أخذت معدلاتها في الارتفاع ، لابد أن يكون تحليلاً شاملاً ، أي تحليلاً يلم بناصية الأبعاد الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية للمجتمع محل الدراسة .

٣- إن تحليل مشكلة العنف وتفسيرها في **مجتمعات العالم الثالث** - على وجه العموم ومجتمعات **العالم العربي على وجه الخصوص** ، لا يجب أن يقتصر على ذلك التحليل الشمولي " **المحلي** " ، أي ذلك المستوى التحليلي الذي يعتمد على الآليات المجتمعية الداخلية ، بل يجب أن يكون تحليلاً شمولياً بالمعنى " **العالمي** " في المقام الأول ، ثم " **الإقليمي** " في المقام الثاني ثم " **المحلي** " في النهاية ، على إعتبار أن الأبعاد المجتمعية السائدة في هذه المجتمعات لا تحتمها الظروف الداخلية للمجتمعات العربية وحدها ، بل وحتى التكتلات الإقليمية العربية لا تتشكل ولا تأخذ ملامحها المحددة ، إلا في ضوء شبكة من العلاقات الدولية والاقليمية والمحلية توسم عادة بالعلاقات غير المتكافئة مع دول المركز الرأسمالي المتقدم .

٤- إن اختيار نموذج المجتمع المصري للحوار حول آليات انتشار العنف لا يعني أننا نتعامل معه كنموذج يمكن التعميم من خلاله على حالات المجتمعات العربية الأخرى ، فنحن على قناعة بأن نموذج المجتمع المصري له خصوصيته المجتمعية والتاريخية في المنطقة العربية، تلك الخصوصية التي تميزه عن غيره من

المجتمعات العربية الأخرى . علماً بأن هذه الرؤية ، لا تنفي قناعتنا ، بوجود العديد من الخبرات التاريخية والاجتماعية المتشابهة بين دول المنطقة العربية عموماً ، تسهم نسبياً في تقارب كل من الواقع المجتمعي ، وكذا الرؤى التحليلية لمشكلة إنتشار العنف في المجتمعات العربية .

٥- إن حوارنا في هذا العمل لا ينصب على أشكال العنف كما تحددها الجهات الرسمية التشريعية والقانونية في المجتمع المصري . بل هو ينصب على أشكال ومظاهر العنف المختلفة ، حتى تلك التي لم يجرمها القانون ، كالتي يمارسها النظام ضد أفراد المجتمع ، بالإضافة إلى بعض من مظاهر العنف وأساليبه التي يمارسها الأفراد للتعبير - بوعي أو بدون وعي - عن عدم رضاهم بالواقع المجتمعي .

٦- في ضوء المقولة السابقة ، نفرق بين **شكلين أساسين من أشكال العنف** :

أ - العنف " **الرسمي** " : وهو عنف غير مجرم ولا يعاقب عليه القانون المحلي أو الدولي . وذلك كنماذج عنف الدول الصناعية الكبرى من أجل سيطرتها واحكام قبضتها السياسية شكلاً والاقتصادية مضموناً على مقدرات دول العالم الثالث . وكنموذج عنف الدولة ومؤسساتها السياسية والاقتصادية والثقافية في عدم تحقيقها لإشباعات إنسانية للحاجات الأساسية لأبنائها .

ب - العنف المجرم " **غير الرسمي** " : وهو نموذج عن رد فعل الآخر على أشكال العنف "المقنن" أو الرسمي الموجه إليه من قبل الطرف الأقوى . كمظاهر **عنف ورفض** بعض دول العالم الثالث لأشكال القهر والعنف والإمبريالية التي تمارسها الدول الرأسمالية المتقدمة عليها . وأيضاً كمظاهر عنف أو رد فعل بعض أفراد المجتمع وتعبيرهم عن رفض الواقع المجتمعي الذي وأد لديهم حقهم الإنساني في الحلم والمستقبل ، بل وحرمهم حتى من إشباع حاجاتهم الإنسانية الأساسية .

٧- وعليه لا يكون ثمة مكان - في هذا العمل - للحوار أو الاتفاق مع المقولة التي مؤداها أن العنف يوجه من الأضعف إلى الأقوى . فقد تصح هذه المقولة فقط في حالة الحديث عن العنف المجرم أو ما يمكن أن نطلق عليه " **العنف المضاد** " ، أي رد فعل المستضعفين على ما يوجه إليهم من أشكال قهر وتهديد وعنف .

فالعنف في الواقع يسير في خطين : يتجه أحدهما من الأقوى إلى الأضعف ، وهو عادة يكون المتسبب في ظهور أشكال " العنف المضاد " ، وهذا الأخير هو الذي يتجه بدوره كرد فعل على العنف المشروع ، كميكانيزم دفاعي عن الكيان أو الوجود أو الهوية أو بالأحرى الإنسانية .

٨- إن مواجهة العنف وأنماطه السلوكية لا يتأتى بحال من الأحوال من خلال السياسات العقابية والبوليسية الرسمية ، التي تسعى إلى إحكام قبضة الدولة ومؤسساتها العقابية على ممارسي العنف ومحاكمتهم وعقابهم بأشد العقوبات ، بل أن مواجهة هذه الظاهرة يجب أن يأخذ شكل استراتيجية وقائية طويلة المدى، تمنع وتحد من البداية تلك البيئة المهيئة لانتشار العنف بكل عناصرها الاقتصادية والسياسية والثقافية والتربوية في المجتمع .

ثانياً : في تعريف العنف :

إن تناول مفهوم العنف بالتعريف يصاحبه ولاشك العديد من الصعوبات التي تكمن في محاولات تعريف أي مفهوم سوسيولوچي ، تلك المتمثلة في إختلاف الرؤى والمنطلقات الفكرية والإيديولوچية لكل باحث حول هذا المفهوم . وعليه نلاحظ أن للعنف العديد من التعريفات التي تعكس موقف الباحثين من القضايا المجتمعية المختلفة ، بل وتعكس أيضاً حدود ومجالات اهتمام المتخصصين في العلوم الاجتماعية والإنسانية على اختلاف فروعها .

فالقانونيون مثلاً يقدموا تعريفات توضح مدى ارتباط سلوك العنف بالتحديد القانوني له من وجهة نظهم . وغالباً ما تغفل التعريفات القانونية - من وجهة نظر علماء الاجتماع - الظروف البيئية والمجتمعية المحتمة لظهور وانتشار العنف .

فأنصار النظرية التقليدية للفقه الجنائي يعرفون العنف بأنه " ممارسة الإنسان للقوى الطبيعية للتغلب على مقاومة الغير . والقوى الطبيعية لا تشير فقط إلى الطاقة الجسدية إنما أيضاً إلى الحيوانات والطاقات الأخرى التي يمكن استخدامها والسيطرة عليها ، كاستخدام القوى الكهربائية أو الديناميت أو توجيه الحيوانات المستأنسة لاقتراف العنف " .

هذا ويفرق الفقه التقليدي بين العنف المادي والعنف المعنوي . حيث يشير إلى أن

الأول هو العنف الحادث عن طريق قوى مادية أو طبيعية أما العنف المعنوي فهو الحادث عن طريق التهديد .

ويشير " **مأمون محمد سلامة** " في هذا الصدد إلى أن :

" العنف تجسيد للطاقة أوالقوى المادية في الاضرار المادي بشخص أو بشيء . ويقوم العنف في مضمونه على القوة المادية الجسدية . فالعنف في جوهره هو علاقة بين طاقة أو قوى جسمانية للجاني وبين الضرر الجسمي المتحقق بالنسبة لمن وقع عليه العنف "[٤] .

أما " **محمد جواد رضا** " فيعرف العنف بأنه :

" الاستعمال غير القانوني لوسائل القسر المادي والبدني ، ابتغاء تحقيق غايات شخصية أو جماعية "[٥] .

يتضح مما تقدم من تعريفات قانونية أنها تغفل **قضيتين** أساسيتين للعنف يرتبطا بتفسيره. تتمثل **القضية الأولى** في إغفال هذه التعريفات للظروف والآليات المجتمعية التي تسهم في تشكل العنف وحجمه وأنماطه . وتتمثل **القضية الثانية** في أن التعريف القانوني للعنف يغفل العديد من أنماط العنف المنتشرة في المجتمع ولكنها غير مجرمة قانوناً والمتمثلة سواء في عنف النظام ضد الأفراد أو في عنف الأفراد ضد النظام .

لعلماء الاجتماع أيضاً رؤى مختلفة في تحديدهم لمفهوم العنف تتفق وتوجهاتهم الفكرية المختلفة فنجد أن " **مصطفى عمر التير** " مثلاً يرى أن العنف نمط من أنماط السلوك وهو أيضاً ظاهرة اجتماعية .

" فكنمط من أنماط السلوك هو عبارة عن فعل يتضمن إيذاء الآخرين ، يكون مصحوباً بانفعالات الانفجار والتوتر ، وكأي فعل آخر لابد وأن يكون له هدف يتمثل في تحقيق مصلحة معنوية أو مادية . وقد ينظر إلى العنف كظاهرة اجتماعية تتكون من عدد من أفعال مجموعة من الفاعلين تحدث في محيط معين تكون لها درجة من الاستمرارية ، بحيث تمثل فترة زمنية واضحة "[٦] .

أما " **محمد بيومي** " فيشير في دراسته حول " ظاهرة التطرف - الأسباب والعلاج" لمفهوم العنف على النحو التالي :

" العنف عبارة عن سلوك عدواني بين طرفين متصارعين يهدف كل منهما إلى تحقيق مكاسب معينة أو تغيير وضع اجتماعي معين . والعنف هو وسيلة لا يقرها

القانون . ومن يستخدم العنف يكون غالباً الطرف الأضعف الذي يواجهه طرفا آخر يملك السلطة "[٧] .

وهناك تعريفات تركز على علاقة العنف بالسلطة ومنها تعريف " رفيق سكري " الذي يشير فيه إلى دور بعض الأنظمة السياسية في القمع والقهر الفكريين وتوجيه الفرد للتفكير بأسلوب الآخر . ويؤكد على أن الدعاية السياسية لإتجاه فكري واحد في هذه الأنظمة إنما يعد نموذجاً في حد ذاته للعنف الفكري ، وهو في ذلك يحدد مفهومه للعنف على النحو التالي :

" العنف بمعناه العام يقصد به أي شكل من أشكال الضغط (اقتصادي ، سياسي ، عسكري ... إلخ) على الفرد بغرض حمله على تصرف ما كان يقوم به لولا هذا الضغط . العنف ما هو إلا محاولة لفرض موقف أو سلوك على فرد ما (يرفضه عموماً) بأدوات مختلفة منها الضغط ، التخويف .. إلخ)"[٨] .

ويوضح " عاطف أحمد فؤاد " وجهة نظره حول علاقة العنف بالقهر الحكومي على النحو التالي :

" من الواضح إذن أن الأحساس بالحرمان السياسي يمثل نقطة إرتكاز محورية (في مرحلة ما) تتوسط الإذعان أو الخضوع (متفاعلاً مع متغيرات الواقع) والتوجه نحو العنف ، وهنا يدخل الإحساس بالحرمان السياسي في حالة جدل مع القهر الحكومي "[٩] .

هذا وهناك مجموعة ثالثة من التعريفات تبرز الظروف المجتمعية وتأثيرها على العنف ، كما أنها تشير إلى عنف النظام ضد المواطنين (العنف الرسمي) وعنف المواطنين ضد النظام . فيقرر " حسنين توفيق إبراهيم " في هذا الشأن بأن مفهوم العنف « يشير من الناحية النظرية إلى مختلف السلوكيات التي تتضمن استخداماً فعلياً للقوة أو تهديداً باستخدامها ، لإلحاق الأذى والضرر بالأشخاص والاتلاف بالممتلكات ، وذلك لتحقيق أهداف سياسية مباشرة أو أهداف اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية لها دلالات وأبعاد سياسية » .

ويضيف " حسنين توفيق إبراهيم " في ذلك بقوله : « وفي هذا الاطار فإن أعمال العنف قد يمارسها النظام ضد المواطنين أو ضد فئات معينة منهم ، وهو ما يعرف بالعنف الرسمي أو الحكومي . وقد يمارسها المواطنون أو فئات منهم ضد النظام السياسي أو

بعض رموزه ، وهو ما يعرف بالعنف الشعبي أو غير الرسمي »[١٠] .

ويعد تعريف " إبراهيم محمود " للعنف أحد التعريفات التي تبرز الجوانب الاجتماعية وتؤكد عليها في تحديد المفهوم ، وهو في ذلك يرى أن :

" العنف ليس حالة ظرفية ، آنية ، بقدر ما هو أحد أكبر مظاهر الوجود الإنساني ، حيث يبرز ، أو يخف تأثيره ، إنطلاقاً من الظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. .إلخ . والعنف الذي يعني خلاف الرفق واللين ، متنوع ، ولكنه يجمع عدة مشتقات، يتميز بها ، فالعدوان والاستبداد والقمع والظلم والقتل والعبودية والاهانة والنفي والملاحقة والتعذيب : حالات للعنف . . والعنف هنا يتنوع ، فهناك العنف الجسدي والمعنوي ، وكل منهما يتنوع أيضاً ، فالعنف الجسدي درجات ، وكذلك المعنوي. . وهناك العنف الأيديولوجي والفكري والأدبي والأمني . . إلخ "[١١] .

يتناول التعريف السابق أبرز الآليات المجتمعية المؤثرة على ظهور العنف وإنتشاره، مؤكداً على تنوع أنماط العنف وأشكاله . والباحث في تعريفه هذا لم يقصر اهتمامه على التعريف والتحديد القانوني لأنماط جرائم العنف ، ومن ثم وجدناه يركز وبنفس القدر من الاهتمام على أنماط العنف الرسمي غير المجرمة ، كالإستبداد والقمع والظلم والنفي . . إلخ ، وهي في معظمها أنماط للعنف تمارسها السلطة أو الدولة في مواجهة أفراد المجتمع . ومن ثم فالتعريف قد خرج على هذا النحو من الدائرة المحدودة للتعريفات القانونية .

أما التعريف الذي يتبناه هذا العمل فيمكن تحديده على النحو التالي :

" العنف هو أحد الأنماط السلوكية الفردية أو الجماعية التي تعبر عن رفض الآخر نتيجة الشعور والوعي بالإحباط في أشباع الحاجات الإنسانية . ويدفع إلى العنف قدرات نفسية لدى الفرد تساعدها ظروف موضوعية (اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية) ترتبط بخصوصية المجتمع . وقد يكون العنف موجهاً إلى فرد أو جماعة أو نظام ، وقد يكون موجهاً من النظام إلى أفرد المجتمع لتحقيق عملية الضبط الاجتماعي . وللتعبير العدواني على رفض الآخر تستخدم القوة العضلية أو الذهنية أو كلاهما . هذا وقد يكون العنف سلوكاً مباداً ، وقد يكون رد فعل على عنف الآخر الموجه له . على أن العنف يأخذ شكل الموجات الصاعدة والهابطة من الأقوى إلى الأضعف والعكس .

ثالثاً : نماذج العنف في المجتمع المصري :

إن المتعرض لنماذج العنف في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية يواجه بصعوبة بالغة تتمثل في حصر هذه النماذج وترتيبها حسب درجة أهميتها من حيث الحجم الفعلي لها في الواقع ، وكم الضرر الذي تفرزه في المجتمع ، وكذا من حيث حداثة خبرة المجتمع بها والظروف والآليات التي تحكم ظهور هذه الأنماط وإنتشارها .

وفي ضوء قناعتنا بأهمية دراسة هذه الظاهرة ، نظراً لتهديدها لأمن الفرد والمجتمع في آن واحد ، فإننا سنحاول فيما يلي ، ألا نصب اهتمامنا على أحد هذه النماذج المعاصرة دون الآخر . بل سنسعى إلى عرض أبرز النماذج السائدة للعنف في المجتمع المصري اليوم ، لنصل إلى تحديد العوامل المشتركة في تسبيب وجودها وانتشارها وتشكلها على هذا النحو . وهو الهدف الذي نتصور أن تحقيقه يمكن أن يكون خطوة أولية ، ضمن مجموعة من الخطوات التي أسهم بها من قبل الكثير من المتخصصين الملتزمين المهمومين بقضايا المجتمعات العربية ، لفهم واقعي لظاهرة العنف في المجتمعات العربية .

وللتعرض لأهم نماذج العنف في المجتمع المصري نقترح تقسيم هذه النماذج إلى **مجموعتين** أساسيتين ، يندرج تحت كل منهما مجموعة من نماذج العنف . تتمثل المجموعة الأولى فيما يمكن أن نطلق عليه مجموعة نماذج " **العنف الرسمي - المشروع** " . وتتمثل المجموعة الثانية في مجموعة نماذج " **العنف المجرم أو العنف المضاد** " .

١- نماذج العنف الرسمي - المشروع :

أ - صورية الديمقراطية والقهر السياسي :

تشير الشواهد التاريخية ، إلى أن المنظومة السياسية لمجتمعات العالم الثالث - ومنها مجتمعات المنطقة العربية - إنما قد تشكلت في صورتها المعاصرة ، في ضوء علاقة الدول الاستعمارية بمستعمراتها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على وجه التحديد . ومن المعروف أيضاً ، أن التغيرات التي تطرأ على هذه المنظومة اليوم يلعب النظام العالمي دوراً فاعلاً فيها ، من خلال تفاعله مع آليات محلية داخلية ترتبط بظروف وخصوصية كل مجتمع على حده. ومن ثم فإن المنظومة السياسية بشكلها

الديمقراطي " **الصوري** " المعاصر ، ليست وليدة ميكانيزمات داخلية ، حتمت تشكلها على هذا النحو ، بل هي تعبير مباشر ، عن مصالح الدول الصناعية الكبرى في مجتمعات العالم الثالث وتفاعل هذه الميكانيزمات الداخلية مع تلك المصالح .

ومن البديهي أن للديمقراطية الحقيقية شروط مجتمعية تهييء الفرصة لنجاحها ، ويعد إدراك أفراد المجتمع ووعيهم بحقوقهم وواجباتهم أحد الشروط الأساسية لذلك . وهذا الإدراك والوعي لا يتحقق بدوره دون حصول أفراد المجتمع على فرص حقيقية في التعليم والثقافة . فلا يمكن بحال من الأحوال تصو حياة سياسية ديمقراطية قائمة على التعددية الحزبية في مجتمع تنتشر فيه الأمية بشكل كبير . فقد وصلت نسبة الأمية في القطاع الريفي المصري إلى (٤٧٪) وفي القطاع الحضري (١ر٢٦٪) بين الذكور ، بينما وصلت نسبة الأمية بين الإناث في القطاع الريفي إلى (٧٧٪) والقطاع الحضري إلى (١ر٤٥ ٪) ، حسب ما ورد في تعداد عام ١٩٨٦ . هذا وإذا أضفنا إلى النسب السابقة نسبة من يعرفون القراءة والكتابة فقط، لأتضح لنا مدى ضخامة حجم ظاهرة الأمية في المجتمع المصري . حيث سيصل حجم الذكور الأميين والذين لا يعرفون القراءة والكتابة فقط في القطاع الحضري إلى (٢ر٥٠ ٪) وفي القطاع الريفي ستصل النسبة إلى (٧ر٧٠٪) بينما سيصل حجم الإناث في القطاع الحضري إلى (٢ر٦٤٪) وفي القطاع الريفي (٤ر٨٨٪) .

هذا بالإضافة إلى أن الشواهد اليومية تشير في واقع الأمر إلى صورية استشارة المجالس الشعبية بشأن سن بعض القواعد والقوانين أو الموافقة على المشاريع الاقتصادية المختلفة في الدولة . ناهيك عن صورية التعددية الحزبية التي تعبر عن شكل فارغ من الجوهر الديمقراطي الحقيقي .

إن مظاهر صورية الديمقراطية في المجتمع المصري تعبر في واقع الأمر عن " **الحرمان النسبي** " لأفراد المجتمع من المشاركة في إتخاذ القرار السياسي ، وهو ما من شأنه أن يدفع ببعض الأفراد إلى ممارسة العنف كرد فعل في مواجهة ذلك النوع من القهر " السياسي " .

ب - عنف الدولة في مواجهة الهبات الجماهيرية من خلال القمع البوليسي والقانوني :

في هذا النموذج على وجه التحديد ينكشف عنف الدولة في مواجهة أفراد المجتمع

بشكل سافر ، من خلال القوة البوليسية ، التي أخذت تتنامى قدراتها القمعية في السنوات الأخيرة ، بتدعيم رسمي ، معنوي ومادي ، من بعض الدول الرأسمالية الكبرى. ويبرز عنف الدولة أيضاً في مواجهة أفراد المجتمع من خلال التلويح واستخدام قوانين الطوارىء ، وهو ما تمارسه معظم النظم السياسية والسلطات الرسمية في دول العالم الثالث لمواجهة مظاهر الرفض الجمعي وعنف الجماهير [١٢] .

ج - العنف الاقتصادي للدولة :

وهو نموذج من نماذج العنف الرسمي المقنن أو المشروع ، والذي يتمثل في الظلم الواقع على أبناء المجتمع ، جراء ربط الاقتصاد المحلي المصري بالنظام الاقتصادي العالمي وآلياته . ومن ثم الارتفاع المستمر في الأسعار ، وتدني مستوى الخدمات التعليمية والعلاجية والاسكانية والتموينية . هذا بالإضافة لانتشار البطالة وارتفاع معدلاتها عام بعد عام . كل ذلك يسهم دون أدنى شك في تراكم الإحباطات الحياتية اليومية للغالبية العظمى من الفئات العمرية القادرة على العمل . وفي ظل غياب المشروع القومي والتشوه الثقافي ، كشكلين من أشكال القهر والعنف الموجهين إلى إنسانية الإنسان من قبل النظام ، يتم التبرير الداخلي لديه لأية سلوكيات عنف موجهة من قبله إلى النظام ورموزه .

د- عنف العملية التربوية :

وهو نمط العنف المتمثل في عنف القائمين بالعملية التربوية والوسائل المستخدمة فيها في مواجهة الأبناء والتلاميذ [١٣] . فالعملية التربوية تقوم مبادئها الأساسية على الطاعة والانصياع التام ، لا الحوار والنقاش . فالجدال والمعارضة سلوكيات مستهجنة في عمليات التنشئة الاجتماعية أو ما يطلق عليه اليوم بعمليات " التثاقف " سواء داخل الأسرة أو المدرسة أو حتى في مكان العمل .

هـ - عنف العملية التعليمية :

النظام التعليمي تظهر فيه بوضوح ملامح عنف الأقوى في مواجهة الأضعف ، أو عنف الكبار مع الصغار . هذا كما أن النظام التعليمي في المجتمع المصري غالباً يقوم

على عملية التلقين أساساً ، ومن ثم يحد بشكل واضح من تنمية القدرات الابتكارية والابداعية لدى الأطفال والشباب ، وهو ما يرتبط بطبيعة الأمر بالعملية التربوية .

٢- نماذج العنف المجرم أو العنف المضاد :

يمكن تقسيم العنف المضاد إلى فئتين فرعيتين :

أ - العنف الموجه إلى الآخر ب - العنف الموجه إلى الذات .

أ - العنف الموجه إلى الآخر :

١ - يعتبر اشتراك الشباب في الجماعات المتطرفة ، بحثاً عن الهوية وبغية تحقيق واشباع الحاجة إلى الانتماء والولاء ، وذلك من خلال الانضمام إلى هذه الجماعات ، تحت قيادة قائد الجماعة الذي يمثل شكلاً من أشكال ونماذج السلطة الكارزمية ، أبرز نماذج العنف المجرم والموجه إلى الآخر . وقد حظى هذا النوع من العنف باهتمام الكثير من الباحثين والمتخصصين في مجالات علم النفس وعلم الاجتماع وعلم السياسة وعلم الاقتصاد .

ويرجع الاهتمام بهذا النموذج على وجه التحديد إلى اعتبارات عدة ، يتمثل أهمها في فداحة الضرر الذي يفرزه هذا النمط من عنف الفرد والجماعة ضد الأفراد الآخرين وضد النظام . ويرجع أيضاً إلى ارتفاع معدلاته في الأونة الأخيرة ، وذلك رغم أن الإحصاءات الرسمية لا ترصد بدقة واقع معدلات الزيادة في المجتمع .

وتشير الإحصاءات الواردة في تقارير الأمن العام ، إلى تذبذب جرائم العنف بأنماطها المختلفة في إتجاهها نحو الزيادة أو النقصان [١٤] . إلا أن الخبرات الحياتية اليومية والشواهد الواقعية ، وكذا وسائل الإعلام المختلفة تؤكد وجود وانتشار هذا النموذج من العنف على وجه التحديد ، واتجاهه إلى التكرار ، ومن ثم الارتفاع والتزايد. مما لفت انتباه الكثير من الباحثين والمهتمين بقضايا العنف وقضايا ومشكلات المجتمعات العربية بوجه عام ودفع بهم إلى محاولات فهمها وتفسيرها في ضوء الخصوصية المجتمعية لكل مجتمع على حده .

٢ - **عنف الشارع المصري** : وهي نموذج العنف الذي يعكس بشكل أو بآخر مقولة تمركز الفرد حول ذاته ، لتحقيق إشباعاته ورغباته بطريقته الفردية الخاصة ، ولو

على حساب الآخرين (لاحظ في هذا الشأن نماذج العراك اللفظي في وسائل المواصلات العامة وكذا الخاصة ، وداخل المؤسسات الحكومية المختلفة التي تتعامل مع الجماهير ، كمؤشرات تعكس هذا النموذج من العنف) .

٣ - **عنف الحوارات العلمية** : إن آلية عنف الحوار المكتوب أو الشفهي إنما تعبر عن تعطل الآليات العقلية والمنطقية وتوحد الذات مع الموضوع . ومن ثم تفقد بذلك الحوارات منطقها الفاعل ، ولا تلبث أن تكون مجرد إنفعالات سطحية . وينسحب عنف الحوار من الاختلاف حول الفكرة إلى رفضها ، ثم إلى رفض الشخص القائل بها ، والتهجم عليه ووضعه في مكانة خلافية مضادة للثوابت العليا ، مثل الأخلاقيات والعرف والدين أو حتى المجتمع والقانون . إن هذا النموذج الواضح لأحد آليات العنف الحواري يتسم ليس بإهدار قيم العقل فقط ، بل بإهدار القيم الخلقية والدينية والإنسانية كذلك عند الخلاف.

إن منطق العنف الحواري يخضع لمجموعة من الآليات الجزئية التي تعطل اعمال العقل ، أهمها اختزال الرأي المضاد وإطلاق مسميات مجازية كلية ، وإبتسار المفاهيم واقتطاعها من سياقها المنطقي . كذلك فإن عنف الحوار يحتوى على درجة عالية من الترصد والتهجم وكذا القناعة الحادة بالمنطق الذاتي ورفض المنطق الغيري ، والزعم أنه وحده الذي يملك الحقيقة .

إن هذا النوع من العنف الفكري قد يكون مفهوماً ان تمارسه **السلطة** على مستوى الشكل من خلال أدواتها المختلفة ، ولكن حجم الخسارة يكون أفدح عندما تصبح هذه الآليات هي لغة الحوار في الشارع والإعلام وأروقة الحاكم والجامعات والمجالس النيابية. إن هذا ما ينبه إلى أن العنف قد استشرى ووصل إلى حد النخاع[١٥] .

٤ - **عنف الكبار مع الصغار** : والمقصود هنا هو عنف الوالدين مع الأبناء حين قيامهم بمهامهم التربوية . فعملية التربية تأخذ في الغالب شكل الخط الأحادي الجانب والذي يتمثل في فرض الإنصياع ، بشتى الطرق ، لأوامر الآباء ، دون نقاش أو حوار . ومن ثم يمكن القول أن عملية التربية لا يغلب فيها الطابع التفاعلي " التثاقفي" بين الآباء والأبناء ، ذلك الطابع الذي يعكس القناعة والعمل في ذات الوقت ، على أن تتم العملية التربوية للأبناء من خلال آليات التفاعل بين الجيلين . ويرجع غياب الطابع "التثاقفي" في عملية التربية في الأسرة العربية عموما والمصرية خصوصاً ، إلى العديد

من ملامح الخصوصية الثقافية للمجتمعات العربية، والتي تكشف عن نفسها في صور شتى ، منها ضيق المساحة النفسية للآباء والأمهات، التي يمكن أن تسمح لهم بإجراء الحوارات الديمقراطية بينهم وبين أبنائهم ، وذلك نظراً لمعايشة الوالدين لسلسلة من الاحباطات الحياتية اليومية ، بالإضافة إلى كم الأعباء والهموم التي يتحملونها لإشباع حاجاتهم وحاجات أسرهم . كل ذلك يسهم ودون شك في تغييب العقل والاستعاضة عنه بالاحتكام الدائم إلى العواطف والانفعالات الحادة التي تشير بدورها إلى نفاذ الصبر ، ومن ثم غياب التفكير العقلاني في عملية التربية[١٦] .

٥ - **عنف الأطفال (المقهورين)** : هذا النموذج من العنف يأخذ صورتين رئيسيتين ، إما عنف الطفل مع العناصر الأضعف منه ، كعنفه مع أدوات لعبه أو الحيوانات أو حتى الخدم، وإما عنفه مع مصادر القهر الأساسية الموجهة إليه ، كعنف الطفل مع الوالدين أو المدرسين . ومن المعروف أن الطفل حينما يوجه موجة عنفه إلى من هم أضعف منه ، إنما يفعل ذلك إما لعدم وعيه بمصادر القهر الحقيقية ، وإما للإحكام القاهر والمتسلط لوسائل الضبط الاجتماعي على سلوكياته . والمقولة التي يجب التركيز عليها ، هي أن عنف الأطفال يعبر في الواقع عن رد فعلهم على أشكال القهر والعنف الموجه إليهم من قبل الكبار . وعليه فإن الطفل حينما يوجه عنفه نحو المصدر الحقيقي للقهر أوبالأحرى لمن هم أقوى ، فإن ذلك يؤكد المقولة التي مؤداها أن عنف المقهورين ، يمكن أن يوجه في ظل الشروط الموضوعية للإستغلال والقهر والوعي بهما إلى المصادر الحقيقية له ، أي إلى الأقوى[١٧] .

ب - العنف الموجه إلى الذات :

يأخذ هذا النوع من العنف نماذج عدة يتمثل أبرزها في :

١ - **إدمان المخدرات** : وهو نموذج من نماذج العنف الفردي الموجه إلى الذات . فهو تعبير سلوكي يعبر عن الإنسحاب عن الواقع لعدم القدرة على مواجهته . ومن ثم العمل على تسطيح الوعي وتغيبه والهروب بالذات من الواقع القاهر . وإذا كان هذا النموذج من العنف يشير إلى العنف الموجه إلى الذات بدلاً من الآخر ، فإنه يعكس من جهة هروب الفرد إلى ذاته ، ويعكس من جهة أخرى عدم وعي الفرد لمصادر القهر

الموجهة إليه . وهو وإن وعي بها يدرك أنه لا يستطيع مواجهتها ، ومن ثم يلجأ إلى إيذاء الذات التي لم تعد ذات قيمة عند الآخر ومن ثم عند الأنا[١٨] .

٢ - انتشار الأمراض النفسية والعصبية : إن معاناة الإنسان من أمراض نفسية - كالاكتئاب مثلاً - **إنما يشير في بعض جوانبه إلى كم الاحباطات الحياتية اليومية التي يتعرض لها ورفضه لهذا الواقع المعاش مع عدم قدرته على مواجهته أو** تعديله . ومن ثم فهو يلجأ إلى توجيه الرفض والعنف إلى ذاته وليس إلى الآخر . هذا على أن انتشار الأمراض النفسية في المجتمع ، يشكل دعوة صريحة إلى الباحثين الاجتماعيين بضرورة الكشف عن أسباب هذا الانتشار وذلك بالبحث في العوامل المجتمعية (وليس النفسية فقط) المؤدية إليه. إن زيادة عدد المشتغلين بالتحليل النفسي ، وزيادة عدد العيادات النفسية الخاصة ، وزيادة أعداد المترددين عليها في المجتمع المصري لخير دليل على انتشار هذه الأمراض النفسية في الأونة الأخيرة .

رابعا : نحو تفسير آليات العنف في المجتمع المصري :

في ضوء ما تقدم نحاول في تناولنا للعنصر الأخير من هذا العمل أن نطرح تصورنا لآليات العنف وأسبابه في المجتمع المصري . على أننا نلفت الانتباه إلى أننا نسعى في هذا الطرح إلى الكشف عن الأسباب المجتمعية المختلفة التي يمكن أن يكون لها دور فاعل في ظهور وانتشار نماذج العنف المعاصرة ، وذلك دون ما تحديد أو تركيز على تفسير آليات نموذج أو آخر على حده . وذلك لقناعتنا ، بأنه ورغم الاختلاف والتباين بين نماذج العنف السابق الإشارة إليها ، من حيث الحجم والظروف النوعية الخاصة المؤدية إليها والأطراف المشاركة فيها .. إلخ ، إلا أننا نرى أنه يجب أن نسعى في البداية إلى القيام بعملية مصارحة ، نكشف عن الآليات المجتمعية الأساسية العامة المحتمة أو المتسببة في هذه الظروف النوعية الخاصة بكل نموذج من نماذج العنف . وعليه يثور السؤال الرئيسي التالي : **ماهي آليات انتشار نماذج العنف في المجتمع المصري اليوم ؟**

إن إجابة هذا السؤال تستوجب منا ضرورة البحث عن أسباب انتشار هذه الظاهرة في جوهر الأبنية الاجتماعية - الاقتصادية السائدة ، ليس في ضوء آلياتها المحلية فقط ، بل وفي ضوء آلياتها الإقليمية والعالمية أيضاً ، لا أن نكتفي بالبحث في الظروف الاجتماعية الضيقة المحيطة بالأفراد المشاركين في نماذج العنف ، والتي قد تبدو

أنها الأسباب المباشرة المؤدية لسلوك العنف . فهي في الواقع ليست إلا نتائج حتمتها أسباب مجتمعية أكثر عمومية على كل من المستويين الداخلي والخارجي .

وقد يرى البعض من المهتمين والمهمومين بشؤون المجتمع المصري ومشكلاته ان ظاهرة العنف وانتشارها يجب تفسيرها في ضوء آليات التبعية والمخططات الامبريالية العدائية الموجهة إلى المجتمع المصري ، ذلك المجتمع المستهدف اقتصادياً وسياسياً وثقافياً واجتماعياً في المنطقة العربية ، كغيره من بعض دول المنطقة ، والتي لها في هذا الشأن وضع خاص .

إلا أننا ورغم قناعتنا بدور هذه المخططات في اذكاء نار العنف والتطرف والفتن الطائفية، فإننا نرى ان الاكتفاء بهذا التفسير الخارجي العنصر والمصدر ، إنما لن يؤدي بنا إلى فهم حقيقة أسباب انتشار هذه الظاهرة وآلياتها المحلية في الآونة الأخيرة . إن انتشار العنف بصوره الفردية والجماعية وأنماطه الرسمية وغير الرسمية ، إنما يرتبط في تفسيره بالظروف والآليات المجتمعية المحلية للمجتمع المصري . وذلك في ضوء تفاعل هذه الظروف وارتباطها العضوي بالمنظومة العالمية . وعليه يجب تركيز الاهتمام في تفسير هذه الظاهرة على الخصائص السلبية للأنظمة الاجتماعية المختلفة ، وذلك بعد تأكيد الرؤية التفسيرية الشمولية بأبعادها العالمية ، أو بالأحرى بعد تأكيد دور الظروف العالمية والإقليمية في تشكيل ملامح هذه الأنظمة الاجتماعية المحلية .

١- آليات خاصة بالبنية الاقتصادية :

إن ظروف ارتباط النظام الاقتصادي الانفتاحي منذ الحقبتين السابقتين بالنظام الرأسمالي العالمي ، أدت إلى تكريس عملية التغلغل الرأسمالي في المجتمع المصري ، والذي تتمثل أهم إفرازاته وآثاره البالغة على المجتمع المصري بفئاته الاجتماعية المختلفة في ارتفاع الأسعار وارتباطها بالسوق العالمي . وذلك بعد أن كانت لها استقلاليتها (النسبية) المحلية ، حيث ظلت تتسم بالثبات النسبي ، على الرغم من ذبذبة الأسعار عالمياً في فترات زمنية سابقة .

كما أن إعادة بناء النظام الاقتصادي المصري في ظل السياسة الانفتاحية ، ووفقاً لنصائح وتعليمات الهيئات المالية الدولية (التي تسيطر عليها وتتحكم في قراراتها مجموعة الدول الرأسمالية الكبرى)، باعتماد الاقتصاد على عائدات ذات أصول

خارجية ، كعائدات السياحة وقناة السويس والعاملين بالخارج . هذا بالإضافة إلى تقلص حجم الرقعة الزراعية ، بل وتغيير السياسة الزراعية أيضاً . كل ذلك أدى إلى تأكيد حالة تمفصل الاقتصاد المصري وتلاحمه مع الاقتصاد الرأسمالي العالمي . مما يؤدي بدوره إلى تأثر النظام الاقتصادي المصري بكل تحول أو تغيير أو أزمة تطرأ على النظام الرأسمالي العالمي ، سواء في دول المركز الشمالية أو في دول المحيط الجنوبية .

لقد كان لاعتماد الاقتصاد على هذه العائدات ، ذات الأصول الخارجية ، دور في عدم استقرار البنية الاقتصادية واهتزازها أمام المتغيرات العالمية ، مما أسهم في معايشة المجتمع المصري لسلسلة من الأزمات الاقتصادية الناجمة عن ضعف حجم السياحة مثلاً، أو عن قلة حجم الحركة الملاحية في قناة السويس ، أو قلة حجم عائدات العاملين بالخارج لأي سبب عالمي أو إقليمي .

كل هذه الظروف - ودون الدخول في تفاصيلها - أسهمت في ضعف وتدني حجم الإشباعات الإنسانية لحاجات أفراد المجتمع . فتخلي الدولة التدريجي عن مسئولياتها في توفير فرص العمل للخريجيين والقادرين على العمل من الشباب ، ومن ثم تدني فرص تكوين الأسرة وإشباع الحاجة إلى الأمان من خلالها ، وكذا تدني إشباع الحاجة إلى المأوى بالحصول على سكن مناسب ، هذا بالإضافة إلى تعدد أشكال اللاعدالة الاجتماعية سواء في مدى اتاحة فرص متساوية للتعليم الأساسي والعالي أو في تدني مستوى الخدمات العلاجية الحكومية في مقابل توفر الخدمة العلاجية الباهظة التكاليف في المؤسسات العلاجية الاستثمارية ، ناهيك عن وصول حجم الإشباع الثقافي إلى درجة متدنية ، وخاصة فيما يخص ارتفاع سعر السلعة الثقافية ، والتي تعيق بدورها الفرد من إشباع حاجته إلى التثقيف .

نقول ، حينما يواجه الفرد في حياته اليومية بكل هذه الإحباطات ، إنما يفقد بالتالي حق الحلم ، ذلك الحق وتلك القدرة التي تميزه عن غيره من الكائنات الحية الأخرى ، وعليه يفقد إنسانيته .. ويتحدد رد فعله في مواجهة هذه الأشكال المختلفة من " العنف الرسمي " في ردود أفعال مختلفة من " العنف المضاد " ، تعبر عن رفضه لهذا الواقع القاهر له ولإنسانيته ولحاجاته وطموحاته .

٢- آليات خاصة بالبنية السياسية :

لقد سبق وأن أشرنا في حديثنا ، عن نماذج " العنف الرسمي " إلى مقولة القهر السياسي وصورية الديمقراطية . وهنا نضيف إلى ذلك أحد أبرز ملامح البنية السياسية المعاصرة ، والذي يسهم بدور أساسي في تدني مستوى الشعور بالإنتماء ، ومن ثم يؤكد حالة الأغتراب التي يعايشها الكثير من شباب المجتمع المصري . ونقصد بهذا الملمح ، غياب المشروع القومي ، ذلك المشروع ، الذي كان توفره في الماضي ، يحفز أفراد المجتمع بفئاته المختلفة ويؤهلهم للتضحية وانكار الذات ومواجهة المشكلات والأزمات .

إن غياب المشروع القومي النهضوي ، ذلك المشروع ، الذي يتمثل من الجانب السياسي في تغييب أعداء الأمة وتمييع صورتهم أو بالأحرى هويتهم ، والذي تمثل على المستوى الاقتصادي في غياب المشروع الاقتصادي القومي ، الذي يهدف في الأساس إلى تحقيق العدالة الاجتماعية (بقدر أو بآخر) ، ويسهم في تحقيق بنية اقتصادية تسعى إلى تحقيق قدر من الاستقلالية ، بعيداً عن قيود التمفصل الحاد والمكثف مع النظام الاقتصادي العالمي . لقد أسهم هذا الغياب ولاشك - بالإضافة إلى عوامل صورية الديمقراطية وافراغها من مضمونها الحقيقي، وصور القهر السياسي المختلفة - في غياب قيمة الانتماء الوطني لدى أفراد المجتمع بشكل واضح . وعليه كان المتوقع أن يسعى البعض منهم للتعبير عن رأيه - الذي غالباً لا يسمع ، وإن سمع فلا يعمل به - في رفض هذا الاحباط وذلك القهر ، من خلال أشكال مختلفة من العنف ، توجه إلى النظام ورموزه ومن أجل إعاقة استمراريته . بينما الأصل هو ان تشبع حاجة الإنسان إلى الأمان داخل مجتمعه ، فيسعى بكل قوته للدفاع عن هذا الكيان القومي ، الذي استدمجه بكل عناصره في هويته وكيانه ، ومن ثم تتحقق مقولة " التحقق الذاتي للأمن القومي" . وليست أحداث الأمن المركزي في عام ١٩٨٥ ونماذج العنف المسلح الموجه إلى الدولة ورموزها إلا مؤشرات تثبت صحة هذه المقولة .

٣- آليات خاصة بالعملية التعليمية والتربوية :

من الملاحظ أن العملية التعليمية في المراحل الأساسية ، وحتى مراحل التعليم

العالي تتم في الغالب في مجتمعاتنا العربية بشكل تلقيني ، لا يسمح بالإبداع والابتكار ، بل أنه يحث على استيعاب المطروح من التراث العلمي ، دون مناقشة أو إضافة . هذا بالإضافة إلى أن العملية التربوية تتم أيضاً بصورة سلطوية تكرس الطاعة والإنصياع للأوامر دون مناقشة أو اعتراض . (وتشير نماذج وصور الأساليب التربوية سواء في المراحل التعليمية الأساسية أو حتى الجامعية إلى هذه الحقيقة) .

إن اتمام عملية التنشئة الاجتماعية في جوانبها التعليمية والتربوية على هذا النحو المحبط والقامع للرأي ورد الفعل ، إنما يؤدي لا محالة إلى إفراز نماذج مختلفة من التعبير عن رفض المؤسسة التعليمية والتربوية ، أو عن رفض القائمين عليها بشكل سافر أو مقنع . بمعنى أن التلميذ أو الطالب نجده في بعض الأحيان يوجه عنفه وسلوكه الرافض بشكل غير مباشر إلى رموز القوة والسلطة في المؤسسة التعليمية . كأن يثير الفكاهة بين زملائه حول المدرسين أو أن يعمل ما من شأنه أن يعيق سير واستمرار العملية التعليمية ، أو أن يعمل على الحاق الضرر المادي بمكان الدراسة .. إلخ . (وقد تكون ظاهرة عنف تلاميذ المدارس خير دليل على صحة هذه المقولة) .

٤- آليات خاصة بدور وسائل الإعلام :

تعد وسائل الإعلام المختلفة أحد أبرز الأدوات المجتمعية الفاعلة ، التي تسعى إلى تحقيق عملية الضبط الاجتماعي ، تلك العملية التي يعتمد المجتمع عليها لإقرار حالة الاستقرار . ومن الملاحظ أن هذه الوسائل تستخدم في معظمها عملية التلقين ، لتوصيل المعلومة إلى أفراد المجتمع[١٩] . والتلقين يحجم بدوره من المحاولات الإبداعية والابتكارية ويحد منها ، ويعيق القدرة على إبداء الرأي الآخر والمعارضة والنقاش ومن ثم تحقيق الذات . كل ذلك يسهم ولاشك ، بل ويكثف من حدة تراكم القهر الموجه إلى الفرد ، مما يدفع به إلى الأخذ بأساليب العنف في تعامله مع الآخرين .

هذا بالإضافة إلى أن المادة الإعلامية المتداولة بكثافة في الآونة الأخيرة، إنما هي مادة تدعو في الكثير منها ، بل هي دعوة مفتوحة إلى محاكاة العنف في صوره المختلفة . فالكثير من الأفلام الروائية العربية والأجنبية المتداولة اليوم ، وكذا الكثير من القصص والكتيبات الموجهة إلى الصبية والشباب ، إنما تدفع وتثير فيهم النزوع إلى ممارسة العنف .

٥- آليات خاصة بدور الأسرة :

مما لاشك فيه أن للمجتمعات العربية أساليب وطرق للتنشئة الاجتماعية داخل الأسرة تختلف عن الأساليب المتبعة في دول أخرى ذات خصوصيات ثقافية واقتصادية وسياسية مختلفة، إلا أن السمة الواضحة في هذه القضية ، هي أن عملية التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة المصرية ، تتم في الغالب بشكل سلطوي - تلقيني [٢٠] ، ومن ثم فنحن نستبعد آليات عمليات التثاقف في هذا المضمار .

فقدرة الآباء والأمهات ، على تفهم وتقبل واستيعاب مناقشة أبنائهم للأوامر والنواهي ، التي توجه لهم ، إنما هي قدرة محدودة للغاية لدى الغالبية العظمى من أولياء الأمور ، إن لم تكن معدومة بل ومرفوضة منهم تماماً . فالإنصياع لآراء الآباء والأمهات دون مناقشة يعد قمة الانضباط ، بينما المناقشة أو الجدل حول الأوامر والنواهي إنما يعبر عن شكل من أشكال الخروج عن المعايير الأخلاقية السائدة في مجتمعاتنا ، والخاصة باحترام الصغير للكبير .

وفي العادة يثاب الأبناء والصغار عموماً ، على طاعتهم وانصياعهم للأوامر الصادرة عن الكبار ، بينما لا يحدث ذلك في حالة اعتراضهم على رأي الكبار (الوالدين أو المعلمين. . .إلخ) ، حتى لو ثبت فيما بعد خطأ هذا الرأي . هنا نادراً ما يعترف الكبار بخطئهم أمام الصغار ، خوفاً من أن تهتز صورتهم " المثالية " أمامهم . وذلك رغم أن العكس قد يكون هو الأصوب . فصورة الوالدين لدى الأبناء تزداد احتراماً من خلال صدقهم وصراحتهم معهم واعترافهم بالخطأ ، الذي يمكن أن يقع فيه الإنسان كبير أو صغير ، طالما هو يمارس الحياة. وعليه نجد أن الأبناء عادة يقومون بممارسة نفس الدور " المنحرف " أو بالأحرى " غير السوي " أثناء تنشئة أبنائهم . (لاحظ طريقة لعب الأطفال ، حينما يحاكون الكبار . . فهم يفرضون الأوامر ويسعون بالحدة اللفظية أو الجسدية (عن طريق التمثيل) للعمل على إجبار أطفالهم (لعبهم) للإنصياع للأوامر) .

خاتمــة :

تشير الآليات المجتمعية المعاصرة سابقة الذكر ، إلى بعض أهم العوامل والأسباب التي هيأت المناخ الملائم لظهور وانتشار أنماط متباينة من العنف ، وهو ما لم تفرزه وتحتمه الظروف المجتمعية - البنائية من قبل في المجتمع المصري . ودون الدخول في دقائق محاور علاقات التبعية والتمفصل مع السوق الرأسمالي العالمي ، فإنه يجب التأكيد على أن التحولات الأساسية التي لحقت بالأبنية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية في الحقبتين السابقتين ، إنما قد تمت بفعل ضغوط وأوامر الهيئات المالية والسياسية الدولية ، وتأثير وتفاعل هذه الضغوط مع الظروف والآليات المجتمعية النوعية الخاصة .

وقد يكون من المعروف أن هذه الضغوط تمارس من قبل الدول الرأسمالية على مجتمعات العالم الجنوبي منذ بداية تاريخ نشأة الرأسمالية ذاتها ، بل ومنذ مرحلة التحضير لها . إلا أن لهذه الضغوط اليوم وضعية خاصة ، حيث معاناة الأبنية الاقتصادية والسياسية لكثير من مجتمعات العالم الثالث من ضعف واضح من جهة ، وحيث النجاح والتفوق الواضح لآليات التغلغل الثقافي ومن ثم التبعية وتشوه البنية الثقافية لمعظم مجتمعات العالم الجنوبي من جهة أخرى . كل ذلك حتم وبالضرورة الانصياع لأوامر الهيئات الدولية سياسية كانت أم مالية(٢١) .

إن هذه الضغوط وتلك الأوامر تمثل من وجهة نظرنا ، ما يمكن أن نطلق عليه " موجة العنف الدولي " الموجه إلى المجتمع المصري ، وهو الذي يوجه بدوره موجة عنفه المحلي إلى أفراد المجتمع من الفئات المستضعفة في البداية ثم الفئات الوسطى . هذا وتعد كل من موجة العنف العالمي وموجة العنف المحلي نماذج للعنف غير المجرم - كما سبق وأن ذكرنا - والذي أفرز وحتم بدوره خصوصية مجتمعية مجتمعية لا تحقق إنسانية الإنسان المصري . هذه الخصوصية دفعت إلى ظهور ردود فعل تتميز بالعنف من قبل بعض أفراد المجتمع ، والتي أخذت أشكالاً فردية أو جماعية لتصدير العنف ، إما إلى من هم أضعف ، أو إلى من مارسوا القهر والعنف في مواجهتها ، أي إلى رموز السلطة على وجه التحديد . وعليه فإن العنف يجب النظر إليه ومعالجته بالدراسة ، كمشكلة اجتماعية ذات أبعاد متفاعلة على كل من المستوى العالمي والإقليمي والمحلي .

الهوامش

١- حسن عبد الفتاح الفنجري ، العدوان لدى الأطفال ، مجلة علم النفس ، العدد ٥، يناير، ١٩٨٨ ، (٢١ - ٣٢) .

٢- حسن عبد الفتاح ، المرجع السابق نفسه .

٣- مأمون محمد سلامة ، إجرام العنف ، محاضرات غير منشورة ، ١٩٩٠ .

انظر أيضاً في هذا الشأن : فيليب برنو وآخرون ، ترجمة إلياس زحلاوي ، المجتمع والعنف ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط ٢ ، دمشق، ١٩٨٥ ، ص٦ .

٤- مأمون محمد سلامة ، مرجع سابق ، ص ١٠ - ١١ .

٥- محمود جواد رضا ، ظاهرة العنف في المجتمعات المعاصرة ، مجلة الفكر ، المجلد ٥ ، ص ١٤٧ ، عن : مصطفى عمر التير ، العدوان والعنف والتطرف ، المجلة العربية للدراسات الأمنية ، تصدر عن دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض ، المجلد الثامن ، العدد السادس عشر ١٤١٤/١٩٩٣ ، ص ص٣٩-٥٧ .

٦- مصطفى عمر التير ، العدوان والعنف والتطرف ، مرجع سابق ، ص ٤٢ .

٧- محمد بيومي ، ظاهرة التطرف - الأسباب والعلاج ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٢ ، ص ١٠٠.

٨- رفيق سكري ، العنف الفكري والدعاية السياسية ، الفكر العربي ، معهد الانماء العربي للعلوم الإنسانية ، يناير - مارس ١٩٩٣ ، العدد ٧١ ، السنة ١٤ (١)، ص ص ١١٦ - ١٢٧ .

٩- عاطف أحمد فؤاد ، " العنف والدولة ، تحليل لبعض الاسهامات النظرية " ، المجلة الاجتماعية القومية ، العدد الأول ، يناير ١٩٩٢ ، ص ١٠٣.

١٠- حسنين توفيق إبراهيم ، " العنف السياسي في مصر " ، بحث مقدم إلى الندوة المصرية - الفرنسية الخامسة ، ظاهرة العنف السياسي ، القاهرة ١٩-٢١ نوفمبر ١٩٩٣ .

١١- إبراهيم محمود ، " المثقف العربي والعنف " ، المستقبل العربي ، العدد ١٤٠ ، أكتوبر ، ١٩٩٠ ، ص ص٢٣ - ٣٩ .

١٢- مجموعة من الاختصاصيين ، المجتمع والعنف ، ترجمة الأب إلياس زحلاوي ، مراجعة الأستاذ انطون مقدسي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م - ١٤٠٥هـ ، ص ٢٩ - ٣٣ .

١٣- John Darby, Arthur Williamson, Violence and the Social Services in Northern Irland, Heinemann, London 1478 : pp:65-70.

١٤- راجع الإحصاءات الواردة في تقارير الأمن العام الصادرة عن وزارة الداخلية لأعوام ١٩٨٥/١٩٨٤ و ١٩٨٩/١٩٨٨ .

وانظر في هذا الشأن أيضاً :

- حسنين إبراهيم ، مظاهر العنف السياسي في مصر - المستقبل العربي ، العدد ١١٧- ١٩٨٨/١١ ، ص ص٢٦ - ٥٩ .

١٥- راجع في ذلك :

- نصر حامد أبو زيد ، " نقد الخطاب الديني " ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ص ٣٢ - ٥٢ .

- عبد الباسط عبد المعطي ، " في استشراف مستقبل علم الاجتماع في الوطن العربي، بيان في التمرد والالتزام " ، في " نحو علم اجتماع عربي ، علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة ، سلسلة كتب المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ص ٣٥٩-٣٨٠ .

- E.Hunter, Brain Washing : The Study of Man Who Defined it, NewYork, The Vangard Press, Inc., 1971.

١٦- انظر في ذلك :

- J.Ren Voize, Web of Violence: A Study of Family Violence, NewYork, Penguin Books, 1978.

١٧- Mauro O'Keefe, Aldjsutment of Children From Maritally Violent Homes, in : Families in Society, The Journal of Contemporary Human Services, September, 1994, Vol. 75, No.7, pp:403-415.

١٨- تشير الإحصاءات الواردة في تقارير الأمن العام لأعوام ١٩٨٥/٨٤ و ١٩٨٩/٨٨ إلى إتجاه تعاطي المخدرات إلى الارتفاع . على أن الإحصاءات الرسمية لا ترصد حقيقة حجم الظاهرة ، بل هي فقط تعبر عن مؤشر لإتجاه الظاهرة نحو الزيادة . فقد كانت حالات التعاطي التي رصدتها الإحصاءات تتمثل في التالي :

١٩٨٤ (٩١٥) حالة ، ١٩٨٥ (١٠١٧) حالة ، وفي عام ١٩٨٨ (١٦٩٢) حالة وأخيراً وصلت الحالات في عام ١٩٨٩ إلى (١١٤٠) .

راجع في ذلك البيانات الواردة في تقارير الأمن العام الصادرة عن وزارة الداخلية لأعوام ١٩٨٤ / ١٩٨٥ و ١٩٨٨ / ١٩٨٩ .

١٩- زهير أحمد حامد الشربتي ، " الإعلام والإعلام المضاد - مؤشرات واقع الإعلام العربي والإعلام المضاد " ، في : البحوث - مجلة علمية للدراسات والابحاث الإذاعية والتليفزيونية ، اتحاد إذاعات الدول العربية ، العدد ٢٨ ، ديسمبر ١٩٨٩ ، ص ص ٥٨-٦٦ .

٢٠- سمير نعيم أحمد ، مرجع سابق .

٢١- Shadia Ali Kenawy, Korruption als Soziales Phenomen der Peripherer Lander : Am Beispiel Agypten - Sozialer Wandel und Okonomische Offnung. 1984. رسالة دكتوراه ، بيلفلد ، المانيا الغربية ١٩٨٤.

الترجمة : مشكلات وأخطاء
(رباعيات الخيام نموذجاً)

أ.د. يوسف حسين بكار
الأستاذ بقسم اللغة العربية - جامعة قطر

« ليس على الترجمة سيّد »
(مترجم عربي معاصر)[1]

- ١ -

فإنه لمن المهم أن أبيّن أولاً مسألتين رئيستين :

الأولى ، أن ثمة رباعيات كثيرة مرفوعة إلى عمر الخيام ، الذي عرفه القدماء عالماً أكثر منه شاعراً في حين أنه شهر بالشعر وفي فن الرباعيات تحديداً في الأعصر الحديثة؛ بيد أنه لا يُعرف - إلى الآن - عدد الرباعيات الصحيحة النسبة إليه من عدد كبير يزيد على ألفٍ (١٠٠٠) أو (١٥٠٠) ألف وخمسمائة في بعض المجاميع . أقول هذا كيلا ينصرف الظن إلى دقة إضافة الرباعيات إلى الخيام في عنوان البحث .

والأخرى ، أن المراد بالأخطاء ، في العنوان أيضاً ، ليس الأخطاء العادية أو الهفوات التي قد ينزلق إليها المترجمون ، بل المقصود الأخطاء المفصلية المحورية التي تنأى بالرباعية الأصل عن هدفها المركزي وبؤرتها الدقيقة ، وهو بعض ما هداني إليه اشتغالي بالخيّام والرباعيات ، ورغبت في أن أكشف عنه وأنبّه عليه في رباعيات أربعٍ مهمة عند نفرٍ من المترجمين الغربيين ممن ترجموا رباعيات إلى الإنجليزية ، وعند من المترجمين العرب سواء من ترجم منهم عن الإنجليزية وعن « فيتزجيرالد » خاصة ، أو

من ترجم عن الفارسية حقيقة أو زعماً .

وثمة انحرافات ترجمية أخرى عند المستشرقين نبّه عليها بعض الباحثين الخياميين المعروفين من الإيرانيين لم أعرض لها ، لأنها تتصل بهم وحدهم ، ولأن بعضها في ترجمات غير إنجليزية[٢] .

- ٢ -

إن أخطاء المترجمين في الرباعيات الأربع وأشباهها ، كما هو آت ، يرتد إلى مشكلتين كبيرتين من مشكلات الترجمة أياً تكن لغتا « المصدر » و « الهدف » فيها ، هما : معرفة اللغتين المعرفة المطلوبة في الترجمة ، والترجمة عن ترجمة .

٢-١ :

فأما معرفة لغتي المصدر والهدف (لغة المتلقي) ، فأمرها مهم وخطير ، وليس كثيراً أن يعيرها منظرو الترجمة قديماً وحديثاً عناية فائقة ويؤكدوها ملحين في تأكيدهم .

فالجاحظ (ت ٢٥٥هـ) أوجب على المترجم أن يكون « بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة . وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يكون فيهما سواء وغاية »[٣] . ومذهب الجاحظ هذا هو المبدأ الثاني من مبادئ العالم الفرنسي « اتين دوليه Etiene Dolet » (١٥٠٩ - ١٥٤٦م) الأساسية الخمسة في نظرية الترجمة[٤] .

ويدخل في معرفة اللغة الأطر المعرفية للنصوص المترجمة مما يحتاج إلى « تجربة ممتازة في لغة المصدر » تمكن المترجم من أن يكافئ بين الكلمات غير مقتصر على « القاموس » وحده ؛ فليس بكافٍ أن يفهم « المغزى العام » للمعنى أو المراد بتعبير أو مصطلحٍ ما ، أو يكون ماهراً في استشارة القواميس . عليه أن يفهم الجوانب الدقيقة للمعنى ؛ والأهم أن يعرف موارد لغة المصدر وأن يسيطر على لغة الهدف[٥] .

إن « معرفة » اللغة بوجه عام شيء وامتلاك معرفة خاصة بموضوع معين شئ آخر . . . يجب أن يملك المترجم - بالإضافة إلى معرفته بلغتين أو أكثر تشترك في

عملية الترجمة - اطلاعاً شاملاً بمادة الموضوع المعنية . . . (و) يجب أن يمتلك أيضاً شيئاً من الخلفية الثقافية التي يمتلكها المؤلف الذي يترجم منه[٦] » . لكننا يجب أن نعترف بأن مسألة « المعرفة الشاملة » تظل « مثالية » أكثر مما هي « واقعية » ، فليس ثمة « شخص لديه معرفة كاملة بكافة (كذا) الموارد المعجمية لأية لغة ، كما لا يستطيع أي شخص أن يملك فهماً شاملاً لجميع مجالات المعرفة الإنسانية أو النشاط الإنساني اللذين تحتويهما معظم النصوص المكتوبة بلغة المصدر »[٧] .

٢-٢ .

وأما « الترجمة عن ترجمة » ، فمن المشكلات الكبيرة أيضاً ، وإذا ما عد الإيطاليون « الترجمة » خيانة في الأصل ، فثمة من يعدّ « الترجمة عن ترجمة » خيانتين لا واحدة[٨] .

والرباعيات التي ترجمها المترجمون العرب عن « ترجمة فيتزجيرالد » التي خان فيها الرباعيات الفارسية ، وإن تكن خيانة فنية جميلة في بعضها ، بترجمته «التحويلية» أو « الحرّة » أو « الحرة جداً » في أكثر أحوالها[٩] ، شاهد عدلٍ على هذا الضرب من الترجمة الذي « لا يمكن الرضى به أو الاطمئنان إليه » لما فيه من نقص وقصور وخلط وتخونٍ[١٠] ؛ لكنه قد يسوغ - لاسيما في الشرق - في اللغات التي لم ينتشر درسها فيه ، وليس ثمة من يعرفونها أو يحسنونها وفيها أعمال تُرى ترجمتها لازبة وضرورة ثقافية أو فكرية ، فشئ دائماً خير من لا شئ[١١] .

- ٣ -

أولى الرباعيات الأربع :

بنگر زجهان چه طرف بربستم ، هيچ !
وز حاصل عمر چيست دردستم ، هيچ !
شمع طربم ، ولي چون بنشستم ، هيچ !
من « جام جمم » ، ولي چوبشكستم ، هيچ !

وترجمتها الدقيقة :

« أنعم النظر تجد أنني خرجت من الدنيا صفر اليدين ،
ولم أجنِ شيئاً طوال عمري ·
هب أنني شمعة مجالس الطرب ، فما جدواي حين أحترق ،
وهب أنني « مرآة جمشيد » ، فما فائدتي حين أكسر ؟! » ·

المشكلة في هذه الرباعية اصطلاح « جام جم » أو « جام جمشيد » ، أو « جام كيخسرو » ؛ وجمشيد هو الملك الفارسي القديم ·

المعنى الحرفي هو « كأس جمشيد » ، أما المعنى الاصطلاحي المقصود في هذه الرباعية وغيرها من الرباعيات التي ورد فيها ، فهو « المرآة »(١٢) التي كان يرى بها العالم · وقد ورد الاصطلاح غير مرّة في « شاهنامة » الفردوسي ، كقول مترجمها الأول في أحد السلاطين(١٣) :

وإذا تجلى في مجالس أنسه	كالماء فيه عذوبة وصفاءُ
فكأنه « كيخسرو » في تاجه	تبدو عليه روعة وبهاء
وأمامه من رأيه « الجام » الذي	بانت له في نوره الأشياء

لم يختر هذه الرباعية من المترجمين العرب سوى المترجم الأردني مصطفى وهبي التل (عرار) ، الذي ترجم « جام جم » بـ « كأس جمشيد » خطأً(١٤) :

« ولنقل إنّك « الكأس » التي يشرب بها جمشيد ، فأنت لا شئ » ·

إن مرجع هذا - وغيره من أخطاء التل في ترجمته - عنده كما يعترف هو نفسه « فأنا قبل كل شئ لست متضلعاً من الفارسية لدرجة تجعلني أسلم من العثار في النقل ، فمعرفتي لغة الرباعيات تنحصر في إتقاني قواعدها الصرفيّة والنحويّة فقط ، واقتنائي معجم فارسي (كذا) أستعين به أكثر من عشرين مرة في ترجمة كل رباعية· · · »(١٥) ·

وورد « جام جم » ، كذلك ، في الرباعية الآتية :

درجستن « جام جم » جهان پيموديم
روزى ننشستيم وشبى نغنو ديم

زاستاد چو وصف « جام جم » بشنو ديم
خود جام جهان نماى جم ميبو ديم

التي ترجمها أحمد حامد الصراف وعبد الحق فاضل تاركين - وهما يعرفان الفارسية - « جام جم » كما هو دون ترجمة . لماذا ؟ ألإن الإبقاء عليه أدق من ترجمته وأدل ؟ ربما .

يقول الصراف نثرا[١٦] :

« لقد طوفنا في الدنيا نتحرى عن « جام جم » ، لم نهدأ يوماً ولم ننم ليلة . وعندما سمعنا من الأستاذ وصف « جام جم » ، وجدناه في أنفسنا » .

ويقول عبد الحق فاضل شعراً[١٧] :

قد ذرعنا الكون بحثاً دائباً عن « جام جمْ »
ما قعدنا في نها ر أو غفونا في ظُلم
وسمعنا صفة « الجام » من الأستاذ يوماً
فإذا نحن هو « الجام » به الكون ارتسم

- ٤ -

وثاني الرباعيات :

اين چرخ فلك كه ما در او گردانيم[١٨]
« فانوس خيال » از او مثالى دانيم
خورشيد چراغ دان وعالم فانوس
ما چون صوريم كاندر او حيرانيم

وترجمتها :

« إن هذا الفلك الذي ندور فيه ،
ليس سوى « فانوس متحرك »[١٩] مثلنا .
الشمس مصباحه ،
ونحن صوره الحيرى . »!

ولقد بسّط إسماعيل يكاني[20] هذه الرباعية حين بيّن أن الخيام يشبّه الدنيا بهذا الفانوس . وزاد الأمر توضيحاً ، فقال في شرحها « هب العالم فانوساً متحركاً والشمس مصباحه ، حينئذ تدرك أننا نحن الصور التي فيه حيرى تائهة ؛ أي أننا مثل صوره ، التي تدور دون إرادة وقوة وشعور ، نغدو ونروح في هذا العالم حيارى تائهين لا حول لنا ولا قوة ، ولا ندري من أين جئنا ولماذا نمضي وإلى أين » .

ويقول محمد مهدي فولادوند[21] : « يشبّه الشاعر العالم بالفلك الدوار الذي يدور بنا معه ، وما نحن في حركة دوران العالم هذه إلا موجودات حائرة تائهة كتلك الصور والرسوم التي نقشت على جدران ذلك الفانوس » .

مشكلة هذه الرباعية عند المترجمين تكمن في معنى « فانوس خيال » أو « فانوس گردان » ، إذ اشتبه الأمر فيه على عدد من المترجمين الأجانب والعرب ؛ فظنوه « الفانوس السحري Magic Lantern » وترجموه به . وترجم المستشرق الإنجليزي «وينفيلد» الرباعية الآتية ، التي فيها « فانوس خيال » أيضاً :

آدم چو صراحی بود وروح چو می
قالب چو نی بود صدائی در وی
دانـی چه بود آدم خاکی خیّام
« فانوس خیالی » وچراغی در وی

ترجمها كالآتي[22] :

Man is a Cup, his Soul the Wine Therein;
Flesh is apipe, Spirit the Voice Within.
O Khyyam, have you fathomed what man is ?
A "magic Lantern" With a Light Therein!

وترجم المستشرق الألماني (فردريخ روزن) « فانوس خيال » في الرباعية التي نحن في صددها بـ « Chinese Lantern » ، فقال[23] :

This revolving sphere in which we stand bewildered

Is like Unto a "Chinese Lantern,

The Sun, its Lamp and its Shade the World,

We, the figures moving Within it.

وقد يكون مأتى ترجمته « فانوس خيال » بـ « الفانوس الصيني » هو أن الصين هي أصل هذا النوع من المصابيح[٢٤] علماً أنه يكون عادة من الورق الملون[٢٥] .

ويذكر الباحث الإيراني الخيامي فولادوند[٢٦] أن المستشرق الدانماركي « آرثر . كريستنسن Arthur Christensen » ترجم « فانوس خيال » في الرباعية نفسها بـ « Lanterne de Papier » ؛ بيد أنني لم أجد لا نص الرباعية الفارسي ولا ترجمتها الإنجليزية في كتاب كريستنسن : "Critical Studies In The Rubaiyat of Umar Khayyam" -1 - . المطبوع في كوبنهاجن عام ١٩٢٧م .

كما يذكر الباحث عينه ، وفقاً لما توافر لديه من معلومات في بعض متاحف جنيف وباريس ، أن أكثر مترجمي الرباعيات إلى الفرنسية والإنجليزية ، باستثناء فيتزجيرالد، ترجموا « فانوس خيال » بـ « Lartern magique » أو « The atre d'ombers » أو « Ombres Chinoises » ، وكلها بعيدة عن المعنى الحقيقي .

* * *

أما المترجمون العرب ، فمنهم من أبقى « فانوس خيال » على حاله ولم يترجمه ؛ ومنهم من ترجمه « الفانوس السحري » خطأً :

فعبد الحق فاضل أبقاه كما هو[٢٧] :

ليس هذا الفلك الجاري الذي فيه اختلفنا
غيرَ « فانوس خيال » شبهاً منه عرفنا
هو فانوس كأن الشمس مصباح له
وكأنا صور فيه ، أتينا وانصرفنا

ومثله فعل محمد الهاشمي :

فلك منه كلنا في ضلالِ

مثل فانوس في الفضاء خيالي

وأما أحمد الصافي النجفي ومصطفى وهبي التل ، فقد ترجماه بـ « الفانوس السحري » خطأ . يقول الأول[٢٩] :

هذا الفضاء الذي فيه نسير حكى
« فانوس سحر » خياليا لدى النظرِ
مصباحه الشمس والفانوس عالمنا
ونحن نبدو حيارى فيه كالصور

ويقول الآخر[٣٠] :

« مثل هذا الفلك الدوار بمن فيه ،
كمثل فانوس سحري :
الشمس شمعته والعالم فناره ،
ونحن الصور التعسة المعروضة فيه » .

ومهما يكن ، فإن في الشعر العربي نظيراً للرباعية الفارسية ، هو قول أحد الشعراء يشبّه الدنيا بخيال الظل[٣١] :

رأيت خيال الظل أعظم عبرة	لمن كان في علم الحقائق راقي
شخوصاً وأصواتاً يخالف بعضها	لبعض وأشكالاً بغير وفاقِ
تجيءُ وتمضي بابةٌ بعد بابةٍ	وتفنى جميعاً والمحرك باق

والرباعية الثالثة هي :

اى همنفسان مرا به مى قوت كنيد
وين « چهرة كهربا » چو ياقوت كنيد
چون مرده شوم به مى بشو ييد مرا
وز چـوب رزم تختة تابـوت كنيد

وترجمتها الدقيقة :

« أفيتوني الخمرة يا صِحَاب ،
وأحيلوا صُفْرة الخدين يا قوتا .
وإذا متّ اغسلونـي بالـراح ،
ومن كَرْمها اصنعوا نعشي » .

تكمن مـشكلة هذه الرباعـية في معنى « چهره كـهربا » ، وهو « الوجـه الأصـفـر الشـاحب » . ومن مـعاني لفظة « كـهربا » - وهو المراد هنا - « مـادة صـمـغيّة صـفـراء اللون شفافة »[٣٢] . أما لفظة « كـهرباء »[٣٣] المستـعملة في عـربية اليوم والمعرّبة عن الفارسية ، فيقابلها في الفارسية لفظة « برق » العربية[٣٤] .

كيف ترجم المترجمون الغربيون والعرب « جهره كهربا » إذاً ؟ فيتز جيرالد أهمل ، كـعـادته في التـصـرف بالرباعـيـات ، الشـطر الذي فـيـه الاصطلاح ، ولم يتـرجـمـه لا في الطبعة الأولى ولا في الطبعتين الرابعة والخامسة المنقحتين[٣٥] .

أما « وينفيلد » و « آربري » ، فقد ترجماه ترجمة دقيقة :

- الأول[٣٦] :

make this Wan amber face Like rubies shine

- والآخر[٣٧] :

And make this amber (Pale) Cheek to glow Like The ruby.

وأما المترجمون العرب ، فاثنان منهم ترجماه ترجمة صحيحة ، هما : أحمد رامي ، ومحمد ابن تاويت .

يقول الأول ، وقد تصرّف قليلاً[38] :

هات اسقنيها أيهذا النديمْ
أخضبْ من الوجه اصفرار الهمومْ

ويقول الآخر[39] :

يا أشقا النفس اجعلوا راحي قوتْ
وصيّروا مصفرّ خدي ياقوت

ولم يكتف أحمد حامد الصرّاف بالمقابل العربي ، إنما أضافه إلى الأصل الفارسي ، فقال[40] :

« يا رفقتي ، أقيتوني بالخمر ،
واجعلوا وجهي المصفرّ اصفرار الكهربا أحمر كالياقوت » .

غير أن أحمد الصافي النجفي وعبد الحق فاضل ، وهما من أعرف المترجمين العرب باللغة الفارسية ، لم يترجماه ، بل أبقياه كما هو في لغته الأم لغة المصدر . يقول النجفي[41] :

اجعلوا قوتي الطّلا ، وأحيلوا
كهرباء الخدود للياقوت

ويقول عبد الحق[42] :

يا خليلي اجعلا قوتي ما عشتُ الحميّا
تجعلا « كهرب » هذا الوجه ياقوتاً نقيّا

إن ترك لفظة « كهربا » كما هي في الفارسية دون أن يُشرح معناها - في الأقل - في الهامش غير صحيح خشية أن يذهب ظن القارئ العربي إلى معناها في عربية اليوم، فهو لا يعرف أن معناها في الرباعية هو « الصفرة » أو « اللون الأصفر » .

وثمة مترجمان تخطيا الاصطلاح ولم يترجماه ، هما : مصطفى وهبي التل ، وطالب الحيدري ·

الأول ترجم الرباعية ترجمة غير دقيقة ، هي[٤٣] :

« الهمّ يا ندامى سمٌّ قاتل ، وبنت العنب هذه ترياقه الشّافي ،
فجدّدوا شبابي بجرعة من هذه العقيقة الحمراء ،
واغسلوني ، إذا متّ ، بابنة الكرمة ،
وكفّنوني بأوراقها ، وادفنوني في جذع شجرتها » ·

أما الآخر ، فقال[٤٤] :

يا صحابي ، اجعلوا لي الخمر قوتا
وأحيلو خدّي بها ياقوتا

– ٦ –

ونصل إلى الرباعية الرابعة والأخيرة ، وهي :

ما لعبتكا نيم وفلك لعبتباز
از روى حقيقتى نه از روى مجاز
با زيچه كنان بديم بر نطع وجود
رفتيم بصندوق عدم يك يك باز

عقدة هذه الرباعية في لفظيي « لعبت بازى » و « لعبت باز » ، ومعناهما « لعبة الدُمى المتحركة » (العرائس[٤٥] / لعب الأطفال) و « اللاعب » (محرك الدّمى)[٤٦] ، ويقابلهما في الإنجليزية « Puppet » و « Puppeteer » · وترجمة الرباعية ، وفقاً لهذا ، هي :

« نحن الدّمى والفلك اللاعب ؛
إنها لحقيقة وليست مجازاً .
ولقد لعبنا مدّة على رقعة الوجود ،
ثم مضينا إلى الفناء واحداً فواحداً » .

بيد أن فيتزجيرالد فهم أن هذه « اللعبة » هي لعبة « الشطرنج » فترجمها بـ "Chequer - board" وترجم الرباعية هكذا[٤٧] :

Tis all a Chequer - board of Night and Days
Where Destiny with Men for Pieces Plays :
Hither and thither Moves, and mates, and slays,
And one by one back in the Closet Lays.

كان هذا في الطبعة الأولى (لندن ١٨٥٩م) ، وهكذا ظل في الطبعتين[٤٨] : الرابعة (لندن ١٨٧٩) ، والخامسة (لندن ١٨٨٩) . وترجمها « وينفيلد » بـ « أحجار الشطرنج » كذلك[٤٩] :

We are but Chessmen destined, it is Plains,
That great Chess Player Hearen to entertain,

ومثله فعل كريستنسن[٥٠] :

To Speak the Truth and not as a Metaphor,
We are the Pieces of the game and Heaven the Player.
We play a Little game on the Chessboard of existence.
Then we go Back to the box of non- existence,
one by One.

أما « روزن » ، فترجمها ترجمة صحيحة[٥١] :

We are the figuers and the Sphere is the Player

* * *

وماذا عن المترجمين العرب ؟

إن نفراً منهم ، ممن يعرفون الفارسية وترجموا عنها مباشرة ، اكتفوا بترجمة اللفظة/ اللعبة ترجمة عامة لا تبعد عن مثل « ألعاب » و « لَعَب » و « ألاعيب » :

- أحمد الصافي النجفي[٥٢] :

* غدونا لذي الأفلاك ألعاب لاعب *

- أحمد حامد الصراف أضاف « ألاعيب » إلى « أطفال »[٥٣] :

« نحن ألاعيب أطفال واللاعب بنا الفلك »

- عبد الحق فاضل[٥٤] :

* لعبٌ نحن بأيدي الفلك اللاعب نجري *

- طالب الحيدري[٥٥] :

إنا ألاعيب أطفال بها لعبتْ

أنامل الفلك الدوّار من قِدَمِ

- محمد ابن تاويت[٥٦] :

* نحن ألاعيب بنا الفلك تدور *

أما أحمد رامي وإبراهيم العريض ، اللذان زعما أنهما ترجما عن الفارسية التي كانا يعرفانها بعض معرفة أو يلمان بها ، فترجماها بلعبة الشطرنج كما عند فيتزجيرالد :

يقول رامي[٥٧] :

وإنما نحن رخاخ القضاء

ينقلنا اللوح أنى يشاء

و « الرخ » في اللغة - وجمعه « رِخاخ » (بكسر الراء) - من أداة الشطرنج ، وهو معرّب[٥٨] .

ويقول العريض[٥٩] :

كرقعة الشطرنج هذا الوجودْ

فمنه النزول وفيه الصعود

ويلهو بنا غاشمٍ ريثما

يسلى ، فتزحم منّا اللحود

قد يكون مأتى مادلف إلى ترجمة رامي في هذه الرباعية هو مخزون قراءته الأولى للرباعيات في ترجمة « وديع البستاني » المترجمة عن ترجمة فيتزجيرالد وقراءته الثانية في ترجمة فيتزجيرالد نفسه[٦٠] . وينسحب الأمر ذاته على إبراهيم العريض ، الذي عرف الرباعيات أول مرة بالهند حيث قرأ ترجمة فيتزجيرالد دون أن يكون له أي إلمام بالفارسية . وترجمة فيتزجيرالد هي الأثيرة عنده موازنة بالترجمات العربية التي قرأها بعد عودته إلى البحرين من الهند عام ١٩٢٥ ، ومن هذه الترجمات ترجمتا وديع البستاني ومحمد السباعي ، وهما مترجمتان عن ترجمة فيتزجيرالد . أليس هو الذي يقول « لقد افتقدت في التراجم (كذا) العربية جميعها (!!) شيئاً لم يكن ميسوراً إلا للذي يعرف ترجمة فيتزجيرالد من ناحية روح الخيام » ، والذي يقول : « وإنما فعلت في العربية ما فعله فيتزجيرالد في الإنكليزية . . . ، ولذلك كنت أرجع إلى فيتزجيرالد (الذي ما عرفت الخيام إلا به) أحياناً ، رغم إلمامي بالأصل الفارسي » ؟! وقد تكون هذه الاعترافات سبب دعوة محمد جميل العقيلي ، أحد مترجمي الرباعيات عن فيتزجيرالد، إلى أن يضاف إبراهيم العريض إلى فئة المترجمين العرب الذين ترجموا ما ترجموه من رباعيات عن ترجمة فيتزجيرالد[٦١] .

ومثل رامي والعريض فعل حكمت البدري الذي يبدو أنه ترجم عن الفارسية مباشرة[٦٢] ، فقال[٦٣] :

الدهر كاللاعب القدير على رقعة « شطرنج » لعبة القدر
والصبح والليل من « بيادقه » وإن أحجاره بنو البشر

أما الذين ترجموا عن ترجمة فيتزجيرالد مباشرة ، لاسيما أصحاب الترجمات الكاملة وليس المختارات ، فكلهم وقعوا في ما وقع فيه فيتزجيرالد ، وتفننوا في التغني برقعة الشطرنج وتصويرها ، وهم : وديع البستاني[٦٤] ، وصاحب الترجمة المجهولة[٦٥] ، ومحمد السباعي[٦٦] ، وإبراهيم عبد القادر المازني[٦٧] ، وتوفيق مفرّج[٦٨] ، ونويل عبد الأحد[٦٩] ، ومحمد جميل العقيلي[٧٠] ، وعامر بحيري[٧١] ، وبدر توفيق[٧٢] .

الهوامش

١- محمد عناني : فن الترجمة ، ص ٤ . سلسلة أدبيات ، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، القاهرة ، ط١ : ١٩٩٢ .

٢- راجع : إسماعيل يكاني ، نادره أيام حكيم عمر خيام ، ص ١٢٨ - ١٣٢ . انتشارات انجمن آثار ملى - طهران ١٣٤٢ ش هـ .

٣- الحيوان ١:٧٦ . تحقيق عبد السلام هارون . منشورات محمد الداية ، بيروت ، ط٣ : ١٩٦٩ .

٤- يوجين نيدا : نحو علم للترجمة ، ص ٤٥ . ترجمة ماجد النجار . وزارة الإعلام، بغداد : ١٩٧٦ .

٥- المصدر نفسه ، ص ٢٨٥ .

٦- المصدر نفسه ، ص ٢٩٣ - ٢٩٥ .

٧- المصدر نفسه ، ص ٤٦٦ .

٨- خليفة التليسي : لقاء معه ، مجلة « الحوادث » ، العدد (١٦٧٤) - ٢ كانون الأول ١٩٨٨، ص ٥٥ .

٩- يوسف بكار : الترجمات العربية لرباعيات الخيام : دراسة نقدية ، ص ١٨ . منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، جامعة قطر ، الدوحة : ١٩٨٨ .

١٠- طه حسين : نقد وإصلاح ، ص ١٨٥ . دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٨ : ١٩٨٠ .

١١- طه حسين : ألوان ، ص ٢٢ . دار المعارف ، القاهرة ، ط٦ ، (د.ت) .

١٢- زهراى خانلري : فرهنگ ادبيات فارسى ، ص ١٥٤ ، طهران ١٣٤٨ ش هـ ؛ ومحمد معين : فرهنگ فارسى ٥:٤٢٢ ، أمير كبير - طهران ١٩٧٧ .

١٣- الشاهنامه ، ص ٢٧٢ (وانظر ص ٢٤٢ و ٢٤٦) . الترجمة العربية باعتناء عبد الوهاب عزام ، طبعة الأوفست - طهران : ١٩٧٠ .

١٤- رباعيات عمر الخيام ، ص ١١٩ . تحقيق يوسف بكار . دار الجيل - بيروت ، ومكتبة الرائد العلمية - عمان ، ط١ : ١٩٩٠ .

١٥- الخيام ورباعياته ، مجلة « منيرڤا » اللبنانية ، السنة (٣) - العدد (١٠) ، كانون الثاني ١٩٢٥ ، ص ٥١٩ .

١٦- عمر الخيام - الرباعيات ، ص ٢٩٢ . مطبعة المعارف - بغداد ، ط٢ : ١٩٦١.

١٧- ثورة الخيام ، ص ٢٤٧ - دار العلم للملايين - بيروت ، ط٢ : ١٩٦٨ .

١٨- في رواية أخرى : « حيرانيم » في الشطر الأول ، و « گردانيم » في الشطر الأخير .

١٩- ترجمة « فانوس گردان » مرادف « فانوس خيال » الذي ترددت في ترجمته بـ « خيال الظل » الذي لا يختلف عنه في واحد من دوريْه . راجع :

- إبراهيم حمادة : خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال (دراسة وتحقيق) ، ص ٣٢-٣٧ . وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة : ١٩٦١ .
- فؤاد حسنين : قصصنا الشعبي ، ص ٧٨ - ٨١ . دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٤٧.

و « فانوس » يونانية الأصل (محمد معين : فرهنگ فارسى ٢:٢٤٧٩ . چاب سوم ١٩٧٨) .

٢٠- نادره أيام ، ص ١٣١ .

٢١- مطالب ومآخذ جديد درباره خيّام ، ص ٥٢ . طهران ١٣٤٧ ش هـ (١٩٦٨م).

٢٢- E.H WhinField : The Quatrains of Omar Khayya'm. London 1980, p.329.

٢٣- Friedrich Rosen : The Quatrains of Omar-i Khayyam - London 1928, p.104.

٢٤- فولادوند : مصدر سابق ، ص ٥٣ ؛ ومحمد معين : فرهنگ فارسى ٢:٢٤٨٠.

٢٥- منير البعلبكي : المورد (١٩٨٥) .

٢٦- فولادوند : مصدر سابق ، ص ٥٤ .

٢٧- ثورة الخيام ، ص ٢٤٧ .

٢٨- ديوان السيد محمد الهاشمي البغدادي ، ص ٣٨٧ . تحقيق عبد الله الجبوري ، دار الحرية ، بغداد : ١٩٧٧ .

٢٩- رباعيات عمر الخيام ، ص ٦٤ . مصورة طهران عن الطبعة الأولى (دمشق ١٩٣١).

٣٠- رباعيات عمر الخيام ، ص ١٢٣ .

٣١- الإبشيهي : المستطرف ٢:٢٩١ . دار الفكر - بيروت (د.ت) .

٣٢- محمد معين : فرهنگ فارسى ٣:٣١٤٢ .

٣٣- اللفظة معرّب « كاه رباى » الفارسية ، ومعناها « جاذب التبن » (دهخدا : لغتنامه - ماده كهربا) .

٣٤- يقول محمد محمدي « فكأن اللغة العربية استعارت . . . لفظة كهربا نظراً لخاصتها المغناطيسية ، واللغة الفارسية استعارت . . . لفظة برق نظراً لخاصتها في الإنارة واللمعان.» (من الظواهر الطريفة في التبادل اللغوي بين العربية والفارسية : بحث في مجلة « الدراسات الأدبية » - الجامعة اللبنانية . العدد ٣- خريف ١٩٦٠ ، ص ٢٣٧) .

٣٥- Rubaiyat of Omar Khayyam. Edited by George F. Maine, London and Glasqow , 1980, p.86,196.

٣٦- Whin field, E.H: Op. cit., p.94.

٣٧- Arberry, A.J : The Rubaiyat of Omar Khayyam. London, 1949. p.48.

٣٨- رباعيات الخيام ، ص ٣٧ . مكتبة غريب - القاهرة ، ١٩٨٥ .

٣٩- ترجمة رباعيات الخيام . مجلة اللسان العربي - الرباط ، السنة (١٢) - العدد (٣٢) ، آذار ١٩٨٥ ، ص ٤٠ .

٤٠- عمر الخيام - الرباعيات ، ص ٢٥٤ .

٤١- رباعيات عمر الخيام ، ص ١٧ .

٤٢- ثورة الخيام ، ص ٣٥١ .

٤٣- رباعيات عمر الخيام ، ص ٢٣٣ .

٤٤- رباعيات عمر الخيام ، ص ٦٩ . بغداد ١٩٥٠ .

٤٥- فن العرائس واحد من فروع ثلاثة من « فن الدمى » في الأدب الشعبي ؛ والآخران هما : «خيال الظل » و « القره قوز » (رشدي صالح : الفنون الشعبية ، ص ٦٢ . المكتبة الثقافية رقم ٣٤ ، القاهرة : ١٩٦١) .

٤٦- محمد معين : فرهنگ فارسى ٣ : ٣٥٩٥ . وراجع مزيداً من الشواهد في : دهخدا : لغتنامه - مادة لعبت باز .

٤٧- Fitzgerald, E: Op. Cit., p. 77 .

٤٨- Ibid, p.185.

٤٩- Whin field, E.H : Op. cit., p. 183.

٥٠- Christensen, A : Critical Studies in the Rubaiyat of Umar -1- Khayyam, Kobenhavn , 1927, p.110 .

٥١- Rosen, F: op. cit., p. 168.

٥٢- رباعيات عمر الخيام ، ص ٩ .

٥٣- عمر الخيام - الرباعيات ، ص ٢١٠ .

٥٤- ثورة الخيام - الرباعيات ، ص ٢٧٤ .

٥٥- رباعيات عمر الخيام ، ص ٤١ .

٥٦- ترجمة رباعيات الخيام ، مصدر سابق ، ص ٤٨ .

٥٧- رباعيات الخيام ، ص ٦٥ .

٥٨- لسان العرب - رفغ ؛ وفرهنگ فارسى ٢ : ١٦٤٣ ؛ وادي شير : معجم الألفاظ الفارسية المعربة ، ص ٧١ . مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٠ .

٥٩- رباعيات الخيام (فريدة ومنقحة) ، ص ٧٤ . دار الفارابي - بيروت ١٩٨٤ .

٦٠- راجع التفاصيل في : يوسف بكار ، الترجمات العربية لرباعيات الخيام ، ص ٨٦- ٨٨ .

٦١- المصدر نفسه (ومصادره) ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

٦٢- المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ .

٦٣- رباعيات الخيام ، ص ٢٣ . المطبعة العربية - بغداد ، ط١ : ١٩٦٤ .

٦٤- رباعيات عمر الخيام المصورة ، ص ١٠١ ، المكتبة الحديثة - بيروت (د.ت) .

٦٥- انظر : يوسف بكار ، مصدر سابق ، ص ٥٨ - ٦٠ .

٦٦- رباعيات عمر الخيام ، ص ١٠٦ . المكتبة التجارية - القاهرة ١٩٢٢ .

٦٧- حصاد الهشيم ، ص ٧٥ . دار الشروق - القاهرة وبيروت ١٩٧٦ .

٦٨- رباعيات عمر الخيام ، ص ٨٠ . القاهرة ، ط ١ : ١٩٤٧ .

٦٩- رباعيات الخيام ، ص ٤١ . مطبعة الحياة - دمشق ١٩٥٨ .

٧٠- سباعيات لرباعيات الخيام ، ص ٥٤ . مطبعة الاتحاد ، اللاذقية ١٩٦٦ .

٧١- ترجمات جديدة لرباعيات الخيام . مجلة الشعر القاهرية ، العدد (١٢) ، تشرين الثاني ١٩٧٨ ، ص ١٤١ .

٧٢- رباعيات الخيام ، ص ٩٣ . منشورات « أخبار اليوم » - القاهرة ١٩٨٩ .

أهم المصادر

أولاً : المصادر العربية :

- إبراهيم حمادة (الدكتور) :

خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال . دراسة وتحقيق . وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٦١ .

- إبراهيم عبد القادر المازني :

حصاد الهشيم . دار الشروق ، القاهرة وبيروت : ١٩٧٦ .

- إبراهيم العريض :

رباعيات الخيام (ترجمة) . دار الفارابي - بيروت ١٩٨٤ .

- الإبشيهي :

المستطرف في كل فن مستظرف . دار الفكر - بيروت (د.ت) .

- أحمد حامد الصراف :

عمر الخيام (الرباعيات) . مطبعة المعارف - بغداد . ط٢ : ١٩٦١ .

- أحمد رامي :

رباعيات الخيام (ترجمة) . مكتبة غريب - القاهرة ١٩٨٥ .

- أحمد الصافي النجفي :

رباعيات عمر الخيام (ترجمة) . مصورة طهران عن الطبعة الأولى (دمشق ١٩٣١) .

- ادي شير :

معجم الألفاظ الفارسية المعربة . مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٠ .

- بدر توفيق :

رباعيات الخيام (ترجمة) . منشورات أخبار اليوم - القاهرة ١٩٨٩ .

- توفيق مفرج :

رباعيات عمر الخيام (ترجمة) . القاهرة . ط١ : ١٩٤٧ .

- الجاحظ (عمرو بن بحر) :

الحيوان (الجزء الأول) . تحقيق عبد السلام هارون . منشورات محمد الداية - بيروت . ط٣: ١٩٦٩ .

- حكمت البدري :
رباعيات الخيام (ترجمة) . المطبعة العربية - بغداد . ط١:١٩٦٤ .
- خليفة التليسي :
لقاء معه . مجلة الحوادث - العدد ١٦٧٤ - ٢ كانون الأول ١٩٨٨ .
- رشدي صالح :
الفنون الشعبية . المكتبة الثقافية (رقم ٣٤) . القاهرة ١٩٦١ .
- طالب الحيدري :
رباعيات عمر الخيام (ترجمة) . بغداد ١٩٥٠ .
- طه حسين (الدكتور) :
(١) ألوان . دار المعارف - القاهرة . ط٦ (د.ت)
(٢) نقد وإصلاح . دار العلم للملايين - بيروت . ط٨ : ١٩٨٠ .
- عامر بحيري :
ترجمة جديدة لرباعيات الخيام . مجلة « الشعر » القاهرية . العدد (١٢) - تشرين الثاني ١٩٧٨ .
- عبد الحق فاضل :
ثورة الخيام (ترجمة الرباعيات) . دار العلم للملايين - بيروت . ط٢ : ١٩٦٨.
- فؤاد حسنين (الدكتور) :
قصصنا الشعبي . دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٤٧ .
- محمد ابن تاويت :
ترجمة رباعيات الخيام . مجلة اللسان العربي - الرباط ، السنة (١٢) - العدد (٣٢) آذار ١٩٨٥ .
- محمد جميل العقيلي :
سباعيات لرباعيات الخيام (ترجمة) . مطبعة الاتحاد - اللاذقية ١٩٦٦ .
- محمد السباعي :
رباعيات عمر الخيام (ترجمة) . المكتبة التجارية - القاهرة ١٩٢٢ .
- محمد عناني (الدكتور) :
فن الترجمة . سلسلة أدبيات ، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ،

القاهرة. ط١ : ١٩٩٢ .

- محمد محمدي (الدكتور) :

من الظواهر الطريفة في التبادل اللغوي بين العربية والفارسية . مجلة الدراسات الأدبية - الجامعة اللبنانية ، بيروت . العدد (٣) ، خريف ١٩٦٠ .

- محمد الهاشمي :

ديوان السيد محمد الهاشمي البغدادي . تحقيق عبد الله الجبوري ، دار الحرية - بغداد ١٩٧٧.

- مصطفى وهبي التل (عرار) :

(١) الخيام ورباعياته . مجلة « منيرفا » اللبنانية . السنة (٣) ، العدد (١٠) كانون الثاني ١٩٢٥ .

(٢) رباعيات عمر الخيام (ترجمة) . تحقيق د. يوسف بكار . دار الجيل - بيروت ، ومكتبة الرائد العلمية - عمان . ط١ : ١٩٩٠ .

- نويل عبد الأحد :

رباعيات الخيام (ترجمة) . مطبعة الحياة - دمشق ١٩٥٨ .

- وديع البستاني :

رباعيات عمر الخيام المصورة . المكتبة الحديثة - بيروت (د.ت)

- يوسف بكار (الدكتور) :

الترجمات العربية لرباعيات الخيام : دراسة نقدية . منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية - جامعة قطر . الدوحة ١٩٨٨ .

ثانياً : المصادر الفارسية :

- اسماعيل يكاني :

نادره أيام حكيم عمر خيام . انجمن آثار على - طهران ١٣٤٢ ش هـ .

- دهخدا :

لغتنامة .

- زهراي خانلري (الدكتورة) :

فرهنگ ادبيات فارسى . طهران ١٣٤٨ ش هـ .

- الفردوسي (أبو القاسم) :
الشاهنامة . الترجمة العربية باعتناء عبد الوهاب عزام . طبعة الأوفست - طهران ١٩٧٠ .
- محمد معين (الدكتور) :
فرهنگ فارسي . أمير كبير ، طهران ١٩٧٧ .
- محمد مهدي فولادوند :
مطالب ومآخذ جديد درباره خيام . طهران ١٣٤٧ ش هـ / ١٩٦٨م .

ثالثاً : المصادر المترجمة والإنجليزية :

- يوجين نيدا :
نحو علم للترجمة . ترجمة ماجد النجار ، وزارة الإعلام - بغداد ١٩٧٦ م .

- A.J Arberry :
The Rubaiyat of Omar Khayyam- London, 1949.
- A. Christensen :
Critical Studies in the Rubaiyat of Umar -1- Khayyam. Kobenhavn, 1927.
- Edward Fitzgerald:
Rubaiyat of Omar Khayyam . Editeal by George F. Maine, London and Glasqow, 1980.
- E.H Whinfield :
The Quatrains of Omar Khayyam. London, 1980.
- Friedrich Rosen :
The Quatrains of Omar-i Khayyam. London, 1928.